تفسير القرآن الكريم

الجزء الحادى عشر

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة المعارف

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الابتدائى



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

من الآية ٩٣ إلى الآية ١٠٠ من سورة التوبة

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ -١- يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ، قُلْ: لَا تَعْتَذِرُوا، لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ، قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ -٢- سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ -٣- يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ -٤- الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا، وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ -٥- وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا، وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ -٦- وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ ، وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ، سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ —٧— وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ —٨—

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
السبيلُ	العقوبة والإثم .
على الذين يستأذِنونك	على الذين يطلبون أن تأذَن لهم فى التخلُّفِ عن الخروج إلى الغزو .
وهم أغنياءُ	وهم قادرون على نفقة الزاد والراحلة ، ووسائل الجهاد .
لن نُؤْمن لكم	لن نصدّقكم أبداً فيما أبديتم من اعتذارات باطلة .
قد نبأنا الله من أخباركم	قد أطلعنا الله على أسراركم ، وأخبرنا بحقيقة أمركم
إذا انقلَبْتم إليهم	إذا انصرفتم من الغزو ، ورجعتم إليهم .
لتُعرِضوا عنهم	لتسكتوا عنهم سكوت صفْح ، وتتركوهم فلا توبّخوهم .
فأعرِضوا عنهم	فاتركوهم ، واجتنبوهم اجتناب مقْتٍ وكراهية .

الألفاظ	شرحها
إنهم رِجْس	إنهم لا يقبلون الإصلاح ، كالرِّجس والنجاسة التى لا تقبل التطهير .
بما كانوا يكسبون	بسبب ما كانوا يرتكبون فى الدنيا من السيئات .
الأعراب	هم سكان البادية ، ومفردها : أعرابىّ .
وأجدرُ ألا يعلموا	وأحق بأن لا يعلموا .
حدود ما أنزل الله	حدود الدين ، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام .
ويتخذ ما يُنفق مغرماً	ويجعل ما يتصدق به غرامة وخسراناً .
ويتربص بكم الدوائر	وينتظر أن تحل بكم دوائر الدهر ومصائبه ، وتذهب قوتكم وغلبتكم .
عليهم دائرة السوْء	دعاء عليهم بأن يحل بهم كل شر وضر .
ويتخذ ما ينفق قُرُبات	ويجعل ما ينفقه فى الجهاد والصدقة أسباباً للقُربة عند الله .
وصلوات الرسول	وسبباً لفوزهم باستغفار الرسول ، ودعائه لهم بالخير والبركة .

هذه بقية قصة المنافقين التى فصلناها فى آخر تفسير الجزء العاشر .

مجمل المعنى

١ — لا يأخذ الله بالإثم والعقاب المرضى والضعفاء من النساء والصبيان والهرمَى ، ولا يأخذ الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ، إذا تخلف هؤلاء عن الغزو والجهاد ، إنما السبيل والعقاب على أولئك الذين يجيئون إليك

يا محمد ، فيستأذنونك فى التخلف ، وهم أغنياء أقوياء ، وقادرون على النفقة ، وتحمُّل متاعب السفر ، راضين لأنفسهم أن يكون شأنهم شأن أرباب الضعف من النساء والصبيان والعاجزين ، وقد أعمى الله بصيرتهم ، وختم على قلوبهم ، فغفلوا عن سوء عاقبتهم فى نكولهم عن الجهاد ، ولم يعلموا عاقبة ما ارتضوه لأنفسهم ، من خزى فى الدنيا ، وسوء المصير فى الآخرة .

٢ — ولقد طمس الله على قلوبهم ، فلم يشعروا بالندم على سوء ما فعلوا ، فاستمروا على كذبهم وتضليلهم ، وأخذوا يعتذرون إليكم باعتذارات باطلة عن تخلفهم ، وقعودهم عن شرف الجهاد ، حينما عدتم إليهم ، بعد ما قمتم به ، وأديتم واجبه ؛ فقل لهم يا محمد : لا تعتذروا بهذه الاعتذارات الباطلة ، لأن الله قد كشف لنا عن سرائركم ، وأنبأنا بأخباركم ، ولكن الله وهو كثير الصفح ، واسع المغفرة ، سيرى فى مستقبل الأيام أعمالكم ، فإن رجعتم إلى الطاعة والإيمان ، تاب عليكم ، وعفا عنكم ، وإن بقيتم على نفاقكم ، سخط عليكم وعذبكم ، ثم يكون مصيركم يوم القيامة إلى الله سبحانه وتعالى ، عالم الغيب والشهادة ، والباطن والظاهر ، فيجازيكم على أعمالكم ، ما ظهر منها وما بطن ، ويضاعف خزيكم وإذلالكم ، ويخبركم بجميع ما صدر منكم ، من أعمال فى الدنيا خافية وظاهرة .

٣ — سيؤكدون لكم اعتذاراتهم الباطلة ، بأيمان كاذبة ، إذا رجعتم إليهم بعد الانتهاء من الغزو ، لكى تصفحوا عنهم ، وتسكتوا عن تقريعهم ، ولا توبخوهم على قعودهم ، وعلى باطل اعتذارهم ، وكذب حلِفهم ، فاسكتوا عنهم سكوت مهانة واحتقار ، واجتنبوهم اجتناب مقت وكراهية ، وانبذوهم نبذ شىء لا خير فيه ، ولا فائدة منه ، لأنهم قد استعصوْا على

الإصلاح ، وفسدت نفوسهم وقلوبهم ، فتجافت عن الإيمان ، فهم لا يقبلونه كما لا تقبل النجاسة التطهير ، ومصيرهم جهنم ، يلقوْن فيها عذاباً وفاقاً لما كانوا يرتكبون فى الدنيا من سيئات .

٤ — هم يرمون بحلفهم لكم إلى غرض آخر ، غير سكوتكم عليهم ، واتقائهم أذاكم ، وهو كسب رضاكم عنهم ؛ ما أضلَّهم وما أغباهم ! ماذا يُفيدهم رضاكم إن رضيتم عنهم أيها العباد ، وقد سخط الله عليهم ، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين المتمردين على طاعته ؛ نزلت فى الجَدِّ بن قيس وعصابته ، وكانوا ثمانين منافقاً تخلفوا عن الجهاد ، متربصين الدوائر برسول الله وأصحابه ، فلما رجع الغزاة إلى المدينة ، استقبلهم هؤلاء المنافقون يعتذرون ويحلفون ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم للمؤمنين : "لا تجالسوهم ولا تكلموهم" ؛ وهذا شأن المنافقين فى كل عهد وفى كل أمة ، لا ينبغى أن يوثق بهم ، ولا يعتمد عليهم ، والله المستعان .

٥ — فيما سبق من الآيات ، بيَّن الله عز وجل أحوال الكفار والمنافقين ، من سكان الحضر أهل المدينة ، فكانوا لمخالطتهم للمسلمين ، واستقرارهم معهم فى المدينة ، يخافونهم ، ويسترون كفرهم ، ولا يتظاهرون به إلا تعريضاً وتلميحاً ؛ ثم بيَّن فى هذه الآيات التالية لها ، أحوال الأعراب سكان البوادى ، فهم أبعد عن مخالطة المسلمين ، وعن سماع التنزيل ، وقلوبهم قاسية ، وفى أقوالهم جفوة ، وفى طباعهم غلظة . وهم للجدب الذى نشئوا فيه ، أحرص الناس على ما لديهم من مال ، لهذا كانت مظاهر وأسباب الكفر والنفاق فيهم ، أشدَّ منها فى أهل المدينة ، فيسرع إليهم الطيش ، ويطلقون ألسنتهم بالكفر والنفاق من غير تأدب ، ولا تدبر ولا تحرز ، ومن كانت هذه حالهم ، فأجدر وأحق ألاَّ يعلموا

حدود الدين ، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام على رسوله ، والله سبحانه وتعالى يعلم حال كل من أهل الوبر والمدر ، وسكان البادية والحضر .

٦ — ومن هؤلاء الأعراب من يجعل ما يؤخذ منهم من زكاة لمالهم ، أو ما يقدمونه من صدقة — غُرماً عليهم ، وخسراناً لهم ، لا يرجون عليه ثواباً ، وقد انطوت نفوسهم على الخبث وسوء النية ، فهم يترقبون أن تحل بكم أيها المسلمون المصائب ، وتحيط بكم كما تحيط الدائرة ، ليتخلصوا من أعباء النفقة ، ودفع الزكاة والصدقة — أحلّ الله بهم الشر ، وأحاط بهم دائرة السوء والضر ، ورماهم بالعذاب والبلاء — إنه سميع لأقوالهم ، عليم بما فى صدورهم .

٧ — ومنهم قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، فيبذلون الصدقة ، ويعطون الزكاة عن طيب خاطر ، وإيمان وصدق ، يتخذونها سبباً للتقرب إلى الله ، والفوز بأدعية الرسول واستغفاره لهم ؛ وكان صلى الله عليه وسلم يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ، فقد روى أن ابن أبى أوْفى حينما جاء بصدقته ، قال له : « آجرك الله فيما أعطيت ، وجعله لك طهوراً » ؛ حقًّا إن ماينفقه هؤلاء المؤمنون قُربة لهم عند الله ، وتحقيق لوعده لهم بأن يدخلهم فى رحمته ، ويفتح لهم باب جنته — والله غفور لعباده المؤمنين ، يستر عيوبهم ، ويصفح عن سيئاتهم ، رحيم بهم ، يقبل ما قدّموا من عمل صالح على حسب جهدهم وإن قل .

٨ — ولما بيَّن الله فى الآية السابقة فضائل أهل البادية المؤمنين المتصدقين ، وما أعدّ لهم من النعيم ، بيَّن فى الآية التى بعدها فضائل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وما أعد لهم من النعيم ، وشتان ما بين الإعدادين والثناءين ، هناك جعل الإيمان والتصدق قُربة لهم ، وهنا قال عنهم :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » ، وهناك وعدهم بأنه سيدخلهم فى رحمته ، وهنا قال عنهم : « وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار » وهناك ختم الآية بقوله : « إن الله غفور رحيم » ، وهنا ختمها بقوله : « ذلك الفوز العظيم » .

أصحاب بيعة الرضوان

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أصحاب بيعة الرضوان ، الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة فى الحديبية أسفل مكة ، فى أواخر ذى القعدة ، عام ست من الهجرة ، بايعوه على الموت ، لما منعت قريش رسول الله وأصحابه من دخول مكة ، وحبسوا رسوله إليهم عثمان بن عفان ، ثم انتهى الأمر بينه وبينهم على صلح الحديبية ، ثم قفل رسول الله وأصحابه راجعاً إلى المدينة ، والذين اتبعوهم بإحسان هم سائر الصحابة والتابعون وسائر الأمة ، لكن بشرط الإحسان ، وقد أطلق اسم التابعين على من رأى أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(٢)

من الآية ١٠١ إلى الآية ١١٠ من سورة التوبة

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ، لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ —١— وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ، خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ —٢— خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ —٣— أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ —٤— وَقُلِ : اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ —٥— وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ، إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ —٦— وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ : إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ —٧—

لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ —٨— أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ، أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ؟ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ —٩— لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حولكم	حول بلدتكم وهى المدينة .
مردوا على النفاق	أقاموا عليه ولزموه ، ومهروا فيه .
سنعذبهم مرتين	سنعذبهم مرة بأن نفضحهم بإعلان أمرهم ، ومرة بإلزامهم بإخراج الزكاة والصدقة كارهين .
ثم يردون إلى عذاب عظيم	ثم يعذبون يوم القيامة عذاباً عظيماً .
وآخرون	وممن حولكم من المنافقين قوم آخرون .
وتزكيهم بها	وتنمى بالصدقة حسناتهم .
إن صلاتك سكن لهم	إن دعاءك تطمين لقلوبهم ، وتسكين وتهدئة لنفوسهم .

الألفاظ	شرحها
مُرْجَون لأمر الله	مرجئون مؤخرون لأمر الله فى شأنهم .
ضِراراً	لإضرار المؤمنين ، والضرار : ما تضر به غيرك ، وليس لك به نفع .
وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله	إعداداً وانتظاراً وترقباً لمجىء أبى عامر الراهب ، عدو الله ورسوله .
من قبل	من قبل بناء مسجد الضرار .
وليحلفُن : إن أردنا إلا الحسنى	وليحلفن : ما أردنا ببنائه إلا الفعل الحسن .
لا تقم فيه أبداً	لا تُصَلِّ فيه أبداً .
على شفا جُرُف هار	على حرف من جانب الوادى الذى احتفر السيل تحته ، فصار واهياً ، قد أشفى على التهدم والسقوط
فانهار به	فسقط به .
ريبة فى قلوبهم	سبب ريبة وشك ثابت فى قلوبهم .
إلا أن تَقطَّع قلوبهم	لا تزول عنهم إلا أن تتقطع قلوبهم قطعاً ، فتزول الريبة بزوالها .

مجمل المعنى

١ — ولما بيَّن الله فضائل أهل المدينة وفضائل أهل البادية ، بيَّن فى الآية الأولى أحوال المنافقين من أهل البادية ، وممن كانوا ينزلون حولها من الأعراب كقبائل جُهينة وأسلم وأشجع وغِفار ، فبيَّن أن من هؤلاء الأعراب

منافقين ، ومن أهل المدينة الذين يساكنون النبيَّ منافقين ملازمين للنفاق ، وماهرين فيه ، وأنت يا محمد لا تعلمهم ولا تعرفهم، على ما خصك الله من فطنة وصدق فراسة ، لأنك لا تعاشر هؤلاء الأعراب ، ولا تطلع على دخائلهم ، وأما المنافقون من أهل المدينة فقد حذَقوا النفاق ، وبرعوا فى إخفائه ، فتحاموا أن يظهروا أى شىء يشككك فى أمرهم ، أو يُريبك فيهم ، ولكن الله وحده هو الذى يعلمهم ويطلع على سرهم ، وسيعذبهم مرتين : مرة بإخبارك بهم ، وإظهار فضيحتهم ، ومرة بإلزامهم بإخراج الزكاة ، وإعطاء الصدقات ، وهم لها كارهون ، وسيكون بعد ذلك مرجعهم إلينا يوم القيامة ، فنعذبهم عذاباً أليماً على سوء ما فعلوا ، وقبح ما ارتكبوا .

٢ - وهناك صنف آخر غير الذين أوضحنا حالهم ، وهم قوم لم يعتذروا عن تخلفهم عن خروجهم للغزو ، باعتذارات كاذبة ، ولكنهم اعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا فى تخلفهم خاطئين ، وندموا على ما فعلوا ، فاختلط ندمهم واعترافهم بخطيئتهم ، وما سلف من خروجهم فى المغازى السابقة ، وهو عمل صالح ، وتخلفهم وإيثارهم الدعة ، ورضاهم بمجاورة المنافقين ، وهو عمل سيئ ، وأمرهم لله يحكم فيهم بما يشاء ، ولعله يقبل توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم ، لأن الله غفور رحيم ، يتجاوز عن سيئات التائب ، ويتفضل عليه بالمغفرة .

اعترفوا بذنوبهم فعفا الله عنهم

وقد نزلت هذه الآية فى شأن عشرة من المتخلفين فى غزوة تبوك ، لم يعتذروا كسواهم بالاعتذارات الكاذبة ، فلما بلغهم ما نزل فى شأن

المتخلفين ، أوثق سبعة منهم أنفسهم على سوارى المسجد ، فلما قدم رسول الله من تبوك ، ودخل مسجد المدينة ليصلى ركعتين ، كعادته كلما عاد من سفر ، رآهم موثقين ، فسأل عنهم ، فذُكر له أنهم أقسموا ألا يحلوا أنفسهم ، حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلهم ، فقال : «وأنا أقسم ألا أحُلهم ولا أعذرهم ، حتى ينزل علىّ أمر الله فيهم ، رغبوا عنى ، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين» ، فنزل قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم . . . » ، إلى آخر الآية ، فأطلقهم وعذرهم ، فلما أطلقوا قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا التى خلّفتنا عنك ، فتصدق بها عنا ، وطهرنا واستغفر لنا ، فقال : « ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً » ، فنزل قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة . . . » ، وهى الآية التالية ، فأخذ ثلث أموالهم كفارة للذنوب التى ارتكبوها — أما الثلاثة الباقون فقد أرجأ الله أمرهم ، حتى نزل فيهم : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا ...» ، وستأتى قصتهم .

٣ — أمر الله نبيه أن يأخذ من أموال المذنبين التائبين صدقة ، كما أخذ ثلث أموال السبعة الذين أوثقوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، بعد أن تاب الله عليهم ، فجعل الصدقة مطهرة من الذنوب ، مقرِّبة إلى الله ، مُصلحة ما بين العبد وبين ربه ، فعلى المذنبين أن يتوبوا إلى الله ، ويتقربوا إليه بالصدقات ، والصدقة مزكية للأموال ، منمية لها ، فكل مال تدفع منه صدقة ، يبارك الله فيه ، كما أمر الله نبيه أن يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم ، لأن صلاته ودعاءه تطمئن بها نفوسهم ، وتسكن قلوبهم ، وتبعث فيها الثقة بأن الله قبل توبتهم ، وعفا عنهم ، وهو يسمع ما صدر عنهم من الاعتراف بالذنب ، والتوبة النصوح .

٤ — فليطمئن أولئك الذين أذنبوا واعترفوا بذنوبهم ، فتاب الله عليهم ، وليعلموا أن المتولى لقبول التوبة ، وأخذ الصدقة، وما يتعلق بهما ، من التطهير والتزكية لعباده ، هو الله سبحانه وتعالى ، وأن الله سبحانه وتعالى قد شرَّف نبيه ، فجعله المباشر لذلك رفعاً لشأنه ، وأنه جل شأنه المختص دون غيره بقبول التوبة والرحمة .

٥ — وقل للمؤمنين الصادقين : اثبتوا على إيمانكم وصدقكم ، وقل للتائبين الصادقين : استمروا فى توبتكم وإخلاصكم ، فالله مطلع على أعمالكم ، وسيريها لرسوله وللمؤمنين ، فتظهر صحيفتكم ، ويعرفون ما فعلتم من خير أو شر ، فقد روى : « لو أن رجلا عمل فى صخرة لا باب لها ولا كَوّة ، لخرج عملُه إلى الناس كائناً ما كان » ؛ وسيرجع الناس جميعاً يوم القيامة إلى من يعلم الأعمال الخافية والظاهرة ، فينبئهم بما كانوا يعملون فى الدنيا ، فيجازيهم عليه، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر .

٦ — وثمة فريق آخر من المتخلفين عن الجهاد ليسوا من المنافقين ، وليسوا من الذين اعترفوا بذنوبهم ، وهم ثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومُرَارة بن الربيع ، وهم المقصودون فى قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خُلفوا » ، مؤخرون وموقوفون ، حتى يصدر عليهم حكم الله ، وينزل فيهم أمره ، فإما أن يصروا على المعصية ولا يتوبوا فيعذبهم ، وإما أن يعترفوا بذنوبهم ويتوبوا ، فيتوب عليهم ويغفر لهم ، والله عليم برجائهم ، حكيم فى إرجائهم (تراجع الصفحة ٣١ من تفسير هذا الجزء) .

١ — قصة مسجد الضِّرار

لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، نزل فى قُباء : « مكان بالقرب من المدينة » ، على بنى عمرو بن عوف ، لثنتى عشرة خلت من شهر ربيع الأول، وأقام بينهم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس فيها مسجدهم المعروف بمسجد : قباء ، ثم ارتحل إلى المدينة يوم الجمعة ، وقد بعث بنو عمرو بن عوف إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو فى المدينة أن يأتيهم ، ويصلى فى مسجدهم ، فأتاهم وصلى فيه ، فحسدهم إخوانهم بنو غُنم بن عوف ، وقالوا : نبنى مسجدا ، ونبعث إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم يأتينا فيصلى بمسجدنا ، كما صلى فى مسجد إخواننا ، ويصلى فيه أبو عامر — الذى سيأتى ذكره — إذا قدم من الشام ، فقام ببنائه اثنا عشر رجلا من بنى غنم بن عوف وبنى زيد ، ثم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى غزوة : تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، قد بنينا مسجداً لذى الحاجة والعلة ، والليلة المطيرة ، والليلة الشاتية . وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه ، فقال : إنى على جناح سفر ، وحال شُغل ، فلو قدمنا إن شاء الله من تبوك أتيناكم ، وصلينا لكم فيه ، فلما رجع صلى الله عليه وسلم ، ونزل بذى أوَانٍ : « مكان بينه وبين المدينة ساعة » ، أتوه ودعوه للصلاة فى مسجدهم ، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم ، فنزل عليه القرآن بخبر هذا المسجد ، وأنه بُنى بقصد الإضرار ببنى عمرو بن عوف ، الذين بنوا مسجد قباء ، وليكون عشاً للنفاق والكفر ، والفساد والضلال ، وما يضمرونه فى قلوبهم من الكيد والشر للنبى ، وليفرقوا به كلمة المؤمنين ، ويصدعوا وحدتهم ، فيصلى هنا فريق وهنا فريق ، وانتظاراً لرجوع رأس الكفر والفساد أبى عامر الصيفى الراهب من الشام ، لمحاربة رسول الله — وقد حاربه من قبل حتى هزم مع هوازن فى حنين ،

وباء بخزى عظيم — ليصلى لهم فى مسجدهم الذى سمى : مسجد الضرار ، فدعا النبىّ صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخْشُم ، ومعن بن عدى ، وقال لهما : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه فاهدماه وأحرقاه ، فخرجا مسرعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف ، فقال مالك لمعن : أنظرنى حتى أذهب إلى أهلى وأخرج إليك بنار من عندهم ، فأحرق بها مسجدهم ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ، وجاء بها إلى معن ، ومضيا يشتدان حتى دخلا المسجد — وفيه أهله ورهطه — فحرّقاه وهدّماه ، وتفرقا عنه ؛ وفى خبر هذا المسجد نزل قوله تعالى : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً . . . » ، إلى آخر الآية .

ب — قصة أبى عامر الصيفى الراهب

أول صليبى فى الإسلام

كان أبو عامر بن صيفى مترهباً ، يلبس مُسوح الرهبان فى الجاهلية ، وقد جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وقال : يا محمد ، ما هذا الذى جئت به ؟ قال : « جئت بالحنيفية : دين إبراهيم » ؛ قال : فإنى عليها ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لست عليها ، لأنك أدخلت فيها ما ليس منها » ، فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً ، فقال النبىّ : « نعم ؛ أمات الله الكاذب منا كذلك » ، فقال للنبى : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن ، خرج إلى الشام ليستنصر الروم على محمد وأصحابه ، وأرسل إلى المنافقين ، وقال لهم : استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا مسجداً ، فإنى ذاهب إلى قيصر فآتيكم من عنده بجند

من الروم ، لأخرج لكم محمدا من المدينة ، لكنه لم يَعُد إليهم ، ومات بقنّسْرين ، وذهب كاذباً طريداً وحيداً ، وهُدِم المسجد الذى أسس بنيانه على شفا جُرف هارٍ ، فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين .

٧ — ومن المنافقين بنو غُنم بن عوف الذين ابتنوا مسجداً ، لا لقصد إقامة الصلاة وعبادة الله ، ولكن لقصد الشر والإضرار ، ولتقوية الكفر وإيواء أهله ، وليفرقوا جماعة المسلمين ، ويصدعوا وحدتهم ، ويشتتوا كلمتهم ، وترقباً وانتظاراً لعودة أبى عامر بن صيفى الفاسق ، بجند قيصر من الشام لمحاربة رسول الله ، كما حاربه من قبل أن يهرُب بعد انهزامه مع هوازن فى حُنين ، ومع ذلك فهم يؤكدون سوء نيتهم ونفاقهم ، فيحلفون أنهم ما أرادوا ببناء مسجدهم الشر والضر ، وإنما أرادوا به الخصلة الحسنى وفعل الخير ، وإقامة الصلاة ، والله المطلع على ما تخفى الصدور يعلم خبث ضمائرهم وكذبهم فيما يحلفون ؛ وفى هذا دليل على أن من بنى لله مسجداً أو معهداً أو مؤسسة ، لا يريد بها وجه الله ، وإنما يريد بها الضرار أو الرياء أو السمعة ، كان شأنها شأن مسجد الضرار .

٨ — لا تقم للصلاة فى مسجد الضرار ، وأنت يا رسول الله حقيق بأن تصلى لله فى المسجد الذى بنيت جُدُرُه ، وأقيمت عُمُده ، على نية التقوى ، وصادق الإيمان ، واجتناب المعصية ، وخشية العقاب ، منذ ابتداء تأسيسه وبنائه ، كمسجد قباء ، الذى بناه أصحابه ليقيموا فيه صلاتهم ، ويعبدوا ربهم ، وهم رجال خلص ظاهرهم وباطنهم ، ونظفت أجسامهم وقلوبهم ، يحبون أن يتطهروا من النجاسة والمعاصى والخصال الذميمة ، والله يرضى عن المطهرين جسماً ونفساً ، فيدنيهم من جنابه ، ويرضى عنهم رضاءه عن أحبابه .

٩ — لا ينبغى أن يكون شأن مسجد قباء الذى أسس على التقوى والإيمان وطاعة الرحمن ، كمسجد الضرار الذى أسس على الكفر والشر والعصيان ، ولا يمكن أن يكون من أسس بنيان دينه وعبادة ربه ، على قاعدة محكمة قوية ، وهى الحق وتقوى الله وطاعة رسوله ، كالذى أسس بنيانه على قاعدة واهية متداعية ، وهى الباطل والكفر والنفاق ، الذى مثله فى قلة الثبات وعدم الاستمساك ، مثل جرف حفر السيل تحته فانهار ، كأن الذى بنى مسجده على باطل وكفر ، قد أقامه على شفيرٍ وجانبٍ من أودية جهنم ، فما كاد يستقر عليه ، حتى هوى به فى قعرها ؛ والمساجد بيوت الله ، يجب أن يكون القصد فيها خالصاً ، والنية صادقة لوجه الله وعبادته فمن بنوْا مسجداً لغير عبادة الله ، فقد تعدوا حدودهم ، ووضعوا الشىء فى غير موضعه ، وكانوا ظالمين ، والله لا يهدى القوم الظالمين .

١٠ — لايزال مسجدهم الذى أقاموه ، وبنيانهم الذى شيّدوه ، سبب ريبة وشك فى الدين ، قائماً كان أو مهدوماً ، أما حال قيامه ، فكانوا يجتمعون فيه ليدبروا الكيد للمسلمين ، ويتعرفوا أخبارهم وأسرارهم ، مما يزيدهم ريبة وشكًّا فى الدين ، وأما حال هدمه ، فقد ملأ الغيظ قلوبهم ، وأفعمت الحسرة نفوسهم ، لأنهم لم يبلغوا ما أرادوا من بناء المسجد ، وهو الضرر وتقوية الكفر ، والتفريق بين المؤمنين ، وانتظار من حارب الله ورسوله ، فزاد الغيظ والحسرة ريبة وشكًّا ، ثم إنهم كانوا يعملون فى الخفاء ، فلما كشف أمرهم ، وعرف نفاقهم ؛ مردوا فيه ، واستمسكوا به ، وسرى فى جميع إحساسهم وشعورهم ، وتمكّن من قلوبهم ، فلا يزول عنها حتى تتقطع قطعاً ، ويفارقها الإحساس والشعور ، والله عليم بما يخفون ، حكيم فى جزائهم وعقابهم .

(٣)

من الآية ١١١ إلى الآية ١١٢ من سورة التوبة

إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ –١– التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ –٢– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة	أثابهم على بذل أنفسهم وأموالهم فى الجهاد بالجنة .
حقًّا	ثابتاً .
فاستبشروا	فافرحوا .

الألفاظ	شرحها
التائبون	المؤمنون الراجعون عن الحالة المذمومة فى معصية الله ، إلى الحالة المحمودة فى طاعته .
السائحون	الذين يسيحون فى الأرض لكسب الرزق ، أو طلب العلم ، أو الصائمون .
الراكعون الساجدون	الذين يُقيمون الصلاة ويحافظون على أدائها فى أوقاتها .
الآمرون بالمعروف	الذين يأمرن بالإيمان والطاعة وعمل الخير .
والحافظون لحدود الله	والمحافظون على أداء أوامره ، واجتناب نواهيه ، وأحكام شريعته .
وبشِّر المؤمنين	وبشر المؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة ، برضاء الله وثوابه .

بيعة العقبة الثانية

كان العام الثالث عشر لبعثة النبى صلى الله عليه وسلم آخر عام أقامه فى مكة ، ثم هاجر بعده إلى المدينة ؛ وفى موسم الحج من هذا العام ، قدم إلى مكة ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، ممن أسلموا من أهل يثرب ، فواعدوا رسول الله أن يجتمعوا به ليلا فى أواسط أيام التشريق بالعقبة ، فجاءهم صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس ، فتكلم عنهم عبد الله بن رواحة ، وقال : يا رسول الله ، اشترط لك ولربك ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً ، وأن تلتزموا الشريعة ، وتقاتلوا الأحمر والأسود للدفاع عن

حَوْزة الإسلام ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » ، فقالوا : وما لنا إن فعلنا ذلك ؟ فقال : «الجنة» ، فقالوا : رَبِـحَ البيع ، لا نُقيل ولا نستقيل ، فبايعوه على ذلك ؛ وسميت هذه البيعة : « بيعة العقبة الثانية » ، وكانت بعد عيد الأضحى من العام الثالث عشر للبعثة ؛ وفى أوائل العام التالى هاجر النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وفى أمر هذه البيعة نزل قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . . . » ، إلى آخر الآية .

مجمل المعنى

١ — هذه الآية أمر عام لأمة محمد بالجهاد فى سبيل الله ، وإن كانت نزلت فى المسلمين الذين جاءوا من المدينة ليبايعوه بيعة العقبة الثانية ، والتعبير باشتراء الله نفوس المؤمنين وأموالهم بالجنة ، إشارة إلى أنهم باعوا أنفسهم ، وبذلوا أموالهم ، للجهاد فى سبيل الله ، عن رغبة واغتباط ، وأن المؤمن عليه أن يقدم نفسه وماله فى الجهاد مغتبطاً مستبشراً ، لأن البيع رابح ، والعوض غال ، ولم يكتب الله الجنة للمؤمنين المجاهدين فى سبيله فحسب ، وإنما كتبها أيضاً لمن أخلصوا أنفسهم لطاعته ، وأنفقوا أموالهم فى سبيله ؛ وأشرف مواقف الطاعة والإنفاق هو الجهاد ، وأربح أحوال البيع إنما هو القتال فى سبيل الله ، ويستحق ثواب الجهاد كل من صحت عزيمته ، وخلصت نيته ، واتجه قصده إليه ، وحصلت منه المقاتلة ، سواء أقتَل أم قُتل ، أم اجتمع له الأمران معاً ، أم لم يقع له واحد منهما ، ولما كان الجهاد قِوام نشر الدعوة لكل دين ، وطريق الحماية للشرائع السماوية ، وإعلاء كلمة الله ، فقد فرضه الله على كل أمة ، ووعد عليه بالجنة ، فى شريعة موسى وعيسى ومحمد ، وفى التوراة والإنجيل

والقرآن ، لقد عاهد الله المؤمنين المجاهدين على أن تكون الجنة حقـًّا ثابتاً لهم ، وليس أحدٌ أوفى من الله عهداً ، وأوثق وعداً ، وليس بعد الجنة التى أعدها الله للمؤمنين ترغيب فى الجهاد ، وتشويق إلى بذل النفس والمال فى سبيل الله ، فأقدِّموا عليه أيها المؤمنون مستبشرين فرحين بما آتاكم ، وسارعوا إلى البيع الذى بايعتم ، فإنه فوز عظيم لكم ، وطريقكم إلى جنة الله ورضوانه .

٢ — وممن كتب الله لهم الجنة أيضاً : التائبون عن معصية الله ، الداخلون فى طاعته ، الذين يقصدونه وحده بالعبادة ، ويحمدونه على ما آتاهم من فضله ، وعلى منّه عليهم بنعمة الإسلام ، ويرضون بقضائه وقدره ، ويسيحون فى الأرض لطلب العلم أو كسب الرزق ، أو يصومون النهار ويقومون الليل ، ويجولون بأفكارهم فى ملكوت الله ، ويتدبرون ما فيه من عبر دالة على توحيده وتعظيمه ، ويقيمون الصلاة ويركعون لله ويسجدون ، ويأمرون بالطاعة وفعل الخير ، وينهون عن المعصية وفِعل الشر ، ويحفظون حدود الله ، فيفعلون ما أمر به ، ويتركون ما نهى عنه ؛ وبشِّر يا محمد المؤمنين المتصفين من أمتك بهذه الصفات برضاء الله وثوابه ، وبأن الله أعد لهم الجنة كالمجاهدين فى سبيله .

(٤)

من الآية ١١٣ إلى الآية ١١٦ من سورة التوبة

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ —١— وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ —٢— . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ —٣— إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ —٤—

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قُربى	أن يطلبوا من الله أن يغفر للمشركين ويصفح عنهم. ولو كانوا من أقربائهم .

الألفاظ	شرحها
من بعد ما تبين لهم	من بعد ما وضح وثبت لهم بإخبار الله لنبيه عن حقيقة حالهم .
أنهم أصحاب الجحيم	أنهم ماتوا على الشرك ، فاستحقوا العذاب فى جهنم .
فلما تبين له أنه عدو لله	فلما وضحت له عداوته لله .
تبرّأ منه	أعلن براءته منه ، ولم يعُد يستغفر الله له .
لأوّاه	لكثير الذكر لله ، والخوف منه .
حليم	صافح عن الذنب ، صابر على الأذى ، رقيق القلب .

الاستغفار للمشركين

لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم ، فوجد عنده أبا جهل ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، فقال له النبىّ : « يا عم ، « قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله » ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : يا أبا طالب ؛ أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ ، فلم يزل رسول الله يعرضها عليه ، ويعيد له تلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : « أنا على ملة عبد المطلب أبداً ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما والله لأستغفرن لك ، ما لم أنْه عنك » ، فكان يستغفر له حتى نزل : « ما كان للنبىّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى . . . . » ، فترك الاستغفار لأبى طالب ؛ وقد دلت هذه الآية على المبالغة فى إظهار البراءة من المشركين ، ومنع مواصلتهم ، ولو كانوا فى غاية القرب من المؤمنين .

مجمل المعنى

١ — لا يجوز لمن اختصه الله بالنبوة ، ومَن مَنّ عليه بنعمة الإيمان، أن يطلب المغفرة لمن مات من أهل الشرك ، ولو كان من أقرب أقربائه ، من بعد ما ظهر لهم بما أخبر الله به نَبيَّهُ عن حالهم ، أنهم ماتوا على الكفر ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، وصاروا من أصحاب الجحيم ؛ أما المشرك الذى لا يزال على قيد الحياة ، ولم يكتب عليه الله الشقاء ، ولم يخبر نبيه بأنه من أصحاب النار ، فيجوز الاستغفار له ، رجاء هدايته وإسلامه .

٢ — لقد قال جماعة من المؤمنين : ولم لا نستغفر لأولى القربى منا ، كما استغفر إبراهيم لأبيه ؟ فرد الله عليهم بأن استغفار إبراهيم لأبيه كان وهو حىٌّ ، بناء على وعد منه لأبيه، بأن قال له : "سأستغفر لك ربى"، ودعا له ربه، فقال : "واغفر لأبى إنه كان من الضالين"، وكان يرجو له الهداية والإيمان ، فلما أوحى الله له أنه عدو لله ، وأنه من الضالين المصرِّين على الكفر، وانقطع رجاؤه من هدايته ، تبرّأ منه ، وكف عن طلب المغفرة له — إن إبراهيم كان كثير الدعاء والتضرع لله والخوف منه ، وإنه لفرط رحمته ، ورقة قلبه ، وسعة حلمه، كان يستغفر لأبيه الكافر ؛ لعل الله يهديه إلى الإيمان ، فلما علم بإصراره على الكفر ، لم يعد يستغفر له .

٣ — وكان بعض المؤمنين يستغفرون لموتاهم من المشركين ، قبل أن ينهى الله عن ذلك ، فخافوا غضب الله عليهم — كما أن قوماً من الأعراب أسلموا وعملوا بما كانوا شاهدوا رسول الله يعمله ، من الصلاة إلى بيت المقدس ، وصيام الأيام البيض ، وظلوا على ذلك وهم منقطعون فى الصحراء،

فلما قدموا على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وجدوه يصلى إلى الكعبة ، ويصوم رمضان، فقالوا: يا رسول الله، دِنّا بعدك بالضلال، إنك على أمر، وإنا على غيره، فنزل قوله تعالى: « وما كان الله ليُضل قوماً بعد إذ هداهم . . . » تأنيساً وتطميناً لهم، أى ما كان الله بعد أن هدى قوماً إلى الإسلام ، وأنقذهم من الكفر والضلال ، ليُحبط أعمالهم ، ويصفهم بالضلال عن طريق الحق ، لارتكابهم أمراً لم يعلموا أن الله قد نهى عنه ، ولم يبين لهم ما يتقون وما يجتنبون من المحظورات ، ولكنه يؤاخذ الذين يرتكبون أموراً وهم يعلمون أن الله نهى عن ارتكابها ؛ وهو يعلم عن الإنسان كل شىء ، فلا يجازيه إلا على ما يعمله عن علم وقصد .

٤ — إن الله مالك السموات والأرض ، وهى مسخّرة له بعلمه ، ولا يقع فيها إلا ما يريد ، يتصرف فى عباده كما يشاء بالحياة والموت ، والإيجاد والإعدام ، فلا ينبغى للمؤمنين أن يجزعوا من عدو وإن كثر ، ولا يهابوا أحدا وإن عظُم ، فليس لهم من يتولى أمورهم ويصرف شئونهم ، ويأخذ بناصرهم ، سوى الله جل شأنه .

(٥)

من الآية ١١٧ إلى الآية ١٢١ من سورة التوبة

لَقَدْ تَابَ ٱللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ ٱلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ، مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ —١— وَعَلَى الثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا ، حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ —٢— يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ، اتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ —٣— مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ ٱللَّهِ ، وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ ، وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ، وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا ، إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ —٤— وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ، لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لقد تاب الله	لقد عفا وصفح .
فى ساعة العُسرة	فى وقت الضيق والشدة ، وهو وقت غزوة تبوك .
من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم	من بعد ما قاربت قلوب بعضهم أن تهم بالتخلف ، وتعدل عن نصرة الحق ، وتميل إلى العصيان .
خُلِّفوا	تُرك أمرهم معلقاً ، وأرجأ النبىّ الفصل فى حالهم ، حتى ينزل حكم الله فيهم .
ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت	جفاهم الناس بأمر النبىّ فاستوحشوا ، ولم يعُد لهم فى الأرض على سعتها ورحبها ، مكان يستروحون فيه ، ويطمئنون إليه .
وضاقت عليهم أنفسهم	ملأها الهم والغم ، فلم يترك بها مكاناً للأنس والسرور .
لا ملجأ من الله إلا إليه	لا عاصم ولا ملجأ ينجيهم من سخط الله ، إلا أن يطلبوا المغفرة منه .
ثم تاب عليهم	ثم وفقهم للتوبة .
ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه	ولا يرضوْا لأنفسهم الراحة وخفض العيش ، ويتركوا رسول الله فى المشقة والعُسر .
ظمأ ولا نصب ولا مخمصة	عطش ولا تعب ولا جوع .
ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار	ولا يسلكون مكاناً يضايق الكفار أن يسلكوه .

الألفاظ	شرحها
ولا ينالون من عدو نيلا	ولا يوقعون بالعدو ضررا من قتل أو أسر ، أو غنيمة أو هزيمة .
كُتب لهم به عمل صالح	جعل الله لهم فى نظير كل من ذلك حسنة مقبولة ، وثواباً عظيماً .
يقطعون وادياً	يلاقون مشقة فى السفر للجهاد ، والسير فى المنفرج بين الجبال والآكام .

مجمل المعنى

١ — لقد تاب الله على نبيه ، وأسبغ عليه واسع فضله ، فعفا عنه لأنه كان قد أذن للمنافقين فى التخلف عن الذهاب معه لغزوة تبوك ، . وعفا عما حصل من زلات المهاجرين والأنصار ، الذين اتبعوه وجاهدوا معه فى هذه الغزوة ، واحتملوا معه وقت العسرة ، وصبروا على ما وقع فيها من الشدة والمحنة ، فلم يتخلوا عنه ، ولم يُخلوا بأمر من أوامره ، ولكنهم صبروا وصابروا ، بعد أن تناهت بهم المحنة والشدة ، وقارب بعضهم أن يميل إلى التخلف ، ويعدل عن متابعة السير معه ، ومن أجل ما كابدوا من الشدائد ، تاب الله عليهم ، وعفا عنهم ، لأنه كثير الرأفة والرحمة بعباده المؤمنين ؛ لقد امتحن الله المؤمنين بالشدائد فى هذه الغزوة ، فقابلوها بصبر وإيمان واحتمال ؛ لقد عانوا فيها مشقة السير فى الطريق الوعر الطويل ، وفى شدة القيظ ، حتى بلغ منهم الجهد مبلغه ، فكان العشرة يتعاقبون على ظهر بعير واحد ، وقاسوا فيها من الجوع ما قاسوا ، فأكلوا الشعير

المتسوِّس ، والتمر المدوَّد ، والشحم المنتن ، وشربوا الماء المتغير ، بل كانوا لا يجدون هذا الماء ، فينحرون الإبل ، ويعتصرون فُروثها (زبلها) وكروشها ، ويدفعون ظمأهم بشرب عصيرها ، لقد منَّ الله بالتوبة على نبيه وهو أكرم خلقه ، وعلى المهاجرين والأنصار الذين احتملوا فى الجهاد كل ألوان البلاء والشقاء ، لبيان أن العبد مهما قرُبت منزلته عند الله ، فهو محتاج إلى مزيد من عفوه وفضله ، وعند الله مقامات من الرضا والعفو والغفران ، يُفضِل بها على عباده الصادقين الصابرين .

٢ — ولقد تاب الله على الثلاثة الأنصار ، وهم كعب بن مالك ومُرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، لأنهم قعدوا عن مناصرة النبىّ ، والذهاب معه فى غزوة تبوك ، فلما رجع إلى المدينة جاءه المنافقون فاعتذروا إليه عن تخلفهم ، فقبل منهم ؛ أما هؤلاء الثلاثة فقد أخر قبول التوبة عليهم ، وترك أمرهم معلقاً ، حتى ينزل حكم الله فيهم ، وأمر الناس باعتزالهم ، بل أمرهم أن يجتنبوا نساءهم ، حتى استوحشوا وشعروا أنهم منبوذون مطرودون ، وضاقت الدنيا فى أعينهم ، ولم يجدوا فى أرض الله الواسعة مكاناً يشعرون فيه بالأنس والطمأنينة ، وضاقت نفوسهم من الهم والغم ، وأيقنوا أن لا ملاذ لهم ، ولا ملجأ ينجيهم من سخط الله وغضبه ، غير أن يلجئوا إلى واسع فضله ، فيطلبوا عفوه ومغفرته ؛ وبعد خمسين يوماً قاسوا فيها تأنيب الضمير ، وجفوة الناس ، وتوقع غضب الله ، أدركتهم رحمة الله ، فوفقهم للتوبة ، فتابوا ورجعوا إلى الله ، إن الله جل شأنه كثير الصفح ، يقبل التوبة من عباده وإن عظمت الذنوب ، وكثرت الخطايا ، واسع الرحمة بهم ، متفضل عليهم بفنون النعيم ، مع استحقاقهم لأنواع العقاب ، وقد أشرنا إلى قصة هؤلاء الثلاثة ، فيما أوردناه فى تفسير هذا الجزء عن غزوة تبوك ، فى الفقرة السادسة من الصفحة ١٥ .

٣ — يأيها الذين آمنوا اتقوا الله، وخافوه فيما تفعلون وما تذرون ، وكونوا مع أهل الصدق ، أسوة بما فعل هؤلاء الثلاثة ، فإنهم لم ينتحلوا الأعذار فى تخلفهم ، وصدّقوا النبىّ فى أنهم لا عذر لهم فى القعود عن الذهاب معه ، فتفضّل الله بالتوبة عليهم ، ونفعهم صدقهم ، ورفعهم عن منازل المنافقين .

٤ — وقد أنكر الله على من تخلف عن الجهاد من أهل المدينة ، ومن قبائل الأعراب المجاورة لها ، ونعى عليهم قعودهم عن نصرة النبىّ ، وقد خصهم الله بالتثريب واللوم ، وإن كان الجهاد واجباً عليهم وعلى غيرهم من المسلمين ، لأن النفير كان فيهم ، ولأنهم أحق بالمسارعة والمبادرة بالخروج مع النبى ، لقربهم منه ، ومجاورتهم له ؛ ولا ينبغى للمؤمنين أن يؤثروا أنفسهم بالراحة والدعة وخفض العيش ، ويكرهوا لأنفسهم ما يرضاه الرسول لنفسه ، ويتركوه وحده يقاسى الشدة والمشقة فى الحر ، بل يجب عليهم أن يصحبوه فى البأساء والضراء ، ويقاسموه ما يلاقى فى الجهاد من الأهوال والبلاء ، لأن ما يصيبهم فى سبيل الجهاد من جميع أنواع الشدائد ، من عطش أو تعب أو جوع ، وما يسلكون من مكان قفر ، وما يطئون من أرض يضايق الكفار أن يطئوها ، ويغيظهم أن يحلوا بها ، وما يصيبون به العدو من قتل أو أسر ، أو غنيمة أو هزيمة ، وما ينالون من ضرر فى سبيل القضاء عليه — لا يذهب عند الله ثوابه ، ولا يضيع أجره ، ولكنه يكتب لكل من ذلك حسنة مقبولة ، وعملا صالحاً ، يجده المؤمن يوم القيامة مرقوماً فى فى كتابه الذى يأخذه بيمينه ، ويهيئ له به فى الدنيا حياة العزة والكرامة ، والرفاهية والسعادة — والله سبحانه وتعالى لا يذهب عنده أجر المحسنين .

٥ — والجهاد فريضة على كل مسلم ، بالقتال وتوهين المشركين وإذلالهم ،

والقضاء عليهم ، وليس أقل من ذلك أجراو ثواباً ما ينفقه المؤمنون فى سبيل الله من نفقة صغيرة أو كبيرة ، كالتى قدمها عثمان بن عفان يوم العُسرة ، على قدر وسعه — وما يتحمله المؤمنون من المعونة والمساعدة فى السفر والارتحال للغزو — كل ذلك يكتب الله به حسنات لعباده المؤمنين ، ويجزيهم عليه الجزاء الأوفى ، ويثيبهم عليه ثواباً أحسن من أعمالهم ، وأفضل مما قدموا فى دنياهم .

(٦)

من الآية ١٢٢ إلى آخر سورة التوبة

وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ، فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ —١— يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ، قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ، وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ —٢— وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ؟ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ، وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ —٣— أَوَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ —٤— وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ : هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا ، صَرَفَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ ، بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ —٥— لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ —٦— فَإِنْ

تَوَلَّوْا فَقُلْ : حَسْبِيَ ٱللهُ ، لاَ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ –٧– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لينفروا كافة	ليرحلوا جميعاً فى الجهاد .
ولينذروا قومهم	وليجعلوا غرضهم فى التفقه إنذار قومهم ، وإرشادهم إلى الخير ، والنصيحة لهم .
لعلهم يحذرون	لأجل أن يحذروا الله ، فيعملوا عملا صالحاً .
يلونكم	يقاربونكم ويجاورونكم .
غلظة	شدة فى القتال والمقال .
فى قلوبهم مرض	فى قلوبهم كفر وسوء اعتقاد .
فزادتهم رجساً	الرجس : القذارة ، وزادوا رجساً : تعمقوا فى الكفر ، وأوغلوا فى الضلال .
يفتنون	يُختبرون ويُبتلون .
هل يراكم من أحد؟	قائلين : هل يراكم أحد ؟
صرف الله قلوبهم	أعمى الله قلوبهم ، وأمالها عن الرشد والخير والهدى .
عزيز عليه ماعنتم	يعز عليه أن يصيبكم عنت ومشقة ، أو يحل بكم شقاء وعذاب .
حريص عليكم	يحرص على هداكم ، وإيصال الخير لكم .
فإن تولوا	فإن أعرضوا عن الإيمان .
حسبى الله	كافىَّ الله من كل شىء .

مجمل المعنى

١ — لما سمع المؤمنون ما نزل فى شأن المتخلفين عن الغزو ، تسابقوا إليه ، وسارعوا إلى النفير إرضاء لله ، واتقاء لغضبه ، وانقطعوا عن التفقه فى الدين وطلب العلم ، والسعى فى الرزق ، فنزل قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة . . . » ، الآية ، لبيان أن الجهاد فرض كفاية على المسلمين بقدر ما يقتضيه النفير ، وما يتطلب من القوة التى تقف فى وجه العدو ، وتكفى لهزيمته ؛ ومعنى الآية : لا ينبغى للمؤمنين أن يرحلوا جميعاً للجهاد والغزو ، كما لا ينبغى لهم أن يتثبطوا عنه ، فإن ذلك مخل بحياة الأمة ، ضارٌّ بها ، وإنما الأوْلى أن تخرج جماعة من المؤمنين لغزو العدو ومجاهدته ، وتبقى طائفة أخرى لطلب العلم ، وفهم أحكام الدين ، وتدبير الأمور ، وإمداد المحاربين بما يلزم لهم من عدة وعتاد ، فإذا رجعت الطائفة المجاهدة ، أرشدتها الطائفة التى بقيت ، وأقامت لتحصيل العلم ودراسة الدين ، وأخبرتهم بما أمر الله به ليؤدوه ، وما نهى عنه ليجتنبوه ويحذروه ، وبذلك يستحقون الثواب ، ويجتنبون العقاب ؛ وهذه الآية تُبَيِّن للمسلمين ما يجب عليهم أن يقوموا به ، حتى يحيوا حياة العزة والكرامة ، ويتمتعوا بسعادتى الدنيا والآخرة ، فهى تلزمهم أن تكون منهم طائفة مجاهدة ، مقاتلة مدربة على جميع فنون الغزو والقتال ، لتحمى الحوزة ، وتقهر العدو ، وتستولى على بلاده ، وطائفة أخرى تتفقه فى الدين ، وتدرس العلوم التى تهذب الأخلاق ، وترفع من حياة الأمة ، وتعينها على تثمير ما خلق الله ، للحصول على طيبات الرزق والعيش ، فى ظل الحرية والكرامة ؛ كما أنها تدل على أن طلب العلم ، والسعى فى

الحياة ، هما فى مرتبة الجهاد ، بل هما الجهاد الأكبر ، وأن كلاًّ منهما ضرورى ، وواجب على الأمة التى تبتغى أن تحيا فى عزة وكرامة .

٢ — وأنتم أيها المؤمنون جميعاً متكافلون فى قتال الأعداء وغزو الكفار ، وعلى كل طائفة منكم أن تكفى المؤمنين فى جميع بقاع الأرض شر من يجاورها ويقاربها من الكفار ، فابدءوا أولا بغزو من يقاربكم منهم ، واتقوا شرهم ، وأمِّنوا ظهوركم بالقضاء عليهم ، ولا ينبغى أن تتركوهم كالشوكة فى ظهوركم ، فناجزوا أولا المتاخمين لكم ، الضاربين على حدودكم ، وخذوهم بالشدة والقسوة فى القتال ، وحطموا أعصابهم ، ومزقوا نفوسهم بالشدة والتخويف فى المقال ، حتى يرهبوكم ويفرُّوا أمامكم ، واعلموا أن القتال على هذا الوجه ، من باب العبادة والتقوى والإيمان ، وأن الله ناصر لعباده المتقين .

٣ — وإذا أنزلت سورة من سُوَر القرآن ، سخر المنافقون ، وسأل بعضهم بعضاً ، كما سألوا المؤمنين مستهزئين : أيكم زادته هذه السورة إيماناً ؟ وذلك ليثبِّتوا المنافقين على نفاقهم ، ويزعزعوا الإيمان فى قلوب المؤمنين ، وهم يعلمون أن من المسئولين منافقين لا إيمان لهم ، وإنما لجئوا إلى هذا السؤال ، حتى لا يتنبه المؤمنون إلى سوء قصدهم ، وإنا لنجيبكم أن المؤمنين الذين يتدبرون كلام الله ، ويفهمون ما فيه من حقائق بقلوب مطمئنة ، قد سمعوها فزادتهم يقيناً وإيماناً ، وهم فرحون مستبشرون بنعم الله وفضله عليهم ، وأما الذين فسدت عقائدهم ، ومرضت قلوبهم بالكفر والضلال ، فزادوا كفراً على كفرهم ، وضلالا إلى ضلالهم ، واستحكمت فى نفوسهم العقائد الباطلة ، والأخلاق الذميمة ، إلى أن يموتوا عليها ضالين مضلين ، كافرين مبطلين .

٤ — أفلا يرعوى هؤلاء المنافقون ، ويزدجرون عن ضلالهم القديم ، وهم يرون أنهم يـُختبرون كل عام مرة أو مرتين ، ويفضحون بكشف أسرارهم ، ويـُبتلون بالقحط والمرض ، ويريهم الله فى الجهاد ما يكتبه لنبيه من النصر والتأييد ؟ ومع هذه الدلائل الواضحة الموجبة للإيمان لا ينتهون عن الكفر ، ولا يرجعون عن الضلال ، ولا يتذكرون ولا يعتبرون بما وقع تحت سمعهم وبصرهم من تأييد الله لنبيه .

٥ — وبعد أن ذكر الله ما يحدث من المنافقين من قول على سبيل الاستهزاء ، إذا أنزلت سورة من سور القرآن ، بَيَّـن ما يحدث منهم من فعل، سخرية واستهزاء ، إذا ما أنزلت سورة أيضاً، بأن بعضهم كان ينظر إلى بعض ، ويتبادلون فيما بينهم الغمز والإيماء ، ويتضاحكون ويتهامسون ، ويتفاهمون بالحركات والإشارات ، كأنهم يقولون : هل أحد من المؤمنين يراهم وهم على هذه الحال؟ خشية أن ينكشف سترهم ، ويفتضح أمرهم ، ثم خرجوا متسللين ، وقد أمال الله قلوبهم عن الهدى والإيمان ، وجعل عليها حجاباً كثيفاً من الكفر والضلال ، لأنهم قوم لا يفقهون ولا يتدبرون .

٦ — لقد كرّمكم الله يا بنى آدم ، فأرسل إليكم رسولا من البشر من أنفسكم ومن جنسكم، وليس من الجن أو الملائكة، وذلك لتأنسوا به ويأنس بكم ، وتلائم طباعه طباعكم ، فيألفكم وتألفوه ، ويفهمكم وتفهموه ، ولم يبعثه من غير جنسكم ، حتى لا يقع التنافر بينكم وبينه ، وهو إلى ذلك يعز عليه أن تصيبكم مشقة، أو ينالكم ضرر، ويحرص على هداكم ، وإيصال خيرىِ الدنيا والآخرة إليكم ، ويفيض قلبه رأفة ورحمة بكم ، وقد جمع الله لنبيه صلى الله عليه وسلم اسمين من أسمائه جل شأنه ، تعظيماً لرسوله ، فقال عنه : « بالمؤمنين رءوف رحيم »، وقال عن نفسه، « إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

٧ — فإن تولى المنافقون والكفار ، وأعرضوا عن الإيمان بك ، وأصروا على أن يناصبوك العداء ، بعد هذه النعم التى مَنَّ الله بها عليهم ، فلا تأبه بهم ، ولا تبخع نفسك عليهم ، واستعن بالله ، وفوِّض إليه جميع أمورك ، فإنه كافيك كل شىء ، وناصرك عليهم ، وهو وحده صاحب الملك ، وهو العظيم القادر ، المنزه عن أن يتمثل فى الأوهام ، أو تصل إليه الأفهام .

سورة يونس

نزلت بمكة ماعدا الآيات ٤٠ ومن ٩٤ — ٩٦ فإنها نزلت بالمدينة وآياتها ١٠٩

الآية الأولى والثانية

بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ -١- أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ : أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ : إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ -٢- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الر	تراجع الصفحتان ١٣ — ١٤ من تفسير الجزء الأول .
تلك آيات الكتاب	هذه آيات القرآن .
الحكيم	المحكم .

الألفاظ	شرحها
للناس	للكفار .
أوحينا إلى رجل منهم	أعلمنا رجلا منهم إعلاماً خفياً خاصاً ، لا يدركه غيره .
أن أنذر الناس	عرِّف الناس كافة حقيقة ما أرسلت به ، تعريفاً مقروناً بالتهديد والتخويف إذا كذبوك .
وبشر الذين آمنوا	عرف المؤمنين حقيقة ما أرسلت به ، تعريفاً مقروناً بالبشارة بحسن الجزاء ، على تصديقهم وإيمانهم .
قدم صدق	قدم سابقةٍ إلى الإيمان ، فإن السعى والسبق لا يحصل إلا بالقَدَم .

مجمل المعنى

١ — هذه الآيات التى تنزل على محمد ، وتتلى على قومه ، هى آيات القرآن المحكمة الدقيقة فى معناها ، القوية فى مبناها ، التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، المفصَّلة من لدن حكيم خبير ، المحصنة من الفساد ، فلا يتطرق إليها تغيير ولا تبديل ، البريئة عن الكذب والبهتان والزور ، الآمرة بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، الناهية عن الفحشاء والمنكر والبغى .

٢ — تعجب كفار قريش أن يخصص الله تعالى محمداً من دون قريش بالرسالة والوحى ، وأنه لم يجد رسولا إلى خلقه إلا يتيم أبى طالب ، وكانوا يودون

لو أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، فأنكر الله عليهم تعجبهم ، وما كان ينبغى لهم أن يتعجبوا ، لأن الله أرسل إليهم رجلا منهم ، كما كان يرسل إلى من قبلهم رجالا منهم ، وهذا الرجل الذى اختاره الله يعرفون حسبه ونسبه ، وأمانته وصدقه ، وعفته واستقامته ، فلا يصح أن يعجبوا من أن الله أوحى إليه ؛ والله أوحى إليه بالإنذار والتبشير ، أما الإنذار فللذين يعرضون عنه ، ويستكبرون عليه ، ويكذبونه ، ويكفرون به ، فإنه ينذرهم ويخوفهم ، ويتوعدهم عذاباً شديداً ، وأما التبشير فللذين يؤمنون به ، ويطيعونه ، ويعملون الصالحات ، فإنه يبشرهم بالجنة ، وبأن لهم قدم صدق ، ومنزلة رفيعة ، وأجراً حسناً ، بطاعتهم وصلاتهم ، وصيامهم ، وصدقهم وتسبيحهم ، وغير ذلك مما يستوجبون به الثواب ؛ والكفار يتهمون محمداً بأنه ساحر ، ويصفون ما جاء به ، وهو القرآن بأنه سحر ، فإنه بعد أن تلا عليهم آيات من القرآن ، وأنذر وبشر — قالوا : ساحر جاء بسحر ، وذلك أنهم لما أخذتهم بلاغة القرآن ، وبهرهم معناه ومبناه ، وتعذر عليهم الإتيان بمثله — وصفوه بهذا الوصف .

(٢)

من الآية ٣ إلى الآية ٤ من سورة يونس

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ -١- إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ، وَعْدَ اللهِ حَقًّا ، إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ -٢- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يدبر الأمر	يقضى فى خلقه بما يشاء .
ما من شفيع إلا من بعد إذنه	لا يشفع عنده أحد يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له فى الشفاعة .
أفلا تذكرون	أفلا تفكرون فتتعظوا وتعتبروا ؟
بالقسط	بالعدل والإنصاف .
شرابٌ من حميم	شرابٌ أُغْلِىَ واشتد حره .
بما كانوا يكفرون	بسبب كفرهم .

مجمل المعنى

١ — يخاطب الله سبحانه وتعالى الذين استعجبوا أن يوحى الله إلى رجل منهم ، فينذرهم ، ويبشر المؤمنين الذين آمنوا به ، ويبين لهم أنه قادر يتصرف كما يشاء فى خلقه ، فيوحى إلى من يشاء من عباده ؛ ومن دلائل قدرته أنه خلق العوالم السماوية والأرضية على مراحل ست ، وليس معنى هذا أنه غير قادر على خلقها على مرحلة واحدة ، لأنه قادر على أن يقول للشىء كن فيكون ، ولكن لحكمة أراد خلقها أطواراً ، وقرن إنشاءها بمقادير قدّرها ، وبعد أن خلقها استولى على أمر تدبيرها ، ليقضى فيها وحده ، ويدبرها على حسب مشيئته ، لا يشرك معه أحداً ، فهو يأمر ويقضى على الصورة التى يراها ، وكان هذا الاستواء على صورة تليق بعظمته وجلاله ، وتتفق مع تنزيهه عن الحلول والاستقرار ، وهو من الأشياء التى انفرد بها علمه ، فلا نعلم كنهه ولا صفته ؛ وكان المشركون من العرب وغيرهم يعبدون آلهتهم ، ويشركونها مع الله فى العبادة ، ويتخذونها أولياء لهم من دونه ، على أنها ستكون شفيعاً لهم عنده ، وتقربهم إليه زلفى ، فإن كانوا من الذين لا يؤمنون بالآخرة عبدوها لتشفع لهم فى جلب خير ، أو دفع ضر ، وإن كانوا يؤمنون بالآخرة عبدوها لتشفع لهم يوم القيامة ، هؤلاء أخبرهم الله سبحانه وتعالى أن الله لا يشفع عنده أحد غير الذين يرتضيهم للشفاعة ، وهذه الآلهة ليست مما يرتضيها الله ليكونوا شفعاء ، فإذا ثبت لهم أن الله هو الذى خلق السموات والأرض ، وأنه هو الذى يدبر الأمر ، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه — وجب أن يكون وحده المختص بالعبادة والتوحيد ، وألا يشاركه فى ذلك شىء

من الآلهة التى يعبدونها معه ، وإن نظرة فى خلقه وفى تدبيره ، تجعلكم تتعظون وتتذكرون وتوحِّدون .

٢ — والله سبحانه وتعالى يرجع إليه جميع خلقه ، وعَدَ ذلك وعداً حقًّا لا ريبة فيه ، فهو الذى بدأ الخلق ، وأنشأه من العدم على الطريقة التى رآها ، وهو الذى يُفنى الخلق أيضاً حين يأتى أوان إفنائه ، وهو الذى يعيده بعد الإفناء يوم القيامة ، ومن البَدَهيات التى تسلم العقول بها ، أن القادر على البدء قادر على الإعادة ، وأمامكم المثل فى الحياة الدنيا ، وفى أجسامكم ، وفى كل كائن حىّ ، فإن الله بدأ خلقه ، وما دامت تجرى عليه نواميس الحياة ، فإن خلايا جسمه تفنى وتتجدد ما دام حيًّا ، فهذا بدء وإعادة ، وإنما كان وعد الله بإعادة الحياة إلى الخلق حقًّا يوم الحشر والنشر ، ليحصل الفرق بين المحسن والمسىء ، والمطيع والعاصى ، والمؤمن والكافر ، فيجزى المؤمنين بالعدل والقسطاس على إيمانهم وأعمالهم الصالحة ، أما الذين كفروا وأشركوا معه غيره ، وساءت أعمالهم فى الدنيا ، فيعذبهم الله عذاباً شديداً ، فيه إيلام لأجسامهم وقلوبهم بسبب كفرهم ، ومن ألوان هذا العذاب أنهم يشربون ماء ، بلغت حرارته أقصاها ، فيمزق أمعاءهم ، ويفتت أكبادهم ، ويصهر جسومهم .

(٣)

من الآية ٥ إلى الآية ٦ من سورة يونس

هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ، وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ، لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللّٰهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ —١— إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّٰهُ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
جعل الشمس ضياء	جعل ضوءها ينبعث منها انبعاثاً ذاتياً .
والقمر نوراً	وجعل نور القمر بالاكتساب من الشمس .
وقدّره منازل	وقدر سيره فى فلكه فى منازل خاصة على ترتيب بديع ، فلا يخطئها ولا يتعداها .
عدد السنين والحساب	حساب الأوقات .
ما خلق الله ذلك إلا بالحق	ما خلق الله الشمس والقمر على هذا النظام الخاص ، إلا على ما تقتضيه حكمته التى أرادها لخلقه .
يفصل الآيات	يوضح الدلائل .
إن فى اختلاف الليل والنهار	إن فى التأمل فى اختلاف الليل والنهار ظلمة ونوراً ، وطولا وقصراً ، وتعاقبهما .
لآيات	لأدلة واضحة .
لقوم يتقون	لقوم يخافون عاقبة مخالفة الله ، وعدم الإيمان به .

مجمل المعنى

١ — من دلائل قدرة الله تعالى ، وتصرفه فى خلقه على ما يقتضيه تدبيره — أنه خلق الشمس ، وجعل الضوء ينبعث منها انبعاثاً ذاتيًّا ، وقد قرر العلم أن الشمس جسم ملتهب ، ينبعث منه الضوء ، وانفصلت عنه الكواكب الأخرى ، ومنها القمر والأرض ، وبقية الكواكب والنجوم التى نراها ، والقمر ليس مضيئاً بذاته ، ولكنه يستمد نوره من ضوء الشمس ، بفعل الانعكاسات التى تحدث فى الأشعة التى ترسلها الشمس ، وللشمس والقمر وغيرهما من الكواكب أفلاك تسبح فيها ، ولجميع الكواكب ومنها الأرض دورتان ، دورة حول نفسها ، ودورة حول الشمس ، ومن هذه الدورات ينشأ الليل والنهار ، وبنشوء الليل والنهار ، تحسب الأوقات من الأيام والأسابيع والأشهر والسنين ، وتحسب أجزاء اليوم الواحد ، وهذا الحساب فيه ضبطٌ لأوقات العبادات اليومية كالصلاة ، والسنوية كالصوم والزكاة والحج ، وفيه ضبط لجميع الأعمال المدنية والمالية ، الجارية بين الناس .

ولعل المناسب أن نذكر هنا أن الشرع وقَّت للصوم والزكاة والحج والعِدَّة ، وغير ذلك من الأمور الدينية ، توقيتاً قمريًّا لا شمسيًّا ، لأن التوقيت الشمسى يحتاج فى حسابه إلى عناء ودراسة ، فالشمس تشرق كل صباح ، وتغرب كل مساء ، على نظام واحد رتيب ، قرصها مكتمل من الشروق إلى الغروب ؛ واختلاف الجو باختلاف الفصول ليس موجوداً فى كل الأقطار ، ولا يمكن الاعتماد عليه فى الحساب ، أما القمر فإنه يبدو فى صور مختلفة ، ويظهر فى هذه الليلة على غير ما كان عليه

فى الليلة السابقة ، وعلى غير ما يكون عليه فى الليلة المقبلة ، ويظل قرصه فى تكامل وتناقص ، ويظل وقت شروقه وغروبه فى تقدم وتأخر ، ويشترك مع الشمس فى النهار بعض الشهر ، ويتركها فى بعضه الآخر ، وهكذا كل ما يجرى عليه من تغير ، يجرى فى شهر قمرى كامل ، ثم يبدأ دورة التغيير من جديد لشهر جديد ، لذلك كان يسيرا على البدائيين من الناس أن يحسبوا أوقاتهم بالأشهر القمرية ، لا الأشهر الشمسية ، وقد جاء التشريع الإسلامى فى المسائل المرتبطة بالأزمان موقتاً توقيتاً قمرياً .

والله سبحانه وتعالى ما جعل الشمس ضياء ، تخلع من ضوئها وحرارتها على الكون ما يبعث فيه الحياة ، وما جعل القمر نوراً يهدى السارى فى مسراه ، ويحسب بتطوره أوقاته — ما جعل الله هذا كله إلا مقروناً بالحق الذى تقتضيه الحكمة العامة للحياة ، والله سبحانه وتعالى يذكر هذه الآيات الدالة على قدرته ، ويعرضها متصلة : فبعضها كونىّ ننظر إليه ، وبعضها فكرىّ نفكر فيه ، ولا يستطيع النظر والتفكير إلا الذين يعلمون وجوه دلالة المخلوق على الخالق .

وقد أخبر القرآن أن الشمس تجرى فى فلك لها ، وأن الكواكب الأخرى تجرى فى أفلاك لها ، وأن جميع الكواكب ومنها الأرض — لها دورتان : دورة حول نفسها ، ودورة حول الشمس ، وكان القدامى يجهلون هذا ، ويظنون أن الشمس هى التى تتحرك ، وأن الأرض ثابتة ، فلما جاء : غاليلو الإيطالى فى القرن السابع عشر ، أثبت ما جاء به القرآن فى القرن السابع ، وهو أن الكواكب هى التى تدور حول الشمس ، فغضب عليه رجال الدين ، وحكموا بإلحاده .

٢ — للأرض حركة حول نفسها تتم كل أربع وعشرين ساعة ، ولها دورة حول حول الشمس تتم كل سنة مرة ، ويحدث من هاتين الحركتين ، ومن ميل

المحور ما يأتى :

ا — حدوث الليل والنهار واختلافهما طولا وقصراً .

ب — الفصول السنوية .

ج — اختلاف الجو على حسب المناطق الأرضية ، فلكل من المنطقة الاستوائية ، ومن المنطقتين المعتدلتين ، والمنطقتين المتجمدتين ، درجة حرارة تختلف عن الأخرى

وقد كان لهذا كله تأثير كبير فى حياة النبات والحيوان والإنسان ، وقد خلق الله الأرض على هذا الوضع، حتى تكون صالحة للحياة عليها ، وخلق فيها النبات والجماد والحيوان ، الذى يستطيع أن يعيش فيها ، ووزع أنواع الحيوان المختلفة على أنواع الأجواء ، فقد تجد أنواعاً من النبات والحيوان لا تعيش إلا فى المناطق الحارة ، كما تجد أنواعاً أخرى لا تعيش إلا فى المناطق الباردة ، وخلق الله السموات ، ووزع ما فيها من كواكب على نظام بديع ، هذا كله دليل واضح على قدرة الله تعالى ، ويفهم هذه القدرة على حقيقتها ، من يجعلونها مناط تفكيرهم من ذوى العقول السليمة ، والفطن الراجحة المستنيرة ، الذين يتقون الله ، ويخافون عواقب مخالفته . فى النظر التكوينى والتشريعى .

(٤)

من الآية ٧ إلى الآية ١٠ من سورة يونس

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ، وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ –١– أُولٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ –٢– إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ –٣– دَعْوَاهُمْ فِيهَا : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا : سَلَامٌ ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ : أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لا يرجون لقاءنا	لا يخافون البعث ، ولا يطمعون فى الثواب.
واطمأنُّوا بها	وزال عن قلوبهم الخوف .
عن آياتنا	عن الأدلة الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا .
مأواهم النار	مصيرهم إلى نار جهنم .
تجرى من تحتهم الأنهار	تجرى حولهم ، من دونهم ومن بين أيديهم ومن خلفهم .
دعواهم فيها	قولهم فيها .
سبحانك اللهم	تنزيهاً لك عن كل ما لا يليق بك يا ألله .
وتحيتهم فيها سلام	ويُحيي بعضهم بعضاً : سلمت وأمنت مما أصيب به أهل النار.
وآخر دعواهم	وآخر دعائهم .

مجمل المعنى

١ — بيَّن الله سبحانه وتعالى حال الكافرين الذين مصيرهم إلى جهنم، بسبب ما كانوا يعملون فى الحياة الدنيا ، وميَّزهم بصفات أربع :

ا — لا يرجون لقاء الله ، فلا يخافون البعث ، ولا يطمعون فى الثواب ، فهم مكذبون بالثواب والعقاب ، والبعث والحساب .

ب — ورضوا بالحياة الدنيا ، واستغرقوا فى طلب اللذات الجسمانية ، وخُدِعوا بزينة الحياة الدنيا ، فأقبلوا عليها يستمتعون بوجوه الاستمتاع وزخارفها .

ح — واطمأنوا بالحياة الدنيا ، وسكنوا إليها ، فلا تخشى قلوبهم إنذاراً أو تهديداً أو وعيداً ، لأنها ماتت عن ذكر الله .

د — والغفلة عن ذكر الله تعالى ، وعن التدبر فى آياته الدالة على وحدانيته ، والإعراض عن التأمل فيها تأمل ناصح لنفسه ، مستعد لرياضتها على ما ينفعها فى الآخرة ، من عوامل الحرمان من السعادة الحقيقية التى هى عند الله ، وهؤلاء إذا خرج الواحد منهم من قبره ، صُوِّر له عمله فى صورة سيئة ، فيقول له : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدفعه إلى النار .

٢ — هؤلاء الناس المتصفون بتلك الصفات الأربع ، مصيرهم فى الآخرة إلى جهنم ، بسبب كفرهم ، وارتكابهم الآثام فى الدنيا .

٣ — ثم بيَّن سبحانه وتعالى حال المؤمنين وصفاتهم ، والدرجات العُلاَ التى سيكون إليها مرجعهم ، فذكر أن الذين آمنوا بالله ورسوله ، واستمكن الإيمان من قلوبهم ، وعملوا بأوامر الله نتيجة لهذا الاستمكان ، فأتمروا

بأمره ، وانتهوا بنهيه ، هؤلاء يهديهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة ، ويسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، فإذا أخرج المؤمن من قبره ، صُوِّر له عمله فى صورة حسنة ، فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نوراً ، وقائداً إلى الجنة . وهؤلاء المؤمنون بعد أن يدخلوا الجنة ، يكونون فى حال من السعادة عظيمة ، هى سعادة من يجلسون على سرُرٍ مرفوعة فى الحدائق والبساتين ، والأنهار تجرى من بين أيديهم ، أو تحت سررهم ، ونفوسهم راضية ، والحياة من حولهم صافية .

٤ — وإذا أراد أهل الجنة مناداة ربهم ومناجاته ، بدءوا بقولهم : سبحانك اللهم ، وتنزيهاً وتقديساً لك يا ألله ، مما أضافه إليك أهل الشرك بك ، وإبراء لك عن السوء ، وهم يحيِّى بعضهم بعضاً بالألفاظ الدالة على الأمان ، والطمأنينة والسلام ، التى كانوا يستعملونها فى الدنيا ، وبمثل ذلك يحييهم الله ، وتحييهم ملائكة الله ، ويجرى على ألسنتهم حمد الله دائماً فى نهاية كل دعاء من أدعيتهم ، وفى كل مناجاة منهم لربهم .

(٥)

من الآية ١١ إلى الآية ١٤ من سورة يونس

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ، فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ –١– وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ –٢– وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ –٣– ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ، لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لقُضى إليهم أجلهم	لهلكوا ، وعُجِّل لهم الموت .
فنذر الذين لا يرجون لقاءنا	فنترك الذين لا يخافون عقابنا .
فى طغيانهم يعمهون	فى تمردهم وتجاوزهم الحد ، يترددون فى الشر متحيرين .
وإذا مس الإنسان الضر	وإذا أصاب الكافر الشدة والجهد ، وشعر شعوراً قاسياً بالألم أو الخطر .

الألفاظ	شرحها
دعانا لجنبه	استغاث بنا مضطجعاً لجنبه .
فلما كشفنا عنه ضره	فلما أزلنا عنه شدته ، وفرجنا كربه .
مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه	استمر فى طغيانه ، كأنه لم يصبه شىء ، ولم يدع الله إلى تفريج كربه .
كذلك زُين للمسرفين	كما زُين لهذا الكافر ، زين لغيره من المشركين أعمالهم من الكفر والعصيان .
أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا	أهلكنا الأمم التى سبقتكم بسبب تكذيبها أنبياءَها .
بالبينات	بالآيات والحجج الدالة على صدقهم .
وما كانوا ليؤمنوا	أهلكناهم لعلمنا أنهم لا يؤمنون ، لاستمكان الكفر من قلوبهم .
كذلك نجزى القوم المجرمين	بمثل هذا الجزاء نجزى المشركين من أهل مكة ومن غيرهم .
ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم	ثم أسكناكم الأرض من بعدهم ، وجعلناكم تعمرونها .
لننظر كيف تعملون	لينظر الله عملكم ، ويوازن بينه وبين عملهم ، فإما ثواب ، وإما عقاب .

مجمل المعنى

١ — دعا محمد صلى الله عليه وسلم أهل مكة إلى الإسلام ، فكذبه أكثرهم ، ولم يؤمنوا به ، وقالوا إمعاناً فى عدم الإيمان به ، وفى استصغار شأنه : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم » ، فرد الله عليهم بأنه لو بادر إلى استجابة دعائهم فى الشر فى أموالهم ، وفى أنفسهم ، مثل دعاء الناس على أنفسهم إذا يئسوا ، ودعاء بعضهم على بعض إذا غضبوا ، كما يبادر إلى استجابة دعائهم فى

الخير فيما ينفعهم فى أموالهم وأنفسهم – لو فعل الله بالناس هذا لهلكوا، وعجل لهم الموت، وانتهت آجالهم، ولكن الله يتركهم يتخبطون في ضلالهم؛ ولو أنهم على عقل وتفكير، لكان إمهال الله لهم، وعدم تعجيله عذابهم، سبباً فى إيمانهم.

٢ – والإنسان إذا أصابته شدة، أو لحقه جهد، من فقر أو مرض، أو إشراف على غرق، أو إصابة زرع أو ضرع أو ولد بمكروه، فزع إلى الله تعالى، ودعاه وتاب إليه واستغفره، ولا يفتر لسانه، ولا يغفل قلبه، عن التضرع والدعاء، فهو يدعوه قائماً وقاعداً، معتدلا ومضطجعاً، وعلى أى حالة من حالاته، حتى إذا استجاب الله له، وكشف عنه ما به من ضر، وأعاده إلى حالة الأمن والاطمئنان – نسى ما كان فيه من شدة، ونسى فضل الله عليه فى تفريج كربته، وعاد إلى ما كان عليه من ضلال وطغيان – وليس هؤلاء الناس بدعاً من الناس، فقد سبقهم كافرون غيرهم، زين لهم الشيطان أعمالهم، فأخذهم الله بذنوبهم، وحال هؤلاء مثل حالهم، وسيكون مصيرهم مثل مصيرهم.

٣ – ويوجه الله نظر هؤلاء المعاندين إلى ما حدث للأمم السابقة قبلهم، فإنهم لما كذبوا رسلهم ولم يؤمنوا بهم، ورفضوا أن يستجيبوا لهم، أهلكهم الله بعذاب من عنده، وهؤلاء قدر عليهم الله أنهم لا يؤمنون، بما طَبع على قلوبهم، فاستمكن منها الكفر، فعميت عن النظر فى حقيقة الرسالات، والمعجزات الباهرات، والبراهين النيرات، وهذا الإهلاك الذى قدره الله على السابقين من المكذبين، هو نفسه الإهلاك الذى يقدره على المكذبين من اللاحقين.

٤ – هؤلاء الناس الذين أهلكهم الله قبلكم بسبب تكذيبهم رسلهم، جعلكم الله خلفاء فى الأرض من بعدهم، فسكنتموها، وعمرتموها، وجاءكم رسول كما جاءهم رسول، والله مطلع عليكم، وعلى ما تعملون مع رسوله، فإن أطعتم فلأنفسكم، وإن أسأتم فلها.

(٦)

من الآية ١٥ إلى الآية ٢٠ من سورة يونس

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ، قُلْ: مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ —١— قُلْ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ، وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ —٢— فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ —٣— وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَقُولُونَ: هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ، قُلْ: أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ —٤— وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ —٥— وَيَقُولُونَ: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، فَقُلْ: إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ، فَانْتَظِرُوا، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ —٦—

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإذا تتلى عليهم	وإذا تقرأ عليهم .
آياتُنا بينات	آيات القرآن واضحات .
لا يرجون لقاءنا	لا يخافون لقاءنا .
ائت بقرآن غير هذا	هات قرآنا على غير طريقة هذا القرآن، ونظمه وترتيبه .
أو بدِّله	أو غير بعض ما فيه .
من تلقاء نفسى	من عندى .
إلا ما يوحى إلىَّ	إلا ما ينزله إلىَّ ربى.
ولا أدراكم به	ولا أعلمكم به على لسانى .
لبثت فيكم عمراً من قبله	أقمت فيكم أربعين سنة ، لم أقرأ عليكم فيها شيئاً منه ، لأنه لم ينزل علىّ .
فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً	لا أحد أظلم ممن يختلق على الله الكذب .
لا يُفلح المجرمون	لا ينجح المكذبون ، ولا يفوزون بما يطلبون .
أتنبئون الله	أتخبرون الله بشىء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشركاء .
سبحانه وتعالى عما يشركون	تنزيهاً له عن أن يكون له شريك .
وما كان الناس إلا أمة واحدة	وما كان الناس إلا على الفطرة : على دين واحد ، وملة واحدة ، إبّان نشأتهم الأولى .

الألفاظ	شرحها
فاختلفوا	فافترقوا .
ولولا كلمة سبقت من ربك	ولولا تقدير من الله سبق به علمه .
لقضى بينهم	لحكم بينهم بإنجاء المؤمنين ، وإهلاك الكافرين .
لولا أنزل عليه آية من ربه	هلا أنزل عليه ربه دليلا نعرف منه أنه مُحق فيما يدعو إليه .
إنما الغيب لله	لا يعرف أحد غير الله ما يقع فى الغيب .
فانتظروا إنى معكم من المنتظرين	فانتظروا قضاء الله بينى وبينكم ، وأنا منتظره معكم .

مجمل المعنى

١ — الذين لا يخافون لقاء الله يوم القيامة ، لأنهم لا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب ، ولا بعقاب ، إذا قرئت عليهم آيات واضحات من القرآن لا لبس فيها ولا إشكال أنكروها ، وطلبوا من محمد أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن ليس فيه ما يستبعدونه من البعث والحساب الجزاء ، وما يكرهونه من ذم آلهتهم ، والوعيد على عبادتها ، أو أن يستبدل ببعض آياته آيات أخرى ، بأن يجعل آيات الوعيد وعداً ، وآيات الحرام حلالا ، والحلال حراماً ؛ وحينما قالوا هذا ، أمر الله نبيه أن يخبرهم أنه ليس من حقه أن يبدله من تلقاء نفسه ، إلا أن يكون ذلك بوحى يوحى إليه ، لأنه لا يتصرف فى شىء من هذا إلا عن طريق الوحى ، وأمر الله ، فهو ليس إلا رسولا

يبلغ ما يؤمر به . وأنه يخشى الله إن خالفه ، فغيَّر وبدل كما يشتهون ، لأنه إن فعل يعرض نفسه لعذاب يوم عظيم هوله ، وهو يوم القيامة .

٢ — ويأمره كذلك أن يقول لهم : إن تلاوة القرآن وعدم تلاوته بإرادة الله ، فقد أراد أن أتلوه عليكم فتلوته ، ولو أراد أنى لا أتلوه عليكم ما تلوته عليكم ، بأن كان لا ينزله علىّ مثلا ، أو ينزله ولا يأمر بتلاوته ، فلا تعرفون من أمره شيئاً ، وإذا لم يكن هذا القرآن من عند الله ، وكان من وضعى أنا ، فلماذا لم أذِعه عليكم قبل الآن ، وقد قضيت بينكم عمراً طويلا قبل الرسالة ، معروفاً بينكم بالصدق والأمانة ، موصوفاً بالصفات الحميدة ؟ ثم لم أبرح بلدكم حتى تقولوا : إنى أتيت به من عند أحد من الناس ، ولم أقرأ كتاباً ، ولم أتلق العلم على معلم ، حتى تشكوا فى أمرى ، ولو فكرتم فى هذا كله وتدبرتم ، لعقلتم وفهمتم أن هذا القرآن من عند الله .

٣ — لا أحد أظلم ممن يكذب على الله ، وينسب إليه ما ليس له ، ويختلق عليه باطلا ، وإذا كنت أنا أعرف هذا ، وأومن به — فكيف أنسب إلى الله ما ليس من عنده ، وكذلك لا أحد أظلم من الذين يكذبون بآيات الله ، ولا يستمعون للحجج الدالة على وحدانيته ، كما تفعلون أنتم ، وأنتم بفعلكم هذا مجرمون ، تحرمون أنفسكم الفوز بالجنة فى الآخرة ، وتتردّون فى النار .

٤ — هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون ، يعبدون من دون الله آلهة أخرى ، وهذه الآلهة لا تستطيع أن تجلب لهم نفعاً ، ولا أن تدفع عنهم شرًّا ، فى الدنيا والآخرة ، لأنها أصنام صنعوها بأيديهم ، فهى أحط منهم قدراً ، وأقل شأناً ، ومع ذلك ، فإن عقولهم السخيفة تتصور أن هذه الأصنام الحقيرة تشفع لهم عند الله يوم القيامة ، لذلك أمر الله نبيه أن يقول لهم :

أتخبرون الله أن له شريكاً فى ملكه ، أو شفيعاً بغير إذنه ؟ والله لا يعلم لنفسه شريكاً فى السموات ولا فى الأرض ، لأنه لا شريك له ، فلذلك لا يعلمه ، وإذا لم يكن معلوماً له مع إحاطة علمه بكل شىء ، لم يكن موجوداً ، ومثل هذا مشهور فى العرف ، فإن الإنسان إذا أراد نفى شىء ، عن نفسه يقول : ما علم الله هذا منى ، يريد أنه ما حصل هذا قط ، ونظير هذا : قوله فى الآية ٣٣ من سورة الرعد : " أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟ " هذا باطل لا ظل له من الحقيقة ، وعلم الله على غير ما تظنون ، فالأصنام لا تشفع ، ولا تضر ولا تنفع ، تنزه الله تنزيهاً عن أن يكون له شريك فى ملكه وفى عبادته .

٥ — بدأ الناس فى هذه الأرض على دين واحد ، هو دين الفطرة ، دين التوحيد ، ثم توالت الدهور فتفرقت الأهواء ، واختلفت السبل ، وضلت العقول ، وتعددت الديانات ، وصار لكل منهم شرعة ومنهاج ، ولولا أنه سبق فى علم الله وتقديره أنه لا يهلك قوماً إلا بعد أن يستنفدوا أعمارهم ، ويبلغوا الآجال التى حددها لهم — لحكم بإهلاك أهل الشرك وأبادهم ، ونجى أهل الإيمان وأسعدهم ، وأزال ما بينهم من خلاف فى شأن دينهم .

٦ — هؤلاء المشركون يقولون : هلا أيد ربُّ محمد محمداً ، بأن أنزل عليه دليلا يدل على أنه مرسل من عنده ، كأنهم غير مقتنعين بأعظم معجزة نزلت عليه وهى القرآن ، ويريدون أن يجعل لهم الجبال ذهباً ، أو أن يحيى من مات من آبائهم ، أو أن يكون له عصاً كعصا موسى ، أو غير ذلك ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم : إن نزول الآية المقترحة غيب ، والغيب لا يعلمه إلا الله ، وهذا أمره يتصرف فيه بما يشاء ، وكيف يشاء ، فإن شاء أظهر الآيات التى تقترحونها ، وإن شاء لم يظهرها ، فانتظروا قضاء الله بينى وبينكم ، وأنا منتظر معكم ، وسيميز الله الحق من الباطل ، ويفرق بين الضلال والإيمان .

(٧)

من الآية ٢١ إلى الآية ٢٥ من سورة يونس

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ، إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا، قُلِ: اللهُ: أَسْرَعُ مَكْرًا، إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ —١— هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا، جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ، وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ، دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ: لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ —٢— فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، يَاأَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ، فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ —٣— إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ،

كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ –٤– وَاللّٰهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ، وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء	منحناهم خِصباً من بعد جدب أصابهم .
إذا لهم مكر فى آياتنا	إذا لهم تكذيب بآياتنا ، واستهزاء بخيراتنا .
أسرع مكراً	أعجلُ عقوبةً ، مجازاة لهم على مكرهم .
إن رسُلنا	إن الحفظة من الملائكة .
يكتبون ما تمكرون	يحصون عليكم ما تفعلون من السوء .
يسيِّركم فى البر والبحر	يحملكم فى البر على الدواب وغيرها ، وفى البحر على السفن ، ويحفظكم فى سيركم .
فى الفُلك	فى السفن ، والفلك : تطلق على المفرد والجمع .
بريح طيبة	بريح رخاء لينة ، تسيِّر السفن برفق .
ريح عاصف	ريح شديدة .
وجاءهم الموج من كل مكان	واندفع الموج إليهم من كل جهة .
وظنوا أنهم أحيط بهم	وأيقنوا أن البلاء واقع بهم ، وأنهم لا محالة هالكون.
دعوُا الله مخلصين له الدين	فزعوا إلى الله بقلوبهم مستغيثين ، ولم يستنجدوا بآلهتهم التى يعبدونها من دونه .

الألفاظ	شرحها
لئن أنجيتنا من هذه	لئن خلصتنا من هذه الشدائد والأهوال .
لنكونن من الشاكرين	لنكونن من المخلصين لك ، المؤدين لطاعتك .
إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق	بمجرد نجاتهم عادوا إلى فسادهم وبغيهم ، وشركهم .
إنما بغيُكم على أنفسكم	إنما نتيجة أعمالكم السيئة واقعة عليكم .
متاع الحياة الدنيا	تتمتعون ببغيكم متاع الحياة الدنيا .
إلينا مرجعُكم	رجوعكم إلينا ، ونحن دون غيرنا الذين نحاسبكم .
فننبئكم بما كنتم تعملون	فنخبركم بعملكم ، ونجازيكم عليه .
من السماء	من السحاب .
فاختلط به نبات الأرض	فأنبتت الأرض بسببه أنواعاً مختلفة من النبات ، متقاربة متشابكة .
مما يأكل الناس والأنعام	من أنواع النبات التى يتغذى بها الإنسان ، ومن أنواعه التى يتغذى بها الحيوان .
زخرُفها	زينتها بالنبات .
وازّينت	وتزينت به .
أنهم قادرون عليها	أنهم مستمكنون منها ، يستطيعون أن يتصرفوا فيها على ما يشتهون .
أتاها أمرُنا	أتاها عذابنا ، وأمرنا بهلاكها .
فجعلناها حصيداً	فجعلنا زرعها كالمحصود ، فلم يبق فيها شىء .
كأن لم تغن بالأمس	كأنها لم تكن منذ وقت قريب آخذة زخرُفها ، متزينة عامرة .
إلى دار السلام	إلى دار الجنة .

الألفاظ	شرحها
ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم	ويوفق من يشاء . إلى الإسلام ، وطريقه الصحيح القرآن .

دعاء النبىّ لقريش

روى أن قريشاً لما استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد ، وحتى صار أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، فجاء أبو سفيان إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال له : يا محمد ، إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا من الجوع ، فادع الله لهم ، فدعا لهم ، فكشف الله عنهم العذاب ، ومُطروا ، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول ، ولكن الله كان أسرع مكراً منهم ، لأنه سبق فى تقديره أنه سيعاقبهم على مكرهم وتكذيبهم فى الدنيا والآخرة ، وهو عالم به ، ولا يخفى عليه شىء منه .

مجمل المعنى

١ — من طبع الإنسان أنه إذا نزلت به مصيبة ، أو حلت به ضائقة ، من قحط أو مرض ، أو تعرض لغرق ، أو آفة فى زرعه ، أو نكبة فى ولده ، أو غير ذلك من أنواع الشدائد التى تنزل به ، من طبعه أنه يلجأ سريعاً إلى الله يستغيث به ، ويدعوه أن يكشف عنه الكرب ، ويزيل الخطب ، فإذا أدركته رحمة الله ، وكشف عنه ما به ، أسرع إلى نسيان ما كان فيه

من شدة ، « ومر كأن لم يدعُنا إلى ضر مسه » ، وعاد إلى استهزائه بآيات الله ، وإنكاره فضله عليه ، ولطفه به ، وهؤلاء لن يتركهم الله، وسيعجل عقوبتهم ، جزاء لهم على مكرهم وجحودهم ، لفضل الله عليهم — وإذا ادعوْا نسيان ما أتوا من التكذيب والإنكار ، فسيواجهون بأعمالهم مكتوبة ، سجّلها عليهم حفظة أمناء .

٢ — الله سبحانه وتعالى هو الذى يسيركم فى البر ، بما منحكم من قدرة على السير ، وبما سخر لكم من خيل وبغال وحمير وإبل ، وبما أتاح لكم اختراعه من قُطُر وسيارات وطيارات ، وهو الذى يسيركم فى البحر ، بما أقدركم على صنعه من سفن شراعية أو بخارية ، تحملكم وتحمل أنعامكم ودوابكم ، ومتاعكم وتجارتكم ، وغير ذلك ، ويحدث لكم أحياناً وأنتم سائرون فى البحر ، محمولون على سفنكم ، تسوقها ريح طيبة رخاء على ماء هادئ ساكن ، فتفرح نفوسكم ، وتطمئن قلوبكم ، وتنتعش أبدانكم للحال الطيبة التى أنتم عليها ، يحدث أن ينقلب الحال غير الحال ، فتعصف الريح بكم ، ويهيج البحر ، ويعلو الموج ، ويحيط بالسفينة من كل مكان ، فتضطرب اضطراباً شديداً ، وتعلو وتهبط ، وتميل وتعتدل ، وتتيامن وتتياسر ، ويفلت الزمام من يد الرُّبان ، فتتوقعون الشر ، وتترقبون الموت ، وترتجف القلوب ، وتفكرون فى الخلاص ، فلا تجدون لكم ملجأ تلجئون إليه إلا الله تعالى ، تفزعون إليه بقلوبكم متلهفين ، ولم تدعوا ما كنتم تعبدون من دونه ، لاعتقادكم عجزهم وضعفهم ، وتقسمون أنه إذا أنجاكم من ذلك الهوْل الشديد النازل بكم ، تؤمنون به ، وتشكرون له ، وتخصونه بالوحدانية والعبادة .

٣ — يستجيب الله لدعائكم ، ويكشف عنكم ما بكم من ضر ، وينجيكم من

موت كان واقعاً بكم ، ويخرجكم سالمين من البر إلى البحر بقدرته ، ولكنكم بمجرد خروجكم من البحر ، ووصولكم إلى الأرض ، تنسون ما كنتم فيه من كرب وضيق ، وتعودون إلى ظلمكم وطغيانكم ، وفسادكم وشِـرْككم ، باغين عادين . وهؤلاء الناس يقول لهم الله تعالى : أنتم إذا بغيتم فى الأرض وأفسدتم ، فإنما إثم ذلك واقع عليكم ، وينتهى تمتعكم بما تعتبرونه متاعاً لكم بانتهاء الحياة الدنيا ، وبعد هذا التمتع الزائف ، ترجعون إلينا وحدنا ، ونخبركم بما ارتكبتم من آثام ، وما اجترحتم من سيئات ، ونعاقبكم على كل ما فعلتم من بغى وضلال .

٤ ــ هذه الحياة الدنيا ، وما يكتنفها من المتع التى يحس الناس لها حلاوة ، لا تلبث أن تزول ، مثلها كمثل الماء ، ينزل من السماء مطراً ، فيختلط بالأرض ، فتخرج أنواعاً مختلفة من النبات النضير الجميل ، الذى ينتفع به الناس فيما يأكلون ، فيأخذون حبه وثمره وبقله ، وينتفع به الحيوان فيما يأكل ، فيتغذى على كلئه وشعيره وتبنه ، هذا النبات يظهر على الأرض فيكسوها بهجة ، ويخلع عليها جمالا وزينة ، ويملأ العين إعجاباً ، والنفس فتنة ، فتكمل حسناً ونضارة ؛ يبلغ نبات الأرض هذا المبلغ من الجمال والكمال ، ويصل إلى غايته من النضج والاستحصاد ، ويعتقد أصحاب تلك الزروع أنه لم يبق إلا الحصد والجنى والقطف ، وأنهم سيغدون على حرثهم مبتهجين ، فيأتى أمر الله ، وينفذ قضاؤه ، وتنزل نازلة بهذه الزروع على غفلة من أهلها ليلا وهم نائمون ، أو نهاراً وهم غافلون ، فتأتى عليها ، ولا تبقى شيئاً منها ، فكأنها ما كانت بالأمس ، فلا الديار ديار ، ولا الثمار ثمار ، بل أخنى عليها الذى أخنى على لُبَـد ، بهذا المثل العالى الحكيم ، الذى يمثل حقيقة حال الدنيا ، وانخداع

الناس بها ، يفصِّل الله آياته للناس الذين لهم عقول يفكرون بها ، لعلهم يهتدون .

٥ — والله إنما يريد أن يدعو الناس إلى ما يُسعدهم فى الآخرة ، وإلى النعيم الدائم الذى يجدونه فى الجنة ، حيث الألفة والأمان والاطمئنان ، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة لله ورسوله ، والله يدعو كل الناس إلى العمل لدخول الجنة ، ويهدى من يشاء منهم إلى الطريق الصحيح الموصل إليها ، وهو طريق الإسلام .

(٨)

من الآية ٢٦ إلى الآية ٣٠ من سورة يونس

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ —١— وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ، مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ —٢— وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ، وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ : مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ —٣— فَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ —٤— هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
للذين أحسنوا الحسنى	للذين آمنوا بالله ورسله ، وأحسنوا أعمالهم فى الدنيا ، المثوبةُ المضاعفة .
وزيادة	ولهم زيادة ، فوق ما يستحقونه على عملهم بعد المضاعفة .
ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة	ولا يغشى وجوههم غَبرة ، ولا أثر للهوان والذل .
والذين كسبوا السيئات	والذين ارتكبوا السيئات ، كالشرك والتكذيب .
جزاء سيئة بمثلها	جزاء سيئة سيئة مثلها ، بلا زيادة .
وترهقُهم ذلة	ويغشاهم ذل وهوان .
مالهم من الله من عاصم	لا يمنعهم مانع من عقاب الله ، ولا يُرفرف عليهم شىء من فضل الله .
كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل	تسودّ وجوههم ، فكأنها غطيت بقطعة من سواد الليل الحالك .
ويوم نحشرهم جميعاً	واذكر يوم نحشر الناس جميعاً : مؤمنين وكافرين .
مكانكم	لا تبرحوا مكانكم ، حتى تنظروا ما يُفعل بكم .
وشركاؤكم	وآلهتكم التى عبدتموها من دونى .
فزيَّلنا بينهم	ففرقنا بينهم وبين آلهتهم ، وميزنا بعضهم من بعض .
ما كنتم إيانا تعبدون	ما كنتم تخصوننا بالعبادة ، إنما كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم .

الألفاظ	شرحها
فكفى بالله شهيداً	فكفى بالله حكماً عدلا .
إن كنا عن عبادتكم لغافلين	إننا كنا فى غفلة عن عبادتكم ، لا ننظر إليها ، ولا نرضى عنها .
هنالك	فى هذا المكان ، وهذا الزمان ، الذى تحاسبون فيه .
تبلو كل نفس ما أسلفت	تذوق كل نفس جزاء ما قدّمت من عمل ، وتعرف حقيقته وصفته ، وتتلقى أثره
وردوا إلى الله مولاهم الحق	وأرجِعوا إلى الله الصادق فى ربوبيته ، حيث لا حكم إلا حكمه .
وضل عنهم ما كانوا يفترون	وغاب عنهم ما كانوا يدعون من شفاعة آلهتهم .

مجمل المعنى

١ — الذين هداهم الله بهدايته ، ووفقهم إلى دينه الصحيح ، فآمنوا بنبيه ، وأتمروا بما أمر ، وانتهوا عما نهى ، لهم المثوبة المضاعفة فى الجنة ، ويزيد الله لهم فوق ما يستحقون من جزاء مضاعف ، جزاء آخر ، كأن يكرمهم بالتجلى لهم ، ويمتعهم بالنظر إليه ، وهؤلاء المهديُّون تكون وجوههم يوم القيامة ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، فلا يغشاها عبوس ولا اصفرار ، ولا يظهر فيها أى أثر من آثار الذل والهوان ؛ والذين هذه صفتهم ، هم الذين يختصهم الله بالجنة ، ويخلدهم فيها خلوداً دائماً ، جزاء لهم على إيمانهم وتصديقهم .

٢ — والذين كسبوا السيئات ، فلم يؤمنوا بنبيهم ، ولم يستجيبوا لدعوة رسولهم ،

وظلوا دائبين على شركهم وكفرهم — هؤلاء يعاقبهم الله مِثلا بمثل ، وسيئة بسيئة ، وهم إذا نظرت إليهم وقت الحساب ، وجدت وجوههم قد غشيتها ذلة ، وبدا عليها خزى العار ، وهوان الانكسار ، بسبب غضب الله المصبوب عليهم ، وعذابه النازل بهم ، ولا يمكن أن يمنعهم مانع من عذاب الله ، ولا أن يحميهم حام من مقت الله ، ولا أن يرفرف عليهم عطف من الله ، ولكنك تنظر إلى وجوههم ، فتراها فى سوادها كأنها قطعة من سواد الليل الحالك ، وهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات ، هم الذين يدخلون النار ، ويخلدون فيها خلوداً دائماً ، جزاء لهم على كفرهم وتكذيبهم .

٣ — والله سبحانه وتعالى حين يحشر الناس جميعاً يوم القيامة : المؤمن منهم والكافر ، والبر والفاجر — يأمر الكافرين الفجرة أن يلزموا أماكنهم التى أمرهم بالوقوف فيها ، فلا يبرحوها ، ويأمر آلهتهم التى اتخذوها أنداداً يعبدونها من دونه ، أن تكون معهم فى أماكنهم ، ثم يفرق بينهم وبين آلهتهم ، وتتبرأ الآلهة منهم ، وتقول لهم : إنكم حين كنتم تعبدوننا ، ما خصصتمونا بالعبادة ، وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم ، ولو كنا نسمع أو نعقل أو نبصر أو نعلم — لرددناكم إلى الحق ، ونهيناكم عن عبادتنا .

٤ — ثم تستمر الآلهة التى عبدوها من دون الله فى مخاطبتهم فتقول : حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم ، حاكماً عدلا علينا وعليكم ، فإنه يعلم أننا كنا غافلين عن عبادتكم إيانا ، فما نظرنا إليكم ، وما رضينا عنكم ، وما شعرنا بكم ، ولكن عقولكم السخيفة ، وكبرياءكم المقيت ، هو الذى أضلكم ، وأرداكم فى هاوية الشرك والضلال .

٥ — فى يوم الحساب ، وفى مكان الحشر ، ترى كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء محضراً ، وتعرف حقيقته وصفته ، وتتلقى ما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، ويعرف الكافرون الحق واضحاً ، ويرجعون إلى ربهم الواحد القهار ، ويبطل ما كانوا يتخرصونه من الافتراء على الله ، وما يدعون من أن آلهتهم وأصنامهم شركاء لله ، وأنها تشفع لهم عنده ، وأنها تقربهم إليه يوم القيامة .

(٩)

من الآية ٣١ إلى الآية ٣٦ من سورة يونس

قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ : اللَّهُ ، فَقُلْ : أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ —١— فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ؟ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟ —٢— كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ —٣— قُلْ : هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلِ : اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ —٤— قُلْ : هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ؟ قُلِ : اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى ؟ فَمَا لَكُمْ ؟ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ —٥— وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يملك السمع والأبصار	يستطيع خلقهما ، وتسويتهما على الوضع العجيب الذى ترونه .
ومن يدبِّر الأمر ؟	ومن يتولى تدبير أمر العالم كله ، وتصريف شئونه ؟
أفلا تتقون ؟	أفلا تخافون عاقبة الشرك فى العبودية ، بعد أن اعترفتم بالربوبية ؟
فذلكم الله ربكم الحق	مَن هذه قدرته ، فهو الرب الذى لا يجوز أن يعبد غيره .
فماذا بعد الحق إلا الضلال	الإنسان إذا لم يكن على حق فهو على ضلال ، ولا وسط بينهما .
فأنى تُصرفون	فكيف تتركون الحق من تصديق وتوحيد وغيرهما ، إلى الضلال من تكذيب وشرك وغيرهما ؟
كذلك	كما قد صُرف هؤلاء المشركون عن الحق إلى الضلال .
حقت كلمة ربك	وجب قضاء الله وحكمه فى سابق علمه .
على الذين فسقوا	على الذين خرجوا عن طاعة الله إلى عصيانه والشرك به .
أنهم لا يؤمنون	أنهم لا يصدقون بوحدانية الله ، ولا بنبوّة رسول الله .
من شركائكم	من آلهتكم التى تعبدونها .

الألفاظ	شرحها
يبدأ الخلق	ينشئه إنشاء من غير أصل .
فأنى تؤفكون ؟	فأىّ وجه عن الطريق الصحيح تتوجهون ؟
أم من لا يهدِّى إلا أن يُهدى	أم من الذى لا يهتدى إلا إذا تولى غيره هدايته .
إلا ظناً	إلا ما لا علم لهم بحقيقته ، فهم يتبعون آباءهم من غير تفكير .
إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً	إن الشك لا يغنى شيئاً عن اليقين ، ولا يقوم مقامه .

مجمل المعنى

١ — يقيم الله الحجة على المشركين فى إثبات التوحيد ، بعرض بعض الأمور الحسية عليهم ، وتوجيه نظرهم إليها ، وبدأ ذلك بأن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسألهم :

ا — من الذى يرزقكم من السماء، بما ينزل عليكم من المطر الذى ينبت الزرع ، ويسقيكم أنتم وحيواناتكم ،ويرزقكم من الأرض، بإنبات النبات على اختلاف شكوله وصنوفه ، وبما يخرج من بطنها من أنواع المعادن وغيرها ؟

ب — ومن الذى يستطيع أن يخلق الحواس التى تتمتعون بها ، ويجعلها بحالة تصير معها صالحة لأن تنتفعوا بها فى حياتكم انتفاعاً يريحكم ، كالسمع والبصر ، ويحميها مما يصيبها من الأدواء ؛ والسمع والبصر

إنما خصا بالذكر ، لأن فاقدهما فاقد لقيمة الحياة عنده ، وهو بدونهما لا يستطيع أن يحيا كما يجب أن يحيا الإنسان الكامل المتعلم ؟

ﺣ — ومن الذى يستطيع أن يخرج الحىّ الذى ينمو ويتحرك ويحس ، من غير الحىّ الذى لا نماء له ، ولا حركة فيه ولا حس ، ويجعل الحياة فى الحىّ تنتهى إلى الموت والفناء ، ويخرج من هذا الحىّ المتحرك هناتٍ لا نماء فيها ولا حركة لها ، وهى مواد الإخصاب فى الذكور والإناث ، ويخرج النبات من الأرض الميتة بماء المطر ؟ فهو يملك الحياة ، يهبها ويسلبها فى العوالم كلها ، ويخرج الأموات من الأحياء ، والأحياء من الأموات ؟

ء — ومن يتولى تدبير أمور العالم كله ، ويتصرف فى شئونه ، على ذلك النظام الجميل البديع ، الذى يدخل فيه الرزق ، وخلق الحواس ، وإخراج الأحياء والأموات كل منهما من الآخر ؟

ﻫ — إذا وجهت إليهم هذه الأسئلة كلها ، فإن جوابهم عنها أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يفعل ذلك كله ، فإن أجابوا فقل لهم : أتعترفون بهذا كله ، ولا تخافون غضب الله عليكم ، وعقابه لكم ، بسبب كفركم وعنادكم ؟

٢ — الذى يفعل ذلك كله هو الله الحق ، الذى تجب عبادته وتوحيده ، وقد اعترفتم بالحق ولم تتبعوه ، فأنتم ضالون ، لأن المسألة لا تحتمل إلا أحد أمرين : حق أو ضلال ، ولا وسط بينهما ، فإن لم تكونوا على الحق فأنتم على الضلال ، وحيث أنكم أقررتم بما هو حق ، فكيف تتحولون عنه إلى الباطل ؟

٣ — وبمثل هذا الذى وجب به قضاء الله فى سابق علمه ، وهو أن الضالين لن

يهتدوا ، والخارجين من طاعة الله إلى عصيانه ، والشرك به ، لن يعودوا مؤمنين .

٤ — أمر الله نبيه أن يسأل المشركين أيضاً : هل من هذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله من يستطيع أن يبدأ الخلق وينشئه من غير أصل ، ثم يفنيه ، ثم يعيده كما خلقه أولا ؟ وإذا لم تكونوا قد شاهدتم ذلك عياناً فى الإنسان والحيوان ، فإنكم تشاهدونه فى النبات : ينزل الله المطر على الأرض الميتة ، فتحيا بالنبات ، ثم يموت النبات بموت الأرض فى بعض فصول السنة ، ثم تحيا بعد ذلك ، وهكذا دواليك : موت وحياة ، وبدء وإعادة ، وأمر الله الرسول أن يجيب بما يرشدهم ، فقال : الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فكيف تنكرون ذلك ؟ وإلى أى طريق ضلال أنتم مسوقون ؟

٥ — ثم سلهم أيضاً : هل من آلهتكم هذه التى تعبدونها من دون الله ، من يستطيع أن يرشد إلى الحق ، ويهدى إلى الصواب ، وهو أن الله واحد ، لا معبود سواه ؟ وقل لهم : إن الله وحده هو الذى يهدى إلى الحق ، وإذن أيهما أحق بالاتباع : الذى يهدى إلى الصواب ، ويرشد إليه ، أم العاجز الذى لا يستطيع أن يهدى غيره ، أو يهتدى هو بنفسه ، مع حاجته إلى غيره يهديه ؟ وأنتم أيها الناس حالكم عجب ، فأى شىء أصابكم ؟ وكيف تحكمون بجواز عبادة هذه الآلهة من دون الله ؟

٦ — بيَّن الله حال المشركين فى أنهم إنما يفعلون ما يفعلون من الشرك والإنكار للبعث ، وتكذيب الرسول ، غير معتمدين على دليل يقينى ، وإنما هو ظن لا يعتمد على دليل ، وتقليد أعمى لا يقوم عليه برهان ، وأن هذا الظن لا يغنى عن اليقين ، ولا يقوم مقامه ، والله عالم بما يفعلون من الأفعال التى لا تعتمد على يقين ، فيؤاخذهم عليها يوم القيامة .

(١٠)

من الآية ٣٧ إلى الآية ٤٦ من سورة يونس

وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ ، وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ ، لَا رَيْبَ فِيهِ ، مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ –١– أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ : فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ –٢– بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ –٣– وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ –٤– وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : لِى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ –٥– وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ؟ –٦– وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ –٧– إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ، وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ –٨– وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِلِقَاءِ اللَّهِ ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ –٩– وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ –١٠– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وما كان هذا القرآن أن يُفترى	وما يصح أن يكون هذا القرآن فى علو منزلته وإعجازه مفترى .
ولكن تصديق الذى بين يديه	ولكن كان تصديقاً لما تقدمه من الكتب السماوية .
وتفصيل الكتاب	وتوضيح ما فُرض من الأحكام والشرائع فى كتب الله المتقدمة .
لا ريب فيه	ليس فيه مثار للشك .
من رب العالمين	من وحى الله الذى لا يقدر عليه غيره .
أم يقولون افتراه	أيزعمون أنك اختلقته ؟
بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه	بل سارعوا إلى التكذيب بما لم يقفوا على حقيقته من وعيد القرآن .
كذلك	مثل هذا التكذيب .
وإن كذبوك	وإن أصروا على تكذيبهم إياك .
يستمعون إليك	يصغون إليك إذا قرأت القرآن أو شرحته .
ينظر إليك	تقع عينه عليك حينما تقرأ القرآن .

الألفاظ	شرحها
يحشرهم	يجمعهم بعد بعثهم ، ويسوقهم إلى موقف الحساب .
كأن لم يلبثوا	كأنهم لم يمكثوا فى الدنيا .
إلا ساعة من النهار	إلا مدة قليلة من النهار .
يتعارفون بينهم	يعرف بعضهم بعضاً .
إما نُرِينك	إن نُرِك ، أدغمت إن الشرطية فى ما : الزائدة .
ثم الله شهيد	ثم الله مطلع وشاهد .
على ما يفعلون	على ما يأتون من محاربتك وتكذيبك .

مجمل المعنى

١ — هذا القرآن عظيم الشأن فى ألفاظه وأساليبه ومعانيه ، وفيما اشتمل عليه من علوم وحكم وأحكام ، وفيما حوى من آداب وتشريع ، وسياسة واجتماع ، ما كان يصح أن يفتريه على الله أحد ، إذ لا يقدر عليه غيره ، ولكنه نزل على محمد موضحاً ومفصلا ، ومصدقاً لما نزل من الوحى على رسل الله السابقين ، مثل إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، كالدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبسط ما يحتاج إليه الناس فى هدايتهم من العقائد والتشريعات ، وهذا الكتاب نزل غير مشكوك فى أنه من وحى الله ، الذى لا يقدر عليه غيره .

٢ — أيقول هؤلاء الكفار المعاندون : إن محمداً اختلق هذا القرآن ؟ فعجباً لهم ! كيف يظنون هذا ؟ وهم يعلمون أنه واحد منهم ، نشأ نشأتهم ، ولغته لغتهم ، وطبيعى أنهم يقدرون على مثل الذى يقدر عليه من شئون البشر ،

فعليهم أن يأتوا بمثل ما أتى به محمد وليدعوا من دون الله من استطاعوا من خلقه ، للاستعانة به على الإتيان بمثله ، إن كانوا صادقين فيما زعموا أنه مفترى .

٣ — لقد سارع الكفار إلى التكذيب بالقرآن بمجرد سماعه ، قبل أن يفقهوه ويتدبروا كُنه أمره ، ويقفوا على تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب ، حتى يتبين لهم : أصدق هو أم كذب ؟ وذلك لفرط نفورهم مما يخالف دينهم ، وإصرارهم على تقليد أسلافهم ، تمرداً وعناداً ، وحسدهم للرسول على أن آثره الله بالرسالة دونهم ، ومثل هذا التكذيب كذب الذين من قبلهم من كفار الأمم الماضية ، فانظر كيف أخذناهم بالهلاك والعذاب .

٤ — ومن الكفار من يؤمن بالقرآن فى نفسه ، ويعلم أنه حق ، ولكنه يتعمد التكذيب والجحد عناداً ، ومنهم من لا يصدق به ويشك فيه ، ويصرُّ على الكفر ، وربك أعلم بهؤلاء المفسدين : المعاندين منهم والمصرِّين .

٥ — وإن أصر الذين يكذبونك على تكذيبك ، فقل لهم : لى عملى الذى تقتضيه الرسالة ، من تبليغ وتبشير وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتعليم أحكام وإرشاد وغير ذلك ، ولى على ذلك كله جزاء من عند الله ، ولكم عملكم الذى قمتم به ، من تكذيب وشرك ، ونفور من الهداية ، وظلم وفساد ، وغير ذلك ، وعليكم وِزر عملكم ، وجزاؤكم عليه من عند الله ، والله لا يؤاخذ واحداً منا بما يعمل الآخر ، ولكنْ كل منا مؤاخذ بما يعمل ، فلى دينى وعملى ، ولكم دينكم وعملكم ، وفى هذا تطمين للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وتصبير له على عنادهم ، حتى أمر بالجهاد فجاهدهم ، كما ورد فى آيات أخرى .

٦ — ومن هؤلاء المشركين من يسمع ما تبلغه إياه ، ويُنصت لك حين تبلغه ، ولكنه لا يتأثر بما تقول ، ولا يسمع أو يستمع ، ولا يعقل أو يتدبر ،

فقلبه منصرف عنك ، فهو والأصم سواء ، والله لم يرزقك القدرة على إسماع الصُّم ، وإقدارَ غير العاقل على التعقل ، وغير المتدبر على التدبُّر ، وإنما القادر على هذا كله هو الله سبحانه وتعالى .

٧ — وكذلك من هؤلاء المشركين من يوجه نظره إليك ، وتلتقى عينه بعينيك ، وينظر إليك وأنت تتلو القرآن ، وتفسر ما يشتمل عليه من أحكام ، ولكنه مغلق القلب ، أعمى البصيرة ، فلا يعى مما تقول شيئاً ، وأنت غير قادر على هداية من عمى قلبه ، وعلى توفيقه للإيمان ، وقد قدّر الله عليه أنه لا يؤمن ، وهو سبحانه القادر على هداية الأعمى ، وشرح صدره للإيمان ؛ وفى هذا تسلية للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، ألا يحزن على عدم إيمان الكافرين من قومه ، وردٌّ لطمعه فى إيمانهم ، لأن الله قدّر عليهم ألا يؤمنوا .

٨ — والله سبحانه وتعالى عادل ، فلا يظلم الأشقياء من عباده الذين لم يمنحهم قلوباً ذات بصيرة تهتدى بها ، ولكنه بذلك تصرف فى عباده على ما أراد وقدّر ، وقد هيأ لهم الأسباب ، وبيّن لهم طريقى الخير والشر ، وترك لهم أن يختاروا لأنفسهم ، أمّا وقد اختاروا طريق الغواية والضلال ، فهم الذين ظلموا أنفسهم ، وسببوا لهم غضب الله عليهم ، فحق عليهم عقابه ، والمولى جل وعلا لم يسلبهم وسائل الاستدلال ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بترك الاستدلال ، وتعطيل وسائله .

٩ — واذكر يا محمد يوم يحشر الله هؤلاء الكافرين فى موقفهم الرهيب يوم القيامة ، حيث يبعثهم الله من قبورهم ، ويسوقهم سوقاً إلى موقف الحساب والجزاء فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فيعجبون مما يظنون من قصر المدة التى قضوها فى الدنيا ، حتى ليخيلُ إليهم ، أنهم لم يقيموا فيها إلا وقتاً قصيراً من النهار ، يتعرف فيه بعضهم إلى بعض ، ثم

لم يلبث أن انقضى ذلك الوقت ، هؤلاء الناس خسروا السعادة فى الآخرة بما فعلوا فى الدنيا من تكذيب لنبيهم ، وإشراك بربهم ، وإنكار ليوم حسابهم ، وهم بهذا كانوا ضالين .

١٠ — والله تعالى مؤاخذ هؤلاء الكافرين بكفرهم حتماً ، سواء أرأيت بعض ما يقع عليهم من العذاب فى حياتك من قتل وأسر، أم لم تره لوفاتك ، وبعد هذا يكون مرجعهم إلى الله يوم القيامة ، فيؤاخذهم بما فعلوا ، ويُنطق ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

(١١)

من الآية ٤٧ إلى الآية ٥٦ من سورة يونس

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ، فَإذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ —١— وَيَقُولُونَ : مَتَى : هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ —٢— قُلْ : لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ —٣— قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَارًا ، مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ؟ —٤— أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؟ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ؟ —٥— ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا : ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ؟ —٦— وَيَسْتَنْبِئُونَكَ : أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ : إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ —٧— وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ —٨— أَلَا إِنَّ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ —٩— هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قُضى بينهم بالقسط	حكم بينهم بالعدل .
متى هذا الوعد	فى أى وقت يكون هذا العذاب الذى يهددنا به محمد .
لكل أمة أجل	لكل أمة وقت محدود قدّره الله لبقائها ، تهلك بعده .
أرأيتم	أخبرونى عن حالكم .
بياتاً	فى وقت مبيتكم بالليل .
أو نهاراً	أو فى وقت عملكم .
ماذا يستعجل منه المجرمون	ما أعظم ما يستعجل المجرمون من هذا العذاب وما أهوله وأفجعه !
أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن ؟	أئذا وقع عليكم العذاب تؤمنون ، فيقال لكم تهكماً وتوبيخاً : آلآن تؤمنون مضطرين ، ولا ينفع الإيمان ؟
ذوقوا عذاب الخلد	ذوقوا العذاب الدائم الذى لا ينقطع .
ويستنبئونك	ويسألونك مستخبرين .
أحقٌّ هو ؟ .	أيقع فى الآخرة حقيقةً العذاب الذى تخوفنا به فى الدنيا ؟
إى وربى	نعم ، أقسم لكم بربى إنه واقع بكم .
ظلمت	أشركت وكفرت .

الألفاظ	شرحها
ما فى الأرض	كل شىء فى الأرض .
لافتدت	لجعلته فداء لها من عذاب الله .
وأسروا الندامة	وأخفوا حسرتهم وندمهم على ما كان منهم .
وقُضى بينهم بالقسط	وحكم الله بينهم بالعدل .
إن وعد الله حق	إن ما وعد الله به على لسان رسله واقع حتما .

مجمل المعنى

١ — لكل أمة من الأمم السابقة رسول أرسله الله إليها ، فى الوقت المناسب لإرساله ، والرسول يعلّم أمته أصول الدين ، ويقيم الحجة على المكذبين ، فإذا كان يوم القيامة جاء رسولهم ، وشهد عليهم ، والله يحكم بينه وبين قومه بالعدل ، ولا يظلمهم فى قضائه الذى قدره عليهم .

٢ — يبالغ كفار مكة فى الاستهانة بالرسالة المحمدية وفى إنكارهم لها ، حتى لقد استعجلوا الرسول ما وعدهم به من العذاب ، وقالوا : متى تقوم القيامة ؟ ومتى يكون الحساب ؟ ومتى يكون العذاب ؟ ومتى يكون كل ما تزعم أنه واقع علينا بسبب تكذيبنا إياك ؟ أخبرنا إن كنت صادقا فيما تقول .

٣ — وأمر الله نبيه محمداً أن يقول لهم : إن تحديد الموعد الذى يكون فيه الحساب والعقاب علمه عند ربى ، ولا أملكه أنا ولا يملكه غيرى من الناس ، فأنا بشر مثلكم ، لا أملك أن أدفع عن نفسى ضرًّا ، ولا أجلب لها خيراً ، إلا ما شاء الله أن أملكه ، وأن أقدر عليه ، فكيف أحدد موعد

ما أنذركم به ، فالأمر كله لله ، فيقع ما قدّر الله فى الوقت الذى حدده الله ، ولا يعرفه أحد سواه ، وكل أمة من الأمم لها وقت معلوم ، يقع عليها فيه ما يقدره الله لها من الهلاك والعذاب ، فإذا جاء الوقت ، لا يستطيعون هم ولا رسولهم أن يؤخروه ساعة ، ولا أن يقدموه ساعة .

٤ — وأمر الله نبيه أيضاً أن يستخبرهم عن حالهم ، إذا وقع بهم عذابه الذى يستعجلونه ، فى أى وقت من الأوقات ، سواء أكان ذلك فى الليل وهم ساهون نائمون لا يشعرون ، أم فى النهار وهم مشغولون بلهوهم ولعبهم ، أو مكدودون لطلب الرزق ، والضرب فى الأرض ، فأى شىء يستعجلونه منه ؟ إنهم يستعجلون أمراً خطيراً ، ما أهوله وما أفجعه ! إنكم إذن لتندمون على استعجالكم العذاب ، وتدركون خطأكم فى طلبه .

٥ — عجباً لهؤلاء الكفار الذين يستعجلون العذاب ؛ فإنه إذا وقع عليهم آمنوا ، وإذ ذاك لا ينفعهم إيمانهم ، فقد حق عليهم العذاب ، ولم يؤمنوا إلا خوفاً واضطراراً ، بعد أن كانوا يستعجلونه تكذيباً وتمرداً واستكباراً .

٦ — وحين وقوع العذاب ، يقال لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وظلموا رسولهم بالتكذيب والعناد : ذوقوا هذا العذاب الدائم ، وتقلبوا فيه ، وهذا جزاء حق لكم ، واقع عليكم ، محيط بكم ، بسبب ما فعلتم فى الدنيا ، حيث اخترتم الكفر والعناد والتكذيب .

٧ — وبعض هؤلاء المكذبين يسألونك استهزاء ، عما إذا كان ما تنذرهم به من العذاب فى الدنيا والآخرة صحيحاً ، أو مجرد تهديد لهم ليؤمنوا ، فأقسم لهم أن هذا حق واقع ، ما له من دافع ، وليس أحد يعجز الله عن إنزاله بكم ، وليس أحد منكم مفلتاً من هذا العذاب .

٨ — ولو أن كل نفس ظالمة بالكفر والعناد ، تملك جميع ما فى هذه الأرض ، وما عليها : من إنسان وحيوان ونبات ومعادن ، وغير ذلك من كل ما يُملَك

لقدمت هذا الذى تملكه جميعه راضية مطمئنة ، حين ينزل بها العذاب ، لتفتدى نفسها به ، وهؤلاء الظالمون حين تقع أعينهم على العذاب الذى سينزل بهم ، ويرون طلائعه عياناً ، يندمون أشد الندم، ويتحسرون أشد الحسرة ، ولكنهم يخفون ذلك بينهم وبين أنفسهم ، أو بينهم وبين ربهم ، وقد حكم الله بين رؤساء المشركين وبين مرءوسيهم بالحق ، وحكم بين المشركين جميعاً وبين رسلهم بالحق أيضاً حكماً عادلا ، لا يشوبه ظلم ، فلم يظلمهم كما ظلموا أنفسهم ، وكما ظلموا نبيهم ، وكما ظلم كبارهم صغارهم ، وأقوياؤهم ضعفاءهم .

٩ — والله قادر على إنفاذ حكمه ، فهو القادر الذى يملك العالمين جميعاً ، ويتصرف كما يشاء ، وعلى ما يشاء، لاراد لقضائه، ولا معقب لحكمه ، فوعده حق ، وعذابه حق ، إلا أن هؤلاء المعاندين المستكبرين ينكرون هذا ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث فيما خلق الله ، ليعلموا أن رسولهم يدعوهم إلى ما فيه خيرهم ونفعهم .

١٠ — والله القادر هو الذى يُحيى ابتداء ، ويميت بعد الحياة الأولى، ويُحيى بعد الموت ، ويرجع الناس جميعاً إليه ، ويحشرهم ويحاسبهم ، ويجازى كلاً بعمله .

(١٢)

من الآية ٥٧ إلى الآية ٦٠ من سورة يونس

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ –١– قُلْ : بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ، فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ، هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ –٢– قُلْ : أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ، فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ، قُلْ : آللهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ؟ –٣– وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يأيها الناس	يعنى قريشاً ، أو المراد عموم الناس .
موعظة	وعظ .
وهدى	ورشداً .
ورحمة	ونعمة .

الألفاظ	شرحها
بفضل الله	بما تفضل به عليكم من إرسال محمد إليكم، لهدايتكم إلى الإسلام .
وبرحمته	وبما عطف به عليكم من قرآن وعلم ، وإيمان وتوفيق .
أرأيتم ؟	الخطاب لكفار مكة .
ما أنزل الله لكم من رزق	ما خلق الله لكم من رزق ، وأفاضه عليكم .
آلله أذن لكم	هل أذن الله لكم أن تحرموا وتحللوا على ما تشاءون .
أم على الله تفترون	أم أنتم تكذبون على الله .
يفترون على الله الكذب	ينسبون إلى الله ما لم يأمر به .

مجمل المعنى

١ — يقول الله تعالى للمكذبين المعاندين : جاءكم القرآن وفيه كل ما أنتم فى حاجة إليه ، وقد أجمل الله ذلك فى أربعة أشياء هى :

ا — الموعظة الحسنة ، التى إن نتبعها يصلح ديننا ودنيانا ، وظاهرنا وباطننا .

ب — شفاء الصدور من الغل والحقد والحسد ، وتطهير النفوس من الميل إلى البغى ، وبرؤها من أمراض النفاق والجهل ، والرياء والشك .

ج — الهدى لمن يتبعه ، والرشد لمن يعمل بأوامره ، ويجتنب نواهيه .

ء — الرحمة للمؤمنين ، الذين أنقذهم الله بسبب إيمانهم من الضلال والكفر .

٢ — ويأمر الله نبيه محمداً أن يقول للذين لم يؤمنوا به: بما تفضل الله به عليكم من إرسال محمد إليكم ، وهدايتكم إلى الإسلام ، وبما عطف به عليكم من قرآن وعلم وتوفيق وإيمان ، يكون الفرح الحقيقى ، والشعور باللذة القلبية ، والراحة النفسية ، ولا يكون الفرح بما تجمعون فى هذه الدنيا من مال ونشب ، وفضة وذهب .

٣ — يخاطب الله تعالى كفار مكة ، ويأمر نبيه أن يقول لهم : أرأيتم أيها الناس ، ما خلقه الله لكم من الرزق الذى منه تطعمون ، وبه تتمتعون ، حللتم بعضه ، وحرمتم بعضه ، من تلقاء أنفسكم : فجعلتم بعض ما خلق الله لآلهتكم ، وحرمتموه على أنفسكم ، وجعلتم بعض الأنعام حراماً بالتبحير والتسييب ، ونحو ذلك ، (تراجع الصفحات ٢٥—٢٨ من تفسير الجزء الثامن ، عند قوله : « وقالوا : هذه أنعام وحرث ») ، هذا التحليل والتحريم ، أأذن الله لكم أن تفعلوه ؟ أم افتريتموه أنتم ، وكذبتم على الله ؟

٤ — هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب ، وينسبون إليه ما لم يأمر به ، فيحرمون ما لم يحرمه ، ماذا يفعل الله بهم يوم القيامة ؟ أيحسبون أنه يعفو عنهم ، ويغفر لهم ، لن يكون هذا ، ولكنه سيؤاخذهم ، ويعذبهم بسبب كذبهم عليه ، وادعائهم أنه حرم ما لم يحرمه ، وهو صاحب فضل عليهم بأنه أمهلهم ، ولم يعجل بعذابهم ، إلا أن هذا الفضل لا يعرفه كثير من الناس ، كما لا يعرفون فضله عليهم فى جميع نعمه التى تفضل بها عليهم .

(١٣)

من الآية ٦١ إلى الآية ٧٠ من سورة يونس

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ، وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ، وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ، إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ —١— أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ —٢— الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ —٣— لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ —٤— وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ —٥— أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ —٦— هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ —٧— قَالُوا : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ —٨—

قُلْ : إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ –٩– مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ –١٠– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فى شأن	فى أمر من الأمور ، أو عمل من الأعمال الخاصة أو العامة .
وما تتلو منه من قرآن	وما تقرأ من التنزيل من قرآن لتعرف حكمه ، أو لتبلغه ، أو لتتعبد به .
إلا كنا عليكم شهوداً	إلا ونحن مطلعون على أعمالكم ، محصون لفعالكم ، رقباء عليكم .
إذ تفيضون فيه	إذ تستمرون فى عمله مندفعين .
ولا يعزُب عن ربك	ولا يغيب عن علم الله ، ولا يبعد عنه .
من مثقال ذرة	من قدر ثُقْل ذرة .
إلا فى كتاب مبين	إلا يحصيه إحصاء دقيقاً واضحاً ، فى سجل عظيم .
إن أولياء الله	إن أحبّاء الله والمؤمنين به ، الذين تولى الله حفظهم ورعايتهم .
البشرى	الخير الذى يستبشرون به ، ويسرون له .
لا تبديل لكلمات الله	لا خلف لوعد الله ، ولا تبديل لأخباره .

الألفاظ	شرحها
إن العزة لله جميعاً	إن القوة والغلبة والمنعة جميعاً لله .
إن يتبعون إلا الظن	ليس عندهم دليل يقينيٌّ على أنهم على صواب ، فى أن ما يعبدونه يشفع لهم عند الله .
إن هم إلا يخرصون	وليسوا إلا كاذبين فيما يدعون .
لتسكنوا فيه	لتستريحوا فيه من تعب التردد ، والاضطراب فى الأرض نهاراً ، طلباً للرزق .
والنهار مبصراً	والنهار مضيئاً ، لتستطيعوا فيه أن تعملوا لكسب أرزاقكم وأقواتكم .
سبحانه	تنزيهاً له عما نسبوه إليه ، وافتروا عليه .
إن عندكم من سلطان بهذا	ليس عندكم دليل على ما تزعمون من أن لله ولداً .
يفترون على الله الكذب	ينسبون إليه أنه اتخذ ولداً .
لا يفلحون	لا ينجون من النار ، ولا يفوزون بالجنة .

مجمل المعنى

١ — كل عمل يعمله الإنسان جليلا كان أو حقيراً ، وكل قول يقوله ، صواباً كان أو خطأ ، سرًّا أو جهراً ، وكل شىء يصيبه خيراً كان أو شرًّا ، وكل ما تتلو من التنزيل من قرآن ، وكل ما يجرى للناس أو على الناس ، الله أعلم به علم إحاطة وشمول ؛ وقد خاطب الله النبىّ وأراد الناس جميعاً ، فلا يغيب عنه شىء مهما دقّ أو خفى على حس الناس أو مداركهم ، لذا كانت رقابته سبحانه وتعالى مبسوطة على العالمين جميعاً ، فى الأرض وفى السماء ، وجميع ما يقع منهم مُحصًى إحصاء دقيقاً فى سجلّ عظيم .

٢ — نبَّه الله بعد أن بيَّن لنا أنه محيط بكل شىء علماً ، إلى أن أنصاره ، وأحباءه المخلصين فى عبادته ، المتوكلين عليه — لا يصيبهم ما يخيفهم ويفزعهم ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، مما يصيب الكفار ، ولا يحزنون على ما تركوا من نعيم الدنيا ولم يستمتعوا به ، لأن الله عوضهم من ذلك خيراً منه : ثبات الإيمان ، وقوة اليقين ، ونعيم الآخرة .

٣ — هؤلاء الأولياء الذين يحبهم الله ويحبونه ، هم الذين آمنوا إيماناً صحيحاً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وهم الذين استمكنت من نفوسهم غريزة الخوف من الله استمكاناً قويًّا ، لا يؤثر فيه أى مؤثر ، وهم مبشَّرون بكل ما يسرهم فى الدنيا من النصر ، وخذلان العدو ، والاستخلاف فى الأرض ، وتيسير الحلال من الرزق ، والتوفيق فى فعل الخير ، وغير ذلك ، وفى الآخرة بتطمين الملائكة للمتقين عند الموت وعند البعث ، وبما يثبّت الله به المؤمنين على إيمانهم فى الدنيا ، حتى يصلوا فى الآخرة إلى رضا الله ومحبته ، والله إذا وعد لا يخلف وعده ، وإذا بشرهم أنفذ بشارته ، وذلك فوز عظيم لهم عند الله ، لأن الإنسان لا سعادة له فوق الجمع بين سعادتى الدنيا والآخرة ، ونظير هذا قوله : « يبشرهم ربُّهم برحمة منه ورضوان ، وجنات لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ ، خالدين فيها أبداً » .

٤ — ونهى الله نبيه أن يسلم نفسه للحزن والغم ، بسبب تكذيب قومه إياه ، ومعاندتهم له ، وبسبب كثرتهم وقلة أتباعه ، فإن القوة والمنعة ليست بالكثرة والقلة ، ولكن العزيز من يعزّه الله ، والغالب من يأخذ بيده الله ، لأن الله هو الذى يملك العزة والغلبة ، يمنحهما من يشاء ، ويحرمهما من يشاء ، وهو سميع لما يقولون ، عليم بما يفعلون .

٥ — وإذا كانت العزة له جميعاً ، فإنه يتصرف كما يشاء فيما يملك ، وكل من فى

السموات والأرض ملكه ، فهؤلاء الذين يتخذون له شركاء فى عبادته ، ويعبدونهم من دونه ، ويدعونهم إذا نزل بهم مكروه ، ويقربون لهم القرابين ، هؤلاء لو فكروا قليلا ، لعلموا أنهم يشركون به غير مشارِك ، ويستعينون بغير معين ، ولكن مقاييس الحياة الفاسدة عندهم أفسدت عقولهم ، فخيلت لهم أن يستعينوا بغير الله على الله ، وأن يستشفعوا عنده بغير مشفَّع ، وهذه أوهام باطلة ، وظن آثم ، ليسوا فى اتباعه إلا كاذبين .

٦ — والمستحق للعبادة وحده هو الله القادر ، الذى خلق لكم الزمن ، وقسمه قسمين : ليلا ونهاراً ، أما الليل فقد جعله مظلماً للسكون فيه ، والتماس الراحة ، وأما النهار فقد جعله مضيئاً لمزاولة العمل فيه ، والسعى وراء الرزق ، وهذا هو الأصل فى الليل والنهار ، وإذا كان الإنسان بما يسر الله له من أسباب الحياة ، وبما هيأ له من علم ، استطاع أن يجعل لنفسه ضوءاً يستضىء به ، فليس هو كضوء الله ، وإن تعقد الحياة ، وكثرة ما لابسها من مشكلات . جعل بعض الناس يسعون وراء رزقهم فى الليل ، ويسكنون فى النهار ، ولكن هؤلاء قلة قليلة جداً ، اضطرتهم إلى ذلك ظروف العمل ، ومع ذلك فإنهم لا يشعرون بما يشعر به الذى يعمل نهاراً ، ويسكن ليلا ، من الراحة والاطمئنان ، والشعور بمسايرة طبيعة الحياة ، وفى هذا الذى صنعه الله أدلة بليغة على وحدانيته وقدرته ، عند الذين يسمعون فيفهمون ويتدبرون ، فهو لم يجعل الليل دائماً ولم يجعل النهار دائماً ، لحكمة بالغة ، نتبين منها قدرته تعالى ، ورحمته بعباده ، فإن للأرض دورتين : دورة حول نفسها تتم فى ٢٤ ساعة ، ودورة حول الشمس تتم فى ٣٦٥ يوماً ، وينشأ من دورتها حول نفسها تعاقب الليل والنهار ، وينشأ من دورتها حول الشمس اختلاف الفصول ، وثبت ثبوتاً

علمياً قاطعاً، أن كل كوكب يدور حول نفسه، ويدور حول الشمس، بحيث تتم دورتاه فى زمن واحد، يكون نهاره دائماً فى أحد نصفيه، ويكون ليله دائماً فى النصف الآخر، وتشتد الحرارة جداً فى الأول، وتشتد البرودة جداً فى الثانى، وفى السنين الأخيرة حقق العلماء ذلك، بالنسبة للكوكبين: عُطارد وهو أقرب السيارات إلى الشمس، والزُّهَرَة وهى أقرب السيارات إلى الأرض، فلو أن دورتى الأرض حول نفسها وحول الشمس تقعان فى زمن واحد، لكان الليل فى أحد نصفيها سرمداً إلى يوم القيامة، ولكان النهار فى النصف الثانى سرمداً إلى يوم القيامة، ولكن رحمة الله بعباده جعلت كلا من الدورتين تستغرق زمناً غير الذى تستغرقه الأخرى، فنشأ من ذلك الليل الذى يسكن الناس فيه ويستريحون، والنهار الذى يسعون فيه ويعملون، وتعاقب الليل والنهار للمراوحة بين العمل والراحة، فأى دليل بعد هذا على قدرة الله وقوته، وفضله على خلقه ؟

٧ — زعم المشركون أن الملائكة بنات الله، وزعم اليهود أن عُزيراً ابن الله، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، وهم جميعاً مخطئون فى نسبة الولد إلى الله، لأنه منزه عن كل ما يمس الربوبية، ومما يمسها أن يكون له ولد، وهو غنى بذاته عن الولد، والصاحبة والشريك والند، لأن كل شىء فى السموات، وكل شىء فى الأرض، ملك وخلق وعبيد، فهو لا يحتاج إلى شىء، بل يحتاج إليه كل شىء، وأنتم أيها الكفار حين تنسبون إلى الله الولد، تلقون القول جزافاً من غير تفكير ولا تدبُّر، فليس عندكم دليل تقيمونه على صدق ما تقولون، أو على أنه سبحانه وتعالى لا يملك ما فى السموات وما فى الأرض، فأنتم جاهلون أشنع الجهل، لأنكم

تنسبون إلى الله ما لا يجوز نسبته إليه ، وتفترون عليه بغير علم ، وهذه صفة خسيسة فى الإنسان ، يوبخه الله عليها ، وينكر أن يتصف بها ، مع ما منحه من عقل ، وهيأ له من فكر .

٨ — أخبر هؤلاء يا محمد أن كل من يفترى على الله ، وينسب إليه ما لا يليق ، من اتخاذ الزوجة أو الولد أو الشريك أو الند ، أو غير ذلك ، لا يفوز فى الدنيا ولا فى الآخرة .

٩ — وهذا الذى هم فيه الآن ، مما يتمتعون به من غنى أو جاه ، ليس إلا متاعاً قليلا زائلا ، قصير الأجل ، ينتهى بانتهاء أعمارهم فى الدنيا ، ثم يرجعون إلينا يوم القيامة بالبعث ، فنحاسبهم على ما عملوا ، ونؤاخذهم على كفرهم وشركهم ، ونسبة ما لا يليق إلى ربهم ، ونعذبهم عذاباً شديداً فى نار جهنم ، جزاء ما صنعوا ، وبئس المصير .

(١٤)

من الآية ٧١ إلى الآية ٧٣ من سورة يونس

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ ، إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ —١— فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ —٢— فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ، وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
واتل عليهم	واقرأ عليهم .
نبأ نوح	خبر نوح مع قومه .

الألفاظ	شرحها
كبر عليكم مقامى	ثقل عليكم مكانى وطول مكثى بينكم ، أو طول وقوفى بينكم ، أعظكم وأدعوكم إلى الإيمان .
فعلى الله توكلت	ففوضت أمرى إلى الله ، وجعلته سندى .
فأجمعوا أمركم وشركاءكم	فاعزموا على أمركم عزماً أكيداً ، أنتم وشركاؤكم من الآلهة التى تستعينون بها على الكيد لى .
لا يكن أمرُكم عليكم غُـمّـة	لا يكن ما تعزمون عليه من إيذائى أو قتلى مستوراً بينكم ، بل كاشفونى به .
ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون	ثم اصنعوا ما بدا لكم ، وامضوا فيه .
فإن توليتم	فإن أعرضتم ولم تطيعونى .
فما سألتكم من أجر	فما طلبت منكم أجراً على نصحى جعلكم تنفرون منى ، وما فاتنى أجرٌ بنفوركم وإعراضكم .
أول المسلمين	أول الخاضعين لأوامر الله .
فكذبوه	فاستمروا على تكذيبه بعد هذا الجدال .
فى الفلك	فى السفينة .
خلائف	يخلفون من أهلكهم الله بإغراقهم بالطوفان .
عاقبة المنذرين	مصير الذين أنذرهم نبيهم فخالفوه .

مجمل المعنى

١ — أخبر قومك يا محمد خبر نوح عليه السلام مع قومه ؛ حين أرسله الله إليهم ، وقال لهم متودداً إليهم : يا قوم ، إن كان قد شق عليكم أن إقامتى طالت بينكم بطول عمرى ، وثقل عليكم أنى أقف بينكم ناصحاً داعياً إلى عبادة

الله وتوحيده ، وترك عبادة الأوثان ؛ فجعلكم هذا تفكرون فى التخلص منى ، بطردى ، أو إيذائى ، أو قتلى ، بأى وسيلة من الوسائل — إن كان الأمر كذلك فاعلموا أنى متوكل على الله ، وهو حسبى وثقتى ، والمدافع عنى ، وحافظى من شركم ، وشر آلهتكم وأوثانكم ، إن كانت تستطيع أن تضر ؛ وما دمت متوكلا على الله ، فافعلوا بى ما تريدون ، واعزموا على ما تعزمون ، واستعينوا بمن تشاءون ، ولا تخفوا أمركم ، بل اجهروا به ، واعملوا على تنفيذه ، ولا تمهلونى — لا يقول نوح عليه السلام لقومه هذا إلا إذا كان واثقاً من أن الله ناصره عليهم ، ومنجيه من كيدهم ؛ وبهذا النصر وتلك النجاة ، يعلم هؤلاء المعاندون أن آلهتهم لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ؛ وفى موقف نوح عزاء وتسلية لمحمد عليهما السلام .

٢ — ويستمر حديث نوح مع قومه يقول لهم : وأنتم يا قومى ، إذا لم تسمعوا لدعائى ولم تستجيبوا لنصحى ، ونفرتم منى ، وأعرضتم عنى — فاعلموا أنه لا حق لكم فى النفور والإعراض وعدم الاستجابة ، لأنى لم أطلب منكم أجراً على ذلك ، حتى تهربوا من دفع الأجر ، وهذا لا يهمنى أنا ، لأنى أدعوكم لمصلحتكم ، فلا يزعجنى نفوركم ، وأنا لم أفعل ما فعلت رغبة فى الانتفاع من ورائكم بأجر أتقاضاه منكم ، فإن الذى سيعطينى أجرى ، ويجازينى على ما فعلت ، إنما هو الله الذى أمرنى أن أكون من الخاضعين لأوامره ، المطيعين لما يريد ، المنقادين لأمره ونهيه ؛ لذلك ترونني آمركم بأمره ، وأنهاكم بنهيه .

٣ — كذب نوحاً قومُه ، وأعرضوا عنه ، فعاقبهم الله سبحانه وتعالى بأن سلط عليهم الطوفان فأغرقهم ، ونجا نوح ومن آمن به من الغرق بركوبهم فى

السفينة التى صنعها ، وورثوا الأرض من بعدهم ، وكذلك الذين يكذبونك يا محمد، إن تمادوا فى طغيانهم ، واستمروا فى تكذيبهم ، فستكون عاقبتهم كعاقبة الذين سبقوهم من قوم نوح ، (تراجع قصة نوح عليه السلام مفصلة ، فى الصفحة ١٠٢ من تفسير الجزء الثامن) .

(١٥)

من الآية ٧٤ إلى الآية ٩٣ من سورة يونس

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ، فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، كَذٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ -١- ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهٰرُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ -٢- فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ، قَالُوا : إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ -٣- قَالَ مُوسَى : أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ؟ أَسِحْرٌ هٰذَا ؟ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ -٤- قَالُوا : أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ؟ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ -٥- وَقَالَ فِرْعَوْنُ : ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ -٦- فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ، قَالَ لَهُمْ مُوسَى : أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ -٧- فَلَمَّا أَلْقَوْا ، قَالَ مُوسَى : مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللّٰهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللّٰهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ -٨- وَيُحِقُّ اللّٰهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ -٩- فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنَّ

فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ —١٠— وَقَالَ مُوسَى : يَاقَوْمِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ، إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ —١١— فَقَالُوا : عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ —١٢— وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ —١٣— وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ : أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ —١٤— وَقَالَ مُوسَى : رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ —١٥— قَالَ : قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ، فَاسْتَقِيمَا ، وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ —١٦— وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ، قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ —١٧— آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ، وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ؟ —١٨— فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ، لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا

لَغَافِلُونَ -١٩- وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ -٢٠- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من بعده	من بعد نوح عليه السلام .
رسلا	هم الرسل الذين جاءوا بين نوح وموسى ومنهم : هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب .
بالبينات	بالبراهين والحجج الدالة دلالة قاطعة على صدقهم .
فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل	فأصروا على الكفر إصراراً ، لم يفكروا بعده فى الإيمان بمن سبق من الأنبياء ، فهم لم ينتفعوا برسالة الرسل .
نطبع على قلوب المعتدين	نختم على قلوب الذين يبالغون فى تكذيب الرسل ، فلا يتأثرون بوعظ ولا إرشاد .
وملئه	وأشراف قومه ، وعُمُدِ دولته .
بآياتنا	بالآيات البينات الدالة على صدقه .
فاستكبروا	فلم يؤمنوا استكباراً منهم ، واحتقاراً لشأن نبيهم .
قوماً مجرمين	ناساً كافرين ، تجاوزوا حدودهم فى التكذيب ، والاجتراء على الله وعلى رسوله .

الألفاظ	شرحها
فلما جاءهم الحق من عندنا	فلما ثبت لهم ثبوتاً قاطعاً أن ما جاء به موسى إنما هو الحق الذى أرسله الله به .
لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا	لتصرفنا عن معبود آبائنا — وهو فرعون والأصنام — إلى معبود غيره .
وتكون لكما الكبرياء فى الأرض	ويكون لك أنت وأخيك معك مُلك مصر .
ما جئتم به السحر	الذى أتيتم به الآن هو السحر ، وليس هو الذى أتيت أنا به .
إن الله سيُبطله	إن الله سيظهر بطلانه .
لا يُصلح عمل المفسدين	لا يثبته ولا يبقيه ، ولا يجعله نافعاً .
ويُحق الله الحق بكلماته	ويثبت الله الحق بإرادته وأمره .
ولو كره المجرمون	ولو كره فرعون وقومه ومن على شاكلتهم .
ذرية من قومه	أحداث شبان من قوم موسى ، أو جماعة من قوم فرعون لم يظهروا إيمانهم ، ومنهم امرأته .
وملئهم	وأشراف قومهم وعرفائهم عند فرعون .
أن يفتنهم	أن يبتليهم ابتلاء شديداً ، ليرتدوا عن إيمانهم .
لعال فى الأرض	لعات قاس شديد فى أرض مصر .
وإنه لمن المسرفين	وإنه لمن المتجاوزين حدود الرحمة والعدل والعقل .
إن كنتم مسلمين	إن كنتم خاضعين لله ، مستسلمين له دون غيره .
لا تجعلنا فتنة	لا تجعل الكافرين يضلوننا عن ديننا ، ولا تمنحهم فرصة لتعذيبنا .
من القوم الكافرين	من حكم الكافرين وتسلطهم وسيطرتهم .

الألفاظ	شرحها
تبوأا لقومكما بمصر بيوتاً	اتخذا لقومكما بمصر بيوتاً للعبادة والإقامة .
قبلة	متقابلة فى وجهة واحدة .
وبشر المؤمنين	بشر من آمن بك بأن الله منجيهم من فرعون وقومه.
آتيت	أعطيت .
زينة	ما يتزين به من ثياب وحلى وأثاث ونحوها .
وأموالا	نقوداً وعقاراً وحيواناً وزرعاً .
ليضلوا عن سبيلك	ليصرفوا الناس عن الإيمان بك .
اطمس على أموالهم	امحق أموالهم ، وأزلها عنهم ، بما يصيبها من آفات ومرض .
واشدد على قلوبهم	واطمس على قلوبهم ، وزدها قسوة وعناداً .
أجيبت دعوتكما	قبلت دعوتكما ، وبعد القبول يكون التنفيذ .
فاستقيما	فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الإيمان .
سبيل الذين لا يعلمون	طريق الجاهلين الذين لا يعرفون سنة الله فى خلقه .
فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً	فلحقهم فرعون ومن معه ظلماً لهم ، وعدواناً عليهم
آلآن ؟ !	أتُسلم الآن ؟
من المفسدين	من الضالين والمضلين .
ننجيك ببدنك	نخرج جسمك سليما من البحر ، ونجعل الموج يقذف بك إلى الساحل ، ليراك الناس فيعتبروا .
لمن خلفك	لمن بعدك من الناس ، سواء أكانوا فى زمانك أم بعد زمانك .

الألفاظ	شرحها
بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق	أنزلنا بنى إسرائيل منزلا صالحاً طيباً فى بلاد الشام، التى رحلوا إليها .
ورزقناهم من الطيبات	وهيأ الله لهم فى هذه الأرض خير مرتزق .
حتى جاءهم العلم	حتى جاءهم علم الدين ، فاختلفوا فى تأويله .
يقضى بينهم	يحكم بينهم ، ويميز مطيعهم من عاصيهم .

مجمل المعنى

١ — بعث الله سبحانه وتعالى بعد نوح رسلا ، وجعل كلا منهم فى قومه ، فأرسل إلى عاد أخاهم هوداً ، وأرسل إلى ثمود أخاهم صالحاً ، وأرسل إلى مَدْين أخاهم شعيباً ؛ وهكذا أرسل إلى كل قوم رسولا منهم ؛ دعا هؤلاء الرسل قومهم إلى التوحيد، والإيمان بالله ، وتخصيصه بالعبادة ، وأيَّد الله دعواهم بالحجج القاطعة التى لا تقبل شكًّا ولا تأويلا ، فما كان هؤلاء الأقوام ليصدقوا بما جاءتهم به رسلهم ، وما كان المتأخر منهم مصدقاً لما جاء به المتقدم ، لأن المتأخر والمتقدم اجتمعت فيهما صفات العناد والاستكبار والتقليد؛ وبمثل هذا الصرف عن الإيمان، واستغلاق القلوب ، ونفورها من الاستجابة إلى ما أمر به الله رسله ، يطبع الله على قلب كل معتد ، متجاوز حده ، مخالف الدعوة إلى ما فيه خيره .

٢ — ثم بعث الله سبحانه وتعالى بعد الرسل الكثيرين الذين أرسلهم إلى أقوامهم — موسى وهرون ابنى عمران ، إلى فرعون ، وإلى أشراف قومه وعمد دولته ، وأيد الله دعوتهما بما أجرى على يديهما من الآيات والحجج ، التى تقطع

بصحة الرسالة ، وصدق الرسولين فى الدعوة إلى التوحيد ، والإقرار بالعبودية لله ، إلا أن فرعون وملأه استكبروا ، ولم يصدقوا ، فأثموا بما كذبوا ، وظلموا وأفسدوا .

٣ — فلما أظهر الله سبحانه وتعالى الآيات الدالة على صدق ما يدعو إليه موسى وهرون ، وبطلان ما يذهب إليه فرعون وقومه — لم يعترفوا بنبوة موسى ، ولم يصدقوا ما أتاهم به من الحجج والبينات ، ووصفوا ما جاء به أنه سحر مبين ، واضح لكل من ينظر إليه ، ويأخذ بظاهره ، كما يفعلون هم بسحرهم .

٤ — رد عليهم موسى عليه السلام قولهم مستعجباً ، منكراً عليهم أن يصفوا ما جرى على يديه من الآيات أنه سحر ، قائلا لهم : أتقولون للحق لما جاءكم : هذا سحر ؟ ثم استأنف إنكاره فقال : أسحر هذا ؟ وواجههم بهذا الإنكار ، مقرراً اعتقاده أن الساحرين لا ينجحون فى عمل ، ولا يقدرون على إقامة دليل ، أو إبطال حق ، أو تأييد دعوة ، أو تشييد مُلك ، أو نحو ذلك ، وإنما هو شعوذة وإيهام ، لا حقّ وإيمان .

٥ — ردوا على موسى عليه السلام رداًّ فيه روغان الثعالب ، فقالوا له : أتريد أن تصرفنا عن ديننا الذى وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا ، وتُخرجنا إلى الدين الذى أتيت به ، لتكون زعيماً لنا ، ورئيساً دينياًّ ، ثم يجتمع لك ما يترتب على الزعامة الدينية من زعامة دنيوية ، فيكون لك ولأخيك هَيْلٌ وهيلمان ، وملك وسلطان ؟ ! أنت تريد هذا ، ولن نمكن لك ، فلن نؤمن بك ، « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » .

٦ — بدأ فرعون بعد ذلك يفكر فى مقاومة موسى ، ووقفه عند حده ، حتى لا يفسد عليه قومه ورجال دولته ، فيتزلزل سلطانه ، وتنهار ألوهيته ؛ فأمر

أن يجمعوا له السحرة ، الذين يجيدون السحر فى أنحاء المملكة ، ويتقنون طرقه ، ويقفون على حيله .

٧ — فانبث رجاله فى أنحاء المملكة ، وأتوا بكل سحار عليم ، فلما التقوا بموسى سألوه : أيلقى ما عنده أولا ، ويعقبون هم من بعده ، أم يلقون هم أولا ، ثم يعقب هو من بعدهم ؟ فقال لهم : ألقوا أنتم أولا ما تريدون أن تُلقوا ؛ وأراد موسى أن يبدءوا هم ، ليدفع حقـُّه باطلَهم .

٨ — ألقى السحرة حبالهم وعصيَّهم ، واستخدموا سحرهم وتخييلهم ؛ فقال لهم موسى : إن الذى فعلتموه هو السحر بعينه ، وليس السحر هو الذى جئت به أنا فسميتموه سحراً ، وإنما جئت بالحق من عند الله مؤيَّداً بآيات الله ، وسيظهر الله للناس بطلان سحركم ، وقبيح خداعكم ، وقد أظهر الله للناس هذا ، بأن جعل عصا موسى حية لقِفت كل ما سحروا من حبال وعصى ، فبطل سحرهم ، لأنهم سعوْا فى أرض الله بما يكرهه الله ، وهذا إفساد لا يقره الله ، ولا يتركه يستقر بين عباده ، فيفسد عليهم دينهم ودنياهم .

٩ — واستمر موسى فى كلامه ، قائلا لهم : إن الله سبحانه وتعالى يثبت هذا الحق الذى جئتكم به من عنده ، ويمحق باطلكم الذى دأبتم عليه ، يفعل الله ذلك بأمره وإرادته ، وبما يوحى إلى رسله ، من مسائل التشريع ، وبما يجرى على يديهم من معجزات ، ومن آيات بينات ، وبتحقيق ما يعدكم به من نصر وتأييد ، ولو كره ذلك المجرمون العاصون ، لأن الله لا يجرى أفعاله على مقتضى هواهم ، ولأن الله يبطل ما يريدونه للناس من شر ، فيغلبون على أمرهم ، ويقعون فى شر أعمالهم .

١٠ — كانت نتيجة هذا الصراع الذى قام بين موسى وفرعون ، أو قام بين

الحق والباطل ، أو قام بين الخير والشر — أنه لم يؤمن بموسى إلا جماعة أحداث من بنى إسرائيل ، وإلا قلة قليلة من قوم فرعون ، كامرأته ومؤمن من آل فرعون ، وكانت هذه القلة تكتم إيمانها ؛ وذلك لأن فرعون بعد هزيمة السحرة أصر على الكفر ، وصمم على قتل موسى ، وقتْل من يؤمن به ، وقتْل السحرة الذين اعترفوا وآمنوا بنبوة موسى ، بعد أن رأوا من عصاه ما رأوا ؛ لهذا كله آمن بموسى من آمن على خوف من فرعون وأعوانه ، حتى لا يلحقهم شرهم ، ولا يقع بهم بطشهم ، فيفتنوهم عن إيمانهم ، ويردوهم إلى كفرهم ؛ لأن فرعون رجل جبار ، مستكبر على الله ، مدع الربوبية ، متجاوز الحد ، مسرف فى الباطل ، ممعن فى الاستبداد بالناس ؛ وإن أول ما يبدأ به فى مضايقة هؤلاء المؤمنين أن يحملهم على المكروه ، ويصدهم عن الإيمان ، ويرغمهم على الارتداد إلى الكفر ، وإلا عذبهم وقتلهم ، وسفك دماءهم .

١١ — وأما موسى عليه السلام ، فإنه قال لمن اتبعوه : يا قوم ، إن كنتم آمنتم بالله حقاً ، وأقررتم بوحدانيته صدقاً ، وخضعتم له خضوع إذعان واستسلام ، فثقوا به ، وسلموا أمركم إليه ، ولا تركنوا إلى أحد غيره .

١٢ — فرد عليه قومه حين سمعوا منه ذلك : قد خصَصْنا الله بالتوكل عليه ، والوثوق به ، والإذعان له ، والإقرار بوحدانيته ، إقراراً لا تشوبه شائبة ، ثم دعوا ربهم ألا يكونوا موضع ابتلاء لفرعون وقومه ، فيرخى الله لهم العنان بأن يتركهم يعذبونهم ، ويقتلونهم ، ويمثلون بهم ، لتكثر سيئاتهم ، فيؤاخذهم بها ، بل سألوه ألا يظهر فرعون وقومه عليهم ، فيجعلهم يحتقرونهم ، ويسيئون معاملتهم ، وألا يسلطهم عليهم ، فيفتنوهم عن دينهم ، ويصرفوهم عن إيمانهم ، وألا يجعلهم سبباً فى صد فرعون وقومه عن الإيمان

بالله ، بل رجوا أن ينعم الله عليهم بالهدوء والطمأنينة على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، فيكون فى ذلك إغراء لفرعون وملئه بالإيمان بموسى وتصديقه ؛ وسألوا الله ألا يفتنهم بفرعون وقومه ، فيضعف إيمانهم ، وألا يفتن فرعون وقومه بهم ، فيمعنوا فى عنادهم وكفرهم .

١٣ — وأتموا دعاءهم بأن سألوا الله سبحانه وتعالى أن يخلصهم من قوم فرعون الذين يستعبدونهم ويستذلونهم ، ويتخذونهم عبيداً وخدماً ، ويعهدون إليهم بأحقر الأعمال وأتفهها ، وأخسها وأدناها .

١٤ — أمر الله موسى وأخاه هرون عليهما السلام ، أن يتخذا لمن آمن بهما من قومهما بيوتاً فى مصر ، تكون لهم مساكن ومعابد ، وأن يجعلوا هذه البيوت بحيث تكون تلقاء وجه من يولى وجهه نحوها ، ويقف قبالتها لإقامة صلاته وأدائها ، فيكون لهم فى صلاتهم وجهة واحدة ، ويمكنهم كذلك أن يستخفوا فى صلاتهم ، إذا خشوا على أنفسهم من أذى فرعون وقومه إذا صلُّوا فى البِيَع ، وفى هذا رخصة لهم أن يؤدوا صلاتهم فى بيوتهم ، مطمئنين على أدائها فى أوقاتها ، وبحدودها وهيئتها ، وأمر الله موسى أن يبشر المؤمنين من قومه بالنجاة من فرعون وأذاه ، ويخلصهم من فتنته .

١٥ — تهيأ موسى عليه السلام ومن آمن به من بنى إسرائيل للخروج من مصر ، لما لم يجد أملا فى إيمان فرعون وقومه ، وقال لربه : ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه كثيراً ، وهيأت لهم أسباب النعيم فى الدنيا ، فمنحتهم حاجتهم من الثياب والحلىّ والأثاث ، وأنعمت عليهم بما شئت من مال وعقار ، وزرع وحيوان ، فتوافرت لهم أسباب العيش الهنىء ، ووسائل الحياة الناعمة الرغيدة ، فانبسط لهم الحظ من الدنيا ، ولم يعترفوا لك بفضل ، فلم يكن هذا سبباً فى إيمانهم ، ولكنه كان سبباً فى ضلالهم

وطغيانهم ، والعمل على إضلال غيرهم ، ثم سأل موسى الله أن يمحق أموالهم ، وأن يزيلها عنهم ، بما يصيبها من آفات وأمراض ، فيَهْلك زرعهم ، وتموت ماشيتهم ، ويحرَق أثاثهم ورياشهم ، وسأله أيضاً أن يباعد بينهم وبين الإيمان ، بعد أن لم يؤمنوا مع كثرة ما دعاهم وأرشدهم ، وأن يصرف قلوبهم عن الخير أكثر مما صرفها ، حتى يستحقوا أن يعجل بعقابهم ، لأن أصحاب هذه القلوب الصّلدة ، والعقول المتحجرة ، والعواطف الغليظة ، والأفكار السقيمة ، لا ينتبهون للحق والعدل ، ولا يستيقظون لأنفسهم ، إلا إذا رأوا العذاب بعيونهم ، إذ ذاك ينتبهون ويندمون ، ولات ساعة مندم .

١٦ – قبِل الله سبحانه وتعالى من موسى وأخيه دعاءهما ، وأمرهما أن يظلا على ما هما عليه من دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان والتوحيد ، وأن يُعِدا أنفسهما وقومهما للخروج من مصر ، وألا يستعجلا العقاب لفرعون وقومه ، كما يفعل الذين يجهلون سُنته في خلقه ، وهي أنه يمهل ولا يهمل .

١٧ – خرج بنو إسرائيل من مصر إلى الشام ، فلما وصلوا إلى البحر قطعوه سالمين في حفظ الله ورعايته ، وكان فرعون ومن معه من أتباعه وجنوده ، قد اتبعوهم ظلماً لهم ، وعدواناً عليهم ، لكي ينال من أذاهم ما يشاء أن ينال إذا أدركهم ، فإما أن يقتلهم ، وإما أن يستردهم إلى مصر ، لينتقم منهم بالطريقة التي يراها ، من استذلال أو تعذيب أو قتل ، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يمكِّنه من رقابهم ، ولم يُفلته من عذابه الذي وعد به موسى من قبل ؛ فإن موسى وقومه نجوا واجتازوا البحر بسلام آمنين ، وأما فرعون وقومه فإن الله أغرقهم ؛ فلما أدركه الغرق ، وعرف أنه هالك لا محالة ، ثاب إلى رشده ، وذابت غطرسته ، وتلاشى كبرياؤه ، وآمن بإله موسى وإله بني

إسرائيل ، وتنازل عن ألوهيته وربوبيته .

١٨ — يقول الله ردًّا على إيمان فرعون ، حين أيقن أنه هالك فى البحر ، بعد أن أطبق عليه الماء : أتُسلِم الآن ؟! لقد فات الأوان ؛ وسنجعل للناس عِبرة فيك ، وقد كنت تدعوهم إلى عبادتك فيطيعون ، وتأمرهم بالسجود لك فيسجدون ؛ ويدعوك موسى إلى الإيمان والتوحيد فلا تستجيب ، ويفر منك ومن عذابك المسلمون من عبادى ، فتنتقم منهم لفرارهم ، وتخرج فى أثرهم ، فينجون وتموت ؛ وهكذا تصير جيفة لا حول لها ولا قوة ، يراك الناس على ذلك فيتعظون ، ويذكرون ماضيك فيعتبرون ، فعليك وعلى نفسك وِزْرُ عصيانك نبيَّك ، وإفسادك أهل مصر .

١٩ — وفى هذا الوقت الذى تموت فيه ، ننجى جسمك من أن يبتلعه اليمُّ ، ومن أن يصير طعاماً لحيوان البحر فتُنسى ، بل نسخِّر الموج الذى يقذف بك على الساحل ، ليجتمع الناس حولك ، ويعرفوا قدرك ، ويقفوا على ما صرت إليه ، وبئس المصير ، فتصير لهم ولمن بعدهم عِبرة ، وليزداد بنو إسرائيل إيماناً ، وليعرفوا أن الله قد استجاب لنبيهم ، وحقق له ما وعده من عذاب أليم ، ينزله بفرعون وقومه المخالفين العاصين .

وإن فى هذه القصة كلها لعبرة واضحة ، وعظة بالغة ، إلا أن كثيراً من الناس لا يسهل عليهم أن ينتبهوا إلى ما حولهم ، وأن يقفوا على سر ما يجرى فى الحياة ، وما ينطوى عليه من عظات بالغات ، وآيات بينات ، ، والله يأمر أن يفكر الإنسان دائماً فى كل ما حوله ، وأن يفتح قلبه وعقله ، لكل ما يدور فى الحياة ، حتى يكون يقظاً لأمر الله ، بعيداً عن الغفلة التى يذمها الله .

٢٠ — بعد أن نجى الله موسى وقومه ، أنزلهم منازل طيبة فى أرض مباركة ، من

بلاد الشام ، وهى فلسطين ، ورزقهم رزقاً حلالا طيباً ، وظلوا ينعمون بعض الوقت بخير هذه البلاد، حتى اختلفوا فى أمر دينهم ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، والله سبحانه وتعالى يحكم بينهم يوم القيامة ، ويقضى لبعضهم على بعض ، وكل مجزى بعمله، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر.

وفى الصفحة ١٢ وما بعدها من تفسير الجزء التاسع، تفصيل واف لقصة سيدنا موسى مع فرعون وقومه .

(١٦)

من الآية ٩٤ إلى الآية ٩٧ من سورة يونس

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ ، فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ –١– وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ –٢– إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ –٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك	فإن كنت فى شك من صدق ما قصصنا عليك من قصص الأنبياء السابقين .
فاسأل الذين يقرءون الكتاب	فاسأل الذين يقرءون كتب الأنبياء ، كاليهود والنصارى .
لقد جاءك الحق من ربك	لقد ثبت عندك بالأدلة والبراهين ، أن ما أتاك هو الحق .

الألفاظ	شرحها
فلا تكونن من الممترين	فلا تكونن من الشاكّين .
بآيات الله	بحجج الله وأدلته .
من الخاسرين	من الذين ساء حظهم .
حقت عليهم كلمة ربك	وجبت عليهم لعنة ربك وثبتت .
لا يؤمنون	لا يصدقون .
كل آية	كل دليل على صدق ما تدعو إليه ، وكل موعظة وعبرة .
حتى يروُا العذاب الأليم	حتى ينظروا بأعينهم العذاب واقعاً بهم ، حيث لا ينفعهم تصديق ولا إيمان .

مجمل المعنى

١ – وجّه الله سبحانه وتعالى الخطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم ، بعد أن قص عليه ما قص من سير أنبيائه ، وقال له : إن كنت فى شك من صدق ما قصصنا عليك من سير المتقدمين ، وما لاقوه من عناد قومهم ، وما عانوه من تكذيبهم وإيذائهم ، كسيرة نوح مع قومه ، وسيرة موسى مع قومه – فاسأل الذين يقرءون الكتب المنزلة عن صدق هذه الأخبار ؛ فالذين آمنوا بالتوراة وقرءوها ، يخبرونك أن ما قصصناه عليك صدق ، والذين آمنوا بالإنجيل وقرءوه ، يخبرونك أن ما قصصناه عليك حق ، ويخبرونك فوق هذا أنك مكتوب عندهم ، وأن صفتك مذكورة فى كتبهم ، وأكد الله له أنه قد جاءه الخبر الصحيح ،

الذى لا يحتمل شكّاً ولا تأويلا ، بأنه نبىُّ الله ورسوله ، كما يعلم ذلك أحبار اليهود ورهبان النصارى ، ثم نهاه عن أن يكون شاكّاً مرتاباً فى هذا .

وبعد : فهل شك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن ما أخبر الله به حق ويقين ؟ !

الجواب : أن رسول الله لم يشكّ ، بل لم يتسرب إليه أى ظل من ظلال الشك ، وإذا كان لم يشك فإنه لم يسأل ، وإنما ورد هذا الأسلوب فى القرآن الكريم ، وقد ألِفه العرب فترى الرجل يقول لابنه : إن كنت ابنى فبرّنى ، فإنه ابنه ، وما شك الأب فى الأبوة ، وما شك الابن فى البنوة ، ولكن هذا أسلوبهم .

٢ — كل من يكذب بآيات الله خاسر ، وكل من لا يؤمن بما يجىء به رسله خاسر ، وكل من لم يتعظ بما جرى على من سبقوه من المكابرين والمعاندين خاسر ، لذلك نهى الناس أن يكذبوا فى صورة نهى يوجّه لنبيه محمد ، ومحمد منزه عن أن يشك فيسأل ، ومنزه عن أن يكذب فيخسر .

٣ — إن الذين وجبت عليهم لعنة الله ، وحق عليهم عذابه — إذا دعوا إلى الإيمان والتصديق بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، لا يؤمنون ولا يصدقون ، مهما أقيمت لهم الحجج ، وبسطت لهم الدلائل ، حسية كانت أو معنوية ، حتى إذا أخذهم الله بعذابه ، ورأوا الموت بأعينهم ، استيقظوا من غفلتهم ، وصحوْا من سكرتهم ، وآمنوا بما كذبوا به من قبل ، ولكنه إيمان لا ينفعهم ، فقد فات الأوان ، ومن هؤلاء فرعون ، وقد سبقت قصته ، فقد آمن حين لا ينفعه إيمانه .

(١٧)

من الآية ٩٨ إلى الآية ١٠٠ من سورة يونس

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ، إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ، لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ —١— وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ —٢— . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فلولا كانت قرية	فهلا كان أهل قرية .
كشفنا عنهم	صرفنا عنهم .
عذاب الخزى	عذاب الذل والهوان فى الدنيا .
ومتعناهم إلى حين	ومتعناهم بمتع الحياة الدنيا ، إلى نهاية أعمارهم .
تُكره الناس	ترغم الناس .
إلا بإذن الله	إلا بإرادة الله ومشيئته .

الألفاظ	شرحها
ويجعل الرجس	ويجعل الخذلان والخزى ، والعذاب الذى سببه الكفر الناشئ من تسلط الشيطان .
لا يعقلون	لا ينتفعون بعقولهم .

قصة يونس عليه السلام

كان قوم يونس بِنِينَوَى من أرض الموصل ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام ، يدعوهم إلى الإيمان بالله ، وترك عبادة الأصنام ، فأبَوْا ، وأقام بينهم تسع سنوات يعظهم ، وينهاهم عن عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع ، فأصروا على كفرهم وعنادهم ، فلما يئس منهم ، أخبرهم أن العذاب مصبِّحهم بعد ثلاث ، فقال بعضهم لبعض : إن يونس رجل لا يكذب ، فارقُبوه ، فإن أقام معكم وبين أظهركم ، فلا عليكم ، وإن ارتحل عنكم ، كان ذلك إيذاناً بوقوع العذاب بكم ، فلما كان الليل ، تزوَّد يونس وخرج عنهم ، فلما أصبحوا ولم يجدوه ، أيقنوا أن العذاب واقع بهم ، فتابوا ولبسوا المسوح ، وبرزوا إلى خارج مدينتهم بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، وردوا المظالم إلى أهلها ، حتى كان الرجل يأتى إلى الحجر قد أقام عليه أساس بنيانه ، فيقتلعه ويرده إلى مالكه ، وأعلنوا توبتهم وإيمانهم ، فلما صحّت توبتهم ، رفع الله عنهم العذاب ، بعد أن رأوا مقدماته ؛ ولو نزل بهم العذاب ما نفعهم إيمانهم ولا توبتهم ، كما حصل لفرعون حين قال : « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين » .

مجمل المعنى

١ — فهلا كان أهل قرية من تلك القرى التى أرسل الله إليها الرسل ، آمنوا بما جاء به رسولهم إليهم ، من الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، واستجابوا إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، فنفعهم إيمانهم ، قبل أن يقع العذاب عليهم ؛ ولكنهم كان يؤمن بعضهم ، ويكفر بعضهم ، ينذر النبى الكافرين منهم ، فلا يحفلون بإنذاره ، فيقع عليهم عذاب الله ، ويتحقق وعيد الرسول ، وإذ ذاك ينتبهون لخطئهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويؤمنون برسولهم ، ولكن أوان الإيمان النافع يكون قد فات ، فلا يرفع الله عنهم العذاب ، وكلهم كانوا على هذا ، إلا قوم يونس ، فإنهم بمجرد إحساسهم بأن بوادر ما أنذروا به من العذاب بدأت تظهر لهم ، سارعوا إلى الإيمان ، فرفع الله عنهم ما أوشك أن يصيبهم من عذاب الذل والهوان ، والخزى والعار فى الدنيا ، وهيأ لهم سبيل التمتع طول حياتهم بألوان التمتع ، أفلا يكون فى هذا الذى جرى لمن تقدموا من الأمم مع رسلهم ، عبرة وموعظة لأهل مكة ، فيقلعوا عن تمردهم وعصيانهم ؟ !

٢ — إن كنت يا محمد حريصاً على إيمان الناس جميعاً ، فاعلم أنه لو شاء الله أن يؤمن الناس جميعاً لآمنوا ، ولو شاء أن يخلقهم على الإيمان جميعاً لخلقهم ، ولو شاء أن يكفروا جميعاً لكفروا ، ولكن طبيعة الحياة أن يختلف الناس ، فلا يكونوا أمة واحدة ، ولكن منهم المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والمطيع والعاصى ، والسعيد والشقى ، وليس من عملك أن تكره الناس على الإيمان بك ، والتصديق لك ، فإنه لن يتبعك إلا من أراد الله أن يتبعك ؛ وحرصك على إيمانهم ، لن يزيد عدد الذين سبق فى علم

الله إيمانهم واحداً ، ودعوتك إياهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، لن تنقص عدد الذين سبق فى علم الله إيمانهم واحداً .

٣ — ولا يمكن أن يؤمن أحد بك ، إلا إذا كان سبق فى علم الله آنه يؤمن ، فاجتهادك وإعنات نفسك فى طلب الهدى لأى نفس لا يهديها ، إذا لم يكن الله قدر لها هذا ؛ فهو يرضى عمن يشاء ، ويسخط على من يشاء ، فيحل به الخذلان والخزى ، ويلحقه عار الكفر من تسلط الشيطان عليه ، وصرفه إياه ، عن التأمل فى آيات الله .

(١٨)

من الآية ١٠١ من سورة يونس إلى آخر السورة

قُلِ : انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ —١— . فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ قُلْ : فَانْتَظِرُوا ، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ —٢— . ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ، كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ —٣— . قُلْ : يٰأَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ، فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ ، وَلٰكِنْ أَعْبُدُ اللّٰهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ —٤— . وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ —٥— . وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَنْ مِنَ الظَّالِمِينَ —٦— وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللّٰهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ —٧— قُلْ : يٰأَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا

يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ —٨— وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ، واصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ —٩— .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
قل : تأملوا ، وتدبروا ، واستدلوا ، واعتبروا .	قل : انظروا
والرسل المنذرون ، والإنذارات الأخرى التى تأتى عن طريق الرسل .	والنذر
قدر الله عليهم أنهم لا يؤمنون .	لا يؤمنون
إلا مثل الحوادث التى حدثت لمن سبقهم ممن كذبوا رسلهم .	إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم
يأهل مكة .	يأيها الناس
فى شك من صحة دينى .	فى شك من دينى
فلا أعبد الأصنام التى تعبدونها من دون الله .	فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله
يميتكم .	يتوفاكم
أقبل على دين الله ، غير حائد عنه .	أقم وجهك للدين حنيفاً
فإن دعوت من دون الله ما لا ينفع ولا يضر .	فإن فعلت
من المشركين الظالمين لأنفسهم .	من الظالمين
وإن يصبك الله بما يضرك من مرض ونحوه ، من كل ما فيه بلاء وشدة .	وإن يمسسك الله بضر

الألفاظ	شرحها
فلا كاشف له إلا هو	فلا مزيل له إلا الله .
وإن يردك بخير	وإن ينعم عليه بما ينفعك ، من صحة ونحوها ، من كل ما فيه رخاء ويسر .
فلا راد لفضله	فلا يستطيع أحد أن يرده عنك .
وهو الغفور الرحيم	وهو المكفِّر بالبلاء ، المعافى بالعطاء .
يأيها الناس	يأهل مكة .
قد جاءكم الحق	قد جاءكم الدين الصحيح ، المشتمل عليه كتاب الله .
فمن اهتدى	فمن اختار الهدى ، واتبع طريق الرشاد .
فإنما يهتدى لنفسه	فإنما يختار لنفسه دون غيره الخير .
فإنما يضل عليها	فإنما يختار لنفسه الضلال والشر .
بوكيل	بموكل بكم ، مسلط على تقويمكم .
واصبر	واحتمل تكذيبهم وإيذاءهم .
حتى يحكم الله	حتى يقضى الله بينك وبينهم .
خير الحاكمين	خير من يقضى بين الناس .

مجمل المعنى

١ — أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يأمر قومه بالنظر فى السموات والأرض ، نظر المتأمل الفاحص المدقق ، لأنهم إن فعلوا ذلك ، رأوا ما فيها من آيات كثيرة ، دالة على قدرته تعالى ، وعلى أنه هو وحده المستحق للعبادة والتوحيد ؛ إذ أن هذه السموات وما فيها من كواكب ، وما تجرى عليه الكواكب فى أبراجها ، وما بينها من تجاذب وتماسك ؛ وإن هذه الأرض وما عليها من إنسان وحيوان ونبات ، وما فى جوفها من معادن وجواهر ، ثم ما يتعاقب عليها من ليل ونهار ، وحر وبرد ، وما يصيب سطحها من

خصب وجدب ، وما توزعت عليه من بر وبحر ، وغير ذلك من الأمور الكثيرة — كل أولئك دليل على أنه واحد قهار ؛ ومع ذلك فإن هذه الأيات الكثيرة ، الدالة على وجوده ووحدانيته ، لا يعتبر بها إلا العاقل ، الذى فى طبعه استعداد للإيمان ، وقبول للدعوة ؛ أما إذا لم يكن العقل مستعداً ، ولا القلب مفتوحاً ، فلا تفيد الآيات ، ولا يجدى وعد ولا وعيد .

٢ — وإذا كان الأمر جاريا على النحو الذى ذكرنا عند الأمم المتقدمة ، تأتى إليهم رسلهم ، فيؤمن بعض ، ويكفر بعض ، فينذر الله الكافرين ثم يعذبهم ، فتلك سنة الله ، وهؤلاء سيصيبهم مثل الذى أصاب من كانوا قبلهم ، فهدِّدهم ، وأنذرهم ، وقل لهم : انتظروا ما سيفعل الله بكم ، وأنا منتظر هلاككم ، ووقوع العذاب بكم .

٣ — فإن وقع بكم العذاب الذى نزل بالأمم السابقة ، فإن الله ينجى رسوله ومن آمن به ، كما نجى من قبل رسله ومن آمن بهم ، وهذا حق على الله ، يهلك الكافرين ، وينجى المؤمنين .

٤ — قل يا محمد للذين كفروا بك من قومك : إن كنتم تشكون فى هذا الدين الذى أبلغه لكم ، فإنى لن أعبد ما تعبدون من دون الله من الأوثان التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تبصر ، ولا تغنى عنكم من الله شيئاً ، فدينكم هو الذى يستحق أن يشك فيه ، وهو الذى يجب العدول عنه ، إلى الدين الصحيح القويم الذى أدعوكم إليه ، وهو الدين الذى يدعو إلى عبادة الله ، الذى يقدر على كل شىء ، فهو يميتكم حينما تنتهى آجالكم ، وهو الذى أمرنى أن أصدِّق بما أوحى إلىَّ ، وأن أحمل رسالته إليكم .

٥ — وأمرت كذلك أن أتوجه بقلبى وعقلى ، وأقبل بوجهى على ذلك الدين ، غير حائد عنه إلى يهودية ولا نصرانية ولا وثنية ، وألا أشرك بالله أحداً ،

وألا أجعل بينى وبينه حجاباً ، كما يفعل عبدة الأصنام ، الذين يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله .

٦ — وأمرنى ألا أعبد غير الله ، ولا أدعو الأصنام التى لا تضر ولا تنفع فى الدنيا ولا الآخرة ، فإن دعوت من دونه أحداً ، أكن قد ظلمت نفسى بإشراكى بالله .

٧ — والله وحده هو القادر على كل شىء ، فإن يصبك بما يضرك فى نفسك أو مالك أو عيالك ، فإنه لو اجتمعت الإنس والجن وما يعبد من أوثان ، لكشف هذا الضر عنك، ما استطاعوا أن يكشفوه ، وإن يُرِدك بخير ينفعك فى نفسك أو مالك أو عيالك ، فإنه لو اجتمعت الإنس والجن ، وما يعبد من أوثان وأصنام ، لدفع هذا الخير عنك ، ما استطاعوا أن يمنعوه ؛ لأن الله وحده هو الذى يملك المنع والمنح ، والحرمان والعطاء ، فهو يمنح فضله من يشاء ، وهو وحده المكفر بالبلاء ، المعافى بالعطاء ، يغفر ذنوب التائبين ، ويرحم المؤمنين الطائعين .

٨ — قل يا محمد لقومك : يأيها الناس ، قدجاءكم الدين الحق من عند الله، مفصّلا فى كتاب الله ، فمن آمن به واهتدى ، وسلك قصد السبيل ، فالخير عائد عليه لا على غيره ، ومن كفر به، وضل عن سبيله، وحاد عن الحق ، فإن عاقبة كفره وضلاله واقعة على نفسه لا على غيره ، قل لهم يا محمد هذا ، فأنت لست مسلطاً عليهم ، ولا موكلا بهم ، وإنما أمرهم إلى الله ، وما على الرسول إلاّ البلاغ .

٩ — واتبع يا محمد ما يوحى الله إليك ، وسر على هداه ، واستضئْ بنوره ، واصبر على ما يصيبك من أذى المشركين ، وما ينالك من مكروههم ، حتى يحكم الله بينهم وبينك ، وهو القاضى العادل ، الذى يعطى كلا حقه ، وينيله جزاءه ، له أو عليه .

فهرس الجزء الحادى عشر

١٩٥٤/٤١٣٣

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثانى عشر

تأليف

محمود محمد حمزة

المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان

المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق

المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

سورة هود

نزلت بمكة ، ما عدا الآيات ١٢ ، ١٧ ، ١١٤ فإنها نزلت بالمدينة
وآياتها ١٢٣ آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الخامسة

الر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ -١- . أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ -٢- . وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ -٣- . إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ -٤- . أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ -٥- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
آلر	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول
أحكمت آياته	جُعلت محبوكة الأسلوب ، واضحة المعنى ، قوية التأثير .
ثم فصِّلت	ثم وضعت فى أماكنها من الكتاب ، وبُينت حقائق ما تدل عليه ، مما يحتاج الناس إليه .
من لدن حكيم خبير	من عند بالغ الحكمة تام الخبرة .
ألا تعبدوا إلا الله	لئلا تعبدوا إلا الله .
نذير وبشير	منذر الكافرين عاقبة كفرهم ، ومبشر المؤمنين بحسن عاقبتهم .
وأن استغفروا ربكم	وأن اسألوا ربكم أن يغفر لكم ما كنتم عليه من الشرك .
ثم توبوا إليه	ثم ارجعوا إليه بالطاعة مخلصين فيها ، مستقيمين عليها .
يمتعكم متاعاً حسناً	يجعلكم تنتفعون بالحياة الدنيا ومتعها التى أحلها لكم ، إلى أقصى حدود الانتفاع .
إلى أجل مسمى	إلى أن يتوفاكم بعد انتهاء أعماركم فى وقت محدد .
ويؤت كُلَّ ذى فضل فضله	ويعط كل صاحب خير جزاءه ، لا ينقصه شيئاً .
وإن تولوْا	وإن تتولوا وتعرضوا عن الاستجابة لى .
عذاب يوم كبير	عذاب يوم عظيم ، وهو يوم القيامة.

الألفاظ	شرحها
إلى الله مرجعكم	إلى الله رجوعكم يوم القيامة .
يثنون صدورهم	يعرضون وينحرفون ، ويتولون عنك .
ليستخفوا منه	ليستخفوا من الرسول حتى لا يروا وجهه ، لشدة بغضهم له .
يستغشون ثيابهم	يسترون بها وجوههم ، مبالغة فى الاستخفاء .
ما يسرون وما يعلنون	ما يبطنون وما يظهرون .
عليم بذات الصدور	محيط بما يدور فى العقل ، ويجرى فى الخاطر .

مجمل المعنى

١ — هذا كتاب عظيم الشأن ، علىّ القدر ، محكم الآيات : فأسلوبها قوىّ معجز ، ومعناها واضح ، ودلالتها بالغة ، جميلة التنسيق والترتيب والتبويب ، بينة الأغراض : فهذا قَصص ، وذلك تشريع ، وتلك أحكام ، وهذه عظات ، وهكذا ، وآيات هذا شأنها لا تكون إلا من عند إله بالغ الحكمة ، تام الخبرة ، لا يصدر عنه إلا كل واضح محكم .

٢ — والله أنزل على رسوله ذلك الكتاب المحكم المفصل ، لئلا يعبد الناس ربا سواه ، ولكيلا يشركوا معه غيره فى عبادته ، والإيمان به ، وليس الرسول إلا منذر الكافرين ، مخوفهم سوء مصيرهم إن أصروا على عنادهم وشركهم ، ومبشر المؤمنين الذين يسارعون إلى الإيمان والتوحيد .

٣ — ويأمر الناس أن يسألوا الله المغفرة لهم مما فرط منهم من ذنوب ، وأن يعتصموا بالتوحيد ، ويرجعوا إليه بالطاعة ، ويخلصوا التوبة ، ويستقيموا عليها ، وهم إن فعلوا ذلك يهيئ الله لهم سبل الانتفاع بالمباحات فى الدنيا ،

من مأكل وملبس ومشرب ، وولد صالح ، ومال حلال ، وصحة فى البدن ، وهدوء البال ، وحسن الأحدوثة ، ويكون ذلك كله ميسراً لهم ما داموا أحياء ، حتى إذا انتهت أعمارهم ، وانقضت آجالهم — تمتعوا متاعاً آخر ، هو المتاع الحقيقى ، متاع الحياة الآخرة ، جزاء ما قدموا من عمل صالح فى الدنيا ، لا ينقصهم الله من حقهم شيئاً ؛ أما الذين يعرضون عن الدعوة ، ولا يستجيبون لرسولهم — فإنه ينذرهم عذاباً شديداً يصلَوْنه يوم القيامة .

٤ — والناس جميعاً مرجعهم إلى الله لا فرق بين برّ وفاجر ، ومؤمن وكافر ، وهو قادر على كل شىء ، فيثيب المطيع ، ويعذب العاصى .

٥ — إن هؤلاء الكافرين حينما يمرون بك ، وأنت تقرأ القرآن ، يعرضون عنك ، ويحاولون أن يستخفوا منك حتى لا يروا وجهك ، ويبالغون فى الإعراض والاستخفاء ، حتى إنهم ليأخذون ثيابهم ، ويضعونها فوق رءوسهم ، ويسترون وجوههم ، ينكرونك ، ويتنكرون منك ، ولكن الله يعلم كل شىء ، فلا يخفى عليه إسرارهم وإعلانهم ، ولا ما تنطوى عليه صدورهم ، أو يختلج فى نفوسهم ، ونظير هذا قوله تعالى : « قل : إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله » .

(٢)

من الآية ٦ إلى الآية ١١ من سورة هود

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ —١—. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، لِيَبْلُوَكُمْ: أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَلَئِنْ قُلْتَ: إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ، لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا: إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ —٢—. وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ، لَيَقُولُنَّ: مَا يَحْبِسُهُ؟ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ —٣—. وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ، إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ —٤—. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ، لَيَقُولَنَّ: ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ —٥— إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ —٦—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إلا على الله رزقها	إلا تكفَّل الله بقوتها وما به حياتها .
مستقرها	مأواها الذى تأوى إليه ، ومكانها من الأرض التى تسكنها .
ومستودعها	والمكان الذى تودع إياه قبل الولادة أو بعد الموت .
كل فى كتاب مبين	كل ما تقدم ثابت عند الله ، فى كتاب بيِّن واضح .
فى ستة أيام	فى ستة أوقات مختلفة .
وكان عرشه على الماء	وكان ملكه وسلطانه مقصوراً على الماء الذى لم يكن فى الكون غيره .
ليبلوكم	ليختبركم ويمتحنكم .
أيكم أحسن عملا	أيكم أخلص عملا .
سحر مبين	سحر بيِّن ظاهر .
إلى أمة معدودة	إلى أجل محدود ، ووقت معلوم .
ما يحبسه ؟	أى شىء يمنع هذا العذاب من الوقوع ؟
يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم	ليس العذاب الذى يقع بهم مصروفاً عنهم يوم يأتيهم .
وحاق بهم	وأحاط بهم .
رحمة	نعمة من صحة ومال وسلام وغير ذلك .
ثم نزعناها منه	ثم سلبناه إياها ، ونزعناها منه .

الألفاظ	شرحها
إنه ليئوس كفور	إنه لشديد اليأس من عودة النعمة إليه ، عظيم الكفر بما يتبقى له منها .
نعماء من بعد ضراء	نعمة من بعد حرمان .
ذهب السيئات عنى	انكشف الحرمان والضر ، فلا عودة له .
إنه لفرح فخور	إنه لشديد الفرح ، كثير الفخر .
وأجر كبير	وثواب واسع .

مجمل المعنى

١ — كل كائن حى على وجه الأرض تكفل الله برزقه ، وضمنه له ، سواء أكان ذلك الكائن مما يدب على الأرض بالزحف : كالثعبان والحية ، أو المشى على رجلين : كالإنسان والطير ، أو المشى على أربع : كبقية أنواع الحيوان ، أم لا يدب على الأرض: كالنبات ، وخص الله الذى يدب على الأرض بالذكر ، لأن ضمان الحياة له أعظم أثراً فيه ، وضمان الحياة لا يكون إلا بضمان الرزق ، والتكفل به ، والله الذى كفل الرزق لهذه الأحياء جميعاً ، كفله عن علم وتقدير وتدبير ، فهو يعلم كل شىء عن هذه الكائنات الحية من دواب وغيرها ، يعلم كيف كانت فى الأرحام والأصلاب ، ويعلم مأواها من الأرض التى تأوى إليها ، وتعيش عليها ، ويعلم المكان الذى تصير إليه بعد انتهاء حياتها — وذلك كله — الدواب ورزقها ، ومستقرها ومستودعها — ثابت عند الله ، مقرر فى علمه قبل خلقها

٢ — خلق الله السموات والأرض وما بينهما فى ستة أطوار مختلفة ، مع أنه كان مستطيعاً أن يخلقها كلها فى طرفة عين ، وكان الكون كله قبل خلق السموات والأرض مغموراً بالماء ، فأحدث الله فى ذلك الماء سخونة ، فتصاعد منه بخار كالدخان ، وقد ذكر النيسابورى فى تفسيره ما يأتى : « جاء فى أول توراة اليهود : أن عرش الله قبل خلق السموات والأرض كان على الماء ، فأحدث فى ذلك الماء سخونة ، فارتفع زبد ودخان » ، وإذن يكون المراد من قوله : « وكان عرشه على الماء » ، أن قدرة الله وملكه وسلطانه وعظمته ، كانت مقصورة على الماء الذى لم يكن فى الكون غيره ، والله خلق السموات والأرض ، وما فيها من المخلوقات التى أنتم من جملتها أيها الناس ، ورتب فيها جميع ما تحتاجون إليه من أسباب معايشكم ، ليختبر عباده بما يهيئ لهم من فُرَص التأمل والتدبر والاستدلال على قدرته ووحدانيته ، وليتبين بعد ذلك أن عباده أرقى تفكيراً ، وأسرع إلى الطاعة ، وأبعد عن المحارم ؛ وإنك يا محمد إذا وجهت نظر المشركين إلى ما خلق الله ، واستدللت منه على أن هناك بعثاً بعد الموت ، لما صدقوك ، ولرمَوْك بأنك ساحر ، تتلو عليهم سحراً .

٣ — ويقول الله لنبيه : لئن أخرنا عنهم العذاب إلى الوقت المحدود ، الذى قدرناه لوقوعه ، وهو التنكيل بهم يوم بدر ، ليقولن هؤلاء الكافرون : ما الذى أخر هذا العذاب الذى يهددنا به ؟ وهم إذ يقولون ذلك ، إنما يقولونه سخرية منه ، واستهزاء به ، أو إمعاناً فى التكذيب ، ومبالغة فى العناد والاستكبار ، فليعلم هؤلاء الكافرون أن هذا العذاب الذى يتوعدهم به محمد ، واقع بهم لا محالة ، وهو إذ يقع عليهم ، لا يمكن أن يدفعه عنهم دافع ، ويحيط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه استهزاء وسخرية .

٤ — الإنسان إذا أنعم الله عليه ببعض النعم ، فصار فى سَعَةٍ من الرزق ، ورخاء من العيش ، وجمال من العافية والأمن ، ثم سلبه الله ذلك كله أو بعضه بأى سبب من الأسباب ، يئس من رحمة الله ، وكفر بما يبقى فى يده من نعم ، ونسى فضل الله عليه فى الزمن الذى كان مُسبغاً عليه هذه النعم كلها.

٥ — وإذا أصابته شدة من ضيق العيش ، والتقتير فى الرزق ، ولحقه شر من المرض والخوف ، ثم تفضل الله عليه ، وكشف عنه ذلك كله ، واستبدل به بسْطاً فى العيش ، ونعيماً من الصحة والأمن ، نسى أيام شدته وبؤسه ، واعتقد أن كل ضر ذهب عنه إلى غير رجعة ، وقال : لقد زالت المصائب التى كانت تسوءنى ، ولن يعترينى بعدُ أمثالها ، ولم ينسب ذلك إلى فضل الله عليه ، وطغى فرحه بالنعم ، وافتخاره بما أصاب من خير ، على التفكير والاعتبار بوقت العسرة ، وزمان الشدة ، ونسى شكر الله المنعم المتفضل .

٦ — وليس كل إنسان على هذه الحالة ، فإن الذين يصبرون على الشدة ، ولا يجزعون إذا حلت بهم العسرة ، ويعملون الصالحات ، ولا يصرفهم ذلك عن الطاعات ، ولا يفتنهم ما يصيبهم من خير ومال وعافية وأمن ، عن شكر الله على آلائه — هؤلاء يغفر الله لهم ذنوبهم ، ويثيبهم على صالح أعمالهم ، ويجزل ثوابهم .

(٣)

من الآية ١٢ إلى الآية ١٧ من سورة هود

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ، وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ، أَنْ يَقُولُوا : لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ ، أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ —١—. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ —٢—. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ، وَأَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ —٣—. مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ، وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ —٤—. أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا ، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —٥—. أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ، وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ —٦—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بعض ما يوحى إليك	بعض ما أمِرْت بتبليغه .
ضائق به صدرك	يضيق صدرك ضيقاً موقوتاً .
أن يقولوا	خشية أن يقولوا .
لولا أنزل	هلا أنزل .
إنما أنت نذير	إنما عملك إنذار الكفار وتخويفهم .
والله على كل شيء وكيل	والله هو القائم على تدبير كل شيء .
افتراه	اختلقه وادّعاه .
مفتريات	مختلقات مصنوعات .
وادعوا من استطعتم	واستعينوا بكل من تقدرون على الاستعانة به .
من دون الله	من غير الله .
فإن لم يستجيبوا لكم	فإن لم يقدروا على أن يعينوكم على الإتيان بعشر سور مثل هذا القرآن .
بعلم الله	بمعرفة الله وإذنه .
فهل أنتم مسلمون	فهل أنتم خاضعون لله ، مذعنون له بالطاعة ؟
نُوَفِّ إليهم أعمالهم	نؤدِّ إليهم أجور أعمالهم فى الدنيا .
لا يُبخسون	لا ينقصون شيئاً من أجور أعمالهم ، التى أرادوا بها الدنيا والآخرة .
وحبط ما صنعوا فيها	وبطل ما كانوا يعملون من عمل يطلبون به الدنيا .
وباطل ما كانوا يعملون	وبطل ثوابهم فيه ، لأنهم لم يريدوا به وجه الله .

الألفاظ	شرحها
على بَيِّنَة من ربه	بيَّن الله له دينه فتبيَّنه وتثبت منه ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .
ويتلوه شاهد منه	هو جبريل عليه السلام .
كتاب موسى	التوراة التى أنزلت على موسى .
إماماً	مؤتمًّا به فى أمور الدين .
ورحمة	ونعمة كبيرة على من أنزل عليهم .
من الأحزاب	من الأقوام الذين يتحزبون لدينهم الباطل ، وهم أهل الملل المختلفة ، الذين لم يؤمنوا بمحمد .
فالنار موعده	فمصيره إلى جهنم يوم القيامة .
فلا تك فى مرية منه	فلا تك فى شك من أن الذين يكفرون من الأحزاب موعدهم النار .
إنه الحق من ربك	إن القرآن الذى نزل عليك من عند الله هو الحق .
لا يؤمنون	لا يصدقون .

مجمل المعنى

١ — كان كفار قريش يطلبون إلى محمد صلى الله عليه وسلم معجزات وأدلة على نبوته ، بدل القرآن الذى أنزله الله عليه معجزة له ، فكان بعضهم يطلب أن يأتيهم بكنز ، ومال كثير ، من غير كسب ولا بذل جهد ، وبعضهم يطلب أن يجىء معه ملك من عند الله يؤيده ، وكان محمد يضيق بهذا الكلام ، ويتبرم بهم ، ويهم أن يترك بعض ما يوحى إليه من التعرض لآلهتهم مثلا ، حتى لا يطلبوا منه ما طلبوا ، فأعلمه الله أنه

عليه أن يبلغهم ما يوحى إليه كما يؤمر ، ولا يخشى ما يعترضون به عليه ، ثم لا عليه بعد ذلك ؛ وعمله فى أداء الرسالة أنه يخوفهم عقاب الله ، ويحذرهم غضبه ، إن استمروا على تكذيبهم وكفرهم ، وما يطلبونه من ملك أو كنز ، أو غير ذلك — فإن الله عالم به ، وهو وحده صاحب التصرف ، فإن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل ، وهو المهيمن على كل شىء ، الذى يملك تصريف الأمور ، وتدبيرها على الوجه الذى يراه .

٢ — وإن أبلغ حجة على صدقك يا محمد وكذبهم ، أنهم حينما يقولون : إن هذا القرآن مفترى ، اختلقته أنت وادعيته — أن تأمرهم أن يأتوا بسوَر مثل سوَر هذا القرآن فصاحة وأسلوباً ، وجزالة وحسن بيان — وقد بلغوا أقصى ما يبلغه إنسان فى الفصاحة والبيان — وأن يستعينوا بمن شاءوا من غير الله من كهنتهم وأعوانهم ، وهم إن حاولوا ذلك فلن يستطيعوه ، مع قدرتهم فى البلاغة ، وهذا أكبر دليل على أن القرآن الذى أنزل عليك معجز ، فلماذا يطلبون الكنز أو الملك أو غير ذلك ، وقد تحقق إعجازهم عن السير فى مضمار ما برعوا فيه ، وهو الفصاحة والبلاغة ؟

٣ — فإن لم تستطيعوا أنتم ولا أعوانكم أن تأتوا بعشر سور مثل سور القرآن فصاحة وأسلوباً وحسن ديباجة ، فاعلموا أنه ليس مفترى كما تزعمون ، وإنما هو من عند الله ، يوحيه إلى الرسول بإذنه وأمره ، واعلموا كذلك أن ما يدعو إليه القرآن من التوحيد حق ، فلا إله إلا الله وحده ، فعليكم أن تذعنوا لرسولى بالطاعة ، وأن تؤمنوا بالله وحده ، فهل أنتم بعد هذه الحجة القاطعة منقادون لما يأمر به الله ورسوله ؟

٤ — الذين يعملون أعمالهم طالبين زينة الحياة الدنيا : من مال ومتاع وولد ، وأبهة وعافية ، وأمن وسلام — يمنحهم الله منها ما يطلبون ، ويعطيهم حقهم كاملا ، لا نقص فيه .

٥ — وهؤلاء هم الذين يصومون ويتصدقون ويصلون رياء ، ولا يقصدون بذلك كله وجه الله ، ولكنهم مُراءُون ، يبتغون الوصول إلى عرض من أعراض الدنيا — فالمولى جل وعلا يعطيهم ماطلبوا من الدنيا ، ويوفَّون أجورهم فيها ، وليس لهم فى الآخرة إلا النار ؛ ويبطل ثواب ما عملوا فيها من خير ، لأنهم لا يريدون به وجه الله ، وصار عملهم فى الآخرة عديم الأثر ؛ ونظير هذا قوله تعالى : « من كان يريد العاجلة عجَّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً » .

٦ — ليس الثابت على دينه ، المتبيِّن لحقيقته ، مثل محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى ينزل عليه جبريل عليه السلام ، ويتلو عليه القرآن المعجز ، الذى جاء قبله كتاب موسى — وهو التوراة — إماماً لبنى إسرائيل يهتدون به ، ونعمة كبيرة عليهم ، تخلصهم من أوضار الشرك ، وتهيئهم للفوز بالدارين ، ليس مَن هذه حاله ، مثل المتردى فى الضلالة ، المكذب للرسالات ، الذى لا يهتدى ، ولا يميز بين الحق والباطل ، ولا يعرف إلا الحياة الدنيا وزينتها ؛ أولئك الذين على بينة من ربهم ، يؤمنون بالقرآن ، والذين يكفرون بالقرآن من الناس ، ويتحزبون لدينهم بالباطل ، من أى ملة ودين ، ويتعصبون له — هؤلاء موعدهم النار يعذبون فيها يوم القيامة ، فلا تك يا محمد فى شك من أن هؤلاء الذين يكفرون بالقرآن ، موعدهم النار ، لأن القرآن هو الحق ، ولا ينجو من عذاب جهنم إلا من يؤمن به ، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بأن هذا هو الحق الذى ينبغى الإيمان به : أما المشركون فلاستكبار الرؤساء ، وتقليد العامة ، وأما أهل الكتاب

فلتحريف كتبهم، وابتداعهم ما ليس فيها ، وليس معنى هذا أن النبىَّ كان فى شك ، ولكن المراد أن مثل هذا فى الأحوال العادية عند البشر يوحى بالشك ، فكأنه قيل له : هل أنت يجرى عليك الشك، كما يجوز أن يجرى على غيرك من عامة الناس ؟

(٤)

من الآية ١٨ إلى الآية ٢٤ من سورة هود

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ؟ أُولٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ، وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ : هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ . أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ —١— . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ —٢— . أُولٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ، مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ، وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ —٣— . أُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ —٤— . لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ —٥— . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ ، أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ —٦— . مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ : كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ ، وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ —٧—

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ومن أظْلَم	لا أحد أظلم لنفسه ولغيره .
افترى على الله	اختلق على الله .
الأشهاد	الذين يشهدون عليهم من الملائكة والأنبياء .
لعنة الله على الظالمين	غضب الله على الكافرين .
يصدون عن سبيل الله	يمنعون الناس عن الإيمان بالله .
ويبغونها عوجاً	ويصفون دين الله بالأوصاف التى تنفر منه ، كأن يقولوا : إن سبيله معوجة .
وهم بالآخرة هم كافرون	وهم لا يؤمنون بالبعث وينكرونه .
لم يكونوا معجزين فى الأرض	ليسوا معجزين ربهم أن يعاقبهم فى الدنيا .
من أولياء	من نصراء يتولوْن أمورهم .
يضاعف لهم العذاب	يزاد فى عذابهم .
ما كانوا يستطيعون السمع	ما كانوا قادرين على سماع القرآن سماع متفهم متدبر .
وما كانوا يبصرون	وما كانوا متأملين فى أنفسهم وفى خلق الله ليتعظوا .
خسروا أنفسهم	ظلموا أنفسهم ، فحرموا رحمة الله .
وضل عنهم ما كانوا يفترون	وغاب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله .
لا جرم	لابد ولا محالة .

الألفاظ	شرحها
هم الأخسرون	هم أشد الناس خسراناً .
وأخبتوا إلى ربهم	وأنابوا إلى ربهم ، واطمأنت بالإيمان نفوسهم .
مثل الفريقين	مثل الكافرين والمؤمنين .
كالأعمى	كفاقد حاسة الإبصار ، فهو لا يبصر الأشياء ، والكافر لا يبصر الحق .
والأصم	وفاقد حاسة السمع ، فهو لا يسمع الأصوات ، والكافر لا يسمع دعوة الداعى إلى الإيمان .
هل يستويان مثلا	هل يعتبر هذان الفريقان على منزلة واحدة ، مع اختلاف حاليهما ؟
أفلا تذكرون	أتجهلون فلا تعتبروا بهذا المثل الحسى الواضح ؟

مجمل المعنى

١ — لا أحد أظلم لنفسه ، لأنه آذاها بإدخالها جهنم ، وأظلم لغيره ممن أضلهم أو كذبهم — من هؤلاء الذين يختلقون الكذب على الله ، فلم يصدّقوا أنبياءه ، ولم يؤمنوا بما جاء به وحيه ، من دعوة إلى الحق ، وبما نُزل على رسله من أقوال وأعمال ؛ هؤلاء وأمثالهم يعرضون على ربهم يوم القيامة ، وتعرض أعمالهم ليحاسبوا عليها ، ويشهد عليهم الملائكة المكرمون ، والأنبياء المرسلون ، ويذكرون أنهم هم الذين كذَبوا على ربهم فى الدنيا ، وعليهم غضب الله ولعنته ، بما ظلموا أنفسهم ، وظلموا غيرهم .

٢ — والظالمون فى الدنيا ، الملعونون فى الآخرة ، المطرودون من رحمة الله — هم الذين يمنعون الناس من الإيمان بالله ، والدخول فى طاعته ، ويفتنونهم عن الإسلام ،

ويصفون الدين بالأوصاف التي يتأثر بها ضعاف النفوس والقلوب ، فينفرون منه ، وهم الذين لا يكتفون بظلم أنفسهم بالكفر ، وعدم الإيمان بالبعث ، ولكنهم يتعدون ذلك إلى غيرهم ، فيقاومون الدعوة ، ويصدون عنها .

٣ — هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً ، فيعدلون بالناس من الإيمان والطاعة ، إلى الشرك والمعاصى ، — لم يكن الله عاجزا عن تعذيبهم فى الدنيا بسبب ضلالهم وغيهم ، وبسبب إضلالهم غيرهم وإغوائه ، ومهما حاولوا أن يستخفوا وأن يمعنوا فى الأرض هرباً ، فهم فى قبضته وملكه ، لا يمتنعون عليه إذا طلبهم ، ولا يفوتونه إذا أرادهم ، ولكنه يؤجلهم ليوم معلوم ، وليس لهم أنصار ينصرونهم من دون الله ، وآلهتهم التى يعبدونها أعجز من أن تأخذ بيدهم ، أو تعينهم ، أو تحول بينهم وبين عذاب الله ؛ وهؤلاء الناس يعذبون يوم القيامة عذاباً شديداً مضاعفاً ، لغضبه عليهم ، ختم على سمعهم وعلى أبصارهم ، فهم يسمعون القرآن يُتْلى عليهم ، ولكنهم لا يفهمون ولا يتدبرون ، فكأنهم صُمٌّ لا يسمعون ، وينظرون فى أنفسهم وفيما حولهم فلا يعتبرون ، فكأنهم عُمْىٌ لا يبصرون .

٤ — هؤلاء الناس ظلموا أنفسهم ، وحرموها حقها من رحمة الله بسبب كفرهم ، ولما رأوا العذاب واقعاً بهم ، تلفتوا من حولهم ، يلتمسون آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، لتكون شفيعة لهم عنده ، فلم يجدوها ، وأنّى لهم ذلك وهى كلها إمّا من خلق الله ، وإما تماثيل صنعوها بأيديهم ، من حجر أو خشب ؟ .

٥ — حقّاً ؛ إن هؤلاء الذين اشتروا الدنيا بالآخرة ، هم أشد الناس خسراناً ، وأضلهم ضلالا ، فهم لم يمتنعوا عن الإيمان فحسب ، بل زادوا أنهم افتروا الكذب على الله ، وأثاروا غيرهم ضد الدعوة ، وشوّهوا جمالها بما نسبوا إلى محمد وإلى القرآن من أكاذيب ، وكفروا بالبعث ، وأشركوا

مع الله غيره ، فأى خسران بعد هذا كله ؟

٦ — إن الذين استجابوا للدعوة ، وتفتحت لها قلوبهم ، وآمنوا بالله ورسوله ، وأنابوا إلى ربهم ، واطمأنت بالإيمان قلوبهم ، وخافوا هوْل العذاب يوم القيامة — هم أصحاب الجنة الذين يخلدون فيها ، ولا يخرجون منها ، ويتمتعون بنعيمها .

٧ — مثل الكافرين والمؤمنين الذين ذكرهم الله ، كمثل الأعمى والبصير ، والأصم والسميع ، فالكافر يسمع كلام الله ، ودعوة نبيه إلى الإيمان ، ولكنه لا يتأثر ولا يستجيب ، فهو أصم لا يسمع ، والمؤمن يسمع كلام الله ، ودعوة نبيه إلى الإيمان ، فيسرع إلى الاستجابة ، فهو السميع الذى ينتفع بسمعه ، وكذلك الكافر ، يوجّه نظره إلى أن يتأمل فى نفسه ، وفيما حوله من الأرض والسماء وما بينهما ، فلا يَفْقَه ، والمؤمن ينظر فى نفسه وفيما حوله ، فتتجلى له قدرة الله فيزداد إيماناً ؛ وهكذا كان الفرق بين الكافر والمؤمن ، كالفرق بين الأصم والسميع ، وكالفرق بين الأعمى والمبصر ؛ ولا يمكن التسوية بين الأصم والسميع فى عُرف الناس ، ولا بين الأعمى والبصير ، وهكذا لا يمكن التسوية بين الكافر والمؤمن ، لا فى عرف العقلاء ، ولا عند الله ؛ وإذا كان الناس لا يجهلون ذلك ، فإنه يجب عليهم أن يتذكروا ويتفكروا ، ويتدبروا هذا المثل الحسى الذى ضربه الله لهم ليزدجروا ، ويخرجوا من عَمَى الغَوَاية ، إلى نور الهداية .

(٥)

من الآية ٢٥ إلى الآية ٣١ من سورة هود

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ : إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ —١— . أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ —٢— . فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ ، وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ —٣— . قَالَ : يَا قَوْمِ ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى ، وَآتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ، أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ؟ —٤— . وَيَا قَوْمِ ، لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ، وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ —٥— . وَيَا قَوْمِ ، مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ —٦— . وَلَا أَقُولُ لَكُمْ : عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ : إِنِّى مَلَكٌ ، وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ : لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا ، اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ ، إِنِّى إِذَنْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نذير	أخوفكم غضب الله وعذابه .
مبين	مبين لكم ما أرسِلتُ به من الدعوة .
الملأ	الرؤساء والأشراف والكبراء .
عذاب يوم أليم	عذاب يوم القيامة ؛ وهو عذاب مؤلم .
أراذلنا	سِفلتنا وأخساؤنا ، وأردياؤنا وفقراؤنا وضعافنا .
بادى الرأى	فى ظاهر الرأى من غير تدبر ، ومن غير تريث ، ولا تفكر فى الوقوف على الحقيقة .
من فضل	من ميزة يمتازون بها .
بل نظنكم كاذبين	نظنك كاذباً فيما تزعم من دعوى النبوة ، ونظن أتباعك كاذبين فى تصديقهم إياك .
أرأيتم	أخبرونى .
على بيِّنة من ربى	على حجة ظاهرة من ربى ، ومعجزة دالة على صدقى .
وآتانى رحمة من عنده	ومنحنى النبوة عطفاً منه وتفضلا .
فعُمِّيت عليكم	فأخفيت عليكم بسبب كبركم وجهلكم .
أنلزمكموها ؟	أنرغمكم على قبولها ؟
لا أسألكم عليه مالا	لا أسألكم عليه أجراً من نقد أو ماشية ، فيثقل عليكم .
وما أنا بطارد الذين آمنوا	ليس من شأنى أن أطرد الذين آمنوا بى ، لفقرهم أو ضعفهم مثلا .

الألفاظ	شرحها
ملاقو ربهم	يلقون الله يوم القيامة ، فيجازيهم بإيمانهم .
تجهلون	تسفهون عليهم ، وتجهلون المسائل التى يفضُل الناس بعضهم بعضاً بها .
من ينصرنى من الله ؟	لا أحد يمنع عنى عقاب الله .
أفلا تذكرون ؟	أجهلتم وغفلتم ، فنسيتم أن لهم رباً ينصرهم ؟
تزدرى أعينكم	تنظروا إليهم نظراً استصغار واحتقار .
إنى إذن لمن الظالمين	إن قلت شيئاً مما تقدم فأنا ظالم لنفسى ، وظالم لهم .

تقدمت قصة نوح فى سورة الأعراف فى الصفحة ١٠٢ من تفسير الجزء الثامن ، وتقدم شىء منها فى سورة يونس فى الصفحة ١٠٠ من تفسير الجزء الحادى عشر ، ونكتفى هنا بشرح النص الوارد فيها .

بعد سبق الحديث عن محمد وأصحابه ، وما يعانى من كفار مكة من عناد ومكابرة ، ضرب الله له مثلا بما عانى نوح مع قومه ، ليكون له فى ذلك أسوة .

مجمل المعنى

١ — يؤكد الله سبحانه وتعالى أنه أرسل نوحاً إلى قومه ، يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده ، وقال لهم : إنى أخوفكم عذاب الله ، وأحذركم بأسه وغضبه ، وبيَّن لهم ذلك ووضحه توضيحاً لا لَبْس فيه .

٢ — طلب نوح إلى قومه ألا يعبدوا إلا الله ، وألا يشركوا معه آلهة أخرى ، فهو المستحق وحده للعبادة ، وقال لهم : إنى أخاف عليكم أن يعذبكم الله يوم القيامة عذاباً شديداً ، إن أصررتم على كفركم .

٣ — بعد أن أنذر نوح قومه ، وخوفهم عذاب الله وبأسه ، وبيّن لهم ما يلقونه من عذاب شديد يوم القيامة إن لم يعبدوا الله وحده — لم يقتنع بذلك أشراف القوم وكبراؤهم والرؤساء فيهم ، وأخذوا يجادلونه ويناقضونه ، فقالوا له :

ا : ما أنت إلا إنسان منا ، تأكل وتشرب ، وتتمتع بما نتمتع به ، فلا مزّية لك علينا ، ولم تنفرد بخصوصية من دوننا ، فلِمَ وقع عليك الاختيار من دوننا ؟ ولِمَ نطيعُك ونؤمن بك ؟

ب : لم يتبعك منا إلا أخساؤنا وسِفلتنا ، وضعفائنا وفقراؤنا ، وهؤلاء الناس لم يتبعوك عن تفكير واقتناع بصواب ما جئت به ، ولكنهم بمجرد دعوتك إياهم آمنوا بك ، ولعلهم لو تدبروا وتفكروا فيما دعوت إليه ، لانصرفوا عنك .

حـ : ليس لك ولا لمن آمن بك من هؤلاء الضعفاء الفقراء الأخساء ميزة تمتازون بها علينا ، حتى يخصك الله بالرسالة ، وحتى ينعم عليهم بسرعة الاستجابة لك .

د : نظنك كاذباً فيما دعوت إليه ، وفيما ادعيته من اختصاصك بالرسالة ، ونظنهم كاذبين فى استجابتهم لك ، فليسوا مؤمنين بقلوبهم ، لأنه ليس إيماناً ناشئاً عن اقتناع ، ولكنهم سمعوك فأسرعوا إلى الاستجابة ، من غير تفكير ولا تدبير .

٤ — رد نوح على المعاندين المستكبرين من قومه ردا لطيفاً ، فيه ترفق وإقناع ، فقال لهم فى عطف وحنان : يا قومى ، ويا إخوانى ، أخبرونى : إن الله أرسلنى إليكم ، وعطف علىّ عَطْفَ رضا ، فخصنى بالرسالة من دونكم ، فأقمت بوحْيه الحجة عليكم ، ولكنكم عاندتم وتكبرتم ، وأعرضتم عنى ، فخَفِيَ عليكم الحق الظاهر الواضح ، لانصراف قلوبكم عن النظر والتأمل ،

فهل نرغمكم على قبول الدعوة ، والاستجابة لها ، إذا كنتم تكرهونها ، وتكرهون الرسول الذى جاء بها ، وتكرهون من آمن به ؟ إن الإرغام لا يجوز ، لأن الإيمان يجب أن يكون عن رضاً ويقين .

٥ — يا قومى ، ويا إخوانى ، إنما أبلغكم رسالة ربى ، ولا أسألكم على ذلك التبليغ أجراً من نقد أو ماشية ، حتى لا تظنوا أنى إنما أفعل ذلك طمعاً فى كسب أو غنى ، وإن أجرى على تبليغكم ، ودعوتكم إلى ما فيه خيركم ، قد تكفل به الله الذى أرسلنى إليكم ، وهؤلاء الذين آمنوا بى من الذين تحتقرونهم لفقرهم أو ضعفهم ، وتعتبرونهم أراذل الناس وأخساءهم ، لست أطردهم من حولى لأجلكم ، والله لا يميز بين الناس يوم القيامة بالغنى والفقر ، ولا بالضعة والوجاهة ، وإنما يميز بينهم بالتقوى والصلاح والتوحيد ، والاستجابة إلى دعوة الدعاة من الأنبياء والمصلحين ، وحين يلقاه هؤلاء يوم القيامة ، تجدونهم خيراً منكم ، وأنا أراكم بموقفكم هذا من الرسالة ، ومن الذين آمنوا بى ، تسفهون عليهم بما تنسبونه إليهم ، وتجهلون المسائل التى يفضُل الناس بها بعضهم بعضاً عند الله .

٦ — ويا قومى ، ويا إخوانى ، إن طَـرَدْت هؤلاء القوم الضعاف الفقراء الذين آمنوا بى كما تريدون — فإن الله يؤاخذنى بطردهم ، ولا تستطيعون أنتم ولا غيركم أن تنصرونى منه ، أو تمنعوا غضبه على ، وتدفعوا عقابه عنى ، والله لابد ناصرهم ، فهل تجهلون هذا ولا تذكرونه ؟

٧ — يا قومى ، ويا إخوانى :

ا — لا أسألكم أجراً على ما أدعوكم إليه ، لأن أجرى على الله .

ب — ولست غنياً أملك أنواعاً من الرزق ، أنفق منها على نفسى وعلى الناس الذى يتبعوننى ، فأنا رجل منكم متواضع .

ج — ولست من الذين يدّعون علم الغيب ، فإن علم الغيب لله وحده .

د — وأنا واحد منكم ، فلست أزعم أنى ملك ، فأمتاز بشرف الجنس .

ه — ولا أقول لهؤلاء الذين استجابوا لى وآمنوا بدعوتى : إن الله لن يسعدكم فى الدنيا ولا فى الآخرة ، لا أقول لهم هذا القول لمجرد أنكم تزدرونهم وتحتقرونهم ، فإن احتقاركم لهم لا يؤثر فى رضا الله عنهم ، ومنحهم ثوابه ، والله يجازيهم على ما فى نفوسهم من إخلاص فى قبول الدعوة ، ومن توحيده فى يقين ؛ وإذا قلت أنا شيئاً من هذا كله ، أظلم نفسى ، لأنى إذ أفعل لا أقول صدقاً ، وأظلم الذين آمنوا بى ، لأنى أكون قد عرضتهم لسخطكم باتباعهم إياى ، وعرضتهم للإيمان بشىء لم يأمرنى الله به ، ومخالف لعقيدتى .

(٦)

من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٥ من سورة هود

قَالُوا : يا نُوحُ ، قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ —١— . قَالَ : إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ —٢— . وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ —٣— . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ : إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قدجادلتنا فأكثرت جدالنا	قد خاصمتنا وحاججتنا ، فبالغت فى مخاصمتنا ومحاجّتنا .
فأتنا بما تعدنا	فهات ما تهددنا به من العذاب فى الدنيا .
إن شاء	إن أراد ، لأن تعذيبكم فى الدنيا من شأنه هو دون غيره .
وما أنتم بمعجزين	لستم بغالبيه لكثرتكم ، ولا مفلتين منه وإن أخره .

الألفاظ	شرحها
إن كان الله يريد أن يُغويكم	إن اقتضت إرادة الله أن تكونوا من الضالِّين ، يهلككم بعذابه لسوء فطرتكم .
هو ربكم	هو مالك أموركم ومديرها .
وإليه ترجعون	وإليه مرجعكم فى الآخرة ، فيجازيكم بأعمالكم .
إن افتريته	إن صنعته واختلقته ، والمراد : ما أبلغهم نوح من أنه نزل عليه الوحى ، وأمِر بالرسالة .
فعلىَّ إجرامى	فعلىَّ أنا دون غيرى إثم ما افتريت .
وأنا برىء مما تجرمون	وأنا برىء من العقاب الذى يقع عليكم ، بسبب ما ترتكبون من إجرام وتكذيب .

مجمل المعنى

١ — بعد أن حاجّ نوح قومه فى الآيات السابقة ، بما هو معهود فى الأنبياء من جميل القول ، ولطيف التأتى ، وحسن العرض ، والأخذ بالرفق واللين ، وأقام لهم الأدلة المقنعة على صدق دعوته — لم يعجبهم ذلك ، وردوا عليه ردا فيه غلظة وجفوة ، وقالوا له : يا نوح ، إنك خاصمتنا ، وبالَغْتَ فى مخاصمتنا ، ونحن غير مستعدين للاستمرار فى مناقشتك ، فإن كنت صادقاً فى دعوتك ، فهات ما تهددنا به من العذاب .

٢ — رد عليهم نوح : لست أنا الذى أنزل عليكم العذاب ، وإنما الذى ينزله عليكم هو الله سبحانه وتعالى ، فإذا أراد أن يعذبكم فى الدنيا عذبكم ، ولن تستطيعوا أن تتغلبوا بكثرتكم ، لأن الله قادر لا يغلَب ، ولن تستطيعوا أن تُفلتوا من عذابه مهما حاولتم .

٣ — وإذا كان الله قدّر عليكم فى سابق علمه أن تكونوا من الضالين الذين لا تُضىء قلوبهم بنور الإيمان ، فإنى مهما نصحت لكم ، ومهما بالغت فى وعظكم ، فلن ينفعكم ذلك ، والله سبحانه وتعالى هو ربكم ، ومالك أموركم ، ومديرها ، ومسيرها على النحو الذى أراده لها ، وقدره عليها ، ومرجعكم جميعاً إليه يوم القيامة ، حيث يجازى كلا بعمله : إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر .

٤ — يقول لك قومك يا نوح : إنك افتريت عليهم وعلى الله ، فيما تؤديه لهم من الرسالة ، ويزعمون أنك تختلق أنك ينزل عليك الوحى ، فقل لهم : إن كنت أختلق هذا وأفتريه ، فأنا وحدى الذى أتحمل تَبِعته ، ويقع علىَّ إثمه وعقابه ، وما تجرمونه أنتم ، وما تفعلونه من تكذيبى ، ورميى بما تتهموننى به ، ومحاولتكم إغراء أتباعى ، فعليكم وزره ، وتتحملون إثمه وعقابه ، فلى عملى ، ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون .

(٧)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٩ من سورة هود

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ : أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ —١— . وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ —٢— . وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ : إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ —٣—. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ، وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ —٤— . حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ، قُلْنَا : احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ، — إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ — وَمَنْ آمَنَ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ —٥—. وَقَالَ : ارْكَبُوا فِيهَا ، بِاسْمِ اللهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسَاهَا ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ —٦— . وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ، وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ : يَا بُنَيَّ ، ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ —٧— . قَالَ : سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ،

فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ —٨— . وَقِيلَ : يَا أَرْضُ ، ابْلَعِي مَاءَكِ ، وَيَا سَمَاءُ ، أَقْلِعِي ، وَغِيضَ الْمَاءُ ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَقِيلَ : بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ —٩— . وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ، فَقَالَ : رَبِّ ، إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ، وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ —١٠— . قَالَ : يَا نُوحُ ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ —١١— . قَالَ : رَبِّ ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ —١٢— . قِيلَ : يَا نُوحُ ، اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ، وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ، ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ —١٣— . تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ —١٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فلا تبتئس	فلا يشتد حزنك لعدم إيمانهم ، ولا تحزن لهلاكهم .
واصنع الفلك	واصنع السفينة .
بأعيننا ووحينا	ملحوظاً برعايتنا ، ومأموراً بوحينا ، وعلى الطريقة التى علمناك إياها .
ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا	لا تطلب منى إمهال هؤلاء الكفار ، ولا تسألنى العفو عنهم .
إنهم مغرقون	حكم عليهم بالغرق .
ويصنع الفلك	وأخذ يبنى السفينة .
ملأ	جماعة .
سخروا منه	هزءوا به .
يخزيه	يذله ، ويلصق الخزى والعار به ، ويفضحه .
ويحل عليه	وينزل به .
عذاب مقيم	عذاب دائم ، وهو عذاب الآخرة .
جاء أمرنا	جاء وقت تنفيذ العذاب فيهم .
وفار التنور	نبع الماء منه ، والتنور : وجه الأرض .
من كلٍّ زوجين اثنين	من كل نوع من الأحياء زوجين : ذكراً وأنثى .
وأهلك	واحمل فيها أهل بيتك الذين آمنوا بك .

الألفاظ	شرحها
إلا من سبق عليه القول	إلا من قدر الله عليه الإغراق بالطوفان ، لأنه لم يؤمن ، والمراد : ابنه كنعان وزوجته .
ومن آمن	واحمل معك فيها من آمن بك من قومك .
باسم الله مجريها ومرساها	بإرادة الله وقوته تجرى ، وبإرادة الله وقوته ترسو .
إن ربى لغفور رحيم	إن ربى لواسع المغفرة ، كثير الرحمة .
وهى تجرى بهم فى موج كالجبال	وهى تجرى فى ماء مضطرب ، له موج يشبه الجبال ، فى الارتفاع والامتداد .
وكان فى معزل	وكان فى مكان منعزل عن أبيه .
سآوى إلى جبل	سألجأ إلى جبل عال لا يغمره الماء .
يعصمنى من الماء	ينجينى من الغرق .
لا عاصم اليوم من أمر الله	لا حافظ ، ولا مُنَجِّى من الغرق .
إلا من رحم	إلا من قدر الله له النجاة .
ويا سماء أقلعى	ويا سماء ، كفى عن الإمطار .
وغيض الماء	وغار الماء فى الأرض بالابتلاع .
وقضى الأمر	ونفذ قضاء الله بإغراق الكافرين .
واستوت على الجودىّ	واستقرت السفينة ، ورست على جبل اسمه الجودىّ بالموصل .
بعداً للقوم الظالمين	هلاكاً للقوم الذين ظلموا أنفسهم ونبيهم بكفرهم ، وبعداً لهم من رحمة الله .
ونادى نوح ربه	ودعا نوح ربه .
إن ابنى من أهلى	إن ابنى من أهلى الذين وعدتنى بنجاتهم ، وأمرتنى بحملهم فى السفينة .

الألفاظ	شرحها
وأنت أحكم الحاكمين	وأنت خير الحاكمين حكماً ، لأنك لا تحكم إلا بالحق .
إنه عمل غير صالح	إن ابنك ذو عمل غير صالح .
فلا تسألن ما ليس لك به علم	فلا تسألنى شيئاً علمـُك به غير يقينى .
إنى أعظك	انهاك .
أن تكون من الجاهلين	أن تكون فى زمرة الجاهلين ، الذين يسألون الله أن يغير فيما قدر .
أعوذ بك	أعتصم بك ، وألجأ إليك .
وإلا تغفر لى	وإن لم تتجاوز عن الذنب الذى أذنبته بسؤالى إياك .
أكن من الخاسرين	أكن من الذين خسروا ثواب أعمالهم .
اهبط بسلام منا	انزل إلى الأرض سليما آمناً معافى .
وبركات	وخيرٍ مباركٍ فيه .
وعلى أمم ممن معك	وعلى من معك الآن ، وعلى من ينسلون منهم إلى يوم القيامة .
وأمم سنمتعهم	وبعض هذه الأمم سيمتعون فى الدنيا فقط .
ثم يمسهم	ثم يصيبهم بسبب كفرهم .
تلك من أنباء الغيب	هذه الأخبار من الأمور الغيبية ، التى لا تعرفها يامحمد .
نوحيها إليك	نقفك عليها من طريق الوحى .
فاصبر	فاحتمل يا محمد ما تلاقى من عنت المشركين ، كما احتمل نوح .
إن العاقبة للمتقين	إن الفوز والنجاة للذين يخافون الله ويؤمنون .

مجمل المعنى

١ — بذل نوح مع قومه ما قد بذل من نصح وإرشاد ، ودعوة إلى الإيمان بالله ، وترك عبادة الأوثان ، فآمن به الفقراء والضعفاء ، ونفر منه الأغنياء والأقوياء ، وحاول هو أن يترفق بهم فى الدعوة ، ويقنعهم بالدليل والبرهان ، فلم يزدهم ذلك إلا نفوراً منه ، واستكباراً عليه ، وإغلاظاً له فى القول ، ومخاشنة فى الرد ، فيئس منهم ، ودعا عليهم ، فاستجاب الله له دعاءه ، وأراد أن يهيئ له أسباب النجاة التى ينجو بها هو ومن آمن به من قومه ، فأوحى إليه أنه لن يؤمن به من قومه أحد بعد هؤلاء الذين آمنوا ، ونهاه ألا يحزن لعدم إيمان من لم يؤمنوا ، وألا يغتمّ بما أساءوا إليه ، وألا يجزع لما سيصيرون إليه .

٢ — وأمره الله أن يصنع سفينة ، وأعلمه أنه سيكون فى أثناء صنعها ملحوظاً بعنايته ، مشمولا برعايته ، ونهاه ألا يسأله إنجاء الكفار ، لأنهم قد حقّت عليهم كلمة العذاب ، وسبق فى علمه أنهم معذبون بالإغراق .

٣ ، ٤ — بدأ نوح يصنع السفينة ، وكان تحوله من داعية يدعو إلى الإيمان بالله وتوحيده ، إلى نجار يصنع سفينة ، سبباً فى أن الكافرين من قومه إذا مروا به عجبوا منه ، واستنكروا فعله ، وهزئوا به ، وسخروا منه ، فكان يرد عليهم : إن كنتم تهزءون بى وبقومى الآن ، فإنا نهزأ بكم غداً ، لأنى أعلم ما أنتم عليه من غىّ وضلال ، وأعلم ما ستصيرون إليه من تعذيب وإهلاك ، وسوف تعرفون : أينا الذى يحل به الخزى ، ويقع عليه العار ، ويعذب العذاب المقيم الدائم ، االذى لافكاك منه ؟

٥ — أتم نوح صنع السفينة ، وظهرت علامات بدء العذاب ، وهى نبع الماء من وجه الأرض ، فأمره الله أن يجمع من كل صنف حى من الأحياء

ذكراً وأنثى ، ليتهيأ بقاء النوع على الأرض، بعد إغراقها وإغراق جميع من عليها ، وأن يحشد هذه الأزواج كلها فى سفينته ، وأمره كذلك أن يحمل معه فى السفينة جميع المؤمنين به وإن كانوا قليلا ، وكذلك جميع المؤمنين من أهله وأقاربه ، وأمره أن يترك من لم يؤمن به من أهله — وكانت زوجته وأحد أبنائه —وهو كنعان— لم يؤمنا به ، فحمل هؤلاء المؤمنين جميعاً .

٦ — أمر الله نوحاً ومن معه من المؤمنين ، وما معه من الأحياء الأخرى ، بالركوب فى السفينة ، والدخول فيها ، وتفجرت الأرض عيوناً ، وهطل المطر من السماء مدراراً، وهو الذى عبر الله عنه بقوله : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيوناً » ، وأخذت السفينة ترتفع ، والله يرعاها ، ويرعى كل من فيها ، الذين كانوا لا ينفكون عن ذكر الله إن سارت أو وقفت ، والله جل شأنه لواسع مغفرته ، وعظيم رحمته ، يغفر للمؤمنين بنوح ويرحمهم ، ويبقى النوع الإنسانى على ظهر الأرض بهم ، ولا يهلك إلا الكافرين الطغاة المتمردين .

٧ — قدر الله لهذه السفينة السلامة ، فقد كثر الماء ، وعصفت الريح ، وعلا الموج علواً شديداً ، حتى صار كالجبال فى علوها ، ونظر نوح فرأى ابنه كنعان الذى لم يؤمن به، فدفعته عاطفة الأبوة أن يناديه، ليركب مع أبيه وأهله،وكان لإصراره على الكفر بمعزل عنهم، فقال له : يا بنى ، اسمع نصح أبيك ، وآمن بالله ، وتعال فاركب معنا فى السفينة ، لتسلم من الغرق ، ولا تكن مع هؤلاء الكافرين الذين لم يؤمنوا بى وبرسالتى ، حتى لا تهلك معهم .

٨ — لم يستجب الولد لنداء أبيه ، وأصر على عصيانه ، وكان يأمل أن ينجو ،

فقال لأبيه : سألجأ إلى جبل عال لا يصل الماء إلى قمته ، فأنجو من الغرق . فرد عليه أبوه : ليس هناك أية قوة تحول بين أحد وبين الغرق إلا بأمر الله وإرادته ، والجبل المرتفع مهما علا ، لا يحفظ من الغرق ، وهذا قضاء قضى به الله ، فلا تنجى الحيلة فى النجاة منه ، ولم يكد ينتهى الحديث الذى دار بين نوح وابنه ، حتى زاد الماء ، واشتد عصف الريح ، وعلا الموج ، فغرق الكفار جميعاً ، وغرق ابن نوح معهم .

٩ — تمت إرادة الله فى القوم الكافرين ، فغرقوا جميعاً ، ثم أمر الله الأرض أن تبلع ماءها فبلعته ، وأمر السماء أن تكف عن إنزال المطر فكفت ، ورست السفينة على قمة جبل اسمه : الجودى ، بديار بكر بالموصل ، وحلت لعنة الله وعذابه بالقوم الظالمين أنفسهم ، بالكفر والعناد والاستكبار ، والإصرار على ما هم عليه من غىّ وضلال .

١٠ ، ١١ — وسأل نوح ربه أن ينجز وعده بإنجاء ابنه الذى هو من أهله ، والله إذا وعد وفى ، وإذا حكم نفذ ، وقد حكم على قوم بالنجاة ، وعلى قوم بالغرق ، وذلك حكم عادل ، فأجابه الله : بأن ابنه هذا ليس من أهله الذين وعد الله بنجاتهم ، لأنه لم يؤمن به ، بل أصر على الكفر ، وإصراره على الكفر يحرمه الانتفاع بوشائج القرابة ، وهو ذو عمل غير صالح ، وفى هذا دليل على أن خير القرابات ، هو الذى تُربْط برباط من الدين والروحية الطاهرة الخيرة ، ونهاه أن يسأل عما لم تظهر له حكمة الله فيه ، لأن سؤاله يكون دليلا على أنه يجهل ما فى تدبير الله من حكمة ، وأمره ألا يعود إلى مثله فى المستقبل ، وألا يسأله تغيير ما قدر .

١٢ — عرف نوح أن إلحاحه على الله فى إنجاء ابنه لم يرض الله عنه ، فأناب إليه معتذراً ، واعداً ألا يعود لمثلها أبداً ، طالباً المغفرة لما فرط منه ، متوسلا إلى الله أن يتجاوز له عما كان ، لأنه إن لم يصفح عنه ، ويغفرْ

له ما فرط منه ، ويرحمه بقبول توبته ، يكن قد خسر بذلك شيئاً من رضا الله وتوفيقه .

١٣ — أمر الله نوحا أن ينزل إلى الأرض، بعد أن إبتلعت ماء ها ، وأمكن الإقامة عليها ، ممتعاً بما يجد فيها من أمن وسلام ، وبركة فى الرزق ، وسعة فى العيش ، تغمره وتشمل كل من معه فى السفينة من المؤمنين ، ومن بعدهم من أبنائهم وحفدتهم الذين يكثرون ، ويتفرقون فى الأرض أمماً ، ويكون منهم المؤمنون الثابتون على إيمانهم ، والكافرون الذين ينحرفون عن طريق الحق ، وهؤلاء منهم من سيتمتعون تمتعاً موقوتاً فى الدنيا ، بالمال الكثير ، والرزق الواسع ، والعافية والأمن ، ولكن هذا لا يدوم لهم ، فتنقلب حالهم فى الدنيا إلى تنابذ وتناحر ، ثم يعذبون فى الآخرة عذاباً شديداً .

١٤ — هذه الأخبار التى تضمنت قصة نوح ، قصصناها عليك يا محمد ، ما كنت تعرف تفصيلها ، وما كان أحد من كفار قريش يعرف تفصيلها كذلك ، وقد رأيت ما فيها من مواضع العظة والاعتبار ، وعرفت كيف كان يعامل نوحاً كفار قومه ، فرموه بالجنون ، وعاندوه وقاوموه ، وآذوهْ وآذواْ من آمن به ، على الرغم من أنه صابرهم وطاولهم ، وكانت النتيجة بعد هذا كله ، أن الله أنجاه ومن آمن به ، وأغرق من كفر به ؛ ولك يا محمد فى نوح أسوة ، فاصبر ، والفوز والنجاة لك ، ولمن يؤمنون بك .

(٨)

من الآية ٥٠ إلى الآية ٦٠ من سورة هود

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ : يَا قَوْمِ ، اعْبُدُوا اللهَ ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ —١— . يَا قَوْمِ ، لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ —٢— . وَيَا قَوْمِ ، اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ —٣— . قَالُوا : يَا هُودُ ، مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ، وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ —٤— . إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ، قَالَ : إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ ، وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ ، فَكِيدُونِي جَمِيعًا ، ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ —٥— . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ —٦— . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ —٧— . وَلَمَّا جَاءَ

أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ –٨– . وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ –٩– . وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ –١٠– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإلى عاد أخاهم هوداً	وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً ، لأنه منهم .
إن أنتم إلا مفترون	لستم فى عبادة غير الله إلا مفترين كذباً عليه .
على الذى فطرنى	على الله الذى خلقنى على الفطرة السليمة ، مبرأ من شوائب الشرك .
أفلا تعقلون ؟	أنسيتم ما حدث لقوم نوح ، ولم تميزوا بعقولكم ؟
يرسل السماء عليكم مدراراً	ينزل عليكم مطراً متتابعاً نافعاً .
ويزدكم قوة إلى قوتكم	ويزدكم شدة وخِصباً ، وعزا وولداً .
ولا تتولوا مجرمين	ولا تنصرفوا عن الحق انصراف العتاة المستكبرين .
ما جئتنا ببينة	ما جئتنا بحجة واضحة ، تثبت أن ما جئت به حق .
عن قولك	بسبب قولك الذى تقوله من تلقاء نفسك .
وما نحن لك بمؤمنين	وما نحن بمتبعين لك اتباع المؤمن بك ، المصدق لك .

الألفاظ	شرحها
إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء	ما نقول إلا أن بعض آلهتنا أصابك بشر : من جنون أو خبل أو نحوهما .
فكيدونى جميعاً	اعملوا على الإيقاع بى أنتم وآلهتكم التى تعبدونها من دون الله .
ثم لا تنظرون	ثم لا تمهلونى .
توكلت على الله	وكلت أمر حفظى من كيدكم إلى الله ، ورضيت بقضائه .
آخذ بناصيتها	يصرفها كيف يشاء ، ويسخرها فى الوجه الذى يريده ، وأصل الناصية : شعر مقدم الرأس .
على صراط مستقيم	على طريق الحق والعدل والإنصاف .
فإن تولوا	فإن تعرضوا ، وأصله : تتولوا .
ويستخلف ربى قوماً غيركم	ويهلككم ، ويخلق غيركم خيراً منكم .
إن ربى على كل شىء حفيظ	إن ربى قائم على كل شىء ، ورقيب عليه ، يحفظه على ما قضى وقدر .
ولما جاء أمرنا	ولما حل موعد تعذيبنا الكافرين من قوم هود وإهلاكهم .
برحمة منا	بعطف خاص عليهم .
من عذاب غليظ	من عذاب شديد بالغ الشدة .
جحدوا بآيات ربهم	كفروا وكذبوا بالمعجزات .

الألفاظ	شرحها
واتبعوا أمر كل جبار عنيد	واستمعوا لكلام المتكبرين الطغاة ، وعملوا بما أمروهم به .
وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة	لحقتهم لعنات متتابعات فى الدنيا .
بعداً لعاد	هلاكاً وعذاباً لعاد .

٤

مجمل المعنى

١ — أرسل الله سبحانه وتعالى — نبيه هوداً إلى قبيلته ، وكانوا قد انحرفوا عن الدين الصحيح ، وعبدوا الأصنام ، فدعاهم هود إلى عبادة الله وحده ، فلا إله يستحق العبادة غيره ، ونبههم هوداً إلى أنهم يفترون على الله ، ويكذبون عليه ، حينما يعبدون غيره من الأصنام والأوثان .

٥

٢ — وتلطف لهم هود فى الدعوة ، كما تلطف نوح إلى قومه من قبل ، فقال لهم : يا قومى ، ويا إخوانى ، أنا أدعوكم إلى التوحيد ، ولا أريد من وراء دعوتى إياكم ، إلى ما فيه خيركم وصلاحكم ، أن أتقاضى منكم أجراً ، فإن المجازاة على هذه الدعوة الطيبة الصالحة ، إنما تكون من الله وحده ، الذى أرسلنى إليكم ، والذى خلقنى على الفطرة السليمة ، التى لم تدنسها شائبة من شوائب الإشراك والوثنية ، وأنتم إذا رجعتم إلى الوراء قليلا ، وذكرتم ما كان بين نوح وقومه — اتعظتم ، وميزتم بعقولكم الفرق بين ما أدعوكم إليه ، وبين ما أنتم عليه ، وتمثلتم ما حدث لهم ، حينما كذبوا نبيهم ، وعصوا أمر ربهم .

٦

٣ — استمرّ فى مخاطبتهم ، فقال لهم : يا قومى ، ويا إخوانى ، اسألوا الله أن

يغفر لكم ما كان من الشِّرْك والكفر ، والعدول عن عبادته إلى عبادة الأصنام ، ثم ارجعوا إليه تائبين نادمين ، مصلحين ما أفسدتم ، وإنكم إن فعلتم ذلك رضى الله عنكم ، وينزل عليكم من السماء مطراً متتابعاً نافعاً ، تخصب به أرضكم ، ويزول الجدب والقحط الذى حل بكم ، وينتشر العمران فى بلادكم ، وتكثر غلاتكم ، وتقوى أجسامكم ، ويكثر نسلكم ، وإذا تبين لكم وجه الخير فيما أدعوكم إليه ، فلا تنصرفوا عنه كما ينصرف العتاة المستكبرون ، والعصاة المتمردون .

٤ — رد على هود قومه : بأنه لم يأت لهم بدليل قاطع واضح ، يدل على صدقه فى دعوته ، ولم يكن فى يده حجة تثبت أن ما جاء به حق ، ولذلك لا يتركون عبادة أصنامهم وأوثانهم ، لأنه يدعوهم إلى إله آخر ، من غير أن يقنعهم بحجة أو دليل .

٥ — والذى نؤكده لك الآن يا هود ، أن آلهتنا التى نعبدها غضبت عليك ، لأنك تمردت عليها ، ودعوت إلى غيرها ، فأصابتك بشر عقاباً لك ، وهذا الشر لا يعدو أن يكون جنوناً أو خبلا ؛ رد عليهم هود بأنه يشهد الله على نفسه أنه صادق فيما يدعو إليه ، ويشهدهم عليه بأنه يبرأ من آلهتهم التى يعبدونها من دون الله ، وأكد لهم ضعف آلهتهم ، وأنها لا تملك ضرًّا ولا نفعاً ، بأن طلب منهم أن يُجمعوا أمرهم ويَجْمعوا شركاءهم ، وأن يتعاونوا هم وآلهتهم ، وأن يعملوا على الإيقاع به ، والكيد له ، وطلب كذلك أن يعجلوا بهذا الكيد وذلك الإضرار ؛ وفى ذلك دليل على الاستهانة بهذه الآلهة ، والتهوين من أمرها ، والاحتقار لشأنها .

٦ — وقال لهم : إنى وكلت أمر حفظى من كيدكم ومؤامرتكم ، إلى الله وحده ، ورضيت بقضائه فيكم ، وهو عالم بكل شىء ، وقادر على كل

ومتصرف فى كل شىء ، فجميع الدواب التى تدب على الأرض ، وغيرها من كل صغير وكبير ، جليل وحقير ، أمره إلى الله ، يصرفه كيف يشاء ، ويسخره على الوجه الذى يريده ، ومع أن مصير جميع الأمور إليه ، فإنه لا يتصرف فيها جميعاً إلا تصرف الحاكم العادل ، الذى لا يفرق بين أحد من خلقه ، ولكنه يعاملهم جميعاً بالحق والعدل والإنصاف ؛ وخصت الناصية بالذكر هنا : لأن العرب إذا وصفت إنساناً بالخضوع والطاعة ، قالوا : ناصية فلان بيد فلان ، أى أنه مطيع له ، يصرفه كيف شاء .

٧ — فإن تعرضوا عنى ، وتنصرفوا عن دعوتى ، ولا تستجيبوا لنصحى ، فقد أديت ما أمرنى الله به ، وأبلغتكم رسالته ، وبينت لكم طريق الإيمان الصحيح ، والله وحده قادر على إهلاككم وإبادتكم ، وخلق آخرين غيركم خير منكم ، ولا تضرونه شيئاً بإعراضكم وتوليكم ، وليس فى حاجة إليكم ، ولا إلى عبادتكم إياه ، فإن تقبلوا الدعوة ، فإن جدوى ذلك لكم وحدكم ، وإن لم تقبلوها ، فإن ضرر ذلك عليكم وحدكم ، والله وحده هو القائم على كل شىء ، الرقيب على كل شىء ، الحافظ لكل شىء ، على ما قضى وقدر ، وهو الذى يحفظنى من أن تنالونى بسوء .

٨ — حل موعد تعذيب الله الكافرين من قوم هود ، فوقع عليهم العذاب ، وكان شديداً بالغ الشدة ، قاسياً بالغ القسوة ، فأهلكوا جمعياً ، ونجا هود ومن آمن به ، بسبب رضا الله عنهم ، وعطفه عليهم ، وتوفيقه إياهم .

٩ — وهذه قبيلة عاد ، كفروا بآيات الله ، وكذبوا رسوله هوداً ، ولم يؤمنوا به ، وأنكروا المعجزات التى جرت على يد هود ، وتنطعوا فى محاجته ، واتبع أراذلهم سادتهم ، واستكان أسافلهم لرؤسائهم ، وخضع عامتهم لطغاتهم .

١٠ — غضب الله عليهم ، ولعنهم لعنات متتابعات فى الدنيا والآخرة ، لأنهم جحدوا نعمة الله عليهم ، وأنكروا فضله فيما أسبغه عليهم من النعيم الكثير ؛ ألا بعداً لهم ، وعذاباً شديداً يصطلون بناره ، وهلاكاً محققاً يلحقهم !

وهكذا قص الله على محمد طرفاً من قصة هود ، ليتأسَّى بما حدث لهود من قومه ، وليطمئن بالنتيجة التى وصل إليها ، وهى إنجاؤه هو ومن آمن به .

وقد ذكرنا طرفاً من قصة سيدنا هود فى الصفحة ١٠٧ من تفسير الجزء الثامن.

(٩)

من الآية ٦١ إلى الآية ٦٨ من سورة هود

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ، قَالَ : يَا قَوْمِ ، اعْبُدُوا اللهَ ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ، فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ —١— . قَالُوا : يَا صَالِحُ ، قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَا ، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ؟ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ —٢— . قَالَ : يَا قَوْمِ ، أَرَأَيْتُمْ : إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ، وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ، فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ؟ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ —٣— . وَيَا قَوْمِ ، هٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ —٤— . فَعَقَرُوهَا ، فَقَالَ : تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ —٥— . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ —٦— . وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ —٧— . كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أنشأكم من الأرض	بدأ خلقكم من الأرض بخلق آدم منها ، وخلقكم أنتم منها كذلك .
واستعمركم فيها	وجعلكم تعمرونها .
قريب مجيب	قريب من عباده ، فهو يعلم كل شىء ، مجيب لدعاء داعيه المؤمن المخلص فى دعائه .
كنت فينا مرجواً	كنت موضع رجائنا ومعقد أملنا .
قبل هذا	قبل أن تدعونا إلى تغيير ديننا .
أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا	ننكر عليك أن تنهانا عن عبادة الآلهة التى كان آباؤنا يعبدونها .
وإننا لفى شك	وإنا لواقعون فى شك .
مريب	موجب لسوء الظن ، وقلق النفس .
أرأيتم	أخبرونى .
على بيّنة	على يقين .
وآتانى منه رحمة	وحبانى منه بالرسالة والإيمان والهداية .
فمن ينصرنى من الله	لا أحد يدفع عنى عقاب الله .
غير تخسير	غير تضليل ، وإيقاع فى الهلاك .
ناقة الله	الناقة التى خلقها الله على غير مألوف خلق الإبل ، وجعلها معجزة لنبيه .
فذروها	فاتركوها .

الألفاظ	شرحها
ولا تمسوها بسوء	ولا تصيبوها بأذى .
عذاب قريب	عذاب عاجل .
فعقروها	فقتلوها .
فى داركم	فى بلدكم .
غير مكذوب	لا كذب فيه .
فلما جاء أمرنا	فلما حل الوقت الذى ينفذ فيه عذابنا .
ومن خزى يومئذ	ومن ذل ذلك اليوم وعاره .
هو القوى العزيز	هو القادر على إنجاز ما وعد ، الغالب على كل شىء .
الصيحة	الصوت الشديد .
جاثمين	مكبوبين على وجوههم ، مصعوقين .
ألا بعداً لثمود	ألا هلاكاً لثمود وعذاباً .

مجمل المعنى

١ — وأرسل الله إلى قبيلة ثمود بعد أن انحرفوا ، وعبدوا الأصنام ، نبيًّا من بينهم ، هو صالح ، فقال لهم فى رفق وعطف : يا قومى ويا إخوانى ، اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا معه غيره ، فإنه هو الإله الذى يستحق أن يُعبد ، ولا يجوز أن تعبدوا ما درجتم على عبادته من الأصنام والأوثان ، فهو الذى خلقكم من الأرض أولا وآخراً : أما أولا ، فلأنه خلق أباكم آدم من الطين ، وأما آخراً ، فلأن أصل خلقتكم النطفة ، ثم تدرج خلقكم إلى علقة ، ثم إلى مضغة ، ثم إلى هيكل مركب من لحم وعظم ودم ، ومن الدم

يستمد الجسم تكوينه ، وتتركب خلاياه ، والدم من الغذاء ، والغذاء سواء أكان نباتاً أم لحم حيوان، هو قبل أن يستكمل دورة تكوينه غذاءٌ من نبات ، فكأن غذاء الإنسان كله أصله نبات يستحيل لحماً ؛ والذى قدر على تكوينكم هذا التكوين العجيب ، هو الذى يستحق العبادة ولا يشركه فيها غيره ، وهو الله سبحانه وتعالى ؛ والله الذى أنشأكم من الأرض ، هو الذى جعلكم تعمرونها ، وهيأ لكم أسباب العمران، بما خلق فيها من ماء وهواء ، ومعادن ونبات وحيوان، فزرعتم وصنعتم، ونحتّم من الجبال بيوتاً، وإذا كان الله صاحب هذا الفضل العظيم عليكم، فاستغفروه عما فرط منكم من سيئات ، ثم توبوا إليه ، واندَموا ، إنه قريب منكم، عالم بكل شىء ، مجيب لدعاء داعيه إن كان مؤمناً به ، مخلصاً فى دعائه .

٢ — عجب قوم صالح من دعوته إياهم إلى عبادة الله ، وأنكروا عليه ذلك ، وقالوا له : كنت قبل هذه الدعوة موضع أملنا ، ومعقد رجائنا ، لما لك بيننا من منزلة ممتازة ، ومكانة ملحوظة ، وأنكروا عليه أن ينهاهم عن عبادة ما كان يعبد آباؤهم وأجدادهم من الآلهة ، ولم ينكر عليهم ذلك أحد ، ثم أكدوا له أنهم وقعوا فى حيرة شديدة، حينما سمعوا منه هذا ، لأنهم كانوا يظنونه أعقل من أن يدعو إلى ترك عبادة هذه الآلهة .

٣ — لم يغلظ صالح لهم فى الرد ، لأنه لم يفقد الأمل بعد فى استجابتهم له ، فقال لهم : يا قومى ، ويا إخوانى ، أخبرونى عن موقفى منكم ، إن كنت أنا على يقين مما أدعو إليه ، ومع هذا اتبعتكم ، وأقمت معكم على ضلالكم، إنى إن فعلت ذلك ، لا أجد أحداً ينصرنى من الله ، لعصيانى إياه ، ويدفع عنى عذابه ، ويخلصنى من غضبه ؛ وآلهتكم أعجز من أن تحمينى

من سخطه ، وأنتم تعلمون علم اليقين أنها عاجزة ، وإنكم بطلبكم منى أن أعبد ما كان يعبد آباؤكم وأجدادكم حتى يزول شككم ، لا تزيدوننى إلا ضلالا ، ولا تدلوننى إلا على طريق الهلاك .

٤ — يا قومى ، ويا إخوانى ، أحقق لكم المعجزة التى طلبتموها ، وهى الناقة ، فاتركوها تأكل وتشرب على النظام الذى بينته لكم ، واحذروا أن تؤذوها أو تذبحوها ، فإن فعلتم ذلك ، فسيعذبكم الله عذاباً شديداً فى الدنيا ، ولا يمهلكم ، بل يسرع إلى تعذيبكم .

٥ — لم ينتبهوا إلى هذا الإنذار ، ولم يأبهوا به ، فذبحوا الناقة ، فغضب الله عليهم ، وأنذرهم ثلاثة أيام ، يقع عليهم بعدها عذاب الله ، وذلك موعد لا خلف فيه .

٦ — جاء وقت تعذيبهم بعد الأيام الثلاثة ، ونَجَّى الله صالحاً والذين آمنوا معه ، برحمته وعطفه من العذاب الذى وقع على الكافرين منهم ، ونجاهم من الخزى والذل والفضيحة التى لحقتهم ، ومما تبع كل هذا من سوء السيرة واللعنة إلى يوم الدين ؛ إن الله الذى فعل هذا بقوم صالح ، هو القادر الذى يستطيع أن يفعل مثله وأكثر منه ، بالذين لم يتعظوا بمن سبقوهم ، العزيز الغالب ، الذى لا يقدر أحد أن يرد ما يفعل .

٧ — وقعت الصيحة ، وكانت شديدة ، ووقعت الصاعقة وكانت ماحقة ، فزلزلت الأرض ، وحدث اختلال فى الجاذبية والكهربية بين بعض الكواكب ، فهوت عليهم هُوِيًّا شديداً ، فارتجفت القلوب ، وصعق الكافرون جميعاً ، وأصبحوا فى ديارهم مكبوبين على وجوههم جثثاً هامدة .

٨ — وكأنهم فى سرعة زوالهم ، والقضاء عليهم ، وتخريب ديارهم —

لم يكن لهم وجود ، وذلك كله بسبب كفرهم ، فهلاكاً لهم ، وتعذيباً شديداً يقع عليهم ، فى الدنيا والآخرة .

وقد ذكر طرفاً من قصة سيدنا صالح ، فى الصفحة ١١٤ من تفسير الجزء الثامن

(١٠)

من الآية ٦٩ إلى الآية ٧٦ من سورة هود

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ، قَالُوا : سَلَاماً ، قَالَ : سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ —١— فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ، وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا : لَا تَخَفْ ، إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ —٢— وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ —٣— قَالَتْ : يَا وَيْلَتَا ! أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ، وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ —٤— قَالُوا : أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ؟ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ —٥— فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ، وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ —٦— إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ —٧— يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
رسلُنا	جماعة من ملائكتنا .
بالبشرى	بالخبر السارّ .
قالوا : سلاماً	فاتحوه بكلام طيب ، فيه خير واطمئنان وأمن .
قال : سلام	رد عليهم بكلام يناسب ما فاتحوه به .
فما لبث أن جاء بعجل حنيذ	فأسرع وأحضر لهم عجلا سميناً مشوياً بالحجارة المحمية .
لا تصل إليه	لا تمتد إلى الطعام .
نكرهم	خافهم ، وارتاب فى أمرهم .
وأوجس منهم خيفة	وأحس خوفاً منهم ، وأضمره فى نفسه .
وامرأته قائمة	وامرأته واقفة .
يا ويلتا	واعجبا ! وهى كلمة تجرى على ألسنة النساء كثيراً ، عندما يفاجأن بمستغرب أو مستنكر أو مهمّ ، من مصيبة أو فضيحة مثلا .
وأنا عجوز	وأنا جاوزت سن الحمل .
وهذا بعلى شيخاً	وهذا زوجى وصل إلى الشيخوخة ، فلا يولد لمثله مولود .
إن هذا لشىء عجيب	إن هذا الذى بشرتمونى به ، ليدعو إلى العجب والاستغراب .
أهل البيت	أهل بيت النبوة .

الألفاظ	شرحها
حميد مجيد	مستوجب لأنواع الثناء والشكر على نعمه ، حقيق بأعلى مراتب المجد .
الروع	الخوف والرعب .
وجاءته البشرى	وبُشِّر بالولد ، واتصال النسل .
يجادلنا	يجادل رسلنا .
إن إبراهيم لحليم	إن إبراهيم لا يحب المعاجلة بالعذاب .
أوّاه	كثير التأوه إذا رأى غيره يعذب ، لرقة فى قلبه .
منيب	يرجع إلى الله فى كل أمر .
أعرض عن هذا	أعرض عن الجدال فى قوم لوط .
جاء أمرُ ربك	حل موعد قضاء الله فيهم .
غير مردود	غير مدفوع عنهم بجدال أو شفاعة ، أو غير ذلك .

مجمل المعنى

١ـ يؤكد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه أرسل بعض ملائكته إلى إبراهيم عليه السلام ، تبشره بأمور سارة ، منها أنه سيولد له إسحاق ، ومن وراء إسحق يعقوب ، فلما التقوا به ، سلموا عليه سلاماً يطمئنه ، ويدخل عليه الأمن والسلام ، فرد عليهم سلامهم بسلام ، وبدأهم بحديث جميل ، وبرد جميل ، ولم يكتف بالرد الجميل ، بل أراد أن يعجل بقِراهم ، فأسرع وأحضر لهم عجلا سميناً ، وشواه لهم على حجارة محماة ، وقدمه لهم ليأكلوا منه ، مبالغة فى إكرامهم ، على العادة المألوفة عندهم ، فعل إبراهيم ذلك ، على زعم أنهم ضيوف هبطوا عليه ، فهو يكرمهم .

٢ — وضع اللحم أمامهم ، ولكنهم لم يمدوا إليه أيديهم ليأكلوا منه ، فأنكر ذلك إبراهيم عليهم ، وبدأ يداخله الشك والارتياب فى أمرهم ، وتملكه الخوف والرُّعب منهم ، فلما أحسوا منه ذلك ، قالوا له : لا تخف ولا تجزع ، فإنا جئنا لقوم لوط لتعذيبهم .

٣ — كانت امرأة إبراهيم إذ ذاك واقفة للقيام بخدمتهم ، فلما رأت امتناعهم عن الطعام ، وإخبارهم زوجها أنهم مرسلون إلى قوم لوط ، ضحكت سروراً بهلاك أهل الفساد ، ، فاتجهوا إليها ، وجعلوا حديثهم لها ، وبشروها أنها ستحمل ، وستلد ولداً اسمه إسحق ، وسيكون من ذرية إسحق ولد اسمه يعقوب .

٤ — استعجبت امرأة إبراهيم من ذلك ، وداخلها شك واستغراب ، استعجبت من أنها تلد ، مع أنها بلغت من السن حدًّا يجعلها فى مألوف عادة النساء لا تحمل ، وكذلك بلغ زوجها من السن حدًّا يجعله فى مألوف عادة الرجال لا يولد له ، وأكدت أن هذا من الأمور العجيبة التى لا يصدقها عقل .

٥ — رد عليها الملائكة ، منكرين أنها تستعجب من حدوث شىء قضى الله به وقدره ، فى حين أن الله يخص أهل بيت النبوة بما يشاء من رحمته الواسعة ، وبركاته الكثيرة ، التى تتتابع على نسلهم إلى يوم القيامة ، وأكدوا لهما أن الله لتفضله عليهم وعلى خلقه جميعاً ، بما اعتاد أن يتفضل عليهم به من جميل النعم ، مستحق لأنواع الشكر ، مستوجب لكل ثناء وحمد ، جدير بأعلى مراتب الرفعة والمجد .

٦ — ذهب الخوف عن إبراهيم بعد هذا الحديث ، وهدأت نفسه ، واطمأن إلى الحديث معهم ، بعد أن بشره الملائكة بما بشروا ، وكان مما بشروا به

أنهم يُهلكون قوم لوط ، وكان إبراهيم رقيق الطبع ، لين الجانب ، رقيق الحاشية ، فأخذ يجادلهم فى قوم لوط ، وفى كيفية إنجاء لوط ومن آمن به من العذاب .

٧ — وهذه المجادلة نشأت من أن إبراهيم كان لا يحب المعاجلة بالعذاب ، وكان قلبه يتألم إذا رأى من يعذبون ، وكان يرجع إلى الله فى كل أمر من الأمور التى تعرض له ، وكان لوط ابن أخيه ، فهو يعطف عليه ، وقد قص الله هذه المجادلة فى موضع آخر من القرآن ، بقوله حكاية عن إبراهيم والملائكة : « قال : إن فيها لوطاً ، قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله ، إلا امرأته كانت من الغابرين » .

٨ — طلب إليه الملائكة أن يعدل عن مجادلتهم فى أمر لوط وقومه ، فإن الله قضى وقدر ، ولابد من تنفيذ ما قضى الله به ، فالعذاب واقع بالكافرين منهم ، لا محالة ولا مفر .

(١١)

من الآية ٧٧ إلى الآية ٨٣ من سورة هود

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ، سِيءَ بِهِمْ، وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ، وَقَالَ : هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ —١—. وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ، وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ : يَا قَوْمِ ، هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللهَ ، وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ؟ —٢— . قَالُوا : لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ —٣— . قَالَ : لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ، أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ —٤— . قَالُوا : يَا لُوطُ ، إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ، لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، إِلَّا امْرَأَتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ؟ —٥—. فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ —٦—، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سيء بهم	استاء واغتم وتألم لمجيئهم .
وضاق بهم ذرعاً	عجز عن احتمال ضيافتهم ، لخوفه عليهم من قومه ، والذرع : الوسع والطاقة .
يوم عصيب	يوم شديد .
يهرعون	يهرولون مسرعين ، لحاجة فى نفوسهم .
فاتقوا الله	فخافوا الله .
أليس منكم رجل رشيد ؟	أليس بينكم رجل عاقل؟ .
مالنا فى بناتك من حق	ليست بناتك حِلاً لنا فى شريعتك[1] ، ولسنا فى حاجة إليهن .
لو أن لى بكم قوة	لو أن لى أيها الضيوف بكم قوة أستطيع أن أقاوم قومى بها .
أو آوى إلى ركن شديد	أو ألجأ إلى حماة أقوياء يحموننى .
لن يصلوا إليك	لن يمسوك ولن يمسونا بسوء .
فأسر بأهلك بقطع من الليل	فاخرج أنت وأهلك من هذه البلاد فى ظلام الليل ، والقطع من الليل : الطائفة منه
ولا يلتفت منكم أحد	ولا ينظر أحد منكم وراءه .
مصيبها ما أصابهم	واقع عليها من العذاب ما يقع عليهم .
إن موعدهم الصبح	إن موعد عذابهم يبتدئ وقت الصبح .
أليس الصبح بقريب ؟	تقرير أن الصبح قريب .

الألفاظ	شرحها
فلما جاء أمرنا	فلما حل الوقت الذى حددناه لنزول عذابنا .
جعلنا عاليها سافلها	قلبناها ، فجعلنا العالى سافلا ، والسافل عالياً .
من سجيل منضود	من طين متحجر ، متراكب بعضه فوق بعض ، متتابع .
مسومة عند ربك	معلمة فى علم الله، لا تنزل إلا على هؤلاء ، ولا تبيد غيرهم .
من الظالمين	من مشركى مكة .

مجمل المعنى

١ — انتقلت الملائكة من منزل إبراهيم ، بعد أن بشرته بولده إسحق ، ثم من وراء إسحق يعقوب — إلى لوط ، فضاق بهم ذرعاً ، وساءه مجيئهم ، ولم يطق أن يستضيفهم ، وخشى عليهم من قومه لأنهم حسان الوجوه ، وقال : هذا يوم من الأيام الشديدة عليه ، التى يقاسى فيها ما لا يستطيع أن يحتمله إنسان .

٢ — ذاع بين الناس أن لوطاً نزل عليه ضيوف حسان الوجوه ، فأسرعوا إلى بيته مبتهجين ، لأنهم سيجدون فريسة يرضون بها شذوذهم الجنسى الشائن ، الذى اعتادوه من قبل مجىء هؤلاء الملائكة ، غير مبالين إنكار هذا من جميع الشرائع السماوية والأرضية والخلقية ، وكانوا يجهرون بما يفعلون ، ويتفاخرون به ، ويتسابقون إليه ؛ لما رأى لوط ذلك منهم ، عرض عليهم بناته وبنات قومه ليتزوجوهن ، ويستمتعوا بهن ، على ما تسمح به الشرائع

والأوضاع ، والتقاليد الاجتماعية ، وبين لهم أن ذلك أطهر لهم ، من التلوث بمخالفة سنة الله فى خلقه ، وارتكاب الفاحشة الشنيعة ، وأمرهم أن يتقوا الله ، ويخافوه ، ويبتعدوا عن ضيوفه ، وألا يفضحوه فى ارتكاب الفاحشة معهم ، وتمنى أن يكون بينهم رجل عاقل ، يعاونه فى محاولة إقناعهم ، على ألا يتخذوا من ضيوفه أداة للاستمتاع واللهو ، وارتكاب الفاحشة .

٣ — لم يقتنعوا بكلام لوط ، ولم يقبلوا أن يتخذوا من بناته وبنات غيره زوجات ، لأن بناته وبنات من آمن به محرَّمات عليهم ، وهم باقون على كفرهم ، وهم إذ يعترفون بتحريم بناته وبنات المؤمنين عليهم ، يتهكمون عليه ، ويسخرون منه ، لأنهم غير معترفين بدينه ، ولو أنهم اعترفوا لآمنوا ؛ وأكدوا له أنه يعرف ما يريدونه من ضيوفه ، وأن خير الاستمتاع عندهم ، هو الاستمتاع بالرجال ، لا الاستمتاع بالنساء .

٤ — اتجه لوط إلى ضيوفه ، بعد أن عجز عن إقناع قومه بالانصراف عنهم ، وقال لهم : لو أن وجودكم معى يزيدنى قوة ، أستطيع أن أقاوم بها هؤلاء الناس ، لقاومتهم دفاعاً عنكم ، أو لو أن عندى من الأنصار والأقارب عصبة قوية ألجأ إليها ، لأستعين بها على حمايتكم ، للجأت إليها ، ولكن هذا حالى : أنتم قلة لا تعين على مقاومة ، وأصحابى وأنصارى قلة أيضاً بجانب هؤلاء ، وفى هذا شبه اعتذار عن عجزه عن الدفاع عنهم .

٥ — آن الأوان أن يكشف له الملائكة عن حقيقتهم ، وأن يطمئنوه عليه وعليهم ، فقالوا له : يا لوط ، نحن ملائكة ، أرسلنا الله إليك لنخلصك من شرهم ، ونُبعد عنك ، وعن المؤمنين بك أذاهم ، فلن يستطيعوا أن يؤذوك فى نفسك ، ولا أن يفضحوك فينا ، وحينئذ طمس الله عيون الكفار ، وأعمى أبصارهم ، فلم يقدروا أن يروا لوطاً ، وأمر الله لوطاً أن يخرج هو

ومن آمن به فى أخريات الليل ، بحيث يتجاوز حدود قريتهم ، قبل ظهور الصبح ، على أن يسيروا فى طريقهم ، لا يلوون على شىء ، ولا يلتفتون وراءهم ، حتى لا تقع أعينهم على القرية وأهلها وهم يعذبون ، فيضطربوا ويشغلوا عن السير ، فيلحقهم شىء من هذا العذاب ؛ أما امرأة لوط فكان هواها مع الكافرين ، فلم تؤمن برسالته ، ولذلك التفتت وراءها ، لما سمعت صوت العذاب ؛ وقالت : واقوماه ! فأصابها العذاب كما أصاب غيرها ؛ وكان موعد تعذيب هؤلاء الناس صباح الليلة التى أمر لوط بالخروج فيها ، ليعجل الله عذابهم ، دفعاً لشرورهم وآثامهم ، لذلك أمره الله بالخروج مسرعاً ، من غير تلكؤ ولا تريث ، حتى يستطيع أن يتجاوز حدود القرية قبل الصباح .

٦، ٧ — جاء وقت العذاب ، وزلزلت الأرض زلزالا شديداً ، وانفجر بركان اقتلع القرية من مكانها ، وجعل عاليها سافلها ، وسافلها عاليها ، فخسف الله بهم وبدارهم الأرض ؛ ويظن أن هذه القرية التى نسفت ، وغارت بها الأرض ، كانت فى المكان الذى يعرف الآن ببحر لوط ، ومازال علماء الآثار يعملون على تحقيق ذلك ؛ وحينما ثار البركان انفجرت الأرض ، وتطايرت الصخور الملتهبة فى الجو ، بقوة الدفع من باطن الأرض ، ثم سقطت على هؤلاء الناس حجارة محماة سقوطاً متتابعاً ، فكان العذاب يأتيهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، وهذه الحجارة المحماة المتتابعة ، التى كانت تنزل على هؤلاء الناس لتعذبهم ، قدر الله قديماً فى الأزل أنها ستخرج من باطن الأرض ، لتسقط على هؤلاء الناس لإهلاكهم وتعذيبهم ، والله قادر على أن يعذب مشركى مكة بمثل هذا العذاب ، فإن البلاد متجاورة ، والأماكن متقاربة ، وهم يعرفونها لأنها فى طريق

رحلتهم إلى الشام صيفاً، ولعلك يا محمد حينما تقص عليهم قصة لوط ، تجد فيهم عقولا تتعظ ، وقلوباً تعتبر .

وقد ذكرنا من قصة سيدنا لوط فى الصفحة ١٢٠ من تفسير الجزء الثامن .

(١٢)

من الآية ٨٤ إلى الآية ٩٠ من سورة هود

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ، قَالَ : يَا قَوْمِ ، اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ —١— . وَيَا قَوْمِ ، أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ —٢— . بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ —٣— . قَالُوا : يَا شُعَيْبُ ، أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ —٤— . قَالَ : يَا قَوْمِ ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ، وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ . عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ —٥— . وَيَا قَوْمِ ، لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ —٦— . وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ —٧— .

شرح الألفاظ

١ الألفاظ	شرحها
وإلى مدين أخاهم شعيباً	وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً .
ولا تنقصوا المكيال والميزان	إذا بعتم مكيلا أو موزوناً ، فأوفوا الكيل والميزان .
بخير	فى ثروة واسعة ، ومال كثير .
محيط	مستغرق لكم جميعاً ، فلا يُفلت أحد منه .
بالقسط	بالحق والعدل .
ولا تبخسوا الناس أشياءهم	ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقهم .
ولا تعثوا فى الأرض مفسدين	ولا تفسدوا فى الأرض متعمدين الإفساد .
بقية الله خير لكم	القليل الذى يتبقى لكم بعد الإيفاء أكثر خيراً ، وأعم بركة ، من الكثير الذى تستبقونه من التطفيف .
إن كنتم مؤمنين	إن كان إيمانكم عن إخلاص ورضاً .
وما أنا عليكم بحفيظ	لست مكلفاً حفظكم من المعاصى ، وإنما علىّ البلاغ والنصح .
أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا	أمواظبتك على الصلاة ، وإكثارك منها ، يجعلك تنهانا عن عبادة ما كان يعبده آباؤنا ؟
إنك لأنت الحليم الرشيد	إنك لأنت العاقل المتزن ، المتروى المصيب ؛ والغرض : الاستهزاء به .

الألفاظ	شرحها
أرأيتم	أخبرونى .
على بينة من ربى	على حجة واضحة ، ودليل ظاهر .
ورزقنى منه رزقاً حسناً	ورزقنى رزقاً حلالا واسعاً .
إن أريد إلا الإصلاح	ما أريد إلا أن تصلحوا دنياكم بالعدل ، وآخرتكم بعبادة الله وحده .
وما توفيقى إلا بالله	وما نجاحى فيما أدعو إليه إلا بإرادة الله وقوته .
عليه توكلت	عليه اعتمدت فى تبليغ دعوتى ، لا على نفسى .
وإليه أنيب	وإليه وحده أرجع .
لا يجرمَنَّكم شقاقى	لا تحملنكم عداوتكم لى ، والخلاف الشديد الذى بينى وبينكم .
وما قوم لوط منكم ببعيد	لا يبعد قوم لوط منكم زماناً ومكاناً .
رحيم	عظيم الرحمة للمستغفرين بعفوه .
ودود	كثير المودة للمستغفرين بإحسانه .

مجمل المعنى

١ — أرسل الله إلى مدين نبيَّه شعيباً ، يدعوهم إلى الإيمان به ، فبدأ شعيب دعوته على النحو الذى كان يبدأ الأنبياء دعوتهم ، بشىء من التلطف والترفق والملاينة ، فقال لهم : يا قومى ، ويا إخوانى ، اتركوا عبادة الأصنام والأوثان ، واعبدوا الله وحده ، فهو الذى يستحق العبادة ، وإذا بعتم غيركم مكيلا ، أو موزوناً ، فلا تنقصوا الكيل والميزان ، لأنكم بذلك تستولون على حق غيركم غصباً ، وأنتم فى غير حاجة إلى ما تفعلون ،

لأن الله وسع عليكم رزقكم ، فانتم فى غنى واسع ، وثراء عظيم ، فما حاجتكم إلى نقص الكيل والميزان ، وإنى أنصح لكم ، وأدعوكم إلى ما أدعوكم إليه ، رغبة منى فى خيركم ، وخشية أن يغضب الله عليكم ، فيعذبكم فى الدنيا وفى الآخرة ، عذاباً يحيط بكم ، ويشملكم جميعاً ، فلا يكون لكم سبيل إلى الفرار أو الإفلات منه ..

٢ — واستمر شعيب فى التلطف بقومه والترفق بهم ، فقال لهم : يا قومى ، ويا إخوانى ، أنهاكم عن التطفيف ، وآمركم بالإيفاء ، فلا تنقصوا الناس شيئاً من حقهم فى أى شىء : مكيلا كان أو موزوناً ، أو غير مكيل ولا موزون ، ولا تفسدوا فى الأرض بأى نوع من أنواع الإفساد .

٣ — وبيّن لهم أن ما يتبقى لهم من طريق حلال ، مهما قلّ ، خير من الكثير الذى يحصّلونه من طريق التطفيف ، وأن المؤمنين بالله إيماناً صحيحاً صادراً عن قلب سليم ، ونية صافية — تطهر نفوسهم من رداءة الطبع ، ودناءة الطمع ، وأنه حين ينصحهم لا يكون أكثر من مبلغ رسالة ربه ، وناصح مخلص فى النصيحة ، يؤدى ما يؤمر به .

٤ — نصح شعيب لقومه ما نصح : فنهاهم عما نهى ، وأمرهم بما أمر ، ولكنهم لم تتفتح له عقولهم ، ولم تطمئن إليه قلوبهم ، ولم يتأثروا بذلك الأسلوب اللين الرقيق فى الدعوة ، فأغلظوا فى الرد عليه ، وأنكروا عليه أن تكون صلاته الكثيرة ، ومبالغته فى التعبد — أثرت فى نفسه تأثيراً جعله يتخذ من نفسه مرشداً لهم ، وداعياً إلى ترك عبادة ما يعبدون ، والنهى عما يعملون من نقص الكيل والميزان ، مما يزيدون به ثروتهم ، ويكثرون به من أموالهم ، وسخروا منه وعرّضوا به حين وصفوه بأنه بلغ من كمال العقل ،

وحسن التفكير ، والهداية — ما جعله يضع نفسه منهم هذا الموضع .

٥ — ردَّ عليهم شعيب بطريقته الأولى من النصح والإرشاد، غير متأثر بمخاشنتهم له ، ومغالطتهم إياه ، فقال : يا قومى ، ويا إخوانى ، الذين أحب لهم ما أحب لنفسى : أخبرونى : أئذا أتيتكم بالكلام الواضح المعقول ، والحجة القوية الناصعة ، فنهيتكم عما نهيتكم عنه ، وأمرتكم بما أمرتكم به ، وحياً من الله الذى وسع علىّ فى رزقى الحلال ، وبارك لى فيه فيما وزاد، أيليق بى أن أغتصب حق غيرى، وأن أشوبه بالحرام ؟، ولكم أن تشكّوا إذا كنت أنهاكم عن شىء لا أنهى عنه نفسى ، وإنما أنا أنهاكم عن شىء لم أتدنس به ، وما قصدت بذلك إلا إصلاحكم ، وتخليصكم مما أنتم فيه من ظلم الناس ؛ ودعوتكم إلى عبادة الله وحده ، وليست الهداية والاستجابة إلا بمعاونة الله ورضاه ، وأنا معتمد عليه فيما أقول وفيما أفعل ، وإليه وحده أرجع فى كل ما يصيبنى من شر أو خير .

٦ — ويا قومى ، ويا إخوانى الذين أنا منهم وهم منى ، لا يحملنكم الخلاف الذى بينى وبينكم ، واتخاذكم إياى عدواً لكم ، أن تتمادوا فى طغيانكم ، وتستمروا فى عنادكم ، فيصيبكم ما أصاب الذين كذبوا أنبياءهم من قبلكم : كقوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، فإن هؤلاء لما لم تُجْدِ معهم النصيحة، وركبوا رءوسهم، وأصروا على كفرهم وضلالهم — غضب الله عليهم ، وأهلكهم بأنواع مختلفة من العذاب ؛ وقوم لوط قريبو عهد بكم ، وقريبو دار منكم ، وما زالت أخبارهم تتواتر إليكم ، وهذه آثارهم تدل عليهم ، فاجعلوا لكم عبرة من هؤلاء جميعاً .

٧ — واطلبوا المغفرة من الله ، وارجعوا إليه تائبين من الشرك والمعاصى ، ومما فعلتم من تطفيف الكيل والميزان ، وهو — سبحانه وتعالى — واسع الرحمة للمستغفرين بعفوه ، كثير المودة لهم بإحسانه وفضله .

(١٣)

من الآية ٩١ إلى الآية ٩٥ من سورة هود

قَالُوا : يَا شُعَيْبُ ، مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ، وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ، وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ —١— . قَالَ : يَا قَوْمِ ، أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ، وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ؟ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ —٢— . وَيَا قَوْمِ ، اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ، إِنِّي عَامِلٌ ، سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ، وَارْتَقِبُوا ، إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ —٣— وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ ، كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ما نفقه كثيراً مما تقول	ما ندرك كثيراً من الأمور التى تدعو إليها .
رهطك	أقاربك الأدنوْن .

الألفاظ	شرحها
لرجمناك	لقتلناك رمياً بالحجارة .
وما أنت علينا بعزيز	لست بصاحب منعة تمنعنا من قتلك رجماً .
أعز عليكم	أكرم عليكم .
واتخذتموه وراءكم ظهريًّا	وجعلتموه كالشيء الذى ينبذ وراء الظهر ، فلا قيمة له .
محيط	يعلم علماً تامًّا ، ويعرف كل صغيرة وكبيرة .
اعملوا على مكانتكم	ابذلوا أقصى ما تستطيعون من جهد .
إنى عامل	إنى باذل أقصى ما أستطيع من جهد .
يخزيه	يذله ويهينه .
وارتقبوا إنى معكم رقيب	وانتظروا فى ارتقابٍ ما سيكون ، وأنا منتظر كما تنتظرون .
ولما جاء أمرنا	ولما جاء وقت تعذيبهم .
برحمة منا	بعطف خاص بهم دون غيرهم .
الصيحة	الرجفة الناشئة من صوت شديد .
جاثمين	مكبوبين على وجوههم .
كأن لم يغنَوْا	كأنهم لم يمكثوا بديارهم زمناً ينعمون فيه بما نعموا .
بعداً لمدْين	هلاكاً وعذاباً لأهل مدْين .

مجمل المعنى

١ — استمر أهل مدين فى مناقشة شعيب ، ونفوا أنهم يفهمون كثيراً من الأمور التى يدعو إليها ، كترك عبادة آلهتهم التى يعبدونها ، وترك تثمير أموالهم على طريقة التطفيف فى الكيل ، والنقص فى الميزان ، وأغلظوا له فى الخطاب ،

فأكدوا له أنه رجل ضعيف بينهم ، فلا حول له ولا قوة ، ولو أرادوا أن يفتكوا به لفعلوا ، ولا يستطيع أن يردهم عنه أحد ، فكيف يجرؤ هذا الضعيف أن يهددهم بعذاب يقع عليهم ، وأخبروه أنه لولا أنه من قوم أعزة عليهم ، باقين على ملتهم — لقتلوه أشنع قتلة ، رمياً بالحجارة ، ونفوا أنه ذو عزة ومنعة، تحول بينهم وبين أن يقتلوه على الصورة التى يرونها .

٢ — ظل شعيب على تلطفه وترفقه بهم ، فقال لهم : يا قومى ، أنكر عليكم أن يكون أهلى وعشيرتى أعز عليكم من الله الذى أدعوكم إلى عبادته وحده ، وأنتم بدل أن تسارعوا إلى الإيمان به، لم تحفلوا بما بلّغتكم إيّاه، ونبذتم ما جئتكم به من أمر الله وراء ظهوركم ، وأكد لهم بعد ذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شىء، ويحصى كل صغيرة وكبيرة ، ويجازى كلا بعمله : إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وأما آلهتهم التى يعبدونها ، وأما رهطه الذى أكرموه من أجله ، وأما مالهم الذى يجمعون — فإن ذلك كله لن يغنى عنهم من الله شيئاً .

٣ — ابتدأ بعد ذلك شعيب يهدد ويتوعد ، فقال لقومه : اعملوا كل ما تستطيعون أن تعملوا ، واستعينوا بمن تستطيعون أن تستعينوا به ، من آلهة تعبدونها من دون الله ، ومن مال تجمعون ، ومن أقارب وأصدقاء ، وأنا وحدى سأعمل مستعيناً بالله وحده ، كل ما أستطيع أن أعمل ، وسوف تعلمون بعد ذلك قوتى على ضعفى وانفرادى ، وضعفكم على قوتكم وكثرتكم ، وسوف تعلمون كذلك من يقع عليه العذاب المخزى المهين ؟ ومن الكاذب الذى يكذب قومه وأهله ؟ وانتظروا مترقبين ، وأنا منتظر معكم مترقباً ، لتروا أينا القوى العزيز الصادق ، الذى سينصره إلهه ، ويأخذ بيده ، ويعذب أعداءه .

٤ — جاء وقت تعذيب أهل مدين ، فنجى الله شعيباً والذين آمنوا به ، وأهلك الذين كفروا بشعيب على النحو الذى هلك به قوم صالح من قبل ، فأخذتهم صاعقة شديدة ، فأصبحوا موتى هالكين ، مكبوبين على وجوههم ، فكأنهم لم يكونوا مقيمين فى الدنيا أحياء متصرفين فى شئونهم ، ولم يكن لهم فيها مال ولا بنون ، فهلاكاً لهم ، وتعذيباً واقعاً عليهم ، كما هلك قوم ثمود من قبل .

وقد ذكرنا طرفاً من قصة سيدنا شعيب مع قومه فى الصفحة ١٢٤ من تفسير الجزء الثامن .

(١٤)

من الآية ٩٦ إلى الآية ٩٩ من سورة هود

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ —١—. إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ —٢—. يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ —٣—. وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ —٤—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بآياتنا	بالآيات التسع .
وسلطان مبين	وبرهان واضح .
وملئه	وأشراف قومه .
وما أمر فرعون برشيد	ليس تصرف فرعون تصرف العاقل .
يقدم قومه	يسير فى مقدمتهم .
فأوردهم النار	فأدخلهم النار .
وبئس الورد المورود	وبئس النار وِرداً يورد .
وأتبِعوا فى هذه لعنة	وألحقت بهم لعنة فى الدنيا .
ويوم القيامة	وألحقت بهم لعنة أخرى يوم القيامة .
بئس الرفد المرفود .	بئس العطاء المعطى ، وهو لعنة الدنيا ، ولعنة الآخرة .

مجمل المعنى

١ — يذكر الله لنبيه محمد ، أنه أرسل موسى مؤيداً بالآيات التسع التى سبق ذكر بعضها فى الصفحتين ٣٨—٣٩من تفسير الجزء التاسع ، وكانت حجته واضحة ، ودليله قويـًّا على صدقه فيما دعا إليه .

٢ — ودعا موسى فرعون ، وأشراف قومه ، إلى عبادة الله وحده ، فعارض فى ذلك فرعون ، وعز عليه أن يعبد قومه غيره ، وكان تصرفه فى ذلك لا يدل على أنه رجل عاقل ، يصدر عن روية واتزان ، ولكنه كان همه سلطانه ، فهو يخشى عليه أن يزول ، ولم يعارضه أحد من أشراف قومه ، ولكنهم اتبعوا رأيه ، فضلوا بضلاله .

٣ — وفرعون يقدُم قومه فى الدنيا فيجرهم إلى الضلال ، ويقدُم قومه يوم القيامة فيجرهم إلى النار ، والنار هذه وِرد بئس الوِرد ، لأن الورد لا يكون إلا إلى ما ينقع الغُلة ، ويطفئ الظمأ ، ويحيى الجسم ، وينعش النفس ، أما ورود النار فإنه يحرق الجسم ، ويقطع الأمعاء ، ولذلك كانت تسمية النار التى يردها فرعون وقومه ورداً ، فيه تهكم شديد .

٤ — وفرعون والملأ من قومه ملعونون فى الدنيا ، ملعونون فى الآخرة ، أما فى الدنيا فلأنهم لم يؤمنوا ، فأهلكهم الله ، وأما فى الآخرة فلأنهم ماتوا على الكفر ، فعذبهم الله ، ولعنهم فى الدنيا ، وفى الآخرة عطاء بئس العطاء ، لما وراءه من تعذيب فى نار جهنم .

(١٥)

من الآية ١٠٠ إلى الآية ١٠٩ من سورة هود

ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ —١— . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ، وَلٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ —٢— . وَكَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ —٣— . إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ، ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ، وَذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ —٤— . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ —٥— يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ —٦— . فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ —٧— . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ —٨— . فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هٰؤُلَاءِ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ —٩— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ذلك من أنباء القرى	هذا الذى قصصناه عليك يا محمد ، بعض أخبار الأمم السابقة .
نقصه عليك	نسرده عليك .
منها قائم وحصيد	بعض تلك القرى باق أثرها إلى اليوم ، وبعضها دارس لا أثر له .
فما أغنت عنهم آلهتهم	فما نفعتهم آلهتهم التى يعبدونها من دون الله .
لما جاء أمر ربك	لما نزل العذاب بهم .
تتبيب	هلاك وإبادة وتدمير .
أخذ ربك	تعذيب ربك .
وهى ظالمة	وهى متلبسة بالظلم والكفر والعناد والاستكبار .
أليم شديد	مؤلم وجيع ، فيه قسوة ومرارة .
فى ذلك	فيما قصه الله من أخبار الأمم الماضية .
لآية	لحجة واضحة ، وعبرة زاجرة .
ذلك يوم مجموع له الناس	يوم القيامة يوم يجتمع فيه الناس كلهم ، على اختلاف أزمانهم وأجناسهم ودياناتهم .
لأجل معدود	لانقضاء مدة معدودة ، محدودة فى علم الله .
يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه	حين يأتى هذا اليوم ، لا تنطق نفس إلا إذا أذن الله لها .
فمنهم شقى وسعيد	من المكلفين أشقياء يعذبون ، وسعداء ينعمون .

الألفاظ	شرحها
لهم فيها زفير وشهيق	الزفير : إخراج النفَس ، والشهيق : رد النفَس ، والمراد : أنهم تضيق أنفاسهم ، فيسمع صوت زفيرهم وشهيقهم .
خالدين فيها	ما كثين فيها مكث خلود ودوام .
ما دامت السموات والأرض	ما بقيت سموات الجنة والنار وأرضهما ، والسماء : كل ما علا ، والأرض : ما استقرت عليه الأقدام
إلا ما شاء ربك	إلا من أراد الله إخراجهم من النار من عصاة المؤمنين .
عطاء غير مجذوذ	عطاء دائماً لا ينقطع .
فلا تَكُ فى مرية	فلا تكن فى شك .
وإنا لموفُّوهم نصيبهم	وإنا لمعطوهم حقهم من الجزاء فى الدنيا والآخرة .

مجمل المعنى

١ — هذا الذى قصصناه عليك يا محمد ، من أخبار الأمم السابقة ، وما كان يجرى بينهم وبين أنبيائهم ، وما كان يتفضل الله به على المؤمنين من النجاة ، وما كان يعذب به العاصين من الإهلاك على أية صورة من الصور : فبعضهم أُهلك بالصيحة ، وبعضهم أُهلك بالصاعقة ، وبعضهم أُهلك بالغرق ، وبعضهم أهلك بالحمَم والبركان ، هذا كله قصصناه عليك ، لتقصه أنت على قومك ، لعله يكون لهم فيه موعظة

وعبرة ، وسيتلوه من بعدهم الأجيال المقبلة فى القرآن المحفوظ إلى يوم القيامة ، ليقفوا منه على تاريخ السابقين ، وليجعلوا منه معتبراً لهم ، وذكرى تنفعهم ، وهذه الأمم السابقة بعضها ما زال أثرها باقياً إلى زمن محمد وإلى اليوم ، وبعضها عفا ودرس ، فليس له أثر .

٢ — وتلك الأمم التى أهلكها الله وأبادها لم يظلمهم الله ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بمعاندتهم أنبياءهم ، وبإصرارهم على كفرهم ، وإشراكهم بربهم ، ولقد طاولهم أنبياؤهم ، وصابروهم ، وترفقوا بهم فى الدعوة إلى الحق ، ولكنهم عميت قلوبهم ، فلم يتأثروا ، ولم يؤمنوا ، فكان من صالح الإنسانية إبادتهم ، وقطع دابرهم ، ولم تستطع آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله أن تدفع عنهم عذاب الله حين حل موعده ، ولم يزدهم تمسكهم بعبادة هذه الآلهة من دون الله إلا خسراناً .

٣ — وهكذا يفعل الله بأهل القرى الذين لم يستجيبوا لدعوة أنبيائهم ، فإنه بعد أن يدعوهم أنبياؤه ، فينفروا منهم ، وبعد أن يهددوهم ويتوعدوهم — لم يبق إلا أن يعذبهم الله عذاباً شديداً لا هوادة فيه .

٤ — وإن هذا الذى فعل الله بأولئك العصاة المعاندين ، فيه عبرة وعظة واضحة ، للذين يخافون عذاب الآخرة ، فإنهم يتفكرون فى هذا ، ويتأكدون أن الذى قدر على تعذيب هؤلاء ، قادر كذلك على تعذيبهم ، إذا وقعوا فى مثل عصيانهم وشركهم ، وأما يوم الآخرة الذى سيقع فيه عذاب الكافرين ، فهو يوم يجمع الله فيه الناس جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، ليحاسب كلاً على ما قدم من عمل ، فللمحسن إحسانه ، وعلى المسىء إساءته ، وليس ذلك فحسب ، بل يشهده جميع ما خلق من العوالم ، ومنها : الإنس والجن ، والملائكة والحيوانات .

٥ — وإن يوم القيامة هذا يؤخره الله إلى وقت معين محدود فى علمه هو ، لا فى علم أى حد غيره من خلقه ، « يسألونك عن الساعة : أيان مرساها ؟ قل : إنما علمها عند ربى » .

٦ — حينما يجىء هذا اليوم — يوم القيامة — لا يجرؤ أى ناطق مهما كانت منزلته أن يتكلم إلا إذا أذن الله له ، والناس فيه صنفان : شقىّ يعذبه الله بما فعل فى الدنيا ، وسعيد يثيبه الله على ما قدم من خير استحق به رضاه .

٧ — فالذين شقوا فى الدنيا ، بإقامتهم على الكفر ، وبما ارتكبوا من السيئات والمعاصى — يدخلون النار ، ويخلدون فيها ، وتضيق نفوسهم ، ويشتد كربهم ، فيسمع صوت أنفاسهم وهى تتردد فى صدورهم ، وهؤلاء الكفار الذين كتب الله عليهم العذاب يدخلون جهنم ، ويخلدون فيها تخليداً ، فلا فكاك لهم من نارها ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، إلا من شاء الله إخراجهم منها بعد استيفاء عذابهم من عصاة المؤمنين ؛ والمولى جل وعلا ، يفعل ما يريده هو بدون أى اعتراض ، لا ما يريده غيره .

٨ — وأما الذين كتب الله لهم السعادة بإيمانهم وتوحيدهم ، وصالح أعمالهم — فإنهم يدخلون الجنة ، ويخلدون فيها تخليداً دائماً ، فلا يخرجون منها ، وهذه كذلك مشيئة الله ، وإرادته فى إسعادهم ، حيث يرون ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، إلا من شاء الله أن يشملهم رضوان منه أكبر ، وينزلهم المنازل الرفيعة ، ويتجلى عليهم بذاته القدسية ، ويعطيهم عطاء غير مقطوع ولا ممنوع ، فهؤلاء هم أصحاب الدرجات العلا ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

٩ — وإذا كان هذا شأن الأمم التى سبقتك يا محمد — وقد قصصنا عليك

بعض أخبارها — فلا تشك فى أن أمتك ليست بدعاً فى الأمم ، وإنما هى واحدة منها ، يجرى عليها ما جرى على غيرها من قبل : فالمؤمنون ناجون ، والكافرون هالكون ، وهم إذ يصر بعضهم على كفره وعناده ، فإنهم إنما يعبدون ما كان يعبد آباؤهم وأجدادهم من قبلهم ، فهم واقعون فى عار التقليد الأعمى ، الذى طغى على قلوبهم ، فحال بينها وبين نور الإيمان . وهؤلاء سنوفيهم نصيبهم من الجزاء على ما عملوا فى الدنيا ، من غير أن ننقص منه شيئاً ، فمن فعل فى الدنيا خيراً جزيناه عليه ما يشتهى فى الدنيا : من توسعة فى الرزق ، أو كثرة فى الولد ، أو تملك وسلطان ، إلا أن ذلك لا يعفيهم من حساب الآخرة .

(١٦)

من الآية ١١٠ إلى الآية ١١٣ من سورة هود

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ —١— . وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ، إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ —٢— . فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ —٣— . وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
آتينا موسى الكتاب	أنزلنا على موسى التوراة .
فاختُلف فيه	فاختلف فيه بنو إسرائيل من بعده .
ولولا كلمة سبقت من ربك	ولولا مشيئة من الله سبقت .
لقُضى بينهم	لعجل بالحكم عليهم .
وإنهم لفى شك منه مريب	وإنهم لفى شك يوقع فى الاضطراب والحيرة .
وإنّ كلا	وإن كل أولئك المختلفين .

الألفاظ	شرحها
لما ليوفينهم ربك أعمالهم	لمن الذين يجزيهم ربك على أعمالهم جزاء كاملا .
خبير	يعلم كل شىء ، ولا يغيب عنه شىء .
كما أمِرت	مثل الذى أمرناك به .
ومن تاب معك	وليستقم معك من آمن بك .
ولا تطغوْا	ولا تتجاوزوا الحدود مبالغة فى الدين .
بصير	مطلع على أعمالكم .
ولا تركنوا	ولا تستسلموا وتعتمدوا .
فتمسَّكم النار	فتصيبكم النار .
من أولياء	من أنصار .

مجمل المعنى

١ — أنزل الله على موسى التوراة ، وكانت كتاباً من عنده صحيحاً ، ولكن قومه اختلفوا فيه من بعده ، فغيروا فيه ، وتعددت مذاهبهم ، وكان الخلاف فى مسائل جوهرية تمس أصل العقيدة ، ونسبوا إلى موسى ما ليس من كتاب موسى ، وأخفوا بعضه ، وتعادوا بسبب ذلك ، ولولا أن الله قدَّر من قبل أن عذابهم سيكون فى الآخرة لما أمهلهم ، ولعجل بتعذيبهم فى الدنيا ، وإن هؤلاء المختلفين مترددون فى حمأة من الشك ، الذى يسبب لهم الخبل الدينى ، والاضطراب الروحى ، وهو يؤذيهم فى الدنيا بتأريث نار الحقد بين المختلفين ، وفى الآخرة بتعذيب الضالين .

٢ — وهؤلاء المختلفون جميعاً ، مصيرهم إلى الله يوم القيامة ، فيحاسبهم على

أعمالهم ، ويوفيهم عليها أجورهم : للمحسن إحسانه ، وعلى المسىء إساءته ، لا ينقص واحدا منهم جزاء ما يستحقه ، لأن كل ما عملوا يحيط الله به علماً .

٣ — يأمر الله نبيه محمداً أن يستقيم هو والذين آمنوا معه على ما أمروا به ، وعلى ما فصّل لهم فى القرآن المنزل عليهم ، وألا يتجاوزوا الحد فى الدين ، ولا يغالوا ، فإن الدين يسر ، ومجاوزة الحد والمغالاة تفسد العقيدة ، والله بصير بما يعملون ، فيجازى عليه .

٤ — ونهى الله محمداً وأصحابه عن الاعتماد على غير المؤمنين ، فغير الموالين لا يجوز الركون إليهم ، لأنهم لا يخلصون فى النصيحة ولا فى العمل ، ونفّر الله من الركون إلى هؤلاء ، بأن من يركن إليهم تصيبه النار ، وليس لهم ناصر إلا الله ، فإن ركنوا إلى غيره من الظالمين لا ينصرهم .

(١٧)

من الآية ١١ إلى الآية ١٣ من سورة هود

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَٰلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ —١— . وَاصْبِرْ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ —٢— . فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ، وَكَانُوا مُجْرِمِينَ —٣— . وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ ، وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ —٤— . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ —٥— . وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ —٦— . وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ : اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ، إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا ، إِنَّا مُنْتَظِرُونَ —٧— . وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ . وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وأقم الصلاة	وأدِّ الصلاة .
طرفى النهار	فى كل غدوة وعشية ، وصلاة الغدوة صلاة الصبح ، وصلاة العشية صلاة ما بعد الزوال ، وهى صلاة الظهر والعصر .
وزُلفاً من الليل	وساعات من الليل قريبة من آخر النهار ، وهى صلاة المغرب والعشاء .
إن الحسنات يذهبن السيئات	إن فى فعل الحسنات كفارة للصغائر .
ذلك ذكرى للذاكرين	العمل بما ذكر موعظة للمتقين .
واصبر	ووطن نفسك على احتمال المشقة .
المحسنين	المجيدين المتقنين .
فلولا كان من القرون	فهلا كان من الأمم .
أولو بقية	أصحاب فضل وخير ، وصلاح ونفع ، يراقبون الله ويخشونه .
إلا قليلا	ولكن كان هناك قليل .
ما أترِفوا فيه	ما منحناهم من أسباب الترف .
وكانوا مجرمين	وكانوا غارقين فى الإجرام الناشىء من الترف .
وما كان ربك	وما كان من شأن الله ، أو يصح أن يقع منه .
ليهلك القرى بظلم	ليُهلك الأمم ظالماً لها .

الألفاظ	شرحها
أمة واحدة	على دين واحد .
ولا يزالون مختلفين	ولا يزال الناس مختلفين فى كل شىء ، حتى فى الدين.
إلا من رحم ربك	إلا من أراد الله أن يرحمهم ، فاتفقوا على الأصول الكلية فى مسائل الدين .
وتمت كلمة ربك	وثبت ما أراد الله على الوجه الذى قدره .
من الجنة والناس	من عالَمَىِ الجن والإنس .
وكلا نقص عليك	ونخبرك بأنواع الأخبار .
ما نثبت به فؤادك	ما نقوى به قلبك ، ونجعله ثابتاً لا يتزعزع .
فى هذه	فى هذه الأخبار .
وموعظة	وما يُتعظ به .
وذكرى	وما يتذكر به المؤمنون ما حدث لغيرهم .
اعملوا على مكانتكم	ابذلوا أقصى ما تستطيعون من جهد .
إنا عاملون	إنا باذلون جهدنا فى الثبات على ما نحن عليه .
وانتظروا إنا منتظرون	وانتظروا ما تطلبونه لنا من إظهار كذبنا ، ونحن منتظرون النصر من الله ، وما يقع عليكم من عذاب الله .
ولله غيب السموات والأرض	والله وحده هو الذى يعلم ما لا نعلم ، من كل شىء فى السموات وفى الأرض .
وإليه يرجع الأمر كله	ومرد كل شىء إلى الله .
وتوكل عليه	واعتمد عليه فى كل أمر من أمورك .

إن الحسنات يذهبن السيئات

قال أبو اليسر : أتتنى امرأة تبتاع تمراً ، فقلت : إن فى البيت تمراً أطيب من هذا ، فدخلت معى فى البيت ، فالتويت عليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت له ، فقال : استر على نفسك ، وتب ، ولا تخبر أحداً ، فلم أصبر ، فأتيت عمر ، فذكرت له ذلك ، فقال : استر على نفسك وتب ، ولا تخبر أحداً ، فلم أصبر ، وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك له ، فقال : « أخلَفْتَ غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا ؟ » ؛ فتمنى أبو اليسر أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة ، وحتى ظن أنه من أهل النار ؛ قال : وأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى ، وأقيمت صلاة العصر ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، أوحى الله إليه : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » ، قال أبو اليسر : فأتيته ، فقرأها علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أشهدت معنا صلاة العصر؟ قلت : نعم ؛ قال : اذهب فإنها كفارة لما فعلت ، فقال أصحابه : يا رسول الله ، ألهذا خاصة ، أم للناس عامة ؟ فقال : بل للناس عامة .

مجمل المعنى

١ — يأمر الله سبحانه وتعالى بإقامة الصلاة ، وتأديتها فى أوقاتها ، وهى الركن الثانى من أركان الدين ، وتأدية الصلاة من أمجد الأعمال وأحسنها ، وأقواها فى تهذيب النفوس ، ونهيها عن الفحشاء والمنكر ، والترغيب فى الحسنات لأنها تذهب السيئات ؛ وإقامة الصلاة فى أوقاتها التى رسمها

الشرع لنا ، وفعل الحسنات ، والاستقامة كما أمر الله ، وعدم مجاوزة الحد فى كل شىء — هذه الأشياء كلها فيها للمتعظين مواعظ ، وفيها للذاكرين ذكرى ؛ وإن السيئات التى تذهبها الحسنات إنما هى الصغائر ، إذا اقترنت بالتوبة النصوح .

٢ — ويأمر الله بالصبر على المكاره ، واحتمال المشقات فى معالجة النفس ، وعصيان الشيطان ، وأداء الفرائض ؛ والصبر من الإحسان ، والله لا يضيع أجر المحسن لعمله ، أيًّا كان نوع هذا العمل ، ما دام قد قصد به وجه الله ، ومصلحة الدين .

٣ — هلا وجد من هذه الأجيال التى أهلكناها ، والتى قصصنا عليك يا محمد أخبارها فى هذه السورة — جماعة فيهم بقية من عقل ، وأثارة من هُدى ورشاد ، ينهون المفسدين عن الفساد ، ويدلونهم على طريق الحق والسداد ، فيحفظوهم من عذاب الله ، ويخلصوهم من الهلاك الذى وقع بهم ، لم يكن إلا عدد قليل أصاخوا إلى كلمة الحق ، فكتب الله لهم النجاة ، ولكن لم يستمع لهم العصاة ، فارتكسوا فى الضلال ، وسدروا فى غيهم ، واغتروا بما كانوا فيه من نعيم واسع ، وثراء عريض ، وظلوا على إجرامهم ، واتبعوا شهواتهم التى دفعهم إليها ترفهم ، واهتموا بتحصيل أسبابها ، وآثروا لذات الدنيا على نعيم الآخرة ، فحق عليهم العذاب لإجرامهم .

٤ — والله من شأنه العدل ، فلا يعذب إلا من يستحق العذاب ، ولا يعذبه كذلك إلا بعد أن يرسل إليه من يرشده إلى الخير ، ويحذره وينذره ، فإن لم يتعظ ولم ينته عن غيه وضلاله أهلكه ، ولذلك تنجو من الهلاك القرى الصالح أهلها .

٥ — والله هو الذى خلق الخلق ، وقدّر لهم ما قدّر من هدى وضلال . ولو أن

إرادته تعلقت بأن يجعل الناس كلهم سواء فى الدين والهداية لفعل ، ولكن حكمة الله فى خلقه ، اقتضت أن يختلف الناس طبائع وغرائز ، وعلماً وجهلا ، واستعداداً وكسباً ، ونشأ من هذا الاختلاف اختلافهم : عقيدة ، وعلماً ، وخلقاً ، وحضارة ، وجاهاً ، وغير ذلك ، وسيبقون كذلك ما دامت الدنيا ، وما دام الناس ، وأقربهم إلى الله من رحمهم الله ، وتمسكوا بدين الله ، وإن اختلفوا فى غير ذلك من الأمور الكسبية والدنيوية ، فإنه — سبحانه وتعالى — هو الذى خلقهم على هذا الاختلاف : علماً ، ورأياً ، وشعوراً ، واختياراً ، وطاعة ، وعصياناً ، ولهذا يتحقق ما أراد الله من ملء جهنم بمن يعصون الله ، من الإنس والجن .

٦ — يقول الله لنبيه : نقص عليك كل خبر من أخبار الرسل السابقين ، ونعرض عليك ما لاقوا من العنت والإرهاق ، وما كانوا يقاسونه من طغاة أقوامهم من إهانة وأذى ، وما كانوا يرمَوْن به من أقبح الصفات ، وما كان يلاقى المؤمنون بهم من اضطهاد ، نفعل ذلك كله ، ليكون لك فيه عبرة وموعظة ، ولتعلم أن الله معك مؤيدك ، كما كان مع من سبقك من الرسل ، فإنهم انتصروا جميعاً على أعدائهم ؛ وما جرى لهم من إكرام ربهم لهم ، يجرى لك بإذن الله — وهذه القصص التى قصصناها عليك فى هذه السورة ، وفى غيرها من السور الأخرى ، فيها بيان للحق الذى أنزل عليهم جميعاً ، من دعوة إلى التوحيد ، وبعد عن الشرك ، وتعليم للمبادئ الدينية والخلقية والاجتماعية العامة ، وفيها فوق ذلك اتعاظ بحوادثها ، ولكن ليس عند كل إنسان استعداد للاتعاظ والاعتبار ، والمؤمنون هم الذين يتعظون ويعتبرون .

٧ — وأمر الله نبيه أيضاً أن يهدد الذين لا يؤمنون به ويتوعدهم ، بأن يقول لهم : اعملوا ما تستطيعون أن تعملوا : من مقاومة دعوتى ، والنفور منى ، وعدم

الإيمان بى ، وإيذائى أنا وأصحابى ، ونحن من جانبنا سنعمل ما نستطيع أن نعمل ، من الثبات على الدعوة ، والاستمساك بمبادئ الدين ، وبعد ذلك ننتظر نحن وأنتم ، حتى ننتهى إلى النتيجة إن شاء الله ، وهى نجاتنا وعذابكم ، وجنتنا وناركم .

٨ — والله وحده هو الذى يعلم كل صغيرة وكل كبيرة فى السماء وفى الأرض ، وفيما بين السماء والأرض ، ويعلم الحاضر لكم ، والغائب عنكم ، ويعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون ، ومرد كل شىء فى هذا الوجود فى جميع أزمنته وأطواره إليه ، لذلك كان هو وحده المستحق للعبادة ، ولا يعتمد إلا عليه ، ولذلك أمر نبيه بذلك ، ليتم له كل ما وعده إياه من نصر وتأييد ، وكل ما يُعمل يعلمه ، ويجازى عليه .

سورة يوسف

تضمنت هذه السورة قصة يوسف كاملة ، ولم تذكر تلك القصة فى غيرها ؛ ولذلك آثرنا أن نقدم ملخص القصة بين يدى السورة ، ثم نعقب بعد ذلك بتفسير النص القرآنى لها :

* * *

١ — رؤيا يوسف

١ — يوسف الصديق ابن يعقوب ؛ وكان ليوسف أحد عشر أخاً ، منهم واحد شقيق ، وهو بنيامين

٢ — اختص يعقوب يوسف وأخاه الشقيق بحبه .

٣ — رأى يوسف فيما يرى النائم الشمس والقمر ، وأحد عشر كوكباً تسجد له ، فقص على أبيه ما رأى ، فعرف أبوه ما ينتظره من مستقبل عظيم ، وخشى عليه أن يغدر به إخوته إذا عرفوا ذلك ، ولهذا حذره أن يقص عليهم ما رأى .

٤ — حقد الإخوة على يوسف وشقيقه أن يخصهما أبوهما بحبه ، وبيّتوا شرّاً ليوسف ، وكان أكبر الشقيقين ، فذهبوا إلى أبيهم ، وعتبوا عليه أنه لا يأمنهم على يوسف ، وهو أخوهم ، له ما للأخ الصغير على الأخ الكبير من عطف ومحبة ورعاية ، ثم استأذنوه فى أن يأخذوه معهم صبح غد إلى ظاهر المدينة ، حيث يرعون ماشيتهم ، ليقضى معهم يوماً جميلا فى لهو ولعب ؛ ولكن أباهم تعلل بأنه يخاف عليه من الذئب أن يأكله ، وهم غافلون عنه .

٥ — أظهروا لأبيهم العجب من أن يدور فى ذهنه أن يأكله الذئب ، مع أنهم جماعة أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، فلم يسع يعقوب إلا أن يوافق أبناءه ، ويرسل يوسف معهم .

٦ — ائتمر الإخوة بيوسف ، ولكنهم لم يتفقوا أولا على ما يفعلون به : فبعضهم رأى أن يقتل ، وبعضهم رأى أن يلقى فى متاهة لا يستطيع أن يعود منها ، وبعضهم رأى أن يلقى فى الجب ، وأخيراً اتفقوا على إلقائه فى الجب ، فألقوه فيه ، ثم عادوا إلى أبيهم ، وأخبروه أن ذئباً أكل يوسف فى أثناء لهوهم ، وعرضوا عليه قميصه ملطخاً بالدم .

ب — يوسف مع السيارة

٧ — كانت قافلة سائرة فى الطريق ، واحتاجت إلى الماء ، فأرسلت ساقيها ليحضر لها ماء ، فذهب إلى الجب الذى فيه يوسف ، وأدلى دلوه فيه ، ثم أخرجها ، فإذا غلام وسيم يتشبث بها .

٨ — حمل الرجل يوسف إلى رفاقه ، فلما رأوه فرحوا به واستبشروا ، وحملوه معهم ليبيعوه فى مصر . فلما وصلوا إلى مصر ، عرضوه للبيع ، فاشتراه منهم عزيز مصر بثمن زهيد : دراهم معدودة ، وألقى الله فى قلب العزيز محبته ، فدفعه إلى امرأته ، وقال لها : أكرمى مثواه ، عسى أن ينفعنا ، أو نتخذه ولداً .

جـ — يوسف وامرأة العزيز

٩ — كان يوسف جميلا فاتناً ، فأحبته امرأة سيده ، وأغرمت به ؛ فأغلقت الأبواب ، واختلت به ، وراودته عن نفسه ، فامتنع عليها على الرغم من شدة محاولتها ، واضطر أن يندفع نحو الباب ليخرج ، فاندفعت المرأة وراءه ، وجذبت قميصه من خلفه فتمزق ؛ ولما فتح الباب كان زوجها واقفاً أمامه ، فرأى هذا المنظر العجيب ، فأرادت المرأة أن تتنصل منه ، فأسرعت إلى إخبار زوجها أن يوسف أرادها ، وليس له جزاء إلا السجن أو التعذيب .

١٠ — اضطر يوسف أن يخبر سيده أنها هى التى راودته عن نفسه ، وكان حاضراً أحد أقاربها ، فرأى منعاً للجدل بينهما ، أنه إذا كان قميصه قُدَّ من الأمام فهى صادقة ، وإن كان قُدَّ من الخلف فهى كاذبة ؛ وعاين العزيز وقريبها القميص ، فرأياه ممزقاً من الخلف ، فعرف أن يوسف صادق ، وأن المرأة كاذبة .

١١ — فطلب العزيز من يوسف ألا يتحدث بهذا ، وطلب إلى زوجته أن تستغفر وتتوب .

١٢ — تهامس بعض النسوة بما كان بين امرأة العزيز ويوسف ، وعلمت بتهامسهن ، فأولمت لهن وليمة فاخرة ، وهيأت لهن مجلساً وثيراً ، وقدمت لهن طعاماً يحتجن إلى السكاكين فى قطعه .

١٣ — قدمت لهن الطعام والسكاكين ، وأخذن يقطعن الطعام ؛ وإذ ذاك أخرجت عليهن يوسف ، فلما وقع بصرهن عليه ، بهرهن جماله ، حتى

لكانت السكاكين تجرح أيديهن ، وتُسيل من دمائهن ، وهن لا يدرين ، لتعلق أعينهن به ، ولما أصابهن من الذهول .

١٤ — عذر النسوة امرأة العزيز فى تعلقها بيوسف ، فصرحت لهن أنها راودته عن نفسه حقًّا ، ولكنه امتنع عليها ، وأصرت على أنه : لئن لم يجبها إلى رغبتها لتسجننه ولتذلنه .

١٥ — أصر يوسف على ألا يجيبها ، فاحتالت هى وصواحباتها على سَجنه ، فسجن .

ء — يوسف فى السجن

١٦ — دخل السجن مع يوسف فتيان : أحدهما ساقى الملك ، والآخر خازن طعامه ، رأى أولهما فى منامه أنه يعصر عنباً ، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ؛ عرض كل من الفتيين رؤياه على يوسف ليفسرها له ؛ فحدثهما يوسف أولا بأنه يستطيع أن يخبرهما ببعض الأمور الغيبية ، ومنها أنه يقدر أن يخبرهما بنوع الطعام الذى سيحمل إليهما فى السجن ليَطعَماه ، ودعاهما إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام ، ثم فسر لهما رؤياهما ، بأن أولهما سيفرج عنه ، ويعود إلى مكانته ، ويسقى الملك ، وأما ثانيهما فإنه سيصلب ، وتأكل الطير من رأسه .

١٧ — ثم طلب إلى الذى سيفرج عنه أن يذكره عند الملك ، ولكنه نسى أن يذكره بعد خروجه ، فأقام يوسف مسجوناً بضع سنين .

١٨ — حدث بعد ذلك أن الملك رأى فى منامه سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع بقرات مهازيل ، ورأى كذلك سبع سنبلات خضر ، وسبع سنبلات يابسات ، فجمع أهل العلم والمعرفة من رجال دولته ، وعرض عليهم

ما رأى ، واستفتاهم فى تفسيره ، فعجزوا ، ورأوا أن هذه أضغاث أحلام ، لا تدل على شىء ؛ وكان الفتى الساقى صاحب يوسف فى السجن حاضراً ، فتذكر ما كان بينه وبين يوسف فى السجن ، وأنه فسر له رؤياه ، وتذكر وصية يوسف له : أن يذكره عند الملك ، فقال للملك وأصحابه : أنا أعرف من يفسر لكم هذا الحُلم ، فأرسلونى إليه لأسأله ؛ فأرسلوه ، فقص على يوسف ما رأى الملك ، ففسره بأنهم سيصادفون سبع سنوات كلها خصب ورخاء ، ثم تعقبها سبع سنوات أخرى كلها جدب وقحط ، وأوصاهم أن يدخروا من أيام الخصب والغنى والرخاء ، لأيام القحط والشدة والجدب ، ثم يعقب ذلك عام أشد رخاء وخصباً من السبعة الأولى .

١٩ — رجع الساقى إلى الملك ، وذكر له ما قال يوسف ، فأمر بإحضاره إليه ليسمع هو منه ، ولكن يوسف أبى أن يخرج من السجن ، إلا بعد أن تُسأل النسوة عن سبب سجنه ، فسألهن الملك ، فاعترفن بالحقيقة ، واعترفت كذلك امرأة العزيز أنها راودته عن نفسه ، وقررن جميعاً أنه رجل عفٌّ طاهر الذيل ، لا تحوم حوله ريبة ، ولكنهن كدن له حتى دخل السجن .

٢٠ — أمر الملك باستحضاره ليخص نفسه به ، من دون سيده العزيز ، ومن دون الناس جميعاً ، فحضر يوسف ، وتحدث إلى الملك ، فأعجب الملك بعلمه وخلقه ، وجعل له مكانة خاصة ، لا يتمتع بها أحد من رجاله ؛ فطلب إليه يوسف أن يجعله مهيمناً على جميع خزائن ملكه ، ليشرف على تنفيذ ما نصح به ، حينما فسر رؤيا الملك ، من الادخار فى سنوات الخصب لسنوات الجدب .

هـ — يوسف وإخوته

٢١ — تولى يوسف أمر خزائن الملك ، وأحسن القيام عليها ، وادخر ما استطاع أن يدخر ، ثم جاءت سنوات القحط ، وأجدبت البلاد فى مصر وفى البلاد المجاورة لها ، ومنها أرض فلسطين التى يقيم فيها يعقوب وأولاده ، وترامى إليهم أن مصر لم تتأثر بالجدب ، للسياسة التى اتبعها من يشرف على خزائن مصر ، وأن عند أهلها ما يكفيهم ويكفى من يجاورهم ، فأرسل يعقوب إلى مصر أولاده ، ليشتروا منها قمحاً لهم .

٢٢ — دخل إخوة يوسف مصر ، وذهبوا إليه ، لأنه هو الذى يأمر بالبيع لهم ، فلما رآهم عرفهم ، ولم يعرفوه ، فأمر بالبيع لهم ، فاشتروا ما شاءوا ، وجهَّزهم بجهاز السفر ، وأكرمهم ، واستدرجهم فى الحديث ، حتى عرف منهم أن لهم أخاً صغيراً غير شقيق لم يحضر معهم ، وأخاً مفقوداً ، فهم اثنا عشر ولداً لرجل واحد ، فأبدى رغبته فى أن يرى أخاهم الصغير ، وأعلنهم أنهم إن لم يحضروه معهم حينما يعودون للامتيار ، فليس لهم ما يطلبون من ميرة ، وليس عليه أن يكرمهم كما أكرمهم ، بل هو لن يقابلهم .

٢٣ — أخبروه أنهم سيطلبون من أبيه أن يرسله معهم ؛ وفى الوقت نفسه أمر يوسف الذين يقومون بالكيل من غلمانه ، أن يدسوا ثمن القمح الذى اشتروه فى القمح ، من حيث لا يشعرون ، وقدَّر أنهم لن يفتحوا أوعية القمح إلا بعد أن يعودوا إلى بلدهم ، فإذا عادوا إليه ، وفتحوا الأوعية — وجدوا هذا الثمن ، وهم فى ذلك بين أمرين : إما أن يقدروا بره لهم ، وإما أن

يروا أن هذا وضع فى رحالهم خطأ ، فيعملوا على رده ؛ وهذا العمل فى كلتا الحالتين استمالة لهم ، وإغراء بالعودة إلى مصر .

٢٤ – عاد الأولاد إلى أبيهم ، وأعلموه نبأهم مع القائم على شئون التموين فى مصر ، وتهديده إياهم بألا يكيل لهم ، إلا إذا أحضروا معهم أخاهم ؛ ولكن أباهم خشى أن يحدث له ما حدث لأخيه يوسف من قبل ، فأكدوا له أنهم سيحافظون عليه .

٢٥ – فتح الإخوة غرائرهم ، فوجدوا الثمن الذى قدموه لعزيز مصر مردوداً إليهم ، فقالوا لأبيهم : إن عزيز مصر بالغ فى إكرامنا ، وإن إرسال أخينا معنا يجعله يضاعف هذه الزيادة ، ولا أقل من أن يكون له حمل بعير مع أحمالنا .

٢٦ – أخذ يعقوب عليهم عهداً أنهم يحافظون عليه ، ويرجعونه سالماً إليه ، إلا إذا هلك وهلكوا ، وأشهد الله عليهم ، ونصح لهم ألا يدخلوا مدينة العزيز من باب واحد ، حتى لا يحسدهم الحاسدون ، ولا يكيد لهم الكائدون .

٢٧ – عاد الإخوة إلى مصر ، ومعهم أخوهم بنيامين ، ودخلوا المدينة ، ودخلوا على يوسف ، فقام إلى أخيه الشقيق ، وأشعره بعطفه .

٢٨ – ولما جهزهم بجهازهم هذه المرة ، أخفى المكيال الذى يكيلون به فى القمح الذى يحمله بعير أخيه ، ثم افتقد غلمانه المكيال فلم يجدوه ، فرجحوا أنه مع إخوة يوسف ، واتهموهم بسرقته ، تمهيداً لتفتيشهم ، فدهشوا لذلك ، وأقسموا أنهم لم يسرقوا ، فقال لهم غلمان يوسف : ما جزاء من نجده فى رحله ؟ قالوا : جزاؤه أخذه واستعباده .

٢٩ – بدءوا يفتشون غرائرهم ، فلم يجدوا فيها شيئاً ، ثم فتشوا فى آخر الأمر غرارة الصغير ، فوجدوا المكيال فيه ، فأخذوه .

٣٠ — أما الإخوة فإنهم صدقوا أن الصغير سرق ، وإن هذا ليس غريباً منه ، فإنه كان له أخ ، وإن أخاه سرق مثله ، فكتمها يوسف فى نفسه ، ولم يُبدها لهم ، ولكنهم عز عليهم أن يرجعوا إلى أبيهم من دونه ، فعرضوا على يوسف أن يأخذ واحداً منهم بدله رحمة بأبيه ، فرفض يوسف ؛ فألحوا ، فكرر الرفض ؛ فلم يجدوا بداً من العودة إلى أبيهم ، ما عدا أكبرهم ، فإنه أصر على ألا يبرح أرض مصر ، حتى يأذن له أبوه .

٣١ — رجع الإخوة إلى أبيهم ، وأخبروه بما كان ، فكانت فجيعة فاجعة ، ذكّرته بما كان من أمرهم مع يوسف ، وألح عليه الحزن ،حتى فقد بصره ، وكاد يقضى عليه الجزع ، وعاتبه أبناؤه على ذلك ، لعله ينسى .

٣٢ — ولكنه أرسلهم إلى مصر يمتارون ، ويتحسسون الخبر عن يوسف وأخيه ، لعلهم يعرفون عنهما شيئاً ، فلما وصلوا إليها ، دخلوا على يوسف عزيز مصر ، وشكوا إليه ما أصابهم وأصاب أهلهم من الضر بسبب القحط ، ورجوه أن يتصدق عليهم ، ويزيدهم فى الكيل ، ويقبل منهم هذا الثمن القليل الذى جاءوا به .

٣٣ — انتهز يوسف هذه الفرصة ، وقال لهم : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟

٣٤ — تنبه الإخوة إذ ذاك ، ونظروا إليه ، وقالوا له : أئنك لأنت يوسف ؟ ! . قال : أنا يوسف ، وهذا أخى .

٣٥ — اعترفوا بفضله عليهم وبخطئهم ، فسامحهم ، وكان اللقاء .

و — قميص يوسف

٣٦ — قدّمنا أن يعقوب ابيضت عيناه من الحزن ، وحجب عنهما النور ؛ فلما عرف يوسف ذلك من إخوته ، أعطاهم قميصاً له ، وقال لهم : ارجعوا إلى

أبى ، وألقوا هذا القميص على وجهه ، بمجرد وصولكم إليه ، يرتد إليه بصره ، ويتكشف له نور عينيه ، وبعد ذلك احملوه هو وأهلكم جميعاً ، وأتوا بهم إلىّ .

٣٧ — خرجوا فى عيرهم ومعهم قميص يوسف ، وبينما هم فى مسيرهم ، أحس أبوهم رائحة يوسف ، وتحدث بذلك إلى من كان معه ، فحاولوا أن يردوه عن التفكير فى يوسف ، فإن فى ذلك متعبة له ، ومشقة عليه ، وإرهاقاً لنفسه وروحه ؛ ولكنهم لم يلبثوا أن رأوا أبناءه مقبلين ، وألقى أحدهم القميص على وجهه ، فارتد إليه بصره ، وأضاءت الدنيا أمام عينيه ؛ وقال له أولاده : يا أبانا ، استغفر لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين ، فاستغفر لهم .

٣٨ — جاء يعقوب وأولاده وأهله إلى مصر ، واستقبل يوسف أبويه أكرم استقبال ، ورفعهما إلى مكان عظيم ، وأقاموا جميعاً فيها فى أمن وسلام .

سورة يوسف

نزلت بمكة ، إلا الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ فإنها نزلت بالمدينة
وعدد آياتها ١١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الثالثة

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ —١— . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ —٢— . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
آلر	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
تلك آيات الكتاب	هذه الآيات التى تتكون من حروف الهجاء ، والتى نقصها عليك من آيات القرآن الكريم ، مكونة من هذه الحروف .

الألفاظ	شرحها
المبين	الذى يبين الحق من الباطل ، والحرام من الحلال .
أنزلناه قرآناً عربيًّا	أنزلنا القرآن على محمد باللسان العربى ، وهو لغة من أرسل إليهم .
لعلكم تعقلون	لعلكم تفهمون أيها القوم الذين أنزل إليكم بلسانكم ، مبانيه ومعانيه ومراميه .
نقص عليك أحسن القصص	نحدثك أحسن الحديث .
بما أوحينا إليك هذا القرآن	بإيحائنا إليك هذا القدر من القرآن .
لمن الغافلين	من الذين لم يفكروا فى أنه سيجرى حديث هذه القصة عليهم .

مجمل المعنى

١ — هذه الآيات التى وردت فى السورة تكونت ، من حروف الهجاء ، نتحدى بها المعارضين ، وهى من آيات القرآن الظاهرة الواضحة المعجزة ، المفصلة المفسرة لكل مشكلة ، المبيِّنة لكل غامض .

٢ — يقول الله : نحن أنزلنا القرآن على محمد بلسان عربى ، فهو بلغة الذين أنزل إليهم ، وقصصنا عليهم فيه ما شئنا أن نقصه من أخبار الأمم الماضية ، وما أردنا أن نشرع لهم من أحكام ، ونبين لهم من شرائع ، ونظم سياسية واجتماعية ، وغير ذلك ، لعل الناس يفهمون ما جاء فى القرآن : مبنى ومعنى ومغزى .

٣ — ويقول الله لنبيه أيضاً : نحن نحدثك أحسن الحديث ، ونروى لك أحسن الأخبار ، من حيث الأسلوب والموضوع والثمرة ؛ وهذا فى القرآن الذى أنزل عليك معجزاً ، وإنك كنت قبل أن نقص عليك هذه الأخبار : للناس من جانبك ، وللعظة والاعتبار من جانب قومك — كنت عن هذا غافلا ، فلم يدر بخلدك أننا سنسوق إليك قصص السابقين .

(٢)

من الآية ٤ إلى الآية ٦ من سورة يوسف

إذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ ، إنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ —١— . قالَ : يا بُنَيَّ ، لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إخْوَتِكَ ، فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إنَّ الشَّيْطَانَ لِلإنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ —٢— . وَكَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ، وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ : إبْرَاهِيمَ وَإسْحَاقَ ، إنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ —٣—

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يا أبت	يا أبي ، وتحس في : « يا أبت » ، حناناً بالغ الرقة ، لا تحسه في : « يا أبي » .
إني رأيت	إني رأيت في منامي .
رأيتهم لي ساجدين	رأيتهم لي خاضعين منقادين معظمين .
لا تقصص رؤياك	لا تحك لإخوتك ما رأيته في نومك .
فيكيدوا لك كيداً	فيدبروا لك الحيل ، للإيقاع بك وإيذائك .

الألفاظ	شرحها
عدو مبين	عدو ظاهر العداوة .
يجتبيك ربك	يختارك الله ويصطفيك .
ويعلمك من تأويل الأحاديث	ويعلمك من تفسير الأحلام .
ويتم نعمته عليك	وينعم عليك الإنعام الكامل التام ، الذى يتمثل فى النبوة والرسالة والتملك .
وعلى آل يعقوب	وعلى الأسرة التى تتفرع من يعقوب ، فيدخل بذلك إخوته ومن ينسلون منهم .
إن ربك عليم حكيم	إن الله يعلم من يختار من خلقه لرسالته ، ويختاره لحكمة سبقت فى علمه .

مجمل المعنى

١ — اذكر يا محمد لقومك ، حين رأى يوسف فى منامه أحد عشر كوكباً تسجد له ، خاضعة منقادة ، وكذلك رأى الشمس والقمر ، وكل هذه الكواكب الثلاثة عشر ، رآها ساجدة له عن طواعية واختيار ، فلما أصبح ذهب إلى أبيه ، وقص عليه ما رأى فى منامه .

٢ — أحس يعقوب أن هذه الرؤيا التى رآها يوسف رؤيا إلهام ، وليست أضغاث أحلام ؛ وفهم أنه سيكون له من العزة والسيادة ، ما يجعل إخوته الأحد عشر جميعاً ، وأمه وأباه ، يخضعون له ، وقدّر أن إخوته إن عرفوا ذلك دبروا له المكايد ، حتى يتخلصوا مما عسى أن يكون له عليهم من

سلطان ، وهو أصغرهم ؛ ولذلك قال له : اكتم عليك رؤياك ، ولا تخبر أحداً من إخوتك بها ، لأنهم إن عرفوا ذلك دبروا لك الحيل للإيقاع بك ، وإيذائك ، فالشيطان يوسوس لهم ، ويزين لهم الشر ، لأنه عدو الإنسان الواضح العداوة ، من قديم الزمان

٣ — بيَّن يعقوب لابنه سبب نهيه عن أن يقص رؤياه على إخوته ، وأخبره أن الله سيختاره لنفسه ، ويفضله على إخوته ، ويلهمه معرفة الغيبيات ، فيؤول الأحاديث ، ويفسر الأحلام ، ويخبر بما سيكون ، ويتم عليه نعمته بالرسالة ، وبما يكون له من شأن فى الملك والسياسة ، وما يصيبه من نعمة ينال منها أبواه وإخوته ، وأولاد إخوته من بعدهم ، كما أصاب إسحق جده ، وإبراهيم جد أبيه ، من نعمة النبوة من قبل ؛ والله عليم بمن يختاره لمثل ما اختار له يوسف ، ولا يختاره إلا لحكمة سبقت فى علمه .

(٣)

من الآية ٧ إلى الآية ١٨ : من سورة يوسف

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ —١—. إذْ قالوا : لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أبينا مِنَّا ، وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ —٢—. اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ، وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ —٣—. قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ، وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ، إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ —٤—. قَالُوا : يَا أَبَانَا ، مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ، وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ؟ —٥—. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ —٦—. قَالَ : إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ، وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ —٧—. قَالُوا : لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّا إِذَنْ لَخَاسِرُونَ —٨— . فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ : لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هٰذَا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ —٩— . وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ، قَالُوا : يَا أَبَانَا ، إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ، وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ، فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ، وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ، وَلَوْ كُنَّا

صَادِقِينَ –١٠– . وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ –١١– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فى يوسف	فى قصة يوسف .
آيات	دلائل على قدرة الله وحكمته ، وعظات للناس .
للسائلين	للذين يرغبون فى الوقوف على حقائق القصة ، وينظرون فى دقائقها ، وتطوراتها .
وأخوه	وشقيقه بنيامين .
ونحن عصبة	ونحن جماعة متماسكة أقوياء ، يجد فينا من الغَناء ما لا يجده فى يوسف وأخيه الشقيق .
إن أبانا لفى ضلال مبين	إن أبانا فى إيثاره يوسف وأخاه بالمحبة ، وهما ولدان صغيران ، لا حول لهما ولا قوة ، ضال ضلالا واضحاً .
أو اطرحوه أرضاً	أو ألقوه فى أرض بعيدة عن العمران ، فلا يستطيع أن يعود .
يخل لكم وجه أبيكم	لا يُشغل بغيركم عنكم .
وتكونوا من بعده قوماً صالحين	وتتوبوا إلى الله بعد قتل يوسف ، أو إلقائه فى الصحراء البعيدة ، ويصلح أمركم مع أبيكم .

الألفاظ	شرحها
وألقوه فى غيابة الجب	وغيبوه فى مكان من البئر التى نعرفها ؛ والجب : بئر غير مبنية بالحجارة من داخلها .
يلتقطه بعض السيارة	تخرجه من الجب إحدى القوافل السائرة فى الطريق .
إن كنتم فاعلين	إن كنتم مصرّين على إبعاده عن أبيه .
وإنا له لناصحون	ونؤكد لك يا أبانا أننا ننصح ليوسف بما فيه خيره ، ونشفق عليه .
يرتع ويلعب	نُتح له فرصة للعب والسرور والنشاط ، على عادة الصبيان ، وأصل الرتع : التنعم بالأكل والشرب الهنىء .
وأنتم عنه غافلون	وأنتم مشغولون عنه بالرعى أو نحوه .
ونحن عصبة	ونحن جماعة أولو بأس ، وأولو قوة .
لخاسرون	لخائبون ، لضعفاء عاجزون .
وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب	وصح عزمهم على إلقائه فى الجب بعد اتفاقهم .
وأوحينا إليه	وألهمناه .
لتنبئنهم بأمرهم هذا	لتنجون ، وليكونن لك شأن ، ولتعاتبنهم على ما يفعلون بك .
وهم لا يشعرون	وهم لا يحسون بما أوحينا به إليك ، وما سيكون لك من شأن .
عشاء	وقت العشاء .

شرحها	الألفاظ
نتسابق .	نستبق
عند حاجاتنا من طعام وشراب ونحوهما .	عند متاعنا
بمصدق لنا .	بمؤمن لنا
بدم غير دم يوسف .	بدم كذب
زينت لكم نفوسكم الأمارة بالسوء أمراً سيئاً .	سوّلت لكم أنفسكم أمراً
فأنا متذرع بالصبر الذى لا يشوبه الجزع .	فصبر جميل
وأستعين بالله على تحمل هذه الكارثة .	والله المستعان

مجمل المعنى

١ — فى قصة يوسف مع إخوته أدلة كثيرة على قدرة الله وحكمته ، ومواضع عبر وعظات كثيرة ، نتبينها من خلال القصة فى أثناء تتبُّع حوادثها ، ويدركها كل من يريد معرفتها ، وجواب لمن سألك يا محمد من اليهود بالمدينة .

٢ — الدلائل والعظات تتبينها ، حين قال بعض إخوة يوسف لبعض فى حديث جرى بينهم : إن يوسف وأخاه الشقيق على حداثتهما ، يحبهما أبوهما أكثر من حبه لنا ، وكان يجب أن يكون حبه لنا أكثر من حبه لهما ، لأننا عصبة أقوياء ، ذوو بأس شديد وقوة ، ويعتز بنا ، وندفع عنه ، ونحميه ، ونسعى له فى الأرض ، ونجلب له ولهما الرزق ، وإذا كان قد فضلهما علينا ، وآثرهما بحبه ، فهو غير منصف لنا ، وحائد عن الصواب .

٣ — وكانت نتيجة تآمرهم ، أن قال بعضهم لبعض : اقتلوا يوسف ، أو احملوه إلى أرض بعيدة عن العمران مجهولة ، وألقوه بها ، فلا يستطيع أن يعود ، وبذلك

يفقده أبوكم، فينساه على مر الزمن ، ولا يكون أمامه أحد غيركم ، فيصفو لكم حبه ؛ وبعد أن تفعلوا ذلك بيوسف ، تتوبون إلى الله ، وتستغفرونه ، ويصلح أمركم مع أبيكم .

٤ – لم يوافق أحد الإخوة على قتل يوسف ، ولا على طرحه فى أرض متاهة بعيدة ، وقال لإخوته : إن كنتم لابد فاعلين ، فألقوه فى الجب ، فلعل قافلة تكون سائرة تلتقطه وتحمله معها ؛ وبذلك يتحقق لكم غرضكم من إقصائه عن أبيه ، وتنجون من إثم القتل ، ومن ذنب إلقائه فى المتاهة ، حيث لا يعرف له مصير .

٥ – اتفق الإخوة على إلقائه فى الجب ، وذهبوا إلى أبيهم يحتالون عليه لأخذه معهم ، وبدءوا حديثهم بمعاتبته ، مستعجبين من أنه لا يأمنهم على أخيهم يوسف ، وأنه يشك فى إخلاصهم له ، وأكدوا له أنهم يخصونه بالنصح والإرشاد ، ويبالغون فى المحافظة عليه ، حتى يردوه إليه سالماً .

٦ – وعقبوا على هذا بأن قالوا لأبيهم : أرسله معنا غداً ، حينما نخرج إلى المرعى ، لنمكِّن له من اللهو واللعب ، والتنعم بالأكل والشرب فى الهواء الطلق ، فإن فى ذلك رياضة له ، وليأنس بنا ، ويحس عطفنا ، وأكدوا له أنهم محافظون عليه ، ولن يمسه سوء .

٧ – قال لهم أبوهم : أؤكد لكم أنى لأكون شديد الحزن على مفارقته ، قليل الصبر على بعده ، وإن نفسى لتحدثنى أنكم إذا خرجتم به ، تغفلون عنه برعيكم غنمكم أو لهوكم ، فيأتى الذئب ويأكله .

٨ – أقسموا له : لئن أكله الذئب –وهم جماعة أولو قوة وأولو بأس شديد – ليكونن رجالا لا يستحقون إلا الهلاك .

٩ – وافق أبوهم بعد هذه التأكيدات منهم على أن يأخذوه معهم ، وخرجوا به ،

واتفقوا على إلقائه فى الجب ، وألقوه فيه ، وفى ذلك الوقت أوحى الله إليه إلهاماً — وكانت سنه سبع عشرة سنة — ما جعله يطمئن ولا يجزع ، وأنه سينجو من كيدهم ، وسيكون له شأن ، وستتحقق رؤياه ، ولو أنهم يعلمون الآن بما أوحينا إليه ، وما سيكون له من شأن ، لما فعلوا به هذا .

١٠ — فعلوا فَعلتهم ، وعادوا إلى أبيهم وقت العشاء يبكون بكاء مصطنعاً ، وقالوا له : نؤكد لك يا أبانا أننا كنا فى استباق ، وشغل كل منا بمحاولة أن يسبق غيره ، وأبعدنا فى الصحراء ، وكان يوسف مقيماً بجوار طعامنا وملابسنا يحرسها ، ولم يشاركنا لعدم قدرته على الاستباق لصغر سنه ، فجاء ذئب وأكله ، ولم نسمع صوت استغاثة ، لأننا كنا بعدنا عنه . ونحن نعلم أنك لن تصدقنا مهما حاولنا إقناعك ، لأنك تعتقد أننا نكره يوسف .

١١ — ولأجل أن يقنعوا أباهم بأنهم صادقون فى دعواهم ، قدموا له قميص يوسف ملوثاً بالدم ، ليوهموه أن هذا الدم هو دم يوسف ، الذى تلطخ به قميصه والذئب يأكله ؛ فلم يصدق يعقوب ذلك ، وقال لهم : هذا أمر زينته لكم أنفسكم الأمارة بالسوء ، وأنا لا أملك الآن إلا أن أعتصم بالصبر الجميل ، وأن أستعين بالله على أن يخفف عنى وقع هذا المصاب الأليم ، وأن يقدرنى على احتمال ما تصفونه من هلاك يوسف ، وارتاب فى روايتهم ، لاعتقاده أن رؤيا يوسف لابد أن تتحقق .

(٤)

من الآية ١٩ إلى الآية ٢٢ من سورة يوسف

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ، فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ، فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ : يَا بُشْرَىٰ ! هَٰذَا غُلَامٌ ، وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ —١—. وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ : دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ، وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ —٢—. وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ : أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ، عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ —٣—. وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ —٤—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وجاءت سيارة	ومرت بهذا الجب قافلة .
فأرسلوا واردهم	فأرسلوا القائم منهم على شئون الماء وجلبه ، ليستقى لهم .

الألفاظ	شرحها
فأدلَى دلوه	فدلَّى دلوه فى الجب ليخرج ماء .
يا بشرى	يا فرحتى ويا سرورى !
وأسرُّوه بضاعة	وأخفوه حتى لا يدعيه أحد ، وجعلوه من ضمن تجارتهم .
وشروه بثمن بخس	وباعوه بثمن قليل .
وكانوا فيه من الزاهدين	وكان الذين باعوه غير راغبين فيه .
أكرمى مثواه	أحسنى مقابلته ، واجعلى مقامه عندنا كريماً .
وكذلك مكَّنا ليوسف	وبمثل هذا الذى جرى ، جعلنا ليوسف مكاناً عالياً ثابتاً .
من تأويل الأحاديث	من تعبير الرؤى وتفسير الأحلام .
والله غالب على أمره	والله قادر على تنفيذ كل أمر يريده .
ولما بلغ أشده	ولما كبر ونما ، ووصل إلى درجة الكمال العقلى .
آتيناه حكماً وعلماً	ألهمناه علماً وحكمة يستطيع أن يفتى بهما فى كل شىء ، إفتاء صحيحاً .
وكذلك نجزى المحسنين	وبمثل هذا نكافئ الذين يتصفون بصفة الإحسان .

مجمل المعنى

١ — ومرت بهذا المكان الذى به الجب قافلة من قوافل التجارة ، فأرسلوا صاحبهم القائم على شئون الماء وتدبيره لهم ، ليرتاد لهم ماء هذه من البئر ، فلما وصل إلى البئر ، وأدلى فيها الدلو التى يريد أن يخرج بها ماء منه — تعلق يوسف بالدَّلو ، ولما أخرج الوارد الدلو من البئر لم يجد بها ماء ؛ ولكنه

وجد غلاماً وسيما ، ففرح به فرحاً شديداً ، وحمله إلى زملائه فى القافلة ، فشاركوه الفرح ، وأخفوه معهم حتى لا يدعيه أحد غيرهم ، وحتى يستطيعوا أن يفلتوا من هذا الإقليم الذى وجدوه فيه ، فيبيعوه ؛ وكل هذا الذى بيتوه يعلمه الله تمام العلم ، ولا يخفى عليه شىء منه .

٢ — باعت القافلة يوسف بعدد قليل من الدراهم ، لأنهم كرهوا أن يكون معهم ، ولعلهم وجدوا فى بقائه معهم حرجاً ، فرأوا أن يتخلصوا منه ، ولم ينتظروا عليه حتى يقدَّر بالثمن الذى يستحقه .

٣ — اشتراه عزيز مصر وزير فرعون ، وكان رجلا عظيماً ؛ ولعله توسم فيه كمال الخُلق كما رآه وسيم الخَلق ؛ فأرسله إلى بيته ، وأوصى امرأته زَليخا به خيراً ، لعله ينفعه فى المستقبل فى قضاء حاجاته ، وإنجاز أعماله ؛ أو لعله يتخذه هو وامرأته ولداً لهما ، حيث لا ولد لهما ، وكما أنقذناه من إخوته ومن الجب ، ثبتنا مركزه وقويناه ، وجعلنا له مكانة ممتازة فى مصر ، ولنتيح له الفرصة ، ليظهر ما تعلمه من تعبير الرؤَى ، والإفتاء فيما يستفتى فيه بالرأى الصحيح ، فيزداد علواً وتمكناً ، تحقيقاً لدعوه أبيه الذى قال له : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » والله — سبحانه وتعالى — إذا أراد أمراً أيا كان لابد من قضائه ، ولا يستطيع أحد أن يقف دون إنجازه ، ولكن أكثر الناس لا يدركون ذلك ، لأنهم يأخذون الأمور بظواهرها من غير بحث ، ولاستقصاء لحقائقها .

٤ — ولما بلغ يوسف سن الرشد ، وهى سن الكمال العقلى والجسمى — ألهمه الله ما شاء أن يلهمه من العلم والحكمة ، إلهاماً لدُنِّياً يستطيع به تأويل الأحاديث ؛ وبمثل هذا الجزاء الطيب يجزى الله المحسنين .

(٥)

من الآية ٢٣ إلى الآية ٢٩ من سورة يوسف

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ، وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ ، قَالَ : مَعَاذَ اللهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ —١— . وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ، وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ، قَالَتْ : مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ، أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ —٢— . قَالَ : هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا : إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ ، وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ ، وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ —٣— . فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ، قَالَ : إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ —٤— . يُوسُفُ ، أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ، إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه	وطلبت منه امرأة العزيز فى رفق ولين أن يواقعها .
وغلّقت الأبواب	وأحكمت إغلاق الأبواب .
هيت لك	هلم ، وأقبل علىّ ، وأسرع إلىّ .
معاذ الله	أستعصم بالله ، وأتحصن به .
إنه ربى	إن عزيز مصر سيدى .
أحسن مثواى	أكرم مقامى ، وأحسن منزلتى فلا أخونه .
ولقد همت	ولقد همت المرأة أن تفتك به ، إذ لم يطفىء نارها .
وهمّ بها	وكان يرد عدوانها عليه بعدوان مثله .
رأى برهان ربه	أشرقت نفسه ، وأضاءت بما آتاه الله من حكم وعلم .
كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء	بمثل هذا التصرف تصرّفنا ، لندفع عنه ما أرادته سيدته له من المنكر .
المخلصين	الذين أخلصهم الله له .
واستبقا الباب	حاول كل منهما أن يسبق الآخر ، متجهين نحو الباب : هى لرده ، وهو لخروجه .
وقدت قميصه من دبر	وشقت ثوبه من خلف طولا .
وألفيا سيدها لدى الباب	ووجدا زوجها عند الباب .
من أراد بأهلك سوءاً	من أراد أن يفعل بزوجتك فعلا سيئاً .

الألفاظ	شرحها
أو عذاب أليم	أو عذاب شديد يوجعه و يؤذيه .
قُـد من قُبل	شق من أمام .
إنه من كيدكن	إنه من مكركن وخداعكن .
أعرض عن هذا	لا تتحدث به ، ولا تـُجـْرِه على لسانك ، حتى لا يشيع فى المدينة .
واستغفرى لذنبك	وتوبى إلى الله من الذنب الذى ارتكبته .
من الخاطئين	من الذين ارتكبوا الخطايا .

مجمل المعنى

١ — فتنت امرأة العزيز بجمال يوسف ، واختلت به ، وأحكمت إغلاق الأبواب لئلا يراهما أحد وهى مختلية به ، وأخذت تحادثه وتلاطفه ، وتحتال عليه ليريد منها ما تريده منه ، فنفر منها نفاراً شديداً ، واستعصم بالله ، وتحصن به ، واستفظع أن يخون سيده الذى أكرمه ، وأحسن مقامه فى بيته ، وأدرك أن الذى يظلم نفسه ، ويخون الأمانة — لا يكون له فلاح ولا نجاح ، فلما لم يجبها إلى ما أرادت ، غضبت عليه ، وأرادت أن تفتك به ، فدافع عن نفسه ، ودفعها عنه ، وتكشفت له روحانية استشف من ورائها نور الله وهدايته ، وفعل الله له ذلك ليدفع عنه ما أرادته له من المنكر ، فهو من عباد الله المخلصين ، الذين أخلصهم واصطفاهم له .

٢ — فأسرع إلى الباب ، فأسرعت وراءه ، وأمسكت بردائه ، فتمزق الرداء من خلفه طولا ، ولكنه تمكن من فتح الباب ، فإذا سيده بالباب ،

ورآهما على هذه الحالة. فلما رأت زوجها بالباب ، اتهمت يوسف بأنه يريد بها سوءاً ، وحرضته عليه ، وأخبرته أنه أراد أن يخون سيده فى زوجته ، وجزاء مثل هذا أن يسجن ، أو أن يعذب عذاباً أليماً موجعاً ، فيه تأديب وتهذيب وزجر .

٣ — اضطر يوسف إلى الدفاع عن نفسه ، فأخبر سيده أنها هى التى حاولت أن تخون زوجها معه ، وحضر المناقشة قريب لها ، فرأى أن القميص إذا كان قد شُقَّ من أمام ، فهى صادقة وهو كاذب ، وإذا كان قد شق من خلف ، فهو صادق وهى كاذبة .

٤ — فحص العزيز عن القميص ، فوجد أنه شق من خلف ، فثبت كذبُها وصدق يوسف ، فقال : إن هذا من كيد النساء ومكرهن ، وأكد أن مكر النساء وخداعهن لا يطيقه الرجال ، ولا يقدرون عليه .

٥ — ثم قال العزيز ليوسف : تناس هذا الذى جرى لك ، ولا تذعه فى الناس ؛ وقال لامرأته : استغفرى لذنبك ، وتوبى إلى ربك ؛ فإنك أخطأت فيما فعلت مع يوسف .

(٦)

من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٥ من سورة يوسف

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ : امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ —١— . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ، وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ، وَقَالَتِ : اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ، وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، وَقُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ ! مَا هَذَا بَشَرًا ، إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ —٢— . قَالَتْ : فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ، وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ —٣— . قَالَ : رَبِّ ، السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ، وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ —٤— . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ —٥— . ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ : لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قد شغفها حباً	قد تمكن حبه من قلبها تمكناً ، جعله يستغرق كل عواطفها .
فى ضلال مبين	فى غىٍّ ، وضلال بيّن واضح .
بمكرهن	بما يقلنه فى غيبتها ، وبمحاولتهن ذمها .
أعتدت لهن متكأ	أعدت لهن مجلساً مريحاً ، فيه كراسى وأرائك ، ومساند يتكئن عليها .
أكبرنه	أعظمنه .
حاش لله	تنزيهاً لله ، وتعجباً من أن يخلق مثل هذا الغلام فى جماله .
ما هذا بشراً	إنّ هذا المخلوق ليس من جنس البشر .
إن هذا إلا ملك كريم	ليس هذا إلا واحداً من الملائكة الكرام .
فاستعصم	فامتنع ، وآثر العصمة .
من الصاغرين	من الأذلاء المقهورين .
وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن	وإن لم تحفظنى من شر مكرهن وخداعهن أمل إليهن ، وأله ُ بهن .
من الجاهلين	من السفهاء .
ثم بدا لهم	ثم ظهر لهم .
حتى حين	إلى أجل غير مسمى ولا معيّن .

مجمل المعنى

١ — شاع خبر امرأة العزيز فى المدينة ، وعرفته نساء الخاصة ، وتهامسن به ، واستعجبن لها ، وأنحين عليها باللائمة ، ووصفنها بأنها فى غيٍّ واضح ، وضلال فاضح ، إذ كيف تسوِّل لها نفسها — وهى امرأة العزيز — أن تعرض نفسها على عبد لها ، وأنها بعد أن يعرف زوجها أمرها ، تظل دائبة على تلك المراودة ، لقد قتلها غلامها حبًّا ، وملك عليها قلبها وشعورها ، فلم تعُد تفكر إلا فيه .

٢ — علمت امرأة العزيز أن نسوة يتهامسن بأمرها ، فأرادت أن تدبر لهن أمراً ، يلتمسن به العذر لها ، فاستضافتهن يوماً ، وأعدت لهن غرفة وثيرة ، فيها الكراسى والأرائك ، وقدمت لهن طعاماً شهيا ، يحتاج إلى تقطيع بالسكين ، كأن يكون لحماً أو فاكهة مثلا ، وبدأن يأكلن بشهوة ؛ ثم أمرت يوسف أن يخرج عليهن ، فخرج ، فلم تكد أعينهن تقع عليه ، حتى بهرهن جماله ، واستغرق النظرُ إليه مشاعرَهن ، حتى كن يقطعن ما يأكلن بحركة لا شعورية ، جعلت السكاكين تجرح أيديهن من غير أن يشعرن ، وقلن : تنزيهاً لله أن يكون خلق هذا الجمال لبشر غيره من بنى آدم ، هذا جمال لا يكون إلا لملك كريم ، وحاولن أن يستملنه إليهن ، كما يدل عليه قوله : « ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه » .

٣ — لما رأت امرأة العزيز منهن ما رأت — قالت لهن : هذا هو يوسف الذى تعتبن علىَّ أنى أحببته حبًّا دفعنى إلى أن أراوده عن نفسه ، ومع ذلك فإنه ما زال ممتنعاً علىَّ ، وأقسم لكنّ : أنه إن لم يجبنى إلى رغبتى ، ويطفىء نار شوقى وحبى ، لأحتالن عليه حتى يسجن ، أو ليكونن ذليلا حقيراً .

٤ — لجأ يوسف إلى الله حين سمع ذلك ، ودعا ربه : يا ربى ، يا مالك أمرى ، والمتصرف فى شأنى ، إن الحبس فى السجن ، وعيش الذل والصغار — أحبُّ إلىَّ من أن أعيش مترفاً ناعماً فى ظل العصيان والخيانة والإثم ؛ يا ربى ، إن لم تنقذنى من هذه الحيل التى يعملنها لإيقاعى فى شركهن ، وتلطُف بى فى اجتناب المعصية ، تعرضت لركوب الزلل ، ووافقتهن وأجبتهن إلى ما يرغبن ، وبذلك أخرج من عداد الطيبين الطاهرين ، إلى عداد السفهاء الجاهلين .

٥ — استجاب الله ليوسف دعاءه ، وصرف عنه كيدهن ، فلم يمل قلبه إليهن ، وعصمه من إغوائهن ، وأقدره على تحمل إهانتهن ، والله هو الذى يسمع الدعاء ويجيب ، ويعلم من هو أحق بإجابة دعائه .

٦ — ثم بدا للعزيز وأهل مشورته ، بعد أن رأوا الدلائل الدالة على براءة يوسف ، دفعاً لسوء السمعة التى انتشر خبرها بالمدينة عن زوجته ، أن يحجب يوسف عن الأنظار بإدخاله السجن ، يقيم فيه إقامة غير محدودة بمدة ، ينقطع فيها ما شاع فى المدينة ، وينسى الناس أمر يوسف وزَليخا .

(٧)

من الآيه ٣٦ إلى الآية ٤٢ من سورة يوسف

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ، قَالَ أَحَدُهُمَا : إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ : إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ —١— . قَالَ : لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ، إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ —٢— . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى : إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللّٰهِ مِنْ شَىْءٍ ، ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ —٣— . يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ ، أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ ، أَمِ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ —٤— . مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ، مَا أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّٰهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ —٥— . يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ ، أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ ، فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ؛ قُضِىَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ —٦— . وَقَالَ

لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا : اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ ، فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ، فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ -٧- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فتيان	مملوكان لملك مصر : أحدهما ساقيه ، والآخر خازن طعامه .
إنى أرانى أعصر خمراً	إنى رأيت فى منامى أنى أعصر عنباً لتخميره .
نبئنا بتأويله	أخبرنا بتفسير هذا الحلم .
إنا نراك من المحسنين	إنا توسمنا فيك أنك تستطيع ذلك ، لما رأيناك عليه من علم وحكمة ، وخلق حسن .
نبأتكما بتأويله	أعلمتكما بحقيقته .
ذلكما مما علمنى ربى	ذلك الإخبار بحقيقة ما يأتيكما قبل أن تعرفاه ، بعض ما علمنى ربى من طريق الوحى .
ملة قوم	ديانة جماعة .
ما كان لنا	ما كان من شأننا .
يا صاحبى السجن	يا ساكنى السجن معى .
أ أرباب متفرقون خيرٌ	أ آلهة مختلفة تُعبد ، خير لكما وللناس ؟ .
من دونه	من غيره .
إلا أسماء سميتموها	إلا أسماء وضعتموها لأصنام أو غيرها ، وخلعتم عليها صفة الألوهية .

الألفاظ	شرحها
من سلطان	من حجة وبرهان .
ذلك الدين القيم	ذلك هو الدين الحق القويم .
فيسقى ربه خمراً	فيخرج من السجن ويعود إلى عمله الأول ، وهى سقاية الملك .
قضى الأمر الذى فيه تستفتيان	انتهت فتواى فى المسألة التى سألتمانى أن أفتيكما فيها ، وصار أمرها متوقع الحصول .
اذكرنى عند ربك	أخبر سيدك الملك بشأنى ، وعرفه حالى .
فأنساه الشيطان ذكر ربه	أنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند الملك .

مجمل المعنى

١ — سجن مع يوسف مملوكان من مماليك الملك ؛ وكان أحد المملوكين موكلا بسقاية الملك ، وكان الآخر موكلا بمخازن الطعام ، وبعد مضى بعض الوقت ، عرفا فى يوسف أنه رجل ذو علم وحكمة ، وأنه يتحلى بالخلق الحسن ، وحدث ليلة أن كلا منهما رأى فى منامه رؤيا : أما الأول فقد رأى أنه يعصر عنباً ، من النوع الذى يختمر عصيره ؛ وأما الثانى فقد رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً ، وأن الطير تأكل من ذلك الخبز ؛ فطلبا إلى يوسف أن يفسر لهما ما رأيا ؛ لتوسمهما فيه أنه يحسن ذلك .

٢ — رأى يوسف أن الوقت مناسب لنشر دعوته إلى عبادة الله وتوحيده ، ورأى أن يبين لصاحبيه أن درجته فى العلم والمعرفة أعلى وأعظم من درجته فى تفسير الأحلام ، فقال لصاحبيه : أستطيع أن أخبركما بما سيأتيكما من الطعام من خارج السجن : أى طعام هو ؟ وأى لون هو ؟ وكم هو ؟ وما أثره

فى الصحة والسقم بعد تناوله ؟ أستطيع أن أفعل ذلك كله ، قبل أن يحدث شيء منه ، مع أنى أنا وأنتما فى السجن ، لا نتصل بأحد ، والإخبار بهذا من الأمور الغيبية ، التى علمنى الله إياها عن طريق الوحى ، أوحى الله به إلىّ ، وقد تركت دين ناس يعبدون الأصنام ، ولا يؤمنون بالله وحده ، ويكفرون بالآخرة ؛ وأراد بذلك الكنعانيين والمصريين وغيرهم ، من عبدة الأوثان والكواكب وغيرها .

٣ — وأنا متبع ملة آبائى الذين انحدرت من أصلابهم ، وهى ملة قائمة على التوحيد ، وعبادة الله ، وآبائى هم : إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، فليس من شأنى ، ولا شأن آبائى أن نشرك مع الله غيره ، وفضل الهداية تفضل الله به علينا ، وتفضل على الناس بإرسالنا إليهم ، لنهديهم إلى الدين الصحيح ، ولكن أكثر الناس يخبطون فى الأديان الفاسدة خبط عشواء .

٤ — ثم استمر يوسف فى مخاطبة صاحبيه بقوله : يا ساكنى السجن ، فكرا قليلا ؛ أيهما أقرب إلى العقل ؟ أأن نعبد آلهة متعددة ، لا تملك ضرا ولا نفعاً ، وقد نصنعها بيدنا من حجر منحوت ، أو خشب منجور ، أو غير ذلك ، أم أن نعبد إلهاً واحداً فى ذاته ، واحداً فى صفاته ، واحداً فى أفعاله ؛ لا يستطيع أن ينكره أحد ، قادر قاهر ، مريد عزيز ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

٥ — هذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله ، ليست إلا أشياء خلقها الله ، كالشمس والقمر ، وبعض الحيوان ، أو أشياء صنعتموها أنتم بأيديكم ، وخلعتم على هذه وتلك أسماء سميتموها بها ، لتميزوا بينها ، وتتعرفوا عليها ، ونحلتموها صفات الربوبية وأعمالها ، وهى كلها أشياء مخلوقة غير خالقة ، لا تستطيع أن تجلب نفعاً ، أو تدفع ضرًّا ، لا لنفسها ولا لغيرها ؛ ولم يأذن الله أن نتخذها آلهة ، ولم يوح بذلك إلى أى واحد من أنبيائه ، ولا يمكن أن

يبرهن أى عقل برهاناً على أنها آلهة تستحق العبادة ، والحكم الفصل الذى لا يقبل نقضاً ولا مناقشة ، فيمن هو الإله الحق ، ليس إلا الله وحده ، وهو الله الذى أمر ألا يكون هناك معبود سواه ، هذا هو الدين الحق المستقيم الذى لا عوج فيه ، ولكن كثيراً من الناس لا يعلمون ذلك ، لتأثرهم بكلام المرجفين ، من عبدة الأصنام والأوثان .

٦ — استمر يوسف فى الحديث مع صاحبيه ، بعد أن فرغ من حديث الدعوة إلى الله وحده ، وكان هذا أنسب وقت يتحدث فيه إليهما فى مسائل التوحيد ، لأن سؤالهما إياه عن تأويل ما رأيا ، يدل على أن لهما فيه رأياً خاصًّا ، يجعلهما يطمئنان إليه ؛ فكان جميلا من يوسف أن يتحدث إليهما بما تحدث ، ثم يعقب بما يعلم من تأويل الرؤيا ، فقال لهما : أما من رأى فى منامه أنه يعصر عنباً ، فإنه سيعود إلى العمل عند سيده ، ويتولى سقيه الخمر ؛ وأما الذى رأى فى منامه أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل منه الطير ، فإنه سيصلب ، وتهوى الطير على رأسه ، وتأكل منه مِزَعاً تمزعها بمناقيرها ؛ وبعد أن انتهى حديث يوسف إلى هذا الحد ، قال لهما : وهذا الأمر الذى استفتيتمانى فيه قد أبرم ، وصار أمراً متوقع الحصول .

٧ — قال يوسف بعد ذلك للساقى ، الذى اعتقد أنه سيفرج عنه : حينما يُفرج عنك ، وتخرج من السجن ، وتعود إلى خدمة سيدك — اذكرنى عنده ، وتحدث بشأنى أمامه ، فلعله أن يكون وراء ذلك فرج قريب ، أتمكن بعده من أداء ما يريد الله من الرسالة ؛ ولكن الساقى خرج وعاد إلى الملك ، ونسى أن يذكر يوسف عنده ، فأقام فى السجن بعد ذلك بضع سنين ، والبضع : ما بين الثلاث والتسع .

(٨)

من الآية ٤٣ إلى الآية ٥٢ من سورة يوسف

وَقَالَ الْمَلِكُ : إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ، يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ، وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ، وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، يَأَيُّهَا الْمَلأُ ، أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ ، إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ -١- . قَالُوا : أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ -٢- . وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا ، وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ : أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ، فَأَرْسِلُونِ -٣- . يُوسُفُ ، أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ، أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ، يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ، وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ ، وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ، لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ -٤- . قَالَ : تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ، فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ -٥- . ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ -٦- . ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَامٌ ، فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ -٧-. وَقَالَ الْمَلِكُ : ائْتُونِى بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ، قَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، فَاسْأَلْهُ : مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ؟ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ -٨- . قَالَ : مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ

رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ؟ قُلْنَ : حَاشَ لِلّٰهِ ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ، أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ —٩— . ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إنى أرى	إنى رأيت فيما يرى النائم .
سبعٌ عجاف	سبع بقرات هزيلات ناحلات .
وأخر يابسات	وسبع سنبلات تم نضجها ويبست .
يأيها الملأ	يا أشراف الدولة ، ويا كبار رجالها وعلمائها .
أفتونى فى رؤياى	اشرحوا لى معنى هذه الرؤيا .
إن كنتم للرؤيا تعبرون	إن كنتم للأحلام تفسرون .
أضغاث أحلام	أحلام مختلط بعضها ببعض ، فلا تدل على شيء واقع أو سيقع ، وأصل الضِّغث : القبضة من الحشيش ، يختلط رطبها بيابسها .
وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين	لسنا أهل علم بتفسير الرؤى .
الذى نجا منهما	الذى أفرج عنه من صاحبى يوسف فى السجن ، وهو الساقى .

الألفاظ	شرحها
وادّكر بعد أمة	وتذكر بعد مدة من الزمان .
أنا أنبئكم بتأويله	أنا أخبركم بمن عنده علم بتفسير الأحلام .
فأرسلون	فأرسلونى إليه ، وهو فى السجن .
إلى الناس	إلى الملك وأشراف قومه .
لعلهم يعلمون	لعلهم يعرفون ما أنت عليه من العلم والحكمة ، بعد ما يعلمون تأويلك الصحيح لرؤيا الملك .
سبع سنين دأباً	تزرعون القمح سبع سنين متعاقبات ، بلا انقطاع .
فما حصدتم فذروه فى سنبله	فالذى تحصدونه من القمح ، عليكم أن تحفظوه فى سنبله سليماً وتدخروه .
إلا قليلا مما تأكلون	ولا تأخذوا منه إلا القليل الذى تحتاجون إليه فى غذائكم الضرورى .
سبع شداد	سبع سنوات كلها جدب وقحط .
يأكلن ما قدمتم لهن	تقضى على ما ادخرتموه فى سِنِى الرخاء .
مما تحصنون	مما تدخرون لاتخاذه بذوراً ، حتى لا ينعدم النوع .
يُغاث الناس	ينقذهم الله من الشدة ، ويخلصهم من محنة الجدب ، وينزل عليهم الغيث .
وفيه يعصرون	وفيه ينتجون من الزرع والثمر ما يكفيهم غذاء ، ويتبقى عندهم بعد ذلك ما يعصرونه ، للانتفاع بعصيره فى أشياء أخرى كمالية ، كالعنب والزيتون .
إلى ربك	إلى سيدك الملك .
ما بال النسوة	ما حقيقة أمر النسوة ؟ .

الألفاظ	شرحها
إن ربى بكيدهن عليم	إن ربى أنا — وهو الله سبحانه وتعالى — عليم بكيدهن ، فحفظنى منه ، وإن ربك أنت أيها الساقى ، لا يعرف من هذا الكيد شيئاً .
ما خطبكن	ما شأنكن الخطير ، وما أمركن المهول ؟ .
حاش لله	معاذ الله .
ما علمنا عليه من سوء	ما عرفنا أدنى شىء من المنكر — أيا كان نوعه — يمكن أن ينسب إليه .
الآن حصحص الحق	الآن ظهر الحق ، ووضح وضوحاً بيِّناً ، بعد أن كان مستوراً .
لم أخنه بالغيب	لم أخنه وهو غائب .
لا يهدى كيد الخائنين	مكر الخائن الآثم لا ينجحه الله ، ولا يجعل له أثراً فى المفترى عليه .

مجمل المعنى

١ — رأى ملك مصر فيما يرى النائم سبع بقرات سمينات ، تهجم عليها سبع بقرات مهزولات نحيلات ، وتأكلها ، ورأى كذلك فيما يرى النائم سبع سنبلات خضر ، ذات حب طرى ، وسبع سنبلات يابسات ، فأراد الملك أن يعرف تأويل هذه الرؤيا ، فجمع الأشراف والكهنة ، وذوى المكانة من قومه ، وطلب إليهم أن يعبروها له ، إن كانوا مستطيعين .

٢ — لم يسعهم إلا أن يقولوا للملك — تطميناً له — : هذه أحلام مختلط بعضها

ببعض ، لا تدل على شيء ، فلا يستطاع تفسيرها ؛ وإذا كانت من الأحلام التي يمكن تفسيرها ، فنحن لا علم لنا بتأويل الأحلام .

٣ — في هذا الوقت تذكر ساقي الملك ما كان من يوسف في السجن معه ، من تفسير رؤياه ، وما كان أوصاه به من ذكره عند ربه ، فقال للملك وللملأ من قومه : أنا أدلكم على من يستطيع أن يفسر الرؤيا ، وهو الآن في السجن ، فأرسلوني إليه .

٤— أرسلوا الساقي إلى يوسف في السجن ، فلما لقيه قال له : يا يوسف ، يأيها الصادق في كل ما حدّث به فيما مضى ؛ فسر لنا حلماً رآه الملك ، وهو أنه رأى فيما يرى النائم سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع مهازيل عجاف ، ورأى كذلك سبع سنبلات خضر ، وسبع سنبلات يابسات ؛ وإنك إن أفتيتني في هذه الرؤيا ، رجعت إلى الملك ومن معه ، وأنهيت إليهم تفسيرك إياها ، فيعرفون حقيقتها ، ويعلمون أنك قدرت على ما عجزوا عنه ، فيكون لك بعد ذلك شأن .

٥ — فسّر يوسف الرؤيا ، ونصح بما يجب أن يعمل ، تفادياً لما سيلقون من محن ؛ قال : عليكم أن تزرعوا أرضكم حبًّا ، وأن تهتموا بما تزرعون ، ليكثر محصوله ، وألا تستهلكوا من هذا المحصول إلا ما تضطرون إليه اضطراراً شديداً ، والباقي بعد ذلك تدخرونه في سنبُله ، ليبقى بحالة صالحة فلا يتلف ، وتستمرون على ذلك سبع سنوات متعاقبات .

٦ — وسيأتي عليكم بعد هذه السنين السبع التي تزرعون فيها الحب ، وتدخرون ما تستطيعون ادخاره ، سبع سنوات كلها قحط وجدب ، بجفاف ماء النيل ، أو بتسليط الله الآفات الزراعية ، التي تأكل ما تزرعون ؛ في هذه السنوات

السبع ، تأكلون مما ادخرتم في سابقتها ، ولا تبقوا منه إلا قليلا ، تستعملونه فى الإنبات ، بعد أن تزول المحنة ، وتتكشف الغمة .

٧ — وبعد السبع الثانية يفتح الله عليكم ، ويكشف الضر عنكم ، وتأتى سنة خضراء طيبة ، ينزل الله فيها المطر ، ويجرى النيل ، وتروى الأرض ، ويجود الزرع ، وتكثر الغلة ، وتتنوع الثمار ، فتأكلون ما تأكلون ، ويتبقى عندكم من منتجات أرضكم ما تعصرونه ، لتستخرجوا منه أنواعاً من الأشربة وغيرها ؛ وبذلك تصلون إلى غاية بعيدة من الترف والنعيم .

٨ — نقل الساقى إلى الملك تفسير رؤياه ، وفهمه هو وأصحابه ؛ فأراد أن يستيقن من صدق الساقى ، وأراد أن يسمع الحديث من فم هذا الفتى نفسه ، لعله يناقشه فيه ، أو يستوضحه بعض الاستيضاح ، فأمر أن يحضروه إليه ؛ فذهب الرسول إليه لإحضاره ، فلم ينشط يوسف إلى الخروج ، ولم يهشّ له ؛ ولكنه وجد الفرصة سانحة ، ليتحدث فى أمره مع الملك ، ورأى أن يمهد لذلك قبل أن يخرج ؛ فقال للرسول : ارجع لسيدك أولا ، واسأله : أى أمر خطير جعل النسوة يقطعن أيديهن ؟ واجعله يحقق هذا ، حتى إذا تبين له أنى برىء ، خرجت من السجن عزيزاً ، وظهرت براءة ساحتى ، وربى عليم بمكر هؤلاء النسوة فصاننى ، والملك لا يعلم ما فعلن ، ولعله يعلم فيعرفنى على حقيقتى .

٩ — بلّغ رسول الملك رسالة يوسف ، فلم يتردد الملك فى تحقيق ما طلب يوسف ، لشدة تلهفه على أن يسمع منه تأويل رؤياه ، فدعا النسوة وسألهن : ما حقيقة ما ذاع من أنكن راودتن يوسف عن نفسه ؟ قال النسوة : معاذ الله ! ما علمنا أن يوسف ارتكب أو حاول أن يرتكب فاحشة ما ، لا كبيرة ولا صغيرة ؛ فقالت امرأة العزيز : الآن وضح الحق وبان ،

ويجب أن نقرره كما وقع ، لا كما سول لنا الشيطان ، فأقول فى غير خزى ولا استحياء : أنا التى راودته عن نفسه ، وهو لم يراودنى عن نفسى ، وأؤكد لكم أنه صادق فى كل ما قال .

١٠ — واستمرت تقول : أقرر الآن هذا ، ليعلم يوسف أنى ما قلت فيه — وهو غائب — إلا الحق الذى وقع ، ويكفى أنى أتحدث هذا الحديث أمام الملك ، وأعوان الملك ، وكل خائن من الرجال والنساء لا ينفذ الله كيده ، ولا يجعل له أثراً فى المفترى عليه .

فهرس الجزء الثانى عشر

الرقم	أسماء السور	أرقام الآيات فى المصاحف	أرقام الصفحات
١	هود	من ١ — ٥	من ٣ — ٦
٢	»	» ٦ — ١١	» ٧ — ١١
٣	»	» ١٢ — ١٧	» ١٢ — ١٧
٤	»	» ١٨ — ٢٤	» ١٨ — ٢٢
٥	»	» ٢٥ — ٣١	» ٢٣ — ٢٨
٦	»	» ٣٢ — ٣٥	» ٢٩ — ٣١
٧	»	» ٣٦ — ٤٩	» ٣٢ — ٤٠
٨	»	» ٥٠ — ٦٠	» ٤١ — ٤٧
٩	»	» ٦١ — ٦٨	» ٤٨ — ٥٣
١٠	»	» ٦٩ — ٧٦	» ٥٤ — ٥٨
١١	»	» ٧٧ — ٨٣	» ٥٩ — ٦٤
١٢	»	» ٨٤ — ٩٠	» ٦٥ — ٦٩
١٣	»	» ٩١ — ٩٥	» ٧٠ — ٧٣
١٤	»	» ٩٦ — ٩٩	» ٧٤ — ٧٥
١٥	»	» ١٠٠ — ١٠٩	» ٧٦ — ٨١
١٦	»	» ١١٠ — ١١٣	» ٨٢ — ٨٤
١٧	»	» ١١٤ — ١٢٣	» ٨٥ — ٩١
١	يوسف	» ١ — ٣	» ١٠١ — ١٠٣
٢	»	» ٤ — ٦	» ١٠٤ — ١٠٦
٣	»	» ٧ — ١٨	» ١٠٧ — ١١٢
٤	»	» ١٩ — ٢٢	» ١١٣ — ١١٥
٥	»	» ٢٣ — ٢٩	» ١١٦ — ١١٩
٦	»	» ٣٠ — ٣٥	» ١٢٠ — ١٢٣
٧	»	» ٣٦ — ٤٢	» ١٢٤ — ١٢٨
٨	»	» ٤٣ — ٥٢	» ١٢٩ — ١٣٥

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثالث عشر

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

من الآية ٥٣ إلى الآية ٥٧ من سورة يوسف

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ -١- . وَقَالَ الْمَلِكُ : ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ : إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ -٢- . قَالَ : اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ -٣- . وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ، يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ -٤- . وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ -٥- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إن النفس لأمارة بالسوء	إن النفس الإنسانية لكثيرة الأمر بعمل السوء ، والميل إليه .

الألفاظ	شرحها
إلا ما رحم ربى	إلا نفساً خاصة مَنّ الله عليها وعصمها .
أستخلصه لنفسى	أجعله خالصاً لى ، لا يشركنى فى الانتفاع به أحد .
مكين أمين	صاحب مكانة عالية ، وأمانة مرموقة .
على خزائن الأرض	على خزائن مصر ، أصرف شئونها الاقتصادية ، لأنقذها من الورطة التى تنتظرها .
إنى حفيظ عليم	إنى شديد التحفظ لما يخزن فيها فى السبع السنوات السمان ، عليم بطرق تصريفه فى السبع العجاف .
وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض	وبمثل هذا التثبيت ثبتنا يوسف ، وقوّينا مركزه فى مصر .
نُصيب برحمتنا من نشاء	نُنعم بعطفنا على من نريد من عبادنا .

مجمل المعنى

١ — قدمنا فى الصفحة ٩٢ من تفسير الجزء الثانى عشر ، قصة سيدنا يوسف مفصلة ، وذكرنا فى آخر ذلك الجزء أن امرأة العزيز اعترفت بأنها هى التى راودت يوسف عن نفسه ، وأنها لم تخنه بالغيب ، وأنها لا تُخلى نفسها من الإساءة إليه ، لأن النفس البشرية من شأنها أن تأمر صاحبها بالسوء ، وتزينه له ، وتغريه به ، أما النفوس التى خصها الله برحمته ، فإنه يعصمها من الشر ، وهذا أمر مقرر ، لأن الله من شأنه أن يغفر وأن يرحم ، وإن من غفرانه ورحمته أن يعصم بعض النفوس من الشر .

٢ — وبعد أن سمع الملك شهادة النسوة فى يوسف ، وقول امرأة العزيز ، وثبتت

لديه براءته وصدقه ، وعرف مقدار علمه ونزاهته وعفته — أمر أن يؤتى به من السجن، ليتخذ منه معيناً له فى جميع شئونه، وليُنزله من نفسه منزلة نفسه منه ، فجىء به ، وتحدث إليه ، فأعجبه حديثه وعقله واتزانه ، فأكد له أنه أصبح منذ اليوم صاحب مكانة مرموقة ، وأنه نافذ القول ، وأنه مؤتمن على كل شىء .

٣ — طلب يوسف من الملك أن يجعله مشرفا على خزائن الملك، لكى يتولى الإشراف على تخزين ما يخزن فى السنوات السبع المخصبة، ويُهيمن على حفظه ، حتى لا يتسرب إليه التلف ، ولكى يتولى بعد ذلك إنفاق المخزون فى السنوات السبع المجدبة ، لأن هذا عمل يحتاج إلى أمانة ودراية ، وخبرة وعلم بشئون السياسة والاقتصاد .

٤ — وافق الملك على ذلك ، وتولى يوسف أمور مصر الاقتصادية كلها ، وأطلقت يده فيها ، يتصرف كيف يشاء ؛ وهكذا أنعم الله عليه بما أراد من عطف ورحمة وهو — سبحانه — دائم العطف على الذين يحسنون أعمالهم ، ويشكرونه على ما يخصهم به من توفيق وهداية .

٥ — وإذا كان الله قد وفق هؤلاء فى الدنيا لإحسانهم وشكرهم ، فإن ثوابه الآخرة أعظم لهؤلاء ، ولكل من يؤمن بالله ، ويخلص فى إيمانه ، ويتقى ربه .

(٢)

من الآيه ٥٨ إلى الآية ٦٢ من سورة يوسف

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ، وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ —١— . وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ، قَالَ : ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ، وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ؟ —٢— . فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ، وَلَا تَقْرَبُونِ —٣— . قَالُوا : سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ، وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ —٤— . وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ : اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وجاء إخوة يوسف	وحضر إخوة يوسف من فلسطين إلى مصر ، ليبتاعوا منها ميرة وطعاماً .
وهم له منكرون	وهم لم يعرفوه ، ولم يدرُ في خلدهم من قريب أو بعيد أن هذا هو يوسف .
جهزهم بجهازهم	هيأ لهم كل ما يحتاجون إليه في سفرهم .

الألفاظ	شرحها
أوفى الكيل	أجعل الكيل الذى كلته لكم وافياً كافياً ، لا نقص فيه .
خير المنزلين	خير المضيفين .
فلا كيل لكم عندى	فلن أكيل لكم بعد ذلك ، إذا عدتم للامتيار .
ولا تقربون	ولا أستضيفكم كما استضفتكم فى هذه المرة .
سنراود عنه أباه	سنحتال على أبيه ، ونفاوضه فى أن يسمح له بالمجىء معنا .
وإنا لفاعلون	ونؤكد لك أننا سنبذل كل ما نستطيع من جهد وحيلة للمجىء به .
وقال لفتيانه	وقال لغلمانه وأعوانه الذين يعملون معه .
اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم	ضعوا ما جاءوا به ثمناً لما يشترون فى أوعيتهم ، مع ما اشتروا من طعام .
لعلهم يرجعون	رجاء أن يعودوا إلينا طمعاً فى زيادة بِرِّنا ، أو ليردوا لنا الثمن ، حيث يظنون أنه وضع فى متاعهم خطأ .

مجمل المعنى

١ — اشتد القحط فى مصر وفى البلاد التى حولها ، فأصاب فيما أصاب موطن يعقوب وقومه فى أرض كنعان ، والاحتياطُ الذى اتخذه يوسف فى مصر من ادخار بعض المنتجات وحفظها ، أفاد مصر وجيرانها ، فكانت القوافل تأتى من البلاد المجاورة ، وتشترى من مصر ما تحتاج إليه من طعام ؛ ومن الذين جاءوا إلى مصر يمتارون إخوة يوسف، بعثهم أبوهم ، فدخلوا مصر ، وأُدخلوا على يوسف ، باعتباره الوزير المختص بشئون التموين فيها ، فلما رآهم عرفهم ، ولكنهم لم يعرفوه ، ولم يفطنوا إليه لأنهم خلّفوه صبيًّا ، ولم يتوهموا أنه يبلغ هذه المنزلة .

٢ — أنزلهم يوسف ضيوفاً عليه ، وأكرمهم ، وبالغ فى إكرامهم ، لا لأنهم إخوته فحسب ، بل استدراجاً لهم ، ليحتالوا فيما بعد على أبيهم ، ويعودوا إلى مصر ، ومعهم أخوهم الأصغر ، وهو بنيامين أخو يوسف الشقيق ، وبعد أن كال لهم كيلا وافياً، أمر غلمانه أن يدسوا الثمن الذى قدموه لبضاعتهم وسط هذه البضاعة ، وزودهم فوق ذلك بما يحتاجون إليه فى سفرهم من طعام وشراب ، لتتهيأ لهم أسباب الراحة فى طريقهم ؛ وعندما تهيئوا للرحيل، طلب إليهم أن يأتوه بأخ لهم غير شقيق ، وقال لهم : أنتم ترون أنى أكرمتكم ، فاستضفتكم ، وأوفيت الكيل لكم ، وهيأت لكم أسباب الراحة فى سفركم ، وحينما تعودون تجدوننى رجلا مضيافاً كما عهدتمونى ، فلا تخشوا شيئاً .

٣ — وأنا لكم كما عرفتمونى ، إن أتيمتونى بأخيكم هذا؛ فإن لم تأتوا به فلن أكيل لكم ما تطلبون ، ولن أستضيفكم على عادتى معكم .

٤ — قالوا : سنحتال على أبيه أن يرسله معنا ، وسنعرض عليه ما لقينا من أنواع الكرم ، لعل ذلك يجعله يطيب نفساً ويرسله ، وأكدوا له أنهم سيفعلون هذا ، ولن يقصروا فيه .

٥ — أمر يوسف غلمانه الذين يعاونونه فى عمله ، أن يدسوا الثمن الذى أحضروه معهم ليشتروا به ، لعله ، حينما يرونه بعد أن يعودوا إلى بلادهم ، يغريهم بالعودة لمصر ، إما لرد الثمن على اعتبار أنه وضع خطأ ، وإما للشكر على رده .

(٣)

من الآية ٦٣ إلى الآية ٦٨ من سورة يوسف

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ ، قَالُوا : يَا أَبَانَا ، مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ، فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ —١— . قَالَ : هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ —٢— . وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ، وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا : يَا أَبَانَا ، مَا نَبْغِي ؟ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ، وَنَحْفَظُ أَخَانَا ، وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ، ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ —٣— . قَالَ : لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ : لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ، قَالَ : اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ —٤— . وَقَالَ : يَا بَنِيَّ ، لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ؛ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ —٥— . وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ، مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ

قَضَاهَا ، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
منع منا الكيل	إذا عدنا لنكتال ، فلن يكيلوا لنا .
نكتل	نستطع أن نكتال .
وإنا له لحافظون	ونؤكد لك أننا سنرعاه ، ونحافظ عليه ، فلا يصيبه مكروه .
فالله خير حافظاً	فالله خير من يتولى الحفظ ، ومن لم يحفظه الله فلا حافظ له .
هذه بضاعتنا ردت إلينا	هذه أثمان ما اشتريناه ردت إلينا .
ونمير أهلنا	ونجلب لأهلنا الطعام .
ونحفظ أخانا	ونحافظ على أخينا .
ونزداد كيل بعير	ونأتى بحمل جمل زيادة على ماجئنا به فى المرة الأولى.
ذلك كيل يسير	هذه الزيادة التى نأتى بها يسيرة على عزيز مصر ، هينة عنده .
حتى تؤتون موثقاً من الله	حتى تعطونى عهداً مؤكداً بالقسم بالله .
لتأتننى به	لترجعن ببنيامين إلىّ سليماً معافى .
إلا أن يحاط بكم	إلا أن تغلبوا على أمركم ، فتهلكوا دونه .
آتوه موثقهم	قدموا له العهد المؤكد بما طلب منهم من الأيمان .

الألفاظ	شرحها
الله على ما نقول وكيل	الله شهيد بيني وبينكم .
وما أغنى عنكم من الله من شىء	وما وصيتى لكم تدفع عنكم شيئاً أراده الله لكم ، وقدّره عليكم .
إنِ الحكم إلا لله	ما تدبير هذا العالم ، والتصرف فى شأنه ، إلا بأمر الله وقضائه .
إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها	إلا خاطراً خطر على قلبه .

مجمل المعنى

١ — عاد الإخوة إلى أبيهم بما حملوا من متاع ؛ وبمجرد عودتهم أخبروه أنهم لن يكال لهم إذا عادوا ، إلا أن يكون معهم أخوهم بنيامين ، وأكدوا لأبيهم أنهم سيرعونه ، ويحافظون عليه .

٢ — رد عليهم أبوهم رداً فيه حسرة ، وفيه تبكيت لهم ، فقال لهم : لقد ذكرتم هذا الكلام فى يوسف فقلتم : وإنا له لحافظون ، فهل يكون ائتمانكم على بنيامين كائتمانكم على أخيه يوسف من قبل ، أنا لا أثق بكم ولا بمحا فظتكم عليه ، وإنما أفوض أمرى إلى الله ، والله وحده هو الذى يحفظ من يريد ويرعاه ، ويختص برحمته من يريد ، ولعله يحفظ علىّ ولدى ، ويرحمنى حتى لا يفجعنى فى فقد الأخوين ؛ وكأن يعقوب بهذا الكلام بدأ يلين ، ويفكر فى إرسال ابنه مع إخوته ، وقد نفهم من هذا أيضاً أن القحط كان مشتداً عليهم ، فهم فى حاجة إلى الرجوع إلى مصر للامتيار .

٣ — حينما أنزلوا أمتعتهم ، وفتحوها ، وجدوا فيها ما كانوا قد حملوه معهم من أثمانها ، فقالوا لأبيهم : أكرمنا العزيز إكراماً عظيماً ، فماذا نريد بعد هذا الإكرام ؟ لقد رد لنا الثمن الذى قدمناه له ، ومنحنا طعامنا وميرتنا من غير ثمن ، فوق أنه أكرم وفادتنا ، وأحسن ضيافتنا ، ونحن إن عدنا إليه ، ومعنا أخونا ، رجعنا بميرة كالتى رجعنا بها ، ونزيد حمل بعير لأخينا ، فهم لا يعطون الواحد أكثر من حمل بعير ، والحِمل الذى نزيد ، أمره هين على عزيز مصر ، لأنه هو الذى يتولى البيع ، وقد اختزن عنده من الميرة شيئاً كثيراً ، وثق أننا سنحفظ أخانا من أن يمسه سوء .

٤ — قال لهم أبوهم ، وقد بدأ يلين لهم ، ويستجيب لرجائهم : لن أرسل أخاكم معكم إلا إذا عاهدتمونى عهداً مؤكداً ، مقسمين فيه بالله أنكم تأتوننى به سليماً معافى ، وأنكم لن تفرطوا فيه لأى سبب ، وأنكم تدافعون عنه ، فلا تقصرون عن رده إلا إذا غلبتم على أمركم بعدو يفجؤكم ، أو بلاء ينزل بكم ، فلا ينجو ولا تنجون ؛ فأعطوه العهد الذى طلبه منهم ، وأكدوا له بالأيمان ، وأشهد الله عليهم ، فهو الحفيظ للعهد ، الكفيل بالتوفيق للوفاء بالوعد .

٥ — قبل يعقوب أن يخرج ابنه الصغير مع إخوته ، وزودهم قبل الخروج بنصائحه ، وكان منها أنهم لا يدخلون من باب واحد ، حتى لا يرى الناس أحد عشر أخاً لرجل واحد ، فيهم جَمال ، وفيهم بسطة ، يخرجون معاً ، ويدخلون معاً ، للامتيار من عزيز مصر الذى أكرم عشرة منهم من قبل ، فعادوا إليه أحد عشر ؛ فإن هذا يثير الحسد والحقد فى قلوب الناس ، ودخولهم من أبواب متفرقة ، يصرف نظر الناس

عنهم ، وينجيهم من الحسد ، وهو إذ ينصحهم ويحذرهم ، يؤمن إيماناً صحيحاً أن ما قدره الله لابد واقع ، فما يغنى حذر من قدر ، فكل شيء قدّره الله لابد من حدوثه ، ولذلك يعتمد عليه ، ويثق به ، دون غيره من جميع خلقه .

٦ — جاء الإخوة إلى مصر ، ودخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم ، ودخولهم من الأبواب المتفرقة لا يمنع عنهم ما قدره الله عليهم ، ولكن يعقوب كان فى نفسه شيء تحدث به ، وأوصاهم أن يعملوه ، وهو دخولهم متفرقين ، مع أنه مؤمن إيماناً صحيحاً فى أن الحذر لا يدفع القدر ؛ ويعقوب عالم بما علمه الله إياه من أمور دينه من طريق الوحى أو الإلهام أو الكسب ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون سر القدر ، وأنه لا يغنى عنه الحذر .

(٤)

من الآية ٦٩ إلى الآية ٧٦ من سورة يوسف

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ، قَالَ : إِنِّى أَنَا أَخُوكَ ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —١— . فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ، ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ : أَيَّتُهَا الْعِيرُ ، إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ —٢— . قَالُوا — وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ — : مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ —٣— . قَالُوا : نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ، وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ —٤— . قَالُوا : تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ —٥— . قَالُوا : فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ؟ —٦— . قَالُوا : جَزَاؤُهُ : مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ —٧— . فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ، مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
آوى إليه أخاه	ضم إليه أخاه الشقيق ، وأنزله معه .
فلا تبتئس	فلا تحزن ولا تشق .
جعل السقاية فى رحل أخيه	وضع المكيال الرسمى الذى يكيلون به ، فيما كالوا لأخيه من حب .
ثم أذن مؤذن	ثم نادى مناد بصوت مرتفع ، وردد نداءه .
أيتها العير	يا أصحاب العير ، والعير : الإبل التى عليها ما حملوا من تجارة ومتاع .
نفقد صواع الملك	نفقد المكيال الرسمى الذى عليه شارة الملك .
ولمن جاء به حمل بعير	ولمن يعثر على صُواع الملك ويرده مكافأة ، مقدارها حمل بعير من الطعام
وأنا به زعيم	وأنا ضامن إعطاء المكافأة لمن يجىء بالصواع .
ما جئنا لنفسد فى الأرض	ما أتينا إلى مصر لنعمل فيها عمل الأشرار المفسدين .
وما كنا سارقين	ليس من شأننا ولا من طبعنا ولا من آدابنا أن نسرق .
من وجد فى رحله فهو جزاؤه	الذى نجد الصواع فى رحله ، نأخذه فيه عقاباً له .
فبدأ بأوعيتهم	فبدأ يوسف يفتش متاع كل منهم .
كذلك كدنا ليوسف	بمثل هذا التدبير دبرنا ليوسف ، وهيأنا له أن يتصرف تصرفاً مستوراً يوصله إلى ما يريد .
فى دين الملك	فى سلطة الملك .

مجمل المعنى

١ — دخل الأحد عشر على يوسف ، فلما رآهم عرف أخاه ، وأحس نحوه إحساساً عاطفيًّا خاصًّا ، وأكرم وفادتهم ، وأنزل كل اثنين منهم منزلا ، وبقى أخوه وحده ، فأنزله معه فى منزله ، وضمه إليه ، وأسر إليه بأنه أخوه يوسف ، ونصح له ألا يحزن ، ولا يرهق نفسه ، ولا يشق عليها فى تحميلها فوق ما تطيق ، من التفكير فيما يصيبه من الأذى من إخوته الكبار .

٢ — جهز يوسف إخوته بمثل ما جهزهم به فى المرة الأولى ، وزادهم رحلا لأخيه ، وأخذ هو نفسه المكيال الرسمى الذى كانوا يكيلون به ، ووضعه فى رحل أخيه ، وبعد أن تم لهم جهازهم ، بدءوا يرتحلون ، فى هذا الوقت تفقد غلمان يوسف المكيال فلم يجدوه ، بحثوا عنه هنا وهناك فلم يعثروا عليه ؛ لم يكيلوا فى هذا الوقت إلا لإخوة يوسف ، ولم يدخل عليهم أحد سواهم ، فلم يترددوا فى اتهامهم بسرقة المكيال ، فنادى مناد ، ورفع صوته ، وكرر نداءه ، متهماً إياهم اتهاماً صريحاً بالسرقة ، وأكد لهم أنهم سارقون .

٣ — سمع إخوة يوسف النداء ، واستعجبوا من اتهامهم بالسرقة ، فعادوا سراعاً ، وسألوا : ماذا تفقدون ؟

٤ — قال لهم المنادى : نفقد المكيال الرسمى الذى كنا نكيل لكم به ، وقررنا أن نمنح من يأتى به مكافأة ، هى حمل بعير من الطعام ، وأنا ضامن هذه المكافأة لمن يأتى بالمكيال .

٥ — أقسم إخوة يوسف للمنادى ولمن معه ، أنهم ما جاءوا إلى أرض مصر للإفساد فيها ، ولارتكاب جريمة السرقة ، وما كان من شأنهم أن يسرقوا ،

ولاسيما أنهم لاقوا من التكريم ما يجعلهم لا يفكرون فى خيانة العزيز .

٦ — قال لهم المنادى ومن معه : ما جزاء من نجد المكيال فى متاعه ، إن كنتم كاذبين فيما تزعمون من الأمانة والبراءة ؟

٧ — قال إخوة يوسف : جزاء الذى تجدون المكيال فى متاعه ، أنكم تسترقُّونه وتأخذونه ، هكذا قضاؤنا ، وهذا جزاء عادل للظالم ، الذى ظلم نفسه بارتكاب السرقة ، وظلم من أكرمه بخيانته .

٨ — أخذ يوسف يفتش أوعيتهم ، وبدأ بأوعيتهم ، وهو يعلم أنه لا شىء فيها ، وبعد أن أتم تفتيشها فتش وعاء أخيه ، فوجد المكيال ، واستخرجه منه ، فنفَّذ فيه الحكم الذى ارتضوه لأنفسهم ، وهو : من وجد فى رحله فهو جزاؤه ؛ وهكذا دبَّر الله ليوسف ، وهيأ له أن يتصرف تصرفاً لطيفاً مستوراً ، يوصله إلى ما يريد ، وهو أن يحتجز أخاه عنده ، ليتم التدبير بعد ذلك باستدعاء أبيه وأهله ، فيحضروا عنده ؛ وهكذا أخذ يوسف أخاه ، وضمه إليه تحت سلطان الملك ، كل ذلك بإرادة الله وقضائه ؛ والله يرفع درجاتٍ من يشاء رفعه بالعلم والإيمان ، كما رفع درجات يوسف ، فوصل إلى ما وصل إليه عند ملك مصر ؛ ومع ذلك فإنك تجد فوق كل ذى علم من هو أعلم منه ، والعالم من الناس ليس محيطاً بكل شىء ، فلكلٍّ اختصاصه الذى يبرع فيه ، ويبذ غيره ؛ أما الله فقد أحاط بكل شىء علماً .

(٥)

من الآية ٧٧ إلى الآية ٨٢ من سورة يوسف

قَالُوا : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ ، وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ : أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ —١— . قَالُوا : يٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ : إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ —٢— . قَالَ : مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ، إِنَّا إِذَنْ لَظَالِمُونَ —٣— . فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ، قَالَ كَبِيرُهُمْ : أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ ؟ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِى يُوسُفَ ، فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِى أَبِى ، أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِى ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ —٤— ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ ، فَقُولُوا : يَا أَبَانَا ، إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ، وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ —٥— . وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا ، وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فأسرها يوسف فى نفسه	فكتم يوسف ما اتهمه به إخوته من السرقة فى نفسه .
ولم يبدها لهم	ولم يظهرها لهم .
أنتم شر مكاناً	أنتم فى وضع يعتبر شرًّا مما تضعون به يوسف وأخاه ، لسرقتكم يوسف من أبيه .
والله أعلم بما تصفون	والله هو العالم بأن ما تصفون به يوسف وأخاه كذب.
إنا نراك من المحسنين	إنك فى جميع تصرفك معنا محسن إلينا .
معاذ الله	أعوذ بالله واعتصم به .
استيئسوا منه	يئسوا من موافقته على أن يأخذ واحداً منهم بدله .
خلصوا نجيا	انفردوا يتشاورون فى سر ومناجاة .
أخذ عليكم موثقاً من الله	أخذ عليكم عهداً وثيقاً مؤكداً بالقسم بالله .
ومن قبل ما فرطتم فى يوسف	ومن قبل هذا حدث تفريطكم فى يوسف ، وتقصيركم فى المحافظة عليه .
فلن أبرح الأرض	فلن أخرج من هذه البلاد .
أو يحكم الله لى	أو يقدر الله لى خلاص أخى .
وما شهدنا إلا بما علمنا	وما حدث ذلك إلا بأنه وقع على علم منا ، ومشاهدة للمسروق يخرج من رحله .
وما كنا للغيب حافظين	وما كنا نعلم الغيب ، ومقدرين أنه ستقع منه سرقة .
واسأل القرية	واسأل أهل القرية .
والعير التى أقبلنا فيها	واسأل أصحاب العير الذين كانوا يمتارون معنا .

ادعاء سرقة يوسف

كان ليوسف عمة أكبر سناً من أبيه يعقوب ، وكانت ورثت عن أبيها إسحق منطقة ، وكانت عمة يوسف احتضنته وأحبته حباً شديداً ، فلما ترعرع وشب ، طلب يعقوب أن يضمه إليه ، لأنه لا يطيق صبراً على بعده عنه ، فقالت له : دعه عندى أياماً أنظر إليه ، فلما خرج من عندها يعقوب ، جاءت بالمنطقة التى ورثتها عن إسحق ، وحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدت منطقة إسحق ، فانظروا مَن أخذها ، ثم قالت : فتشوا أهل البيت ، ففتشوهم ، فوجدوها تحت ثياب يوسف ، وكان فى شريعتهم أن من يسرق يستعبد ، فقالت : إن يوسف والله لى ، أصنع فيه ما شئت ، ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ، فأمسكته حتى ماتت ، وبذلك عيَّره إخوته فى قولهم : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، ولعل يوسف تعلم من عمته وضع السقاية فى رحل أخيه .

مجمل المعنى

١ — رأى الإخوة أن يوسف استخرج صُواع الملك من رحل بنيامين ، وأن يوسف نفّذ فيه حكم الاسترقاق الذى ارتضوه ، فقالوا له : إنه ليس عجيباً أن يسرق ، فقد سرق أخ له شقيق من قبل ، فلما سمع منهم يوسف ذلك ، كتمه فى نفسه ، ولم يظهر لهم شيئاً ، وقال فى سره : أنتم فى منزلتكم ومكانتكم شر من الذى تعرِّضون به فى كلامكم ، لأنكم سرقتمونى من

أبى لإقصائى عنه، والله وحده هو الذى يعلم أنكم كاذبون فيما تزعمون : أن أخاه سرق .

٢ — بدءوا بعد ذلك يستعطفون يوسف ، فقالوا له : إن أبا هذا الفتى رجل تقدمت به السن، وله بين قومه منزلة ممتازة ، وصعبٌ علينا وعليه أن نعود إليه وليس معنا ، فخذ واحداً منا يحل محله ، وأطلقه لأبيه رحمة به ، وعطفاً على شيخوخته ، وقد عودتنا أن تكرمنا وتحسن إلينا فى حلنا وتَرحالنا ، فاجعل من إحسانك إلينا قبول واحد منا مكان أخينا .

٣ — استعاذ يوسف بالله أن يخالف الحكم الذى ارتضوه ، والذى تقره شريعتهم ، وأن يعاقب بريئاً بجريرة آخر ، ولو قد فعل لكان ظالماً .

٤ — يئس الإخوة من إقناع يوسف بإطلاق سراح بنيامين ، فانتحوا ناحية ، وأخذوا يتشاورون فيما عسى أن يفعلوا ، فقال أكبرهم سناً ، وأرشدهم رأياً : ألا تذكرون أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً وثيقاً مؤكداً ، وأقسمتم له أيماناً مغلظة ، أنكم لا تقصرون فى المحافظة على أخيكم ، حتى تعيدوه إليه سالماً ، إلا أن يحاط بكم من عدُو أو بلاء ، وقبل ذلك فرطتم فى يوسف ، ففجعتم أباكم فى أعز أولاده عليه ، وأحبهم إليه ، إنى مقيم ها هنا ، ولن أبرح هذا البلد حتى يأذن لى أبى بالعودة ، أو حتى يحكم الله لى بمبارحتها ، بأن يطلق سراح أخى ، فأعود به ، والله خير حاكم بالحق ، وخير مهيئ للأسباب .

٥ — ارجعوا إلى أبيكم من دونى ، وأخبروه حقيقة ما حدث ، وأعلموه أن ابنه سرق صواع الملك ، وأن الصواع وجد فى متاعه ، فنفّذ عليه حكم الاسترقاق ، وقد رأينا ذلك كله رأى العين ، فلم نستطع أن ندفع عنه ،

وهذا أمر قدره الله عليه ، ولو كنا نعلم الغيب ، ونعلم أن ذلك سيكون — لما أخذناه معنا .

٦ — وإن أهل البلد الذى كنا فيه عرفوا ذلك ، وإن أصحاب العير التى كانوا يمتارون معنا عرفوا ذلك أيضاً ، فاسأل هؤلاء وأولئك ، يخبروك أنا صادقون فيما أخبرناك ، ونحن حقيقة صادقون .

(٦)

من الآية ٨٣ إلى الآية ٨٧ من سورة يوسف

قَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ —١— وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ، وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ ! وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ، فَهُوَ كَظِيمٌ —٢— قَالُوا : تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً ، أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ —٣— قَالَ : إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ —٤— يَا بَنِيَّ ، اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ، وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سولت لكم أنفسكم أمراً	زينت لكم أنفسكم كيداً آخر تكيدونه لى .
وتولى عنهم	وأعرض عنهم .
يا أسفا على يوسف	يا حسرتى وحزنى الشديد على يوسف !

الألفاظ	شرحها
فهو كظيم	فهو مغيظ غيظاً شديداً يكتمه فى نفسه ، ولا يبوح به .
تالله تفتأ تذكر يوسف	قسماً بالله لا تزال تردد ذكر يوسف .
حتى تكون حرضاً	حتى تكون مشرفاً على الهلاك .
أشكو بثى وحزنى إلى الله	أظهر لله شكواى ، وما أعانيه من الحزن الممض الموجع .
فتحسّسوا	فتكلفوا أن تعرفوا بحواسكم .
ولا تيئسوا من روح الله	ولا تقنطوا من فرج الله .

مجمل المعنى

١ – رجع الإخوة إلى أبيهم ، وقد تخلف عنهم كبيرهم ، وأخبروه ما حدث كما حدث ، وكان طبيعياً ألا يصدقهم أبوهم ، وقال لهم : إن أنفسكم زيّنت لكم أمراً آخر ، كما زينت لكم أمراً أول مع يوسف ، وإذا كانت المصيبة قد وقعت ، فليس لى إلا أن أصبر صبراً جميلا ، وأن أستعين بالله ، وأدعوه أن يأتينى بأولادى الثلاثة الغائبين ، ويردّهم علىّ ، فهو الذى يحيط علمه بكل شىء ، وله فى كل شىء حكمة .

٢ – أعرض يعقوب عن أولاده ، وترك محادثتهم ، وتولى عنهم ، وقال : ما أشد حزنى على يوسف ! وما أبلغ حسرتى على فقده ! ، وظل يبكيه وينوح عليه ، حتى عميت عيناه واحتجب نورهما بغشاوة بيضاء ، وهى التى يسميها الطب الحديث : (كتاركت)، ويسميها العرب : عين قائمة ،

وقلبه مفعم غيظاً على أبنائه ، الذين تسببوا فى فقد يوسف وأخيه .

٣ — أقسموا له قسماً مؤكداً أنه سيظل يذكر يوسف ، فيجعله أول منطقه إذا نطق ، وهو فى ضميره إذا سكت ، يذكره دائماً ذكر الحزين الملتاع ، المفجوع فيه ، المصاب بفقده ، وأنه لا يزال يفعل ذلك حتى يهلك ، أو يشفى على الهلاك .

٤ — قال لهم أبوهم : إنما أشكو ما أنا فيه من حزن شديد إلى الله ، ولا أطلع أحداً غيره على ما أنا فيه من حرقة الغيظ ، ومرارة الفجيعة ، وهول المصيبة ، وأعلم من الله ما لا تعلمون من ابتلائه إياى : بفراق يوسف وغيبة أخيه .

٥ — يا بَنِىّ ، عودوا إلى مصر ، وابحثوا عن يوسف وأخيه ، وواصلوا البحث ، ولا تيئسوا من الوصول إلى نتيجة ، فإن رحمة ربنا تحفنا ، والذين يقنطون من رحمة الله ، ولا يرجون رضاه — إنما هم الكافرون الذين لا يؤمنون بما له من قدرة على تفريج الكرب ، وإزالة الهم ؛ وإن فى هذا بعض الدليل على أن يعقوب كان له رجاء كبير فى أنه سيلقى يوسف وأخاه ، وأنه ستتحقق رؤيا يوسف التى رآها فى مطلع حياته .

(٧)

من الآية ٨٨ إلى الآية ٩٣ من سورة يوسف

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ، قَالُوا : يٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ ، مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ، وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ، فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ –١– قَالَ : هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ؟ –٢– قَالُوا : أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ؟ قَالَ : أَنَا يُوسُفُ ، وَهٰذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ –٣– قَالُوا : تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ، وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ –٤– قَالَ : لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ –٥– اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ، وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ –٦– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مسنا وأهلنا الضر	أصابنا نحن وأهلنا الضرر ، من الجوع والعوز .
ببضاعة مزجاة	ببضاعة رديئة لا يقبلها أى إنسان ، بل يردّها .

الألفاظ	شرحها
فأوف لنا الكيل	اجعل الكيل لنا وافياً ، ولا تنظر إلى رداءة بضاعتنا ، على عادتك منا .
وتصدق علينا	واجعل الفرق بين الثمن الجيد والردىء صدقة منك لنا .
قد منّ الله علينا	قد تفضل الله علينا .
وإن كنا لخاطئين	وإننا كنا مذنبين .
لا تثريب عليكم اليوم	لا لوم عليكم الآن ولا مؤاخذة .
يأت بصيراً	يصر بصيراً .

مجمل المعنى

١ — عاد إخوة يوسف إلى مصر للمرة الثانية ، يمتارون على عادتهم ، وفى الوقت نفسه يبحثون عن يوسف وأخيه ، فلما وصلوا إليها ، ودخلوا على العزيز ، قالوا له : يأيها العزيز ، أصابنا وأصاب أهلنا ضرر شديد من الجوع والعوز والفقر ، فصرنا نحافاً مهازيل ، وحملنا ما عندنا ثمناً لما نطلبه من الطعام ، وهو ثمن ردىء يرفضه كل أحد ، وليس عندنا غيره ندفعه ، وما زلنا نطمع فى برك وكرمك ، بأن توفى لنا الكيل ، على فرض أننا قدمنا ثمناً طيباً ، ويجعل العزيز الفرق بين ردىء الثمن وجيّده صدقة منه لنا ، وبرًّا بنا ، وجزاؤك على هذا عند الله .

٢ — وجد يوسف الفرصة سانحة ، ليكشف لهم عن السر الذى لا يعرفونه ، فأراد أن ينبههم أولا إلى ما ارتكبوه من خطأ معه ومع أخيه ، لعلهم بذلك يفطنون إلى ما يريد ، فقال لهم فى لهجة العاتب : هل علمتم ما فعلتم

بيوسف ، بإلقائه فى الجب ؟ وهل علمتم ما فعلتم بأخيه بإساءتكم معاملته بعد فراق أخيه ، وقد كنتم فى سن الشباب والطيش ؟ .

٣ — نظروا إليه ، وعرفوا فيه أخاهم يوسف الذى ألقوْه فى الجب ، وقالوا له : أئنك لأنت يوسف ؟ فلم يتمالك يوسف أن قال لهم : أنا يوسف ، وهذا أخى ، قد تفضل الله علينا ، وجمع بيننا ، وهذا شأن كل من يتقى الله ، ويصبر على ما يصيبه من الشدائد ، فإن الله لا يضيع أجره ، ولا ينقص منه شيئاً ، وهكذا انكشف الغطاء ، والتقى الإخوة ، بين عواطف ممتزجة متناقضة ، من الفرح والخجل .

٤ — لم يملك الإخوة إلا أن يعترفوا بذنبهم ، وبفضل الله على أخيهم ، وتفضيله عليهم ، فأقسموا مؤكدين أن الله فضله عليهم ، وأنهم كانوا مخطئين فيما فعلوا ، فلا عذر لهم عند أخيهم ، ولا عند ربهم .

٥ — كان يوسف كريماً فى ردّه ، عطوفاً فى موقفه ، مقدراً ما أصابهم من ذل الخزى ، فسرَّى عنهم ، وطمأنهم ، وقال لهم : لا لوم عليكم اليوم ، ولعل الله يغفر لكم ، ويرحمكم ، وهو خير من يُطمع فى مغفرته ورحمته .

٦ — وكان طبيعياً بعد هذا الموقف أن يفكر يوسف أول ما يفكر فى أبيه ، الذى يؤرقه ويحزنه فراق يوسف وأخيه ، حتى ابيضت عيناه من الحزن ، فإنه بعد أن كشف لهم عن السر أسرع إلى قميص له ، وأمرهم بأن يأخذوا هذا القميص ، ويذهبوا به إلى أبيهم ، وبمجرد وصولهم إليه ، يلقونه على وجهه ، فيرتد إليه بصره ، وبعد ذلك يحملونه هو وأهله من رجال ونساء وأولاد وحفدة ، ويأتون بهم جميعاً إلى مصر ، ليعيشوا فى كنف يوسف عزيز مصر .

(٨)

من الآية ٩٤ إلى الآية ١٠١ من سورة يوسف

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ، قَالَ أَبُوهُمْ : إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ، لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ . قَالُوا : تَاللَّهِ ، إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ —١— . فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ —٢— قَالُوا : يَا أَبَانَا ، اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ . قَالَ : سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ —٣— . فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ، وَقَالَ : ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ —٤— وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ، وَقَالَ : يَا أَبَتِ ، هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ، قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ، وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ، مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ —٥— . رَبِّ ، قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولما فصلت العير	ولما خرجت العير من حدود مصر قاصدة الشام .
إنى لأجد ريح يوسف	إنى لأحس إحساساً خفياً ، أتنسم فيه رائحة يوسف .
لولا أن تفندون	لولا أنكم تنسبون إلىّ الضلال ، وخطأ الرأى ، والسفه.
إنك لفى ضلالك القديم	إنك لباق على زعمك الفاسد ، وهو أن يوسف ما زال حياً .
البشير	ابن يعقوب الذى كان يحمل القميص ، وقيل : إن الذى حمل القميص هو نفسه الذى حمل القميص الذى كان ملطخاً بالدم يوم الذئب إلى يعقوب .
آوى إليه أبويه	ضم إليه أبويه .
ورفع أبويه على العرش	ورفع مكانة أبويه ، وجعلها تساوى مكانته .
وخرّوا له سجداً	وسجد له أبواه وإخوته سجود تحية ، كما سجدوا لله سجود شكر .
قد جعلها ربى حقاً	قد تحققت بإذن الله ، وتقديره وتدبيره .
نزغ الشيان بينى وبين إخوتى	أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، فنسب ما عملوه معه إلى الشيطان ترفقاً بهم .
إن ربى لطيف لما يشاء	إن ربى رفيق بعباده ، بارّ بهم ، مترفق عليهم ، من حيث لا يشعرون .

الألفاظ	شرحها
إنه هو العليم الحكيم	إنه هو العارف لكل ما قدر وقضى ودبّر ، الحكيم فى تصريفه .
فاطر السموات والأرض	خالق السموات والأرض .
أنت وليى فى الدنيا والآخرة	أنت نصيرى ، والآخذ بيدى ، ومنقذى فى الدنيا والآخرة .
وألحقنى بالصالحين	واحشرنى مع الصالحين .

مجمل المعنى

١ — حمل إخوة يوسف القميص ، وخرجوا به من مصر إلى فلسطين ، التى كانت جزءاً من الشام ، ليلقوه على وجه أبيهم ، فلما جاوزوا حدود مصر ، كان أبوهم جالساً فى بعض أهله ، فشعر شعوراً خفيًّا أنه يحس رائحة يوسف ، وهو إذ يؤكد هذا ، ينسبون إليه العتَه والكذب ، لما وصل إليه من تقدم السن ، وخرف الشيخوخة ، فلا يكادون يسمعون منه هذا ، حتى يقسموا له أنه ما زال مقيماً على خطئه القديم ، فى أنه سيلقى يوسف .

٢ — وصل إليه حامل قميص يوسف ، وبمجرد وصوله ألقى القميص على وجهه ، فعاد إليه بصره من فوره ، وتجددت روحه المعنوية ، ودبت فى جسمه حياة جديدة ، فقال : لقد تحقق ما كنت أعتقد أنه سيتحقق ، وهذا شىء أخبرنى به الله ، وكنتم أنتم لا تعرفون منه شيئاً .

٣ — اعترف الأبناء بخطئهم ، ورجوا أباهم أن يسأل الله أن يغفر لهم ذنوبهم التى ارتكبوها ، وتعمدوا بها أن يؤذوا أخاهم ، ولم يفكروا فيما يصل إلى

أبيهم من هذا الأذى ، لفراق أحب أبنائه ، فوعدهم أبوهم أن يستغفر لهم ربه ، وأكد لهم أن ربه غفور رحيم .

٤ — جاء يعقوب وأهله إلى مصر ، ودخلوها ، وقابلهم يوسف عزيز مصر ، ورحّب بهم ، وضم إليه أبويه ، وأقامهما معه فى منزل واحد ، وخصص لكل واحد من إخوته منزلا ، وأمنهم جميعاً على أنفسهم ، وعلى أموالهم .

٥ — ورفع يوسف منزلة أبويه إلى منزلته ، فهما أبوا العزيز ، وحيّاه أبواه وإخوته بالسجود على عادة أهل زمانهم مع ملوكهم ، وقال يوسف لأبيه : يا أبت ، هذا تفسير الرؤيا التى رأيتها وأنا صغير ، وقصصتها عليك ، قد حققها الله ، كما أحسن إلىّ وأكرمنى ، بأن لطف بى وأخرجنى من السجن ، وبوأنى عرش هذا الملك ، أتصرف فيه تصرفاً مطلقاً ، كما أحسن إلىّ وأكرمنى ، بأن جاء بكم من البدو ، حيث كنتم تقاسون مر الحياة وشظف العيش ، إلى هذا البلد الطيب الخصيب ، حيث لا تخشون — إن شاء الله — جوعاً ولا سغباً ؛ أحسن الله إلينا هذا الإحسان ، بعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، فزين لهم ما فعلوا ؛ وإن ربى رفيق بعباده ، بارّ بهم ، مترفق عليهم ، من حيث لا يشعرون ، وإنه هو العارف لكل ما قضى وقدر ودبّر ، الحكيم فى كل ما يصرفه من شئون خلقه .

٦ — دعا يوسف ربه ، وذكر أنه أعطاه ملكاً واسعاً عظيماً ، يتصرف فيه كما يشاء ، وأنه علمه تأويل الأحاديث ، وهو ذلك العلم الذى خلصه من محنة السجن ، ودفع به إلى عرش الملك ، هذا كله مَنّ به عليه فاطرُ السموات والأرض ، فهو ناصره ، والآخذ بيده فى كل أمر من أموره ؛ ثم سأله أن يتوفاه مسلماً على دين آبائه ، عاملا بوصيتهم ، وأن يحشره مع الصالحين من عباده .

(٩)

من الآية ١٠٢ إلى الآية ١١١ من سورة يوسف

ذٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ —١— . وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ — وَلَوْ حَرَصْتَ — بِمُؤْمِنِينَ —٢— . وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ —٣— . وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ، وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ —٤— . وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ —٥— . أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ؟ —٦— . قُلْ : هٰذِهِ سَبِيلِي ، أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللهِ ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ —٧— . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ —٨— . حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ، جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ، فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ —٩— . لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ،

مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى ، وَلٰـكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك	هذا الذى قصصناه عليك يا محمد ، من الأخبار الغيبية ، التى ما كنت تعرفها ، ولكنا نوحيها إليك ، ونطلعك عليها .
وما كنت لديهم	وما كنت مشاهداً إخوة يوسف .
إذ أجمعوا أمرهم	إذ اتفقت كلمتهم على ما فعلوا بيوسف .
وهم يمكرون	وهم يدبرون مكيدتهم للتنكيل بيوسف .
إن هو إلا ذكر للعالمين	ليس هذا القرآن إلا موعظة وذكرى ، يسترشد بها الناس ويهتدون .
وكأيِّن من آية	وكثير من الآيات الدالة على قدرة الله .
وهم عنها معرضون	لا يفكرون فيها ، ولا يتعظون بها .
غاشية من عذاب الله	عذاب من الله يغشاهم ، ويحيط بهم .
أو تأتيهم الساعة بغتة	أو تقوم القيامة فجأة .
وهم لا يشعرون	وهم لا يحسون أن القيامة ستفجؤهم ، فلا يدرون بمجيئها .
هذه سبيلى	هذه الدعوة التى أدعو إليها طريقى ومنهاجى .
على بصيرة	على يقين وعلى حق .

الألفاظ	شرحها
وسبحان الله	وتنزيهاً لله أن يكون له شريك .
من أهل القرى	من أهل المدن ، لا من أهل البادية .
حتى إذا استيئس الرسل	حتى إذا يئس الرسل من إيمان أقوامهم .
وظنوا أنهم قد كذبوا	وظنوا أن أنفسهم كذبتهم حين حدثتهم أنهم ينصرون .
ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين	ولا يرد عذابنا عن المشركين .
عبرة	موعظة وتذكير .
لأولى الألباب	لأصحاب العقول .
ما كان حديثاً يفترى	ما كان هذا القصص حديثاً يختلق .
الذى بين يديه	الذى سبقه من التوراة والإنجيل .
وتفصيل كل شىء	وتفصيل كل شىء يحتاج الناس إلى معرفته ، من المسائل الشرعية وغيرها .

مجمل المعنى

١ — هذا الذى قصصناه عليك يا محمد — من أخبار يوسف — أنباء غيبية ، عرّفناكها بعد أن كنت لا تعرف عنها شيئاً ، فإنك ما كنت مع إخوة يوسف حين تآمروا على أخيهم ، وصمموا على إلقائه فى الجب ، وما كنت معهم كذلك حين عادوا إلى أبيهم ، وأخبروه أن ابنه قد أكله الذئب ، وقدموا له قميصاً ملطخاً بدم كذب .

٢ — واعلم يا محمد أن أكثر الناس الذين بعثت فيهم وإليهم ، لن يؤمنوا بك ،

مهما كنت حريصاً على إيمانهم ، وإن كنت قد استجاب الله لك ، وأنزل عليك قصة يوسف استجابة لطلبهم ، فإن الهدى هدى الله .

٣ — وأنت لا تطلب منهم أن يقدموا لك أجراً على ما تقدمه إليهم من هدى القرآن ، بقصصه وأحكامه وتشريعه ، وتبشيره وإنذاره ، فإنه من عند الله ، وهو موعظة وذكرى للناس جميعاً .

٤ — والآيات الدالة على قدرة الله ، ووحدانيته كثيرة ، فكل شيء فى الأرض ، وفى السماء ، وفيما بين الأرض والسماء ، مما يقع تحت الحس ، ومما يقع فى دائرة الاستنباط العقلى — إذا فكر فيه الإنسان تفكيراً مستقيماً ، عرف أنه دال على قدرة الله ووحدانيته ، هذه الأشياء كلها يمر الناس عليها ، ولا يفكرون فيها .

٥ — وإن أكثر الناس يقرون بالله ، ويعتقدون أنه خالقهم ، وأنه خالق السموات والأرض ، ولكنهم يشركون معه غيره فى العبادة ، «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، ليقولن : الله » .

٦ — أغفل هؤلاء الناس ، وظنوا أنفسهم فى أمن وسلام ، فلا يقع عليهم عذاب من الله يغشاهم من فوقهم ، أو من تحت أرجلهم ؟ أو ظنوا أن القيامة لا تفجؤهم فى صبح أو مساء ، فى ليل أو نهار ، فى السوق أو فى الحقل ، أو فى المصنع أو فى البحر ، أو فى النوم أو فى اليقظة ، أو فى أى وقت ، وعلى أى حالة ؟ إن ظنوا ذلك فهم غافلون .

٧ — قل لقومك يا محمد : هذه طريقتى ومنهاجى فى دعوتى لكم ، أدعو إلى إلى ما أدعو إليه ، وأنا على يقين من صدقى فى الدعوة إليه ، والذين اتبعونى هم أعوانى وأنصارى فى دعوتى ، وهم على يقين من صدقهم فيما يدعون إليه أيضاً ، ودعوتنا أساسها تنزيه الله عن الشرك ، فتنزيهاً لك ، ولست أنا ممن يتخذون له أنداداً .

٨ — بعض المشركين كانوا يودون أن يرسل الله إليهم رسولا ملـَكاً ، فرد الله عليهم ، بأن جميع الذين أرسلوا قبلك يا محمد، ليسوا إلا من الرجال الآدميين ، من جنس من أرسـِلـْت إليهم ، وهم رجال وليسوا نساء ، لقدرة الرجال على احتمال أعباء الرسالة ، ولمعان أخرى ملحوظة فى أن الرسول لا يجوز أن يكون امرأة ، وليسوا من الجن ولا من الملائكة ، لأن الجنس يألف جنسه ، ولا ينفر منه ، وفى الإلف تيسير للدعوة ، وأكثر من ذلك أن الرسل كانوا يختارون عادة من أهل الأمصار ، للابتعاد عن فظاظة أهل البادية وغلظتهم وخشونتهم ، حتى يسهل تألف الناس ؛ ألا يسيح هؤلاء الذين يكذبونك فى الأرض ، ليقفوا على مصارع الذين سبقوهم ممن كذبوا رسل الله إليهم ، كقوم نوح ، وقوم هود ،، وقوم صالح ، وغيرهم ؟ والآخرة ونعيمها خير من الدنيا وما فيها ، ولا تكون إلا للمؤمنين الذين يتقون الله ، ويخافون عذابه .

٩ — وإذا بلغ اليأس من رسل الله مبلغه ، فلم يؤمن بهم من قومهم إلا من قد آمن ، وأن من عداهم كذبوا ، وأصروا على التكذيب ، فخشوا أن تركهم بدون عذاب يدخل الشك فى قلوب من آمن منهم ، حينئذ ينصرهم الله ، ويعذب من يكفر بهم ، وينجى من آمن بهم ، والذين قرر الله عذابهم من المشركين ، لا يرد عنهم عذاب الله .

١٠— وقصص الأنبياء السابقين التى نقصها عليك ، إنما نقصها لأنّ فيها عبرة وموعظة للعقلاء من الناس ، وهذا الذى قصصناه ليس حديثاً مبتدعاً ، ولكنه نزل قبل ذلك فيما تقدم من الكتب ، كالتوراة والإنجيل ، كما فصل كل شىء فيها تفصيلا دقيقاً ، ليكون باعث هداية ، والهداية من أسباب الرحمة للمؤمنين

سورة الرعد

نزلت بالمدينة ، وآياتها ٤٣ آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ٤

المر ، تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون -١- . الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون -٢- . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون -٣- . وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الـمر	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
آيات الكتاب	آيات القرآن .
السموات	كل ما علا الإنسان فهو سماء .
عمد	أعمدة .
استوى على العرش	استولى واستأثر بالسلطان ، ونفذت إرادته فى ملكوته .
سخر الشمس والقمر	هيأهما ويسّرهما .
لأجل مسمى	لمدة معينة .
يدبر الأمر	يقضى على حسب مشيئته .
يفصِّل الآيات	يبين دلائل قدرته مفصَّلة مبينة .
مد الأرض	بسطها للسير عليها .
رواسى	جبالا ثوابت .
زوجين اثنين	أعضاء للتذكير ، وأعضاء للتأنيث .
يُغشى الليل النهار	يجعل الليل يغطى النهار ، فيستر الأول بظلمته ضوء الثانى ، والتغطية : إلباس الشىء الشىء .
قطع متجاورات	بقاع متلاصقة .
صِنوان	نخلات متلاصقة أصلها واحد .
فى الأكل	فى أكل ثمارها .

مجمل المعنى

١ — تقدم الكلام فى فواتح مثل هذه السورة فى الصفحة ١٣ — ١٤ من تفسير الجزء الأول، عند المراد من قوله تعالى : « الٓمٓ » ، فى أول سورة البقرة، وقد بين الله هنا أن الألف واللام والميم والراء التى بدئت بها هذه السورة ، يتكون منها ومن غيرها من الحروف الهجائية آيات القرآن ، ولكنها فاقت بأساليبها جميع ما تكلم به العرب ، واعترف المعاندون بعجزهم عن السير فى مضمارها ، والذى أنزِل إليك أيها الرسول من ربك من القرآن ، هو الحق الذى لا شك فيه ، ولكن كفار مكة لا يؤمنون بأنه من عند الله .

٢ — وقد ذكر الله فيما يلى أدلة قاطعة على قدرة الله :

ا : فهو الذى رفع الأجرام السماوية فى الفضاء الذى لا يعلم نهايته إلا هو ، وجعل هذه الكواكب متماسكة ، وأنتم أيها الكفار المتمردون ترونها من غير أعمدة تحملها ، ثم أخضع كل شىء من المخلوقات لحكمه وسلطانه ، وليس المراد أنه مستقر على عرش ، وإنما الغرض من الاستواء بسط سلطانه ونفوذه على جميع مخلوقاته ، وقيامه وحده بتدبير أمورهم ، وهو الذى سخر الشمس والقمر لمنفعتنا ، كل منهما يجرى فى فلكه على نظام محكم لمدة معينة ، ثم تنقطع حركتهما عند انقضاء العالم ، إذا الشمس كُوِّرت وإذا النجوم انكدرت ، وهو الذى يدبر أمر ملكه العظيم : علويه وسفليه ، ويقضى فيه على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، ويقيم الأدلة واحداً بعد آخر على وحدانيته وقدرته ، ليفكر الناس فيها ،

وليتحققوا كمال قدرته على بعث الناس يوم القيامة للقاء ربهم ، ومحاسبتهم على أعمالهم ، فإن من نظر وفكر ، عرف أن من قدر على إبداع هذه المخلوقات ، لا يعجزه أى شىء .

ب : وهو الذى بسط الأرض لتكون صالحة للسير عليها ، وخلق فيها الجبال الثوابت ، المشتملة على المعادن والأحجار ، وأجرى فيها الأنهار لنشرب من مائها ، ونسقى زرعنا وضرعنا ، وجعل فى الأشجار أعضاء للتذكير وأعضاء للتأنيث ، لتنبت لنا ثمراً شهياً ، وهذا الازدواج هو مصدر الإثمار ، وقد تكون الشجرة تحمل أعضاء التذكير والتأنيث معاً ، أو أن الرياح هى التى تحمل إليها أعضاء التذكير ، قال تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح »، بل إن الازدواج ليس مقصوراً على الثمار ، فالضوء الكهربى لا يحدث إلا بالازدواج ، الناشىء عن اجتماع السالب والموجب ، والماء لا يحدث إلا بالازدواج ، الناشىء عن اجتماع الأوكسيجين والإيدروجين ، وجعل الله الليل والنهار متعاقبين ، لا يطرأ عليهما اختلال ، ولا يعدو أحدهما على وقت الآخر ؛ إن فى ذلك لبراهين قاطعة ، وأدلة ساطعة ، لقوم يتفكرون فى صنع الله ، فيستدلون بما يرونه على وجود الصانع الحكيم القادر .

ج : ومن دلائل قدرة الله ، أنه خلق قطعاً متجاورة متلاصقة من الأرض ، ولكنها تتفاوت فى التربة ، فمنها الخصبة والسبخة ، ومنها الرخوة والصُّلبة ، ومنها الرملية والطينية ، وأنه أنبت البساتين ، وفيها كروم العنب وأنواع الأشجار والزروع ، وأنبت النخيل ، وفيها ما يجمعها أصل واحد ، تتشعب منه جذوع مختلفة ، وما ليس كذلك ،

ومع أن هذه الأشجار والزروع تسقى بماء واحد، وتمتص غذاءها من أصل واحد ، فإن ثمارها وحبوبها تختلف شكلا وحجماً ، ولوناً ورائحة وطعماً ، ونفضل بعضها على بعض فى أكل ثمارها وحبوبها ، إن فى ذلك لأدلة ناصعة على قدرة الله ، لمن يستعملون عقولهم .

(٢)

من الآية ٥ إلى الآية ١١ من سورة الرعد

وَإِنْ تَعْجَبْ ، فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ : أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ، أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ —١— . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ —٢— . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ، وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ —٣— . وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ —٤— . اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ —٥— . سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ —٦— . إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
خلق جديد	حياة جديدة .
الأغلال	الأطواق ، تتخذ من الحديد ، وتوضع فى الأعناق ، بعد ضم الأيدى إليها .
السيئة	العذاب .
الحسنة	السعادة فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة .
المثُلات	العقوبات ، والتمثيل بالكفار .
لولا أنزل	هلا أنزل .
ما تغيض الأرحام	ما تنقصه الأرحام من مدة الحمل المعتادة .
سارب	سائر فى طريقه ، طلباً للرزق .
معقبات	ملائكة يتعاقبون عليهم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .
من أمر الله	بأمر الله .

مجمل المعنى

١ — وإن تعجب أيها الرسول من تكذيب الكفار لك ، بعد ما شاهدوه من البراهين الدالة على صدقك ، فإن أعجب العجب إنكارهم البعث ، إذ يقولون : أئذا صرنا تراباً ، أنعود إلى حياة جديدة كما كنا ؟ ، وكأنهم غفلوا عن أن القادر على إنشاء ما سبق بيانه من بدائع المخلوقات ،

وعلى إنشاء الخلائق ابتداء ، لا يعجزه إعادتهم ، بل هو أهون عليه .

٢ — أولئك المنكرون للبعث ، هم الذين غفلوا عن النظر فى آثار قدرة الله فكفروا بربهم ، وتمادوا فى طغيانهم وعنادهم ، وأولئك هم الذين ستوضع الأغلال يوم القيامة فى أعناقهم بعد ضم أيديهم إليها ، وأولئك هم الذين سيلقون فى نار جهنم خالدين فيها أبداً .

٣ — وكان هؤلاء الكفار المتمردون قد استعجلوا وقوع العذاب بهم ، استهزاء برسول الله ، وقالوا : « اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم » ، لظنهم أن ما يتوعدهم به الرسول لا يخرج عن مجرد التهديد ، فبيّن الله لرسوله أن هؤلاء الكفار يستعجلونك بوقوع العذاب بهم سخرية واستهزاء ، لزعمهم استحالته ، وهم يعلمون أنه قد مضت من قبلهم أمم من المكذبين ، قد استحقوا العذاب ، ومُثل بهم أفظع تمثيل ، أفلا يعتبرون بهم ؟ وإن ربك لذو مغفرة للناس مع ظلمهم ، يغفر لهم ، ويستر ذنوبهم بعفوه وصفحه ، ولا يعجل العذاب ، لعلهم يتعظون فيثوبوا إلى رشدهم ويؤمنوا ، فإن عظم ظلمهم ، وتمادوا فى غيهم فإنه لشديد العقاب ، شديد البطش ، « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، « وربك الغفور ذو الرحمة ، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد ، لن يجدوا من دونه موئلا » .

٤ — ويقول الكافرون الذين طعنوا فى نبوتك ، وأنكروا بعثتك ، وجحدوا أن القرآن أكبر معجزة لك ، وقالوا : هذا كتاب كسائر الكتب ، وتأليف الإنسان كتاباً لا يكون معجزة له — يقولون : هلا أنزل عليه

بينة ومعجزة تدل على صدق دعوته ، كالمعجزات التى أيد بها الله مَن قبله من الرسل ، كالعصا واليد لموسى ، والناقة لصالح ؛ فلا تعتد بقولهم أيها الرسول ، إنما أنت منذر كغيرك من الرسل الذين سبقوك ، وما عليك إلا البلاغ ، وليس عليك تحقيق ما يقترحونه عليك ، ولكل قوم رسول يهديهم إلى الحق ، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ، يمده الله بمعجزات من جنس ما برعوا فيه فتبهرهم ، وقد أيدناك بالقرآن الذى أخرسهم وأفحمهم بفصاحته وبلاغته ، فلا يكن فى صدرك حرج منهم .

٥ — ثم بيّن الله أنه قادر على إنزال ما اقترحوه ، ولكنه لم يفعل ، لعلمه أن اقتراحهم للعناد ، لا للاسترشاد ، فذكر أنه يعلم وحده ما تحمل كل أنثى من ذكر أو أنثى ، وهل الجنين واحد أو أكثر ، ويعلم ما تنقصه الأرحام من مدة الحمل المعتادة ، وما تزداد منه ، فقد يولد الجنين بعد ستة أشهر ، وقد يبقى أربع سنين ، وكل شيء عنده بمقدار لا يتجاوزه ، ولا ينقص عنه ، وله وقت عينه لحدوثه بمشيئته الأزلية ، وهو يعلم وحده ما تغيب عن الخلق معرفته ، وما يشاهدونه ويدركونه بحواسهم ، وهو العظيم الشأن ، المتعالى عن كل الحوادث ، المنزه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، يستوى أمام علمه من أسر القول فى نفسه ، ومن جهر به لغيره ، ومن هو مستتر بظلام الليل ، ومن هو ظاهر سائر فى طريقه للحصول على رزقه ، فعلمه محيط بكل شيء ، ومن كان هذا شأنه ، لا يعجزه تحقيق ما اقترحه الكفار .

٦ — ولمن أسر القول فى نفسه ، أو جهر به لغيره ، أو استخفى بالليل ، أو سار بالنهار ظاهراً يراه كل أحد — لهؤلاء جميعاً ملائكة يتعاقبون عليهم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، يحيطون بهم من جميع جوانبهم بأمر الله ،

يحصون عليهم أعمالهم ؛ ومتى علم الإنسان أنه محاط بمن يقيد عليه أعماله ، ويحصى عليه حسناته وسيئاته ، كان إلى أن يحذر المعاصى أقرب ، فإذا حاول ارتكاب معصية ، وعلم أن الملائكة المحيطين به يشاهدونه وهو يرتكبها ، زجره الحياء منهم عن ارتكابها ، كما يزدجر عنها فى حضور من يوقره من الناس ، قال تعالى : « وإنّ عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون » .

٧ — إن الله لا يغير ما بقوم من العافية والنعمة ، وينزل عليهم نقمته من الوباء والفقر ، حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فيستشرى فيهم الفساد ، وتنتشر المعاصى ، فما من أهل قطر أو أهل بيت أمعنوا فى العصيان ، وجاهروا بالفسق والفجور ، إلا آخذهم بما كسبوا ، فيؤخذ البرىء بجريرة المجرم ، والمطيع بذنب العاصى ، لأنهم رأوا الظالم فلم يمنعوه من ظلمه ، فعمهم العذاب ، قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً : من وباء أو فقر أو رفع بركة ، لاستحقاقهم إياه بسبب معاصيهم ، فلا مرد له ، وما لهم من غير الله ملجأ يعصمهم ، ولا ناصر يدفع عنهم السوء ، فليتعظ من استعجلوا وقوع العذاب بهم من الكفار .

(٣)

من الآية ١٢ إلى الآية ١٥ من سورة الرعد

هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ –١– . وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللّٰهِ ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ –٢– . لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَىْءٍ ، إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ –٣– . وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
خوفاً وطمعاً	خوفاً من الصواعق ، وطمعاً فى المطر .
السحاب الثقال	السحب التى اجتمعت ذرات مائها فثقلت ، فنزلت مطراً .

الألفاظ	شرحها
ويسبح الرعد بحمده	ويسبح سامعو الرعد بحمده عند نجاتهم من الصواعق .
يجادلون فى الله	يجادل الكفار النبىَّ فيما يصفه من كمال قدرة الله .
المحال	القوة والحول .
له دعوة الحق	لله الدعاء الحق ، وهو الذى يستحق أن يعبد .
يدعون من دونه	يعبدون غير الله .
لا يستجيبون لهم بشىء	لا تستجيب معبوداتهم لهم شيئاً ، لأنها لا تعقل .
إلا كباسط كفيه إلى الماء	إلا كاستجابة باسط كفيه إلى الماء ، وهو على شفير بئر .
بالغدو والآصال	فى أول النهار وآخره ، جمع غداة وأصيل ، والمراد : جميع الأوقات .

مجمل المعنى

١ — الله وحده هو الذى ينشىء البرق فيراه الناس ، يراه بعضهم فيخشون انقضاض الصواعق عليهم ، ويراه بعضهم فيستبشرون بنزول الغيث عليهم ، وهو الذى ينشىء السحب التى تصل إلى الطبقة الباردة من الجو ، فتتجمع ذرات مائها فتثقل ، فتنزل مطراً .

٢ — ويسبح سامعو الرعد بحمد الله ، شكراً له على أن حماهم من انقضاض الصواعق عليهم ، ويجأرون بالشكر له على نجاتهم ، كما يسبح الملائكة من خوف الله وهيبته وجلاله ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء

فتحرقه ، كما أحرقت قوم صالح ، وكما أحرقت رجلا جباراً من العرب ، بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا يدعوه إلى الإسلام ، فقال تهكماً : مَن رسول الله ؟ أمن ذهب هو أم من فضة أم من نحاس ؟ فانقضت عليه صاعقة ذهبت بقِحف رأسه : (أعلى دماغه) ؛ والكفار مع ظهور الدلائل الواضحة على قدرة الله ، يجادلون فيه ، ويكذبون رسوله فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة ، والتفرد بالألوهية ، وبعْث الناس من قبورهم يوم القيامة ، ومحاسبتهم على أعمالهم ، ومجازاتهم عليها ، وهو شديد الحول والطول والقوة .

سبب نزول هذه الآية

وسبب نزول هذه الآية أن عامر بن الطُّفيل أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه أرْبَدُ بن ربيعة ، أخو لبيد الشاعر ، فقال عامر بن الطفيل : يا محمد ، مالى إن أسلمت ؟ فقال : لك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم ، قال : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟ قال رسول الله : ليس ذاك إلىّ ، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء ، قال : أفتجعلنى على الوبر وأنت على المدر ؟ قال : لا ، قال عامر : فما تجعل لى ؟ قال : أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها فى سبيل الله ، قال عامر : أو ليس لى أعنة الخيل اليوم ؟ قم معى حتى أكلمك ، فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عامر أومأ إلى أربد : إذا رأيتنى أكلمه فَدُرْ من خلفه ، واضربه بالسيف ، فدار أربد من خلف رسول الله ليضربه بالسيف ، فتنبه رسول الله وقال : اللهم اكفِنِيهما بما شئت ، فيبست يد أربد على سيفه ، ولم يقدر على سلِّه ، وأرسل الله عليه صاعقة فأحرقته ، وولى عامر هارباً ، وقال : يا محمد ، دعوت ربك على

أربد حتى قتله ، والله لأملأنها عليك خيلا جُرداً ، وفتياناً مُرداً ، ورمى الله عامراً بغُدة ، فمات فى بيت امرأة من قبيلة سلول ، وكان يقول : أغدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية ؟

نبذة فى البرق والرعد والصواعق

لم يستطع المفسرون — على فضلهم — أن يبينوا أسباب البرق والرعد والصواعق ، وحاولوا — مشكورين — محاولات لم يصيبوا كبد الحقيقة فيها ، لأن الكهربا لم تكن معروفة فى زمانهم ، وها نحن أولاء نجمل هذه الأسباب فيما يأتى :

تكون السحب أحياناً كثيفة ، ومحملة بشحنات كهربية ، فإذا اقتربت سحابتان : إحداهما موجبة ، والأخرى سالبة ، حدث بينهما تفريغ كهربى ، يصحبه سلسلة من الشرارات الكهربية ، ينبعث عنها ضوء ساطع هو البرق ، ويسمع معها صوت شديد هو الرعد .

وقد يحدث التفريغ الكهربى بين السحب والأرض ، أو بين ما عليها من منشآت عالية ، فتحدث الصاعقة الكهربية .

وهذه الظواهر الثلاث ، يقترن بها نزول المطر .

وأخطار الصاعقة متنوعة ، فهى قد تصيب المبانى فتهدمها أو تصدّعها ، والأشجار فتحرقها أو تستأصلها ، والمواد القابلة للالتهاب فتشعلها ، والإنسان والحيوان فتفتك به ، أو تصبب بعض أعضائه بشلل ، أو تحرقه . (تراجع الصفحة ١١٦ الفقرة السادسة من تفسير الجزء الثامن) .

٣ — لله وحده يتجه الدعاء الحق ، وإليه يكون التضرع والابتهال ، فمن دعاه استجاب له ، وهو الجدير بأن نعبده دون غيره ، والأصنام التى يعبدها المشركون لا يستجيبون لهم بشىء مما يطلبونه ، إلا استجابة الماء لمن بسط كفيه إليه وهو على شفير بئر ، طالباً أن يبلغ الماء فاه ، بارتفاعه من البئر إليه ، وما الماء ببالغ فاه ، لأنه جماد لا يشعر بدعائه ، ولا يقدر على إجابته ، وكذلك آلهة الكفار لا تشعر بدعائهم ، وما دعاء الكافرين إياها إلا فى ضياع وخسار .

٤ — ولله وحده يخضع وينقاد ويتواضع ، من فى السموات والأرض ، من الملائكة والمؤمنين طوعاً ، ويستجيب له المنافقون كرهاً ، فيحملون أنفسهم على أداء الطاعات ستراً لنفاقهم ، وتخضع له جميع ظلالهم ، فتميل وتتقلص أو تمتد ، حسب ميل الشمس أو ارتفاعها ، المسيرة فى فلكها ، الخاضعة لإرادة الله ومشيئته ؛ فخضوع الظلال تابع لما تكون عليه الشمس التى تسبح فى فلكها بقدرة الله ، وخص الله الغدو والآصال بالذكر ، مع أن الظلال منقادة لمشيئته فى كل وقت ، لأنها تعظم وتمتد فى هذين الوقتين .

(٤)

الآية ١٦ من سورة الرعد

قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ؟ قُلِ : اللّٰهُ ، قُلْ : أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ؟ قُلْ : هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ؟ أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ، فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟ قُلِ : اللّٰهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ —١— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أولياء	معبودات تعبدونها من دون الله .
الأعمى والبصير	الجماد الغافل عنكم ، والمعبود المطلع على أحوالكم .
الظلمات والنور	الكفر والإيمان ، أو الباطل والحق .

بعد أن بيَّن الله أن كل من فى السموات والأرض خاضع له ، عاد إلى الرد على عَبَدة الأصنام ، ليبيِّن لهم جهلهم ، وسفه رأيهم .

مجمل المعنى

قل لقومك الذين يعبدون الأصنام أيها الرسول : مَنِ الذى خلق السموات والأرض ، وأحكم صنعهما ، وتولى الأمر فيهما ؟ فإن لم يجيبوا عناداً واستكباراً ، فقل لهم : إن الله هو الذى خلقهما ، إذ لا جواب لهم سواه ، وهو الجواب الصحيح الذى لا مراء فيه ، وقل لهم توبيخاً وتبكيتاً ، لإلزامهم الحجة : فلمَ اتخذتم من غيره للعبادة أصناماً ، لا تستطيع أن تجلب لنفسها نفعاً ، أو تدفع عنها الضر ، فضلا عن جلب النفع للغير ، ودفع الضر عنه ؟ وإذا كان هذا شأنها ، كانت عبادتها عبثاً وسفهاً ، وقل لهم للدلالة على جهلهم ، وفساد رأيهم : هل يستوى الجماد الغافل عنكم ، والمعبود المطلع على أحوالكم ، وبيده مقاليد أموركم ؟ وهل يستوى فى نظركم الظلمات والنور ، حتى تسووا بين الكفر والإيمان ، أو بين الشرك والتوحيد ؟ بل قل لهم : أجعلتم لله شركاء خلقوا خلقاً كخلق الله ، فتشابه عليكم خلقُ الشركاء بخلق الله ، فاستحق هؤلاء الشركاء العبادة كما استحقها الله ؟ إنه لم يحدث شىء من ذلك ، بل إن هؤلاء الشركاء الذين تعبدونهم ، لن يستطيعوا أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، قل لهم أيها الرسول بعد إلزامهم الحجة : الله خالق كل شىء ، ولا خالق سواه ، وهو الواحد المنفرد بالألوهية ، الغالب على كل ما سواه ، فكيف يكون المخلوق المغلوب شريكاً له ؟ .

(٥)

من الآية ١٧ إلى الآية ١٨ من سورة الرعد

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ —١— . لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ، لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فسالت أودية	سالت مياه أودية ، والأودية : جمع واد ، وهو الأرض ، أو منفرج بين الجبال أو التلال أو الآكام .

الألفاظ	شرحها
بقدرها	بقدر ما تحتمل سعتها من السيل .
زبداً رابياً	زبداً عالياً طافياً فوقه ، والزبد : الرغوة التى تعلو الماء ونحوه .
ومما يوقدون عليه فى النار	ومن المعدن الذى يوقدون عليه ، بجعله على النار لصهره وإذابته .
ابتغاء حلية	طلب أداة من أدوات الزينة ، كعقد أو قُرط .
أو متاع	أو طلب متاع ، كسرير ، أو آلة من آلات الحرب .
مثله	زبد يعلو المعدن المصهور ، مثل زبد الماء.
فأما الزبد	فأما ما طفا على السيل والمعدن المصهور من الزبد .
جُفاء	باطلا مرمياً ، مطروحاً لا فائدة فيه .
وأما ما ينفع الناس	وأما ما يفيد الناس من الماء ، وجوهر المعدن المذاب.
فيمكث فى الأرض	فيبقى فى القرار ما ينتفع به .
الحسنى	المثوبة الحسنى ، وهو دخول الجنة .
سوء الحساب	الحساب السيء الذى يحبط أعمالهم ، ويمحو حسناتهم .
مأواهم جهنم	مصيرهم ومقرهم جهنم .
المهاد	المستقر .

من الأمثال التى ضربها الله للناس لعلهم يعقلون ، ما تضمنته هذه الآية

مجمل المعنى

١ – أنزل الله من السماء مطراً ، فسالت مياهه فى أودية سيلاناً بمقدار ما تتحمل سعتها، لإحياء أرضها ، فاحتمل السيل المتدفق بشدة زبَداً علاه وطفا فوقه ؛ ومن المعادن التى يوقد عليها الناس ، بوضعها على النار لصهرها ، من الذهب والفضة والحديد والنحاس ونحوها – طلباً لعمل حلية كسوار أو عقد ، أو قرط أو خلخال ، أو لعمل متاع كالأسرَّة والأوانى ، وآلات الحرب والحرث – زبد يعلوها ولا ينتفع به كزبد الماء ، فيتخلص منه المعدن ، ويبقى الجوهر الصالح منه ؛ كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فالحق فى فائدته وثباته، كالماء ينزل من السماء فتسيل به الأودية على قدر حاجتها ، فيمكث بعضه على وجه الأرض فيخصبها ويحييها ، ويعدها للزراعة بعد أن كانت يابسة جرداء ؛ ويسلك بعض الماء مسام الأرض ، فيتسرب إلى العيون والآبار ؛ والحق أيضاً كالمعادن التى ينتفع بها الناس فى صوغ الحلى ، واتخاذ الأمتعة المختلفة ، وتدوم مدة طويلة ؛ وأما الباطل فإنه فى عدم نفعه وسرعة زواله ، كالزبد الذى يعلو الماء أو المعدن المصهور ، يربو وينتفخ ، ولا فائدة فيه ، ولا يلبث أن يزول ، ويبقى الماء فى أرض الأودية لإنبات الزرع ، ويبقى جوهر المعادن راسباً فى بوطته : (بودقته أو بوتقته) ، للانتفاع به ، بعد أن ينفى عنه خبثه ؛ فالباطل وإن علا على الحق حيناً ، فإنه لا يلبث أن يضمحل وينمحى ، أما الحق فإنه يبقى أبداً ، ثم لا يلبث أن يتغلب على الباطل ويمحقه .

٢ – كذلك المثل الذى سبق ذكره ، يضرب الله الأمثال للناس ، لإيضاح

ما يشتبه عليهم أمره ، فللذين أجابوه بالطاعة ، والانقياد إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والتزام حدود الشريعة — وهم المؤمنون — المثوبة الحسنى ، وهى دخول الجنة ؛ والذين لم يستجيبوا له — وهم الكفرة — لو أنهم يملكون ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ، لافتدوا به أنفسهم من العذاب حين يعاينونه ، أولئك لهم الحساب السيئ ، فلا تقبل منهم حسناتهم ، لأن كفرهم أبطل ما عملوا من خير ، ومصيرهم إلى جهنم ، وبئس المستقر .

(٦)

من الآية ١٩ الى الآية ٢٥ من سورة الرعد

أَفمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ : الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ ، وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ : جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ؛ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ —١— . وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ، أُولٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أعمى	أعمى البصيرة ، حائر فى ظلمات الجهالة ، وغياهب الضلالة .
يتذكر أولو الألباب	يتعظ ذوو العقول المبرأة من متابعة الهوى .
ينقضون الميثاق	يُخلون بما أبرموه من العقود .
يصلون ما أمر الله به أن يوصل	يصلون أرحامهم ، ويوالون المؤمنين .
يدرءون	يدفعون .
عقبى الدار	الدار المحمودة العاقبة ، وهى الجنة .
عَدْن	إقامة ، وبقاء ، ودوام .
ينقضون عهد الله	يفسدون ما أبرموه فيما عاهدوا الله عليه ، فى العمل بما أمر الله ، واجتناب ما نهى عنه .
اللعنة	البعد من رحمة الله .
سوء الدار	الدار السيئة العاقبة ، وهى جهنم .

مجمل المعنى

١ — بيَّن الله فى هذه الآيات أنه لا يتساوى عند الله من يعتقد أن ما أنزله الله على رسوله من القرآن حق لاشك فيه ، فيستجيب له ، ويؤمن به ، ويعمل بما فيه ، ومن هو مكابر معاند، يرى الحق فيعرض عنه، وينأى

بجانبه ، وأنه إنما يتعظ ذوو العقول المبرأة من متابعة الهوى ، الذين امتازوا عن غيرهم بالفضائل الآتية :

ا — أنهم يوفون بما عاهدوا الله عليه ، من الاعتراف بربوبيته ، والعمل بما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه ، ولا يخلون بما أبرموه من العقود بينهم وبين الناس فى بيع أو شراء أو غيرهما ، ولا بما حلفوا على أدائه فى غير معصية ؛ والوفاء بالعهد من أكرم الصفات ، والإخلال به من الرذائل الممقوتة ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا دين لمن لا عهد له » .

ب — وأنهم يعطفون على ذوى قرابتهم ، فيزورونهم ، ويساعدونهم إن احتاجوا ، ويعودونهم إذا مرضوا ، ويوالون المؤمنين ، ويؤمنون بجميع الأنبياء ، ويحسنون علاقتهم بغيرهم من الناس ، ويكفون عنهم أذاهم ، ويرفقون بالحيوان الأعجم .

حـ — وأنهم يتقون ربهم فى السر والعلانية ، ويخافون سوء حسابه ، ويخشون عذابه ، فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

د — وأنهم يعتصمون بالصبر على البلاء فى مالهم وبدنهم ، ويحملون نفوسهم على ما تكرهه ، ويكبحون جماحها ، ويخالفون هواها .

هـ — وأنهم يؤدون الصلوات حق أدائها فى أوقاتها .

و — وأنهم ينفقون بعض ما رزقهم الله على المحتاجين والأعمال النافعة فى السر والعلن طاعة لله ، لا نفاقاً ورياء .

ز — وأنهم يقابلون السيئة بالحسنة ، فيقابلون الغضب بالحلم ، والأذى بالصبر ، وإذا مروا باللغو مروا كراماً .

هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الفضائل كلها ، لهم العاقبة المحمودة فى الآخرة ، وهى جنات يخلدون فيها هم ومن آمن وعمل صالحاً من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، ويكون هؤلاء معهم ، ليعظم سرورهم باجتماعهم بهم ، تكريماً لهم ، وتعظيماً لشأنهم ، ويدخل عليهم الملائكة من كل باب من أبواب قصورهم يحيونهم ، يقولون لهم : سلام عليكم ، فهذا جزاء صبركم فى الدنيا على ما لاقيتموه من المشاق فى أداء الطاعات ، فما أجمل هذه العاقبة الحميدة !

٢ — أما الذين يخالفون ما أمر الله به ، ويعملون ما نهى عنه ، ويفسدون ما عاهدوا الله عليه ، وأكده عليهم ، ويقطعون أرحامهم وصلاتهم بالناس بسبب شرورهم وآثامهم ، وسوء أخلاقهم ، ويسعون فى الأرض فساداً بالكفر والمعاصى والفتن ، والاعتداء على الأبرياء ، وينشرون الشائعات الكاذبة لبث الذعر بين الناس ، فهؤلاء يطردهم الله من رحمته ، ولهم العاقبة السيئة فى الآخرة ، وهى جهنم التى يقاسون حرها ولهيبها .

(٧)

من الآية ٢٦ إلى الآية ٢٩ من سورة الرعد

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ -١- . وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ -٢- . الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يبسط	يوسع
يَقدر	يضيّق
وفرحوا بالحياة الدنيا	وفرح أهل مكة فرح بطر بما نالوه من النعيم والثروة .
إلا متاع	إلا شيء قليل بالنسبة لمتاع الآخرة ، يتمتع به الإنسان ثم يزول .

الألفاظ	شرحها
آية من ربه	معجزة : كعصا موسى ، وخروج يده بيضاء من غير سوء .
أناب	رجع عن الكفر فتاب وآمن .
طوبى لهم	عيش طيب لهم ، وكرامة وقرة عين ، أو شجرة فى الجنة .
حسن مآب	حسن مصير .

مجمل المعنى

١ — الله جلت قدرته يوسع الرزق لمن يشاء ، ويضيقه على من يشاء فى الدنيا ، كما تقتضيه إرادته ، لأنها دار امتحان ؛ وبسط الرزق للكافر لا يدل على كرامته ، وتضييقه على المؤمن لا يدل على مهانته ، وقد يكون توسيع الرزق للكافر استدراجاً ، وتضييقه على المؤمن لزيادة ثوابه ، وقد فرح أهل مكة بما بسطنا لهم من النعيم ، وأفضنا عليهم من الرزق الواسع ، والخير الكثير ، وما الحياة الدنيا بجانب الحياة الآخرة إلا متعة مؤقتة ثم تزول ، فإذا كانوا قد بطروا بما نالوه فى الدنيا ، ولم يصرفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة ، واشتغلوا بالعاجل عن الآجل ، فليعلموا أن هذا العاجل نزر يسير سريع الزوال ، بالنسبة إلى الآجل .

٢ — ويقول الذين كفروا من أهل مكة — وهم عبد الله بن أمية وأصحابه — : هلا أنزل على محمد معجزة ، كالمعجزات التى أيد بها الأنبياء من قبله ! كأنّ ما أنزل من القرآن عليه ليس عندهم بآية ، وإنما الآيات عندهم

تنفيذ مقترحاتهم ، كسقوط السماء عليهم ، أو إتيانهم بعذاب أليم يجتاحهم ، أو إحياء آبائهم ليكلموهم ؛ فقل لهم يا محمد : ما أعظم عنادكم ! وما أشد تماديكم فى الكفر ! وعجيب أن تجحدوا ما نزل علىَّ من الآيات الباهرة ، مما لم يؤتَـها نبىٌّ قبلى ، وكفى بالقرآن وحده آية ؛ إن الله يضل من على شاكلتكم كما أضلكم ، فلا يوفقه إلى الهداية ، ويهدى إلى سبيله من عرف الحق فاتبعه ، وتاب عن المعاصى وآمن ، ورجع عن العناد ، وهم الذين آمنوا ، وتستأنس قلوبهم بكلام الله المعجز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لعلمهم أنه لا آية أعظم منه ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، لأنه شفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين .

٣ — الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لهم فى الجنة العيش الهنىء ، وحسن المصير ، ينعمون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

(٨)

من الآية ٣٠ إلى الآية ٣١ من سورة الرعد

كَذٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ، لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ ، قُلْ : هُوَ رَبِّى ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ —١— . وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ؛ بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً —٢— . أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللّٰهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ؟ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ، أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ ، حَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللّٰهِ ؛ إِنَّ اللّٰهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كذلك أرسلناك	كما أرسلنا الأنبياء قبلك أرسلناك .
متاب	مرجعى ومرجعكم ، فيحكم بينى وبينكم .
سيرت به الجبال	نقلت الجبال من أماكنها .

الألفاظ	شرحها
قطّعت به الأرض	شققت فخرج منها عيون وأنهار .
كلم به الموتى	كلم به أحد الموتى .
ييئس الذين آمنوا	يعلم ويتبين الذين آمنوا ، كما فى لغة إحدى قبائل العرب .
قارعة	رزية وداهية تقرعهم بصنوف البلاء ، كالقتل والحرب والأسر .
أو تحل قريباً من دارهم	أو تحل أنت يا محمد قريباً من مكة دارهم .
حتى يأتى وعد الله	حتى يتحقق وعد الله بفتح مكة .

مجمل المعنى

١ — كما أرسلنا الأنبياء إلى الأمم الذين من قبلك ، أرسلناك فى أمة قد مضت من قبلها أمم كثيرة ، فما كنت بِدعاً من الرسل حتى ينكر قومك دعوتك — أرسلناك لتقرأ عليهم القرآن أعظم المعجزات الذى أوحيناه إليك ، وهم يكفرون بالرحمن الذى أسبغ عليهم رحمته ، وشملهم وافرُ نعمته ، فقل لهم إن قالوا لك : وما الرحمن ؟ : هو ربى وخالقى ، ومتولى أمرى ، ولا مستحق للعبادة سواه ، عليه توكلت فى نصرتى عليكم ، وإليه مرجعى ومرجعكم ، فيثيبنى على مصابرتكم ومجاهدتكم ، ويذيقكم العذاب الأليم على عصيانكم وتمردكم .

٢ — وقالت قريش للرسول عليه الصلاة والسلام ، ومنهم أبو جهل وعبد الله بن أمية : إن سَرَّك أن نتبعك ، فانقل بقرآنك عنا الجبال من مكة ، حتى

يتسع لنا الفضاء ، فنتخذ فيه بساتين وقطائع ، وشُق لنا الأرض ، وفجِّر لنا منها العيون والأنهار ، لنستطيع أن نغرس ونزرع فيها ، وأحْى لنا موتانا لنسألهم : أحق ما تقول أم باطل ؟ وسخِّر لنا الريح لنركبها إلى الشام ، فنقضى منها حوائجنا ، فلست كما زعمتَ أهونَ على ربك من داود ، حين سخَّر له الجبال ، ولا من سليمان ، حين سخر له الريح ، ولا من عيسى ، حين مكَّنه من إحياء الموتى ، فنزل قوله تعالى : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال . . . . » والمعنى : ولو أن قرآنا نقلت به الجبال من أماكنها بتلاوته ، أو شققت به الأرض فخرج منها عيون وأنهار ، أو كَلَّم به أحدٌ الموتى ، فدبت فيهم الحياة ، ما كان الكفار ليؤمنوا ، وقد شرحنا مثل هذا التعنت فى أول تفسير الجزء الثامن ؛ بل إن الله وحده هو الذى له الأمر كله ، والقدرة القادرة على كل شىء ، لا مؤثر لشىء إلا بإرادته ، وهو قادر على تحقيق ما اقترحه الكفار ، غير أن إرادة الله لم تتعلق به ، لعلمه أنهم لتماديهم فى الكفر ، وانهماكهم فى الضلال ، لا تلين قناتهم ، ولا يسلس قيادهم ، لما جبلوا عليه من العناد والتمرد .

٣ — وكان بعض الصحابة يميل إلى تحقيق ما اقترحه الكفار طمعاً فى إسلامهم ، فنزل قوله تعالى : « أفلم ييئس الذين آمنوا . . . . » وييئس هنا : بمعنى يعلم فى لغة إحدى قبائل العرب ، قال شاعرهم رَباح بن عَدِىّ :

ألم ييئس الأقوام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

ومعنى الآية : أفلم يعلم الذين آمنوا أنه لو شاء الله لهدى الناس جميعاً إلى الإيمان ، وسيظل الذين كفروا على كفرهم وطغيانهم ، وعدوانهم وبغضائهم ، وباطلهم وضلالهم ، حتى تصيبهم بسبب ما ارتكبوا داهية تقرعهم بصنوف من البلاء ، كالقتل والأسر بالسرايا التى ترسل إليهم ، لمناوشتهم فى طريق

تجارتهم إلى الشام ، أو بأن تحل يا محمد قريباً من مكة دارهم بمن معك من المسلمين ، حين تذهب إلى مكة للحج سنة ست للهجرة ، وتنزل بالحديبية القريبة من مكة ، فيصيب قريشاً الفزع والجزع ، خشية بطشك بهم — لا يزال الذين كفروا على حالهم هذه ، حتى ينجز الله ما وعدك به من فتح مكة ، فيتم نعمته عليك ، وينصرك على قريش نصراً عزيزاً ، إن الله لا يخلف الميعاد ؛ والغرض من هذا تقوية قلب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإخباره أن الله مؤيده وناصره على كفار قريش .

(٩)

من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٤ من سورة الرعد

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ، فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ؟ —١— أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ؟ وَجَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَاءَ ، قُلْ : سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ؟ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ، وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ —٢— لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وَاقٍ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أمليت	أمهلت ، وأخّرت العقوبة .
أخذتهم	عاقبتهم .
قائم على كل نفس	رقيب ومهيمن على كل نفس .
سمُّوهم	اذكروا صفاتهم ، وانظروا : هل يستحقون العبادة .

الألفاظ	شرحها
أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض	أتقدرون أن تخبروه وتعلموه بأمر فى الأرض ، تعلمونه ولا يعلمه ؟
أم بظاهر من القول	أم تسمونهم شركاء بظن باطل ، وذلك قولكم بأفواهكم فقط .
مكرهم	تمويههم الأباطيل التى لا حقيقة لها .
يضلل الله	تتعلق إرادة الله بإضلاله لفساد فطرته ، وسوء استعداده .

مجمل المعنى

١ — لما اقترح الكفار على الرسول بعض الآيات على سبيل الاستهزاء والسخرية ، كان ذلك يشق عليه ، ويتأذى به ، فأراد الله أن يسليه ويصبِّره على سفاهة قومه ، فذكر له أنه إن كان قد أصابه ما أصابه من سخرية قومه به وبدعوته ، فهذا دأب الكفار مع من أرسل إليهم من الرسل ، فقد استهزئ برسل من قبلك ، فأمهلت الذين كفروا بتأخير العقوبة عنهم ، ليؤمن من سبق فى علمى أنه يؤمن ، ثم بطشت بهم ، وأخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، فكيف كان عقابى لهم ؟ واعلم أنى سأنتقم من هؤلاء الكفار كما انتقمت ممن سبقوهم ، فلا تهتم باستهزائهم ، وسيعلم الذين ظلموا أىَّ منقلب ينقلبون .

٢ — أفمن هو رقيب مهيمن على كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، وعالم بكل شىء يجرى فى هذا الكون ، كمن ليس بهذه الصفة ، وهى

الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تغنى عمن يعبدونها شيئاً ؟ وإن تعجب فعجب أن يجعلوها شركاء لله فى العبادة ، فقل لهم : سمُّوهم ، واذكروا لى مَنْ هم ، وصفوهم ، وانظروا : ألهم من الصفات ما يستحقون به أن يكونوا شركاء لله فى العبادة ؟ وسواء أسميتموهم أم لم تسموهم ، فإنهم فى الحقارة بحيث لايستحقون أن يلتفت إليهم أحد؟وقل لهم : أتخبرون الله الذى لا يعزب عنه شىء بشركاء له ، مستحقين لعبادتكم ، لا يعلم عنهم شيئاً ؟ فكيف تخبرونه بأمر فى الأرض تعلمونه وهو لا يعلمه — يريد أن هذه الأصنام أحقر من أن يحيط بها علمه — أم تسمون الأصنام شركاء بظاهر من القول ، من غير أن يكون له معنى وحقيقة ، كتسمية الزنجى كافوراً ؟ وذلك قولهم بأفواههم فقط ، بل لقد زُين للذين كفروا كفرهم ، فموَّهوا الأباطيل وظنوها حقائق ، وصدوا عن طريق الهدى لفساد فطرتهم ، وسوء استعدادهم للإيمان ، ومن يخلق الله فيه الضلال لعدم استحقاقه الهداية ، فماله هاد يوفقه إلى الهدى ، ويوصله إلى ما فيه نجاته .

٣ — لهؤلاء الكفار عذاب فى الحياة الدنيا ، بالقتل والأسر وأنواع البلاء ، ولعذاب الآخرة أشق لشدته ودوامه ، وما لهم من عذاب الله واق يرده عنهم ، ويعصمهم منه .

(١٠)

من الآية ٣٥ إلى الآية ٣٧ من سورة الرعد

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ —١—. وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ : إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ —٢—. وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ —٣—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أكلها دائم وظلها	ثمرها لا ينقطع ، وظلها لا يزول .
تلك	تلك الجنة .
والذين آتيناهم الكتاب	والذين أسلموا من أهل الكتاب .
يفرحون بما أنزل إليك	يفرحون بالقرآن ، لموافقته لما فى كتبهم التى لم يتناولها تحريف .

الألفاظ	شرحها
ومن الأحزاب	ومن الذين تحزّبوا عليك ، وجاهروا بعداوتك ، من أهل الكتاب .
مآب	مرجعى .
أنزلنا حكماً عربياً	أنزلنا القرآن بلغة العرب ، يفصل بين الناس فى أمورهم .
من بعد ما جاءك من العلم	من بعد ما جاءك من العلم بنسخ الديانات الأخرى

مجمل المعنى

١ – فيما نقصه عليك أيها الرسول صفة الجنة التى وعدنا بها من اتقوُا الكفر والمعاصى ، وقد وصفها الله بثلاث صفات :

ا – أن الأنهار تجرى من تحتها

ب – وأن ثمارها دائمة غير منقطعة .

حـ – وأن ظلها لا يزول ، ولا تنسخه الشمس كما ينسخ فى الدنيا ، والمراد : أنه ليس فيها حر ولا برد ، ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة .

تلك الجنة التى وصفها الله بهذه الصفات الثلاث ، عقبى الذين اتقوا الكفر والمعاصى ، ومقرهم يوم القيامة ، أما الكفار فعقباهم النار ، وبئس القرار .

٢ – والذين آتيناهم التوراة والإنجيل ممن أسلموا من اليهود والنصارى ، كعبد الله ابن سلام وأصحابه من اليهود ، وثمانين رجلا من النصارى : أربعين بنجران ، وثمانية باليمن ، واثنين وثلاثين بالحبشة . هؤلاء جميعاً يفرحون بالقرآن الذى

أنزل عليك ، لمطابقته لما فى كتبهم التى لم يتناولها تحريف ولا تزييف ، ومن أحزابهم الذين تحزبوا عليك ، وجاهروا بعداوتك ، ككعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود ، والسيد والعاقب وأشياعهما من النصارى ، من ينكر بعضه ، لعدم موافقته لما فى كتبهم المحرّفة المزيفة ، فقل لهم مجاهراً بالحق ، غير مكترث بمن ينكر ما أنزل إليك : إنى أمرت أن أعبد الله وحده ، ولا سبيل لكم إلى إنكاره ، ولا أشرك به أحداً كما أشركتم ، كقول اليهود : عزيرٌ ابن الله ، وقول النصارى : المسيح ابن الله ، وأنا أدعو المكلفين لعبادة الله وحده ، وإليه مرجعى يوم القيامة .

٣ — وكذلك أنزلنا عليك القرآن حكماً ، يحكم فى الوقائع والخصومات بما يقتضيه الحق والحكمة ، أنزلناه بلسان العرب ، ليسهل عليهم فهمه وحفظه ، وليدركوا أنه فوق مستوى البشر فى إعجازه ، كما أنزلت الكتب السابقة بلسان من أنزلت إليهم ، ولئن اتبعت أهواء أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بك ، لإقرارك دينهم ، أو الصلاة إلى قبلتهم ، بعد أن حولناك إلى الكعبة ، وبعد ما جاءك من العلم بنسخ دياناتهم ، مالك من الله ناصر ينصرك ، ولا حافظ يرد العذاب عنك ، ويقيك مصارع السوء ؛ والمراد بهذا : حسم أطماع الكفار ، وحث المؤمنين على الثبات على الإيمان ، لأن النبىَّ صلى الله عليه وسلم بمنزلة لا يحتاج معها إلى الحض على عدم اتباع أهل الكتاب .

(١١)

من الآية ٣٨ إلى الآية ٤٣ من سورة الرعد

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً —١— .
وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ —٢— . لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ —٣—.
وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ —٤— . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ —٥— وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ، يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ —٦— . وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَسْتَ مُرْسَلًا ، قُلْ : كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لكل أجل كتاب	لكل وقت حكم يناسبه .
يمحو الله ما يشاء	ينسخ الله ما يستصوب نسخه .
ويثبت	يثبت بدله ما هو خير .
أم ّ الكتاب	أصل الكتب الذى لا يتغير شىء مما دوِّن فيه أزلا ، وهو اللوح المحفوظ .
إما نرينك بعض الذى نعدهم	إن نُرك بعض الذى نعد به الكفار فى حياتك ، أدغمت إن : الشرطية ، فى ما : الزائدة .
أو نتوفينك	أو نتوفك قبل نزول العذاب بهم .
نأتى الأرض	نأتى أرض الكفار .
ننقصها من أطرافها	ننقصها من جوانبها ، بفتحها شيئاً فشيئاً .
لا معقب لحكمه	لا راد لقضائه .
مكر الذين من قبلهم	حاولوا إيصال الأذى إلى أنبيائهم .
فلله المكر جميعاً	لله التدبير الخفى كله ، الذى يحبط مكرهم السيئ .
من عنده علم الكتاب	المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين يعلمون من كتبهم أنى رسول .

كان اليهود قد عيَّروا رسول الله صلى الله عليه وسلم كثرة نسائه ، وقالوا : ما لهذا الرجل همٌّ إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبيًّا لشغله أمر النبوة عن النساء ، فنزل قوله تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية » .

مجمل المعنى

١ — ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم زوجات وأولاداً ، فلم ينكر ذلك عليهم أحد ، ولم يشغلهم أمر نسائهم وأولادهم عن أمر النبوة ، ولم يقصروا فى أداء رسالة ربهم ، فكان لداود مائة امرأة ، وكان لسليمان ابنه مئات منهن ، وأنت مثلهم ، فلمَ ينكرون عليك ما كان لغيرك ؟

٢ — وقد عاد الله إلى الكلام على ما اقترحه الكفار من الآيات ، فذكر أنه ليس فى وسع أى رسول أن يأتى بآية مما يقترحه قومه ، إلا بإذن الله وتيسيره ومشيئته .

٣ — وزعم المشركون واليهود أن الرسول عليه الصلاة والسلام يأمر أصحابه بأمر ، ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، وأنه يقول قولا ثم يرجع عنه غداً ، وما هذا القرآن إلا كلام محمد ، يقوله من تلقاء نفسه ، ولو كان من عند الله ما غيّر أى حكم من أحكامه ، فرد الله عليهم بأن لكل وقت حكماً يناسبه ، على حسب ما تقتضيه الحكمة ، لأن الشرائع إنما تشرع لإصلاح الناس فى معاشهم ومعادهم ، فلابد أن تتغير بتغير الأوقات ، كاختلاف العلاج باختلاف حالة المريض ، وقد كان للعرب عادات موروثة ممقوتة ، ففاجأتهم بالإقلاع عنها ، وتقرير عقوبة عليها ، ليس من الحكمة فى شىء ، وإنما الحكمة فى تبيان ما فيها من مضار ، حتى يتركوها عن طواعية لحكم الله ، وكراهية لها ، فالمولى جل شأنه ينسخ من الأحكام ما يشاء ، طبقاً لما تقتضيه حكمته ، ويثبت بدله ما هو خير ، وعنده اللوح المحفوظ الذى كتب فيه أزلا ما هو كائن من أحوال الخلق

إلى يوم القيامة ، ولا يتغير شيء مما كتب فيه ، لأن الأحكام فى آخر الأمر تنتهى إلى ما هو مدون فى اللوح المحفوظ .

٤ — وإن نرِكَ أيها الرسول بعض الذى نتوعد به الكفار من العذاب فى حياتك ، تحقيقاً لوعدنا فى قولنا : « لهم عذاب فى الحياة الدنيا » ، أو توفيناك قبل نزول العذاب بهم ، فلا يحزنك إعراضهم ، « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : إنهم لهم المنصورون ، وإنا جندنا لهم الغالبون » ، وما عليك إلا البلاغ ، وسنتم ما وعدناك به ، من الظفر بهم ، ولا تتضجرن من تأخير عذابهم ، وإن نجوا من العذاب فى الدنيا ، فإن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم .

٥ — أو لم ير قريش أنا نأتى أرض أمثالهم من الكفار ، فننقصها من جوانبها ، بأن نفتحها شيئاً فشيئاً ، حتى تدين للمسلمين ، وتلحق بدار الإسلام ، ونأخذ أهلها بالقتل والأسر والإجلاء ؟ أفلا يخافون أن يحل بهم ما حل بغيرهم ، وعند ذلك يندمون ولات ساعة مندم ؟ والله القاهر فوق عباده يحكم ما يشاء ، وقد حكمنا لك وللمؤمنين بالعز والنصر ، وحكمنا على أعدائك بالذل والقهر ، ولا راد لما قضى الله ، وهو سريع الحساب ، فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة ، فكل آت قريب .

٦ — وقد مكر الذين خلوا من قبلهم بأنبيائهم ، بمحاولة إيصال الأذى إليهم ، كما فعل النمروذ مع إبراهيم ، وفرعون مع موسى ، واليهود مع عيسى ، وحاولوا أن يمكروا بك ليقتلوك ، فلله التدبير الخفى كله ، الذى يحبط مكرهم السيئ ، ويرد به كيدهم فى نحورهم ، وهو الذى يعصمك من الناس ، ولن يصيبك إلا ما كتبه لك ، وهو يعلم ما تكسبه كل نفس

من خير أو شر ، ويجازيها بما كسبت ، وسيعلم الكفار حين يأتيهم العذاب ، لمن العاقبة المحمودة ، ألهم أم للنبيّ وأصحابه ؟

٧ — ويقول لك اليهود والنصارى : لست بنبيّ ولا رسول ، وإنما أنت مفتر ، فقل لهم : كفى بالله شاهداً بينى وبينكم على صدقى ، بما أظهره من الأدلة على رسالتى ، وكفانى من يشهد لى من بينكم ، وهو من آمن منكم ، ممن عنده العلم بما فى التوراة والإنجيل ، اللذين فيهما نعتى ، كعبد الله ابن سلام وغيره .

سورة إبراهيم

نزلت بمكة ، إلا الآيتين ٢٨و٢٩ ، فقد نزلتا بالمدينة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الثالثة

الر : كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ، إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ : اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ —١— . الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، أُولٰئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الر	يُراجع المراد منها فى الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
من الظلمات إلى النور	من الضلال إلى الهدى .
ويل	أعظم الشر .

الألفاظ	شرحها
يستحبون	يختارون ويؤثرون .
يصدون عن سبيل الله	يعوقون الناس ويمنعونهم عن الدين الحق .
يبغونها عوجاً	يبغون لهذه السبيل الزيغ ، ويطلبون لها الاعوجاج .
ضلال بعيد	ضلال بعيد عن الحق .

مجمل المعنى

١ — هذه الأحرف الثلاثة : الألف واللام والراء ، يتكون منها ومن أمثالها من الحروف الهجائية كتاب أنزلناه إليك يا محمد ، لتخرج به الناس فى جميع بقاع الأرض ، من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهدى ، بتوفيق مولاهم وسيدهم ، وبمشيئته ولطفه وفضله ، إلى الصراط المستقيم : صراط العزيز الغالب ، المنيع فى حكمه وسلطانه ، الذى يعز سالكه ، ويذل من تنكبه ، الحميد فى ذاته وصفاته وأفعاله ، الذى ليس كمثله شىء ، صراط الله الذى له ملك كل ما فى السموات وما فى الأرض ، من جميع المخلوقات ؛ والشر أعظم الشر للكافرين من عذاب شديد ينتظرهم ، لأنهم تركوا عبادة الله الذى له ملك السموات والأرض ، إلى عباة ما لا يملك ضراً ولا نفعاً .

٢ — الذين يختارون البقاء فى الدار الفانية ، ويؤثرون الحياة الدنيا على الحياة الآخرة ، ويضلون الناس ، ويعوقونهم عن سبيل الله وهى دين الإسلام ،

ويتنكبون الطريق القويم ، ويطلبون لهذه السبيل الزيغ والميل والاعوجاج لتحقيق أهوائهم ، وقضاء مآربهم وأغراضهم ، لا يرد عهم خلق كريم ، ولا يردهم دين قويم، أولئك فى ضلال بعيد عن الحق، بل هم فى أقصى منازل الضلال .

(٢)

من الآية ٤ إلى الآية ٩ من سورة إبراهيم

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ، فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ —١—. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا : أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ —٢— وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ؛ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ —٣—. وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ : لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ —٤— وَقَالَ مُوسَى : إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ، فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ، أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ : قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ، وَقَالُوا : إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بلسان قومه	بلغة قومه .
بآياتنا	باليد والعصا وتفجير الماء من الحجر ، وغيرها من المعجزات .
بأيام الله	بنعم الله عليهم ، من النجاة من ظلم فرعون وقومه ، وغيره .
يسومونكم سوء العذاب	يذيقونكم سوء العذاب .
ويستحيون نساءكم	ويستبقون نساءكم أحياء .
تأذّن ربكم	أعلم ربكم .
بالبينات	بالحجج الواضحة ، والبراهين القاطعة على صحة دعوتهم .
فردوا أيديهم فى أفواههم	فأشار الكفار بأيديهم إلى أفواه الرسل ليسكتوا .
مريب	موقع فى الريبة وهى الشك .

مجمل المعنى

١ — ما أرسلنا رسولا فى الأمم الماضية ، إلا كان منهم من يتحدث إليهم بلغتهم ، ليبين لهم ذلك الرسول ما أمر بتبليغه إليهم ، ليتلقوه عنه فى يسر وسهولة ، ويفهموا ما أتى به ، وإذا كان هذا الأمر لم يتحقق فى ظاهره فى شأن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع غير العرب ، مع عموم

بعثته ، وشمول رسالته للناس كافة على اختلاف لغاتهم ، فمن المستحيل أن يحيط أحد بلغات جميع البشر ، وكان تعدد لغات القرآن حسب تعدد اللغات ، يؤدى إلى الاختلاف والتنازع فى فهم المعانى المقصودة منه ، ولما كان محمد رسول الله عربيًّا ، بُعث من قوم يتكلمون بلسان عربى مبين ، نزل القرآن بلغتهم ، وتحداهم الله به ، وقال : « لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » ، فكان عجز العرب عن الإتيان بمثله ، مع ما أوتوا من فصاحة اللسان ، وقوة البيان ، دليلا على أنه منزَّل من عند الله ، ومن ثَمَّ كان دليلا على صدق دعوة الرسول إلى الناس جميعاً ، إذ خاطبه الله فى هذا القرآن المعجز بقوله : « وما أرسلناك إلا كافة للناس ، بشيراً ونذيراً » ، فمن تعلقت مشيئة الله بإضلاله لفساد فطرته ضل ، ومن تعلقت مشيئته بهدايته لحسن استعداده اهتدى ، وهو العزيز الذى لا يتغلب على مشيئته شىء ، الحكيم فى صنعه ، فلا يشاء شيئاً إلا لحكمة بالغة .

٢ — ثم شرع الله تعالى يفصل ما أجمله فى الآية السابقة ، فقال : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا التى فى التوراة ، فأوحينا إليه : أن أخرج قومك بنى إسرائيل من ظلمات الكفر والجهالات — حيث مرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : يا موسى ، اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة — إلى نور الإيمان والعرفان ، وذكِّرهم بنعم الله عليهم فيما سلف من أيامهم ، فقد فلق لهم البحر حتى عبروه ، وفجر لهم العيون من الحجر ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى — ذكرهم بهذا ليؤمنوا بالله وحده ، وعظهم بالترغيب والتهديد ، وبالوعد والوعيد ، إن فى تلك النِّعم

لدلالات على قدرة الله وعظمته لكل صبار على طاعة الله وعن معاصيه ، شكور لنعمه .

٣ — ولما ذكر الله أنه أمر موسى عليه السلام أن يذكر قومه بما سلف من نعمه عليهم ، حكى عن موسى أنه أنفذ أمر الله ، فقال لقومه بنى إسرائيل : اذكروا نعمة الله التى أنعم بها عليكم ، إذ أنجاكم من فرعون وقومه ، الذين كانوا يذيقونكم سوء العذاب ، بتسخيركم قهراً فى بناء معابدهم وهياكلهم ، وكانوا يذبحون ذكوركم ، ويستبقون نساءكم أحياء ، رغبة فى استئصال شأفتكم ، لأنَّ أحد الكهنة أنبأ فرعون أن مولوداً يولد فى بنى إسرائيل ، يكون على يديه زوال ملكه ، وفى هذا العمل أيها اليهود ابتلاء عظيم لكم من ربكم ، ومحنة قاسية .

٤ — واذكروا حين آذن ربكم ، وأعلم إعلاماً لا شبهة فيه : لئن شكرتم يا بنى إسرائيل على ما أسديته إليكم من النعم ، لأزيدنكم نعماً على نعمى ، ولئن جحدتم النعمة بالكفر والمعاصى ، وغمطتم فضلى عليكم ، ولم تشكرونى على آلائى التى غمرتكم ، لأعذبنكم عذاباً شديداً .

٥ — ولما بيَّن الله أن الشكر يستوجب زيادة الخير ، وأن الجحود والعصيان يستوجبان العذاب الشديد ، ذكر بعد هذا البيان على لسان موسى ، أن منافع الشكر ومضار الكفر لا تعود إلا على من شكر أو كفر ، أما المولى جل وعلا فإنه أجل وأعظم من أن ينفعه شكر شاكر ، أو يضره جحود كافر ، لأنه الغنى الذى لا يلحقه نقص ، المستحق للحمد دائماً ، فعليكم يا بنى إسرائيل أن تتعظوا بمن سبقكم من الأمم الخالية ؛ ألم يبلغكم ما حدث لقوم نوح ، ولعاد قوم هود ، ولثمود قوم صالح ، ولكثيرين من بعدهم

لا يحصى عددهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالحجج الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، فكان الكفار إذا قال لهم أنبياؤهم : إنا رسل الله إليكم ، أشاروا بأيديهم إلى أفواه للرسل : أن كفُّوا عن هذا الكلام واسكتوا ، تكذيباً لهم ، وردًّا لقولهم — وهى إشارة تحدث ممن يريد إسكات من يخاطبه — وقالوا لهم : إنا كفرنا بما زعمتم أنكم أرسلتم به ، وإنا لفى شك وارتياب من التوحيد الذى تدعوننا إليه ، ولا نطمئن إلى شىء مما قلتموه ، ولا نترك عبادة الأوثان .

(٣)

من الآية ١٠ إلى الآية ١٧ من سورة إبراهيم

قَالَتْ رُسُلُهُمْ : أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ؟ -١- . قَالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ -٢- . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلٰكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ؟ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ -٣- . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ : لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ : لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ -٤- . وَاسْتَفْتَحُوا ، وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ، وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ، وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ -٥- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فاطر	منشئ وخالق .
إلى أجل مسمى	إلى وقت سماه الله ، وجعله آخر أعماركم .
إن أنتم إلا بشر مثلنا	ما أنتم إلا بشر مثلنا .
سلطان مبين	حجة ظاهرة على صدقكم .
ومالنا ألا نتوكل على الله	أى عذر لنا فى عدم التوكل على الله ؟
لمن خاف مقامى	لمن خاف موقفى وموقفه منى يوم القيامة للحساب .
واستفتحوا	استنصروا الله ، وسألوه أن يفتح عليهم بالنصر على أعدائهم .
خاب كل جبار عنيد	خسر وهلك كل متكبر عن طاعة الله ، معاند للحق .
صديد	ما يسيل من جوف أهل النار ، مختلطاً بالدم والقيح .
يتجرعه	يبتلعه متألماً ، جرعة بعد أخرى .
يسيغه	يزدرده و يبتلعه .
يأتيه الموت من كل مكان	تحيط به أسباب الموت من كل جهة ، لما يعانيه من شدة العذاب .

مجمل المعنى

١ — لما قال الكفار للرسل : إنا لفى شك وارتياب مما تدعوننا إليه ، من توحيد الله والاعتراف بقدرته ، قالت لهم رسلهم : أفى توحيد الله ، وانفراده بالقدرة القادرة على كل شىء ، شك ؟ وهو الذى قدر على خلق السموات والأرض ، وأنشأهما وأبدعهما على غير مثال سابق ، وعلى نظام فى غاية الدقة ، وهو الذى تضافرت الأدلة على وجوده ووحدانيته وقدرته ، فهو يدعوكم بإرساله إيانا إليكم إلى الإيمان به ، ليغفر لكم ما سلف من ذنوبكم ، لأن الإيمان يَجُبُّ ما قبله — عدا ما يتعلق بحقوق العباد — ويؤخر عذابكم ، ويطيل أعماركم ، إلى وقت قدره لكم أزلا إن آمنتم ، فلا يعاجلكم بعقوبة الاستئصال — ولا يلزم من هذا تعدد الآجال للفرد ، وإنما الغرض من هذا أن الله قدر فى الأزل زمناً لهلاكهم إن أصروا على الكفر ، وزمناً آخر لموتهم إن آمنوا — وأجل الله المقدر فى الأزل لا يؤخر على كل حال .

٢ — فقال الكفار فى عناد واستكبار : ما أنتم إلا بشر مثلنا فى الهيئة والصوت ، تأكلون مما نأكل منه ، وتشربون مما نشرب ، ولستم ملائكة ، ولا فضل لكم علينا ، فلم تختصون بالنبوة دوننا ؟ ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسولا ، لبعثه من جنس أفضل منكم ، وكيف تريدون أن تمنعونا بهذه الدعوة التى تزعمونها ، عما ورثناه من عبادة آبائنا ؟ فأتونا بحجة ظاهرة على فضلكم علينا ، واستحقاقكم لهذه المزية دوننا ، وبرهنوا على صحة ادعائكم النبوة .

٣ — قالت لهم رسلهم : ما نحن إلا بشر مثلكم كما تقولون ، ولكن الله يمنُّ

على من يشاء بفضله ، فيصطفيه للنبوة ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فالتماثل فى الإنسانية والبشرية ، لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة ، وهو منصب يختص الله به من يشاء ، وليس فى قدرتنا أن نأتيكم بما تطلبون من المقترحات ، إلا بإذن الله ومشيئته ، فهو وحده الذى يخص كل نبى بالمعجزات التى تناسب وقته ، وحال قومه ، وعليه وحده فليتوكل المؤمنون فى الصبر على معاندتكم ومعاداتكم ؛ وأى عذر لنا فى عدم التوكل على الله ، وهو الذيِ هدانا سبلنا التى نعرفه بها ، وأرشدنا إليها ؟ ونحن نعلم أن الأمور كلها بيده ، يتصرف فيها كما يشاء ، ولنصبرن على إيذائكم لنا بالإهانة والعناد واقتراح المعجزات ، وعلى الله وحده يتوكل المتوكلون ، ويثبتون على توكلهم ، على الرغم مما يلحقهم من أذى الكفار وعنادهم .

٤ — وقال الذين كفروا لرسلهم فى إصرار على الكفر ، مؤكدين بقاءهم عليه بالحلف ، مبالغين فى سفاهتهم : لنطردنكم من أرضنا ، أو لتدخلن فى ديننا ، ولا ثالث لهما ، فأوحى الله إلى رسله بمد إظهار هذا العناد : لنهلكن هؤلاء الظالمين ، ولنورثنكم أرضهم وديارهم بعد إهلاكهم ، ذلك الموحَى به إلى الرسل — وهو إهلاك الكفار وإسكان المؤمنين منازلهم — لمن خاف موقفى الذى يقف فيه العباد بين يدىّ يوم القيامة ، حين يحاسبون على ما قدمت أيديهم ، وخاف وعيدى بالعذاب .

٥ —واستنصر الرسل ربهم على أقوامهم ، وسألوه أن يفتح عليهم بنصرة المحق وإهلاك المبطل ، فأجاب سؤالهم ، فأفلح المؤمنون ، وخسر وهلك كل متكبر عن طاعة الله ، معاند للحق ، وسيكون بين يديِ هذا الجاحد يوم القيامة جهنم ، يدخلها ليستوفى فيها جزاء عتوه واستكباره ، ويُسقَى

فيها ماء ليس كالماء المعروف ، ولكنه صديد يسيل من جوف أهل النار ، مختلط بالدم والقيح ، يتجرعه جرعة بعد أخرى ، ولا يكاد يبتلعه لقبح منظره ، وكراهة مذاقه ، وتأتيه أسباب الموت — وهى الشدائد المقتضية له — فتحيط به من جميع الجهات ، وما هو بميت ليستريح ، لا يقضى عليه فيموت ، ولا يخفف عنه العذاب ، بل يلقى عذاباً شديداً متصلا ، لا فتور فيه .

(٤)

من الآية ١٨ إلى الآية ٢٣ من سورة إبراهيم

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ : أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ —١— . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ —٢—. وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً ، فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا : لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ؟ مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ —٣— . وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ : إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَلُومُونِي ، وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ —٤—. وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ، تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ —٥—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم	مثل أعمال الذين كفروا بربهم .
كرماد اشتدت به الريح	مثل رماد اشتدت به الريح فحملته ، فجعلته هباء منثوراً .
لا يقدرون مما كسبوا على شيء	لا يجد الكفار ثواباً لما عملوه فى الدنيا .
ذلك	ذلك الإخفاق مع ظنهم أنهم محسنون .
بالحق	بالوجه الذى يحق أن تخلقا عليه .
بعزيز	بمتعذر ولا بمتعسر .
وبرزوا لله جميعاً	وظهر الكفار من قبورهم جميعاً .
فقال الضعفاء للذين استكبروا	فقال ضعفاء الرأى الأتباع ، للمتبوعين المستكبرين.
مغنون عنا	دافعون عنا .
جزعنا	حزناً .
محيص	ملجأ ومهرب .
لما قضى الأمر	لما عرف كل إنسان مصيره .
وعدكم وعد الحق	وعدكم وعداً حقاً ، فوفى لكم بما وعد .
ووعدتكم فأخلفتكم	ووعدتكم فكذبتكم ، وأخلفتكم موعدى .
سلطان	قدرة أقهركم بها على طاعتى .

الألفاظ	شرحها
بمصرخكم	بمغيثكم .
بما أشركتمون من قبل	بإشراككم إياى مع الله من قبلُ فى الدنيا .
تحيتهم	يحييهم الملائكة .

ذكر الله أنواع عذاب الكفار فى الآيات المتقدمة ، وبيَّن هنا أن أعمالهم بأسرها تصبح ضائعة باطلة ، فلا ينتفعون بشىء منها .

مجمل المعنى

١ – مثل بالأعمال الصالحة للذين كفروا بربهم فى حبوطها ، وعدم انتفاعهم بشىء من ثوابها يوم القيامة ، من صدقة ، وصلة رحم ، وإغاثة ملهوف ، وبرّ والدين ، وإطعام جائع ، كمثل رماد اشتدت به الريح فى يوم شديد الهبوب ، فحملته ، فجعلته هباء منثوراً ، فلا يجد الكفار يوم القيامة أثراً لما عملوه من أنواع البر فى الدنيا من ثواب ، أو تخفيف عذاب ، ذلك الضلال الذى يصيبهم – مع ظنهم أنهم على شىء – هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب ، لعدم إيمانهم .

٢ – ألم تعلم أيها المكلف أن الله قادر على كل شىء ، ومن مظاهر قدرته خلق السموات والأرض ، و « لخلق السموات والأرض ، أكبر من خلق الناس » ، ومن قدر على خلقهما كان أهون عليه أن يهلككم أيها الكفار ، ويستبدل بكم خلقاً آخر جديداً مكانكم ، لاعلاقة له بكم ، وليس ذلك بمتعذر

أو متعسر عليه ، ومن كان هذا شأنه ، كان حقيقاً أن يُعبد ، رجاء ثوابه ، وخوف عقابه .

٣ — يظهر الكفار من قبورهم يوم القيامة ، لمحاسبتهم على ما عملوا فى الدنيا ، فيقول ضعفاء الرأي الأتباع الإمَّعات من العوام لرؤسائهم وسادتهم ، الذين استكبروا على الانقياد للرسل : إنا كنا تابعين لكم فى تكذيب الرسل ، والإعراض عن نصائحهم ، فلم يكن لنا من الرأى إلا ما ترونه ، فهل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله ، الذى استحققناه بإضلالكم إيانا ؟ فيجيبهم المستكبرون المضلّون المتبوعون : لو هدانا الله إلى الإيمان، ووفقنا إلى الرشاد، لهديناكم،ولكنا ضَلَلْنا واستكبرنا عن متابعة الرسل ، فأضللناكم ، واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، ولا مطمع لأحد منا ومنكم فى الخلاص، وأصبح جزعُنا مما لقينا، وصبرُنا عليه ، سواء ، ولا منجاة ولا مهرب من عذاب الله .

٤ — وبعد أن بيَّن الله المحاورة التى تقع بين الأتباع والرؤساء، ذكر المناظرة التى تقع بين الشيطان وأتباعه من الإنس ، بعد أن تنقضى المحاسبة ، ويعرف كلٌّ مصيره ، بقول الشيطان الذى أضل الفريقين بوسوسته : إن الله وعدكم وعداً حقّاً، وهو بعثكم يوم القيامة ، ومحاسبتكم ومجازاتكم ، فوفَّى لكم بما وعد به، ووعدتكم وعداً باطلا،وهو أن لا حشر ولا حساب ، ولا جنة ولا نار، وإن كان شىء من هذا فالأصنام تشفع لكم ، وقد تبين لكم أنى أخلفتكم ما وعدتكم به، وما كان لى عليكم قوة ولا قدرة، فألجأتكم إلى الكفر والمعاصى ، إلا أنى دعوتكم ، وزينت لكم الكفر والمعاصى ، فأسرعتم إلى إجابتى ، فلا تلومونى على وسوستى ، ولوموا أنفسكم لأنكم أطعتمونى ، وخالفتم ربكم ، وعصيتم رسوله إليكم ،

ما أنا بمغيثكم ولا منقذكم من العذاب ، وما أنتم بمغيثىَّ ولامنقذىّ ، إنى كفرت بإشراككم إياى مع الله من قبل فى الدنيا ، وأنا برىء منكم ، إن الكافرين ليستحقون أشد العذاب .

٥ — وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بأمر ربهم ، يحييهم فيها الملائكة بقولهم : « سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار » .

(٥)

من الآية ٢٤ إلى الآية ٢٧ من سورة إبراهيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا : كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ ، وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ —١— . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ، مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ —٢— . يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ألم تر	انظر وتعجب أيها المكلف .
ضرب الله مثلا	وصفه وبيّنه .
أصلها ثابت	جذرها ضارب بعروقه فى الأرض .
وفرعها فى السماء	وأعلاها مرتفع ، ليكون بعيداً عن عفونة الأرض وأقذارها .
تؤتى أكلها	تعطى ثمرها .

الألفاظ	شرحها
كل حين	كل أوان للإثمار .
يضرب الله الأمثال للناس	يصور لهم المعقول فى صورة المحسوس .
كلمة خبيثة	كلمة قبيحة .
شجرة خبيثة	ثمرها ردىء الطعم ، كشجرة الحنظل .
اجتثت من فوق الأرض	قطعت من أصلها القريب من سطح الأرض .
قرار	استقرار وثبات .
القول الثابت	الإيمان الصادق .
يضل الله الظالمين	لا يوفقهم إلى الإيمان لفساد فطرتهم ، وخبث طويتهم .

مجمل المعنى

١ — شبه الله الكلمة الطيبة النافعة ، كالتى تدعو إلى صلاح فى أمور الدين والدنيا ، بشجرة موصوفة بصفات أربع :

ا : طيب الرائحة والمنظر والثمار ، فهى لذيذة مستطابة .

ب : وثبات الأصل ، فهى لا تزول ولا تفنى .

ج : وعلو الفرع ، فهى بعيدة عن عفونة الأرض وقذارتها ، لتكون ثمارها خالصة من جميع الشوائب .

د : وانتظام الإثمار فى وقته .

فينتفع الناس بظلها وفاكهتها وخشبها ، كذلك حسن الحديث ، والأدب فى الخطاب ، والدعوة إلى الإصلاح فى أمور الدنيا والدين ، يؤدى

إلى دوام الألفة ، وبقاء المودة ؛ والله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال للناس ، لأن فى ضربها زيادة إفهام وتذكير ، ولأنه تصوير للمعانى العقلية فى صورة المحسوسات .

٢ – وشبه الله الكلمة القبيحة ، كالكلمة التى تدعو إلى إثارة الفتنة ، أو نشر المبادئ الهدامة ، بشجرة موصوفة بخبث الرائحة ، ورداءة الثمار ، وعدم الرسوخ والاستقرار ، قطعت من فوق الأرض لقرب جذورها من سطحها ، فيؤذى الناس أكل ثمارها ، ولا ينتفعون بظلها ، كذلك الخلق السيئ ، والكلام البذىء ، وإشاعات السوء المضللة ، تؤذى الناس ، وتؤدى بهم إلى سوء المصير .

٣ – والله سبحانه وتعالى يجزي المؤمنين بالله ورسله ، الداعين إلى الخير ، الساعين فى النفع ، أجزل الجزاء ، فيقوى قلوبهم فى الدنيا : باعتقادهم أن وعد الله بحسن جزائهم حق لا ريب فيه ، وفى الآخرة باطمئنانهم إلى حسن العقبى عند وقوفهم بين يدي الله ، أما الظالمون الكافرون الذين يقلدون آباءهم فى عقيدتهم ، أو يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فلا يوفقهم إلى الرشاد ، ولا يهديهم إلى سواء السبيل ، وهو القاهر فوق عباده ، المتصرف فى ملكه كما يشاء .

(٦)

من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٤ من سورة إبراهيم

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ؟ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا، وَبِئْسَ الْقَرَارُ —١—. وَجَعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ، قُلْ: تَمَتَّعُوا، فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ —٢—. قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ —٣—. اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ —٤—. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ —٥—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بدلوا نعمة الله كفراً	استبدلوا بشكر الله على نعمته كفراً .
وأحلوا قومهم	وأنزلوا قومهم بإضلالهم إياهم .
دار البوار	دار الهلاك .
يصلوْنها	يدخلونها ويقاسون حرها .
وبئس القرار	وبئس المقرّ .
أنداداً	شركاء .
تمتعوا	تمتعوا بدنياكم قليلا .
يقيموا الصلاة	يواظبوا على حسن أدائها فى أوقاتها .
ينفقوا	يتصدقوا .
بيع	فدية تنفع
ولا خلال	ولا صداقة تشفع .
سخّر	ذلل وهيأ .
الفُلك	السفن ، المفرد والجمع سواء .
دائبين	مستمرّين .
آتاكم	أعطاكم .
تُحصوها	تحصروها .
ظلوم	كثير الظلم .
كفار	شديد الإنكار للنعم .

مجمل المعنى

١ — انظر يا محمد وتعجب من حال قريش ، الذين استبدلوا بشكر الله على نعمائه عليهم كفراً وغمطاً ، فقد أسكنهم حرمه الذى تجبى إليه ثمرات كل شىء ، وآمنهم من خوف ، يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون فى سربهم ، ووسع عليهم أبواب رزقه ، وشرفهم ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فأطغتهم النعمة ، فكفروا برسول الله ، وقاوموا دعوته ، فسلب منهم نعمته : أصابهم القحط سبع سنين ، وأسر منهم من أسر ، وقتل من قتل فى وقعة بدر ، وكانوا قدوة سيئة لقومهم ، فأنزلوا قومهم بإضلالهم إياهم دار الهلاك ، الذى لا هلاك وراءه : جهنم يدخلونها يقاسون شدائدها ، ويذوقون العذاب ألواناً فيها ، وبئس المقر مقرهم فى جهنم ؛ وهاتان الآيتان مدنيتان .

٢ — ثم أوغلوا فى كفرهم ، فجعلوا لله الواحد القهار ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد — جعلوا له شركاء فى العبادة ، ليضلوا عن سبيله القويم قومهم الذين يشايعونهم — وهو دين الإسلام الذى يدعو إلى التوحيد — فقل يا محمد لهؤلاء الضالين المضلين ، المنغمسين فى الشهوات ، على سبيل التهديد والوعيد : تمتعوا بكفركم قليلا ، واعبدوا ما شئتم من الأوثان ، فإن مرجعكم إلى النار ، وبئس القرار .

٣ — ولما أمر الكافرين — على سبيل التهديد والوعيد — بالتمتع بنعيم الدنيا الزائل ، كلف رسوله أن يأمر المؤمنين المخلصين له فى العبودية ، بالمبالغة فى المجاهدة بالنفس والمال ، وذلك بالمواظبة على حسن أداء الصلوات فى

أوقاتها ، وبالتصدق من مال الله الذى آتاهم فى السر والعلن ، بإطعام الجائعين ، ومعاونة المحتاجين ، والمشاركة فيما يعود على الناس بالخير ، قبل أن يحل يوم الجزاء الذى لا يستطيع المقصر أن يتدارك فيه ما فاته ، أو أن يفتدى بماله نفسه ، أو أن يشفع له فيه صديق ، ولا ينفعه إلا ما قدمت يداه من صنوف البر ، وأعمال الخير .

٤ — ولما ذكر الله أحوال الأشقياء وأحوال السعداء ، وكان حصول السعادة لا يأتى إلا من معرفة الله سبحانه وتعالى بذاته وصفاته ، والدلائل الدالة على كمال قدرته ، شرع يبيِّن ما يستوجب على الناس كافة شكره وطاعته ، فإنه :

ا : خلق السموات والأرض ، وجعلهما أساساً لحياة المخلوقات .

ب : وأنزل المطر من السحاب لإرواء الأرض ، وإنبات الزروع والثمار ، التى يتخذ منها الناس طعامهم وملابسهم ، وجميع شئونهم .

ج : وألهم الإنسان كيف يصنع السفن التى تجرى فى البحار والأنهار بمشيئته وقدرته بما ينفع الناس ، فتنقل ما تختص به كل أمة من حاصلاتها إلى غيرها ، فتروج التجارة ، ويعم الخير .

د : وأجرى الأنهار التى يشرب منها الناس ، ويسقون منها حيوانهم ونباتهم ، وتجري فيها سفنهم ،

ه : وجعل الشمس والقمر سائرين على نظام دائم ، وحركة مستمرة ، كل منهما يسبح فى فلكه بتقدير العزيز العليم ، لينتفع الناس منهما بالضوء والحرارة والنور اللازمة للحياة .

و : وجعل الليل ليستريح فيه الناس من عناء الأعمال ، والنهار للسعى وراء أرزاقهم ، وهما يتعاقبان فى أدق نظام .

ز : ومنح خلقه كثيراً من الآلاء التى سألوه إياها ، كالصحة والمال والولد .

٥ — ولو أراد الناس أن يعدوا نعم الله عليهم ، لم يقدروا على تعدادها لكثرتها ، وأعجزهم حصرها وإحصاؤها ، ولكن الإنسان ينسى نعم الله ، فيترك الشكر عليها ، ويكفر بمعطيها ، ويقترف الآثام والمعاصى ، ولا يذكره إلا حين يُلِمّ به خطب ، أو يشتد عليه الكرب ، « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونآى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » ، فيظلم نفسه ، بتعريضها لعقاب المولى سبحانه وتعالى .

(٧)

من الآية ٣٥ إلى الآية ٤١ من سورة إبراهيم

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا —١— . وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ . رَبِّ ، إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ —٢— . رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ، لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ —٣— . رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ —٤— . الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ —٥— . رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ . رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
هذا البلد	مكة .
اجنبى و بنىَّ	أبعدنى و إياهم .
إنهن	إن الأصنام
فإنه منى	فإنه من أهل دينى .
أسكنت من ذريتى	أسكنت بعض ذريتى ، وهو إسماعيل مع أمه هاجر .
المحرم	عظيم الحرمة ، لا يصح انتهاكه .
فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم	فاجعل قلوباً من الناس تميل وتنحدر إليهم ، للسكنى معهم .
ومن ذريتى	واجعل من ذريتى من يقيم الصلاة .

قصة سيدنا إبراهيم التى لها اتصال بهذه الآيات

١ — لما كسر إبراهيم الأصنام التى كان يعبدها قومه ، وقرروا إحراقه ، وجمعوا له حطباً كثيراً ، وأشعلوه ، وألقوا فيه إبراهيم ، وجعل الله النار برداً وسلاماً عليه ، ونجاه الله من أذاها ، أمر ملكهم النمروذ بإخراجه من بلاده بالعراق ، فهاجر هو ومن آمن به ، ومنهم ابن أخيه لوط ، وسارة التى تزوج بها ، وذهبوا إلى الشام ، فمكث فيها ما شاء الله أن يمكث ، ثم قصد مصر ، فأهدى فرعون إلى سارة هدايا عظيمة ، منها جارية مصرية اسمها هاجر ، فوهبتها سارة لإبراهيم .

٢ — رجع إبراهيم إلى الشام هو ومن معه ، فولدت له هاجر إسماعيل، وسنه تسع وتسعون سنة ، وولدت له بعد ذلك سارة — على كبر سنها — إسحاق ، وسنه اثنتا عشرة ومائة سنة ، ومن ذرية إسماعيل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ذرية يعقوب من إسحق بنو إسرائيل : (اليهود) .

٣ — وحدث بين سارة وهاجر ما يحدث بين الضرتين ، فأخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل — وهو رضيع — وأسكنهما بلاد الحجاز ، حيث مكة الآن ، وكانت أرض مقفرة ، لا زرع بها ولا ضرع ، وأراد إبراهيم العودة ، فقالت له هاجر : كيف تذهب وتتركنا ؟ وكررت سؤالها ، وإبراهيم يعرض عنها ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيِّعَنا ، وانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الكعبة اتجه إليها ، وقال : «ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ..... » صارت هاجر ترضع ولدها ، وتشرب من مزادتها ، وتأكل مما خلفه لها إبراهيم ، حتى نفد زادها ، وماؤها ، وجف لبنها ، واسترضع إسماعيل وبكى ، فأسرعت إلى جبل الصفا وصعّدت فيه ، ومدت بصرها لعلها ترى قادماً ، فلم تر أحداً ، فهبطت ، وسعت سعى الإنسان المجهود ، حتى أتت جبل المَرْوَة وعلته ، ونظرت فلم تر أحداً ، فأخذت تهرول بينهما سبعاً ، حتى يئست ، وقصدت ابنها ، فإذا ماء يفور تحت رجله ، فشربت وأرضعته ، ومر جماعة من قبيلة جُرْهم ، فرأوا طائراً يحلق فى الجو ، فقالوا : لا طير إلا على الماء ، وأرسلوا واردهم ، فنظر فإذا ماء ينبع ، فأتى قومه فأخبرهم ، فقصدوا هاجر ، وقالوا لها أشركينا فى مائك ، نشركك فى ألباننا ، فقبلت ، فلما شب إسماعيل تزوج منهم .

وكان إبراهيم يتردد بين الحجاز والشام ، فأمره الله فى إحدى زياراته

الحجاز أن يبنى هو وابنه إسماعيل البيت — وهو الكعبة المشرفة — فبنياها ، وهى أول بيت بنى لعبادة الله سبحانه وتعالى وحده ، ورفعا قواعد البناء العتيق .

مجمل المعنى

١ — ذكِّر قومك قريشاً أيها الرسول ، أنهم قد عصوا أباهم إبراهيم ، بعبادتهم الأصنام ، حيث تبرأ ممن يعبدونها ، وجاهد فى سبيل الدعوة إلى وحدانية الله تعالى ، وسأل ربه أن يجعل هذا البلد الذى يقيمون فيه — وهو مكة — ذا أمن وطمأنينة لمن أقام فيه ، لا يُسْفَكُ فيه دم إنسان ، ولا يظلم فيه أحد ، ولا يصطاد صيد ، فاستجاب الله دعاءه ، وجعله حَرَماً آمناً ، يلقى الرجل فيه قاتل أبيه ، فيحجزه احترامه لهذا الحرم المقدس أن يناله بسوء .

٢ — كما سأل أبوهم إبراهيم ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام ، وأن يثبته على ما هو عليه من التوحيد والإسلام ، فإن هذه الأصنام قد تسببن فى إضلال كثير من الناس عن الطريق السوىّ ، فمن تبعه من ذريته على دين التوحيد ، فإنه من أهل دينه ، ومن عصاه فعبد الأصنام ، فإن الله قادر على أن يغفر له ذنبه ، لأنه ذو مغفرة للناس على ظلمهم ، ويشمله برحمته التى وسعت كل شىء ، بأن يهديه إلى سبيل الرشاد .

٣ — وكان مما سأل فيه إبراهيم ربه ، أن قال : ربنا إنى أسكنت بعض ذريتى — وهو إسماعيل ومن يولد منه — بواد قفر لا زرع فيه ولا ضرع ، عند بيتك الذى حرّمت التعرض لسكانه بأى أذى ، وجعلته معظماً تهابه كل

الأمم – ربنا إنى ما أسكنتهم فى هذا الوادى البلقع ، الخالى من كل مظاهر الحياة ، إلا ليؤدوا واجب العبادة لك ، ويسعدوا بالإقامة بجوار بيتك ، فاجعل قلوب بعض الناس تميل وتعطف عليهم ، وتبادر إلى حج بيتك ، وارزقهم فى هذا المكان النائى بعض أنواع الثمرات ، ليشكروا لك آلاءك ، بالدوام على إقامة الصلوات ، وأداء فروض العبودية .

٤ – ربنا إنك تعلم سرنا وعلننا ، وأنت أعلم بأحوالنا ومصالحنا ، وأرحم بنا منا على أنفسنا ، فلا حاجة بنا إلى أن نطلب ما أنت به أعلم ، ولكنا ندعوك لإعلان عبوديتنا ، وافتقارنا إلى عطفك ورحمتك ، إذ لا يخفى عليك شىء فى هذا الكون .

٥ – الشكر لله العلى القدير ، الذى وهب لى فى شيخوختى إسماعيل وإسحاق ، إن ربى مجيب الدعاء .

٦ – رب اجعلنى مستعداً لإقامة الصلاة ، مواظباً عليها ، واجعل من ذريتى من يقيمها ويواظب عليها ، واستجب دعائى وتقبل عبادتى ، واغفر لى ولأبى وأمى ، وللمؤمنين ، يوم البعث والحساب.

(٨)

من الآية ٤٢ إلى آخر سورة إبراهيم

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ، لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ —١—. وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ، فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا : رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ، أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ : مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ؟ . وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ، وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ —٢— . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ، وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ —٣— . فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ ، وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ ، وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ، لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ

الْحِسَابِ —٤— . هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ، وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
تشخص فيه الأبصار	تبقى العيون مفتوحة لا تغمض ، من هول ما ترى فى ذلك اليوم .
مهطعين	مسرعين فى ذلة وخضوع .
مقنعى رءوسهم	رافعين رءوسهم إلى السماء ، ينظرون فى ذلة .
لا يرتد إليهم طرفهم	تبقى عيونهم مفتوحة لا تطرف هيبة وخوفاً ، ولا تتحرك أجفانهم .
أفئدتهم هواء	عقولهم خالية من الفهم ، لشدة فزعهم وحيرتهم ودهشتهم .
أنذر الناس	خوف الناس أيها الرسول .
ظلموا	ظلموا بشركهم ، وتكذيبهم الرسول .
أخرنا	أجل عقابنا ، وأعدنا إلى الدنيا .
زوال	انتقال من الدنيا إلى الآخرة للجزاء .
ظلموا أنفسهم	عصوْا قبلكم ، فاستحقوا العقاب ، كعاد وثمود من العرب .
ضربنا لكم الأمثال	بينّا لكم أحوال من كذبوا الرسل قبلكم فى القرآن .

الألفاظ	شرحها
مكروا مكرهم	دبرت قريش تدبيرهم الخفىّ ، حين أرادوا قتل الرسول .
عند الله مكرهم	الله يعلم تدبيرهم السيئ فيبطله ، ويعاقبهم عليه .
وإن كان مكرهم	وما كان مكرهم وإن عظم .
لتزول منه الجبال	ليقوى على صد دعوة الرسول ، الثابتة فى قلوب المؤمنين ثبات الجبال .
عزيز	غالب قادر .
ذو انتقام	ينتقم لأوليائه من أعدائه .
برزوا لله	خرجوا من قبورهم للحساب .
مقرنين فى الأصفاد	ضُمّ بعضهم إلى بعض فى القيود .
سرابيلهم من قطران	تطلى أجسامهم بالقطران ، الناشئ من تسخين بعض الأخشاب كالصنوبر ، تسخيناً بعيداً عن الهواء ، فيكون للكفار كالقمصان .
تغشى وجوههم النار	تعلو النار وجوههم ، وتحيط بها
سريع الحساب	يحاسب جميع الخلائق فى أقصر وقت .
بلاغ للناس	عظة كافية ، مبلغة إليهم .

فى هذه الآيات تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد ما رأى من أعمال قريش ، وإسرافهم فى إيذائه ، ومخالفتهم دين أبيهم إبراهيم ، وحث للرسول على أن يصبر كما صبر إبراهيم

مجمل المعنى

١ – لا يظن أحد أن الله سبحانه وتعالى يخفى عليه شىء من أعمال الظالمين المعاندين من كفار مكة ، ولكنه يمهلهم ، ولا يعجل بعقوبتهم ، ليزدادوا آثاماً على آثامهم ، ثم يعذبهم يوم القيامة عذاباً شديداً ، جزاء ما اقترفوه من الذنوب ، يوم يخرجون من قبورهم فى حيرة ودهشة ، لشدة فزعهم من هول ما يرون ، ويعلمون أن البعث والحساب حق لا ريب فيه ، فتبقى عيونهم مفتوحة من شدة الرعب ، ويأتون للحساب مسرعين فى ذلة واستكانة وخضوع ، رافعين رءوسهم إلى السماء ، لا تطرف عيونهم ، ولا يلتفتون يَمنة ولا يَسرة ، وإنما ينظرون إلى ما بين أيديهم ، ويبقوْن مبهوتين ، لا يستطيعون إدراك شىء مما حولهم ، وتكون عقولهم خالية من الفهم ، لشدة فزعهم وحيرتهم ودهشتهم ، فيكون مثلهم كمثل من يُقدَّم إلى ساحة الإعدام .

٢ – أنذر الناس يا محمد أهوال هذا اليوم ، يوم يقول الكافرون فى ذلة واستكانة : ربنا ، أعدنا إلى الحياة الدنيا ولو مدة يسيرة ، نُجب دعوتك على لسان رسلك إلى التوحيد ، ونتدارك ما فرط منا ، ربنا أبصَرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ، فيقول الله لهم ، توبيخاً وتبكيتاً : « أو لم نُعَمِّرْكم ما يتذكر فيه من تذكَّر ، وجاءكم النذير ؟ » ، أو لم تحلفوا فى الحياة الدنيا جهد أيمانكم ، أن الله لا يبعث من يموت ، وأنكم لا تنتقلون منها إلى حياة أخرى ، تحاسبون فيها على أعمالكم ؟ « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، إنا نسيناكم ؟ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » ، « ذوقوا فما للظالمين من نصير » ،

فيقولون : « ربنا غلبت علينا شِقْوتنا ، وكنا قوماً ضالين » ، فيجيبهم الله تعالى : « اخسَئوا فيها ولا تكلمون » ، لقد استوطنتم مساكن من كفروا قبلكم من الأمم الماضية : كعاد وثمود ، وإنكم لتمرون على منازلهم يأهل مكة فى متاجركم إلى الشام واليَمَن مصبحين ، وفى الليل ، أفلا تعقلون؟ وعرفتم كيف عاقبنا الكافرين منهم بإهلاكهم ، لظلمهم وعنادهم ، وبيَّنا لكم فى القرآن أحوالهم ، وثبت لكم ما أصابهم بمعاينة الآثار ، وتواتر الأخبار ، وضربنا لكم الأمثال ، فذكرنا ما اجترحوا من المعاصى ، وما عوقبوا به ، فلم تتعظوا .

٣ — ولقد دبر كفار مكة تدبيرهم الخفىّ لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله سبحانه وتعالى الذي لا يخفى عليه شىء أبطل تدبيرهم ، وما كان تدبيرهم ليقوى على صد الدعوة إلى دين الله ، الثابتة فى قلوب المؤمنين ثبات الجبال .

٤ — وكان هؤلاء الكفار قد غفلوا عن أن الله سبحانه وتعالى ينجز وعده بنصر رسله ، حيث يقول : « إنا لننصر رسلنا » ، ويقول : « كتب الله : لأغلبن أنا ورسلى » ، وينتقم ممن عصوهم عند فناء العالم يوم القيامة ، يوم تضطرب الأرض ، وتدك جبالها ، وتنتثر الكواكب لزوال ما بينها من تجاذب ، ويبرز الخلائق من قبورهم للحساب ، حيث يكون المجرمون قد ضُمَّ بعضهم إلى بعض فى القيود والأغلال ، وطليت أجسامهم بالقَطِران لسرعة اشتعال النار فيها ، ولقبح منظرها حينئذ ، وخبث رائحتها ، فيكون الطلاء محيطاً بأجسامهم إحاطة الجلابيب بها ، كما تحيط النار بهم من كل جانب ، جزاء ما كسبت أيديهم من الكفر والمعاصى ، فيجتمع عليهم اللون الأسود المنتن ، ولذعُه فى أجسامهم ، وسرعة

اشتعال النار فى جلودهم ، وقد خص الله تعالى وجوههم بالذكر ، لأنهم لم يتجهوا بها إلى الحق ، ولم يستعملوا مشاعرهم وحواسهم التى تشتمل عليها الوجوه فى التدبر والتفكر ، ولأنها أشرف الأعضاء ، كما خصها الله بالذكر فى قوله : « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ؟ » ؛ والله سبحانه وتعالى سريع الحساب ، يحاسب الخلائق كلها على كثرتهم ، واختلاف مللهم ونحلهم ، فى أقصر وقت .

٥ — هذا الذى سبق ذكره إنذار للناس ، كاف فى العظة والتذكير ، فليتعظ به ذوو العقول ، وليرتدعوا عن معاصيهم ، وليعلموا بالنظر والتأمل فيما عومل به الأمم الماضية قبلهم ، أن الله واحد لا شريك له ، فيؤمنوا به ، وينتهوا عن عبادة الأصنام ، لينجوا من عقاب الله يوم القيامة .

فهـــرس الجزء الثالث عشر

تفسير القرآن الكريم

الجزء الرابع عشر

تأليف

محمود محمد حمزة

المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان

المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق

المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

سورة الحجر

نزلت بمكة ما عدا الآية ٨٧ فمدنية ، وآياتها ٩٩ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرحيم

من الآية الأولى إلى الآية ١٥

الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ -١- . رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ -٢- . ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ -٣- . وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ -٤- . وَقَالُوا : يَاأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ، إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ -٥- . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ !-٦- . مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَا كَانُوا إِذَنْ مُنْظَرِينَ -٧- . إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ -٨- . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ -٩- . كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ -١٠- . وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ

يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا : إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ -١١- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الٓر	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
ذَرْهُمْ	دعهم — لا تنههم عما هم فيه من الضلال — والأمر للإهانة والتحقير .
ويُلهِهم الأمل	ويشغلْهم عن اتباعك الأمل ، وتوقع طول العمر ، وبلوغ المأرب .
كتاب معلوم	أجَلٌ مقدَّر محتم ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون .
الذكر	القرآن .
لو ما	هلاَّ : تحضيض .
بالحق	بالحكمة والمصلحة التى تقتضيها السُّنة الإلهية .
منْظَرين	مؤخرين فى عقابهم .
شيَع الأولين	فرق الأقدمين وأحزابهم .
كذلك	مثل ذلك .
نسْلُكه	ندخله .
المجرمين	كفارِ قريش .

الألفاظ	شرحها
خلَت سنَّة الأولين	مضت سُنة الله فى إهلاك الأقدمين ، الذين كذبوا رسلهم .
يعرجون	يصعدون .
سُكِّرَتْ أبصارنا	حُيرت وحُبِسَت عنها رؤية الحقيقة .

مجمل المعنى

١ — تلك السورة افتتحت بحروف ثلاثة من حروف الهجاء التى صيغت منها آيات الكتاب المعهود ، البالغ أقصى درجة فى الفصاحة والبلاغة ، وهو قرآن أىُّ قرآن ، غريب البيان ، نسيج وحده ، بديع فى بابه ، مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والأحكام ، مبين سبيل الرشد والغى ، والحق والباطل .

٢ — إذا عاين الكفار حالهم وحال المسلمين يوم القيامة ، وعانَوْا فيه ما عانَوْا من الأهوال ، فقد يودّون ويتمنّوْن أن لو كانوا فى الدنيا مسلمين ، منقادين لحكم القرآن ، مؤمنين بمحمد ، حتى لا يعانوا العذاب ، ولا يقاسوا الشقاء يوم الحساب ؛ والتعبير بِرُبَّ يدل على قلة ما يظهرون من رغبتهم ، وتمنيهم يوم القيامة أن لو كانوا مسلمين ، لشدة الأهوال التى تشغلهم فى هذا اليوم ، عن كثرة الطلب لما يتمنون و يودون .

٣ — احتقرْ شأن هؤلاء الكفار ، ولا تطمع فى هداهم وإيمانهم ، ولا تنصحهم بالانتهاء عما هم غارقون فيه من الضلال ، فلا سبيل إلى ارعوائهم ، ورجوعهم إلى الحق ، ودعهم يأكلوا كما تأكل الأنعام ، فإنما مثواهم النار ، و يتمتعوا

بالحياة الدنيا ، فإنما متاع الدنيا قليل ، ويشتغلوا عن اتباعك بأملهم فى تحصيل الدنيا ، وتوقع طول العمر ، وخلِّهم وما هم فيه من أكل ومتعة وأمل ، حتى يأتيهم الموت وهم غافلون ، وسوف يعلمون حينئذ سوء صنيعهم ، وعاقبة أمرهم ، دون أن تحذّرهم وتنصحهم ، فلا أمل فيهم ، ولا رجاء منهم ؛ وفى هذه الآية تنبيه إلى أن إيثار التلذذ والتنعم ، وترفيه البدن ، والتعلق بالأمل ، ليس من أخلاق المؤمنين .

٤ — وما دمّرْنا قرية من قرى الكافرين المكذبين ، واستأصلنا أهلها ، إلا بعد قضاء منا سبقت به إرادتنا وحكمتنا ، وجعلنا ليوم هلاكها أجلا مقدراً مكتوباً معلوماً ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، ولا يجىء هلاك أمة قبل أن يجىء أجلُها المكتوب المعلوم ، ولا يتأخر لحظة عن كتابها المرقوم ، ووقتها المحتوم ، وأجلها المعلوم .

٥ — هؤلاء الكفار قد سخروا منك ، واستهزءوا بك ، وقالوا لك : يأيها الرجل الذى يدعى أن القرآن قد أوحى الله به إليه ، إن هذا ادعاء باطل منك ، لا يقوله إلا مجنون — كما استهزأ فرعون بموسى ، فقال لقومه : « إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » .

٦ — هلا تجيئنا بالملائكة ليشهدوا بصدقك ، أو يعاقبونا على تكذيبك ، إن كنت صادقاً فيما تدعى من النبوة ؟

٧ — هذا اقتراح باطل ، ومطاب سخيف ، لأننا لا ننزل الملائكة على جلال قدرهم ، وشرف منزلتهم ، إلا تنزيلا متلبساً بالحكمة والمصلحة ، والوجه الذى تقتضيه السُّنة الإلهية من نزولهم بالوحى على الأنبياء لهداية العباد ، أما الذين لا يؤمنون حتى تنزل عليهم الملائكة فيروهم بأعينهم ، ففى قلوبهم عَمًى ، وعلى أبصارهم غشاوة ؛ وقد جرت سنة الله أنه لو استجاب إلى تحدى

الأمم المكذّبة ، وأنزل الملائكة كما أرادوا ، لعجّل لهم العذاب ، فلو نزل الملائكة لكفار قريش كما طلبوا ، لعجل لهم العذاب ، وما أخر عنهم العقاب ، وما كانوا إذن منتظرين ، ولكن حكمة الله اقتضت تأخير عقابهم إلى يوم الدين .

٨ — إننا نحن — ولنا القدرة والسيطرة — الذين نزلنا عليك هذا القرآن الذى يكذبونه ، وينسبون إليك الجنون حينما تطلب منهم أن يتدبروه ويتبعوه ، وهم ينكرونه ويستهزئون بك من أجله ، وإننا لحافظون له من كل ما لا يليق به ، وسنتحداهم أن يأتوا بمثله فيعجزوا ، ونصونه من عبثهم فلا يعتريه زيادة أو نقص ، أو تحريف أو تبديل ، ولا يحدث به ما حدث لغيره من الكتب السماوية الأخرى ، التى لم نتكفل بحفظها ، بل استحفظها الرّبّانيون والأحبار ، فحرفوها وغيروها ، ووقع فيها الاختلاف بَغْياً بينهم بغير الحق ؛ وفى حفظنا له أكبر برهان على أنه وحى من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً .

٩ — ولا تأس على ما ترى من تكذيبهم لك يا محمد ، ولا تحزن على ما تلاقيه منهم من استهزاء ، فلقد عانى هذه الحال من أرسلناه قبلك من الرسل فى أمم السابقين ، وشيع الأولين ، فكنا إذا أرسلنا إلى أمة منهم رسولا سخروا منه وكذبوه ، كما يسخر منك كفار قريش ويكذبونك .

١٠ — ولم نجعل قلوب الأشقياء من هذه الأمم تتقبل ما جاءهم به أنبياؤهم من الهدى قبول إيمان واعتقاد ، ولكننا أدخلناه فى قلوبهم وهم منكرون له ، مكذّبون ، به لأننا لم نرد هداهم ؛ ومثل ذلك سلكنا القرآن ، وأدخلناه فى قلوب المجرمين الكافرين من قريش ، وهم مكذبون له ومستهزئون به ، وقد

مضت على هذا الحال سنّة الله فى إهلاك الأولين ، حين فعلوا ما فعلوا من الإصرار على إنكارهم ، والاستهزاء بأنبيائهم .

١١— وقد طُبِـع هؤلاء الكفار على الإنكار والضلال ، والإصرار على العناد ، ولا سبيل إلى إقناعهم مهما كانت الحجة واضحة ، والدليل ظاهراً ، وإن مطلبهم منك فى أن تأتيهم بالملائكة حتى يصدقوا ، لـمَطلب يدل على أن الجحود والإنكار قد تمكن من قلوبهم ، وأن الضلال قد سطا على عقولهم ، فلا أمل فى أن تهتدى النفوس ، أو تقتنع العقول ، حتى لو أظهرنا لهؤلاء المعاندين أوضح آية ، وفتحنا عليهم باب السماء ، ويسَّرْنا لهم أن يرقَوا إليه ، ويصعّدوا فيه ، وأريناهم بأعينهم ملكوت الله ، لأصرُّوا على عنادهم ومكابرتهم ، وقالوا : إن ما رأيناه خيال لا حقيقة ، وإن أبصارنا التى رأت ما رأت قد غُشّيت ، وسكّرت وحُيّرت ، ولم يكن ما رأيناه حقيقة واقعة ، وإنما هو شبح تخيلناه وما تحققناه ، بل إن محمداً قد سحرنا به .

(٢)

من الآية ١٦ إلى الآية ٢٧ من سورة الحجرات

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ، وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ . وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ
شَيْطَانٍ رَجِيمٍ . إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ، فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ . وَالْأَرْضَ
مَدَدْنَاهَا ، وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ .
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ . وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ
إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ . وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ،
فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ، وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ .
وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ، وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ
مِنْكُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ، إِنَّهُ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .
وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
جعلنا	خلقنا .
بروجاً	مدارات وأفلاكاً ومنازل للكواكب ، وهى اثنا عشر برجاً .
للناظرين	للمتأملين المستدلين على قدرة مبدعها ، ووحدانية صانعها .
رجيم	ملعون ، مطرود من رحمة الله .
مددناها	باعدنا بين أطرافها ، وبسطناها فى رأى العين .
رواسِى	جبالا ثوابت .
موزون	مقدَّر بمقدار معين ، ومعروف ذاتاً وصفة .
ومن لستم له برازقين	وجعلنا لكم فى الأرض أيضاً من لاترزقونهم ، من العيال والخدم والدواب .
وإنْ مِن شىء	وما من شىء .
عندنا خزائنه	قادرون على إيجاده وتكوينه ، والإنعام به .
وما نُنزِّله	وما نعطيه .
بقدر معلوم	بمقدار معين تقتضيه الحكمة ، وتستدعيه المشيئة .
لواقح	حوامل للسحاب ، وناقلة للأشجار جراثيم اللِّقاح .
ونحن الوارثون	ونحن الباقون بعد هلاك الخلق كلهم ، نرث الأرض بعد فناء من عليها .
من صلصال	من طين يابس يصلصل ، أى يصوّت إذا نُقِر .

شرحها	الألفاظ
مأخوذ من حمأ ، أى من طين أسود حقير .	من حمأ
مصبوب فى قالب ، مصور على هيئة الإنسان .	مسنون
من نار شديدة الحرارة ، تنفذ فى مسام البدن .	من نار السموم

مجمل المعنى

قد ذكر الله فى هذه الآية والآيات التى تليها ، الدلائل الناطقة بوحدانيته تعالى ، وكمال قدرته ، بعد ذكره فى الآيات التى قبلها تكذيب كفار قريش للنبى صلى الله عليه وسلم ، ورميهم له بالجنون ، وشدة عنادهم واستكبارهم ، كما فعل بأنبيائهم بعض الأمم السابقة ، التى كتب عليها الشقاء ، فمن هذه الدلائل :

ا — أنه جعل فى السماء بروجاً ومدارات ومنازل للكواكب ، وجعلها فى منازلها ومداراتها ثوابت ومتحركة ، وجعل المتحركة تسبح فى أفلاكها بنظام دقيق ، وقدر منازلها بإحكام بديع ، وصنعة متقنة : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » ، وجعل هذه الكواكب تبدو فى السماء بهيّة مزينة ، تقر عين الناظرين المتأملين ، وتملؤهم يقيناً بقدرة مبدعها ، ووحدانية صانعها .

ب — وأنه حفظ السماء ومنعها من كل شيطان ملعون مطرود من رحمة الله ، وأن من حاول منهم أن يختلس أخبارها ، ويصعد إليها ، أدركه ولحقه منها قبس من نار ، وشعلة ظاهرة محرقة تقضى عليه ؛ قال تعالى : « إنهم عن السمع لمعزولون » ، وقال أيضاً : « لا يَسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى ، ويقذفون من كل

جانب» ، وقد بسطنا القول فى شياطين الجن واستراقهم السمع فى سورة الجن ، الصفحة ٨٥ من تفسير جزء « تبارك » .

ح — وأنه مد الأرض وبسطها فى رأى العين ، وأرسى فيها الجبال الثوابت الرواسخ ، لتحفظ توازنها ، وهى تتحرك وتدور حول الشمس ، وبعض الأرض جبال صخرية شامخة ، وبعضها أرض ممتدة ممهدة ، وأنبتنا فى الأرض من كل شىء موزون ، مقدر بمقدار معين ، معلوم فى صفته ولونه وطعمه ، سواء أكان نباتاً أم ثماراً أم معادن ، وخلقنا لكم فى هذه الأرض معايش من مطاعم وملابس ومساكن ، ووسائل تعينكم على التصرف فى أسباب الرزق ، وضروب الحياة ، وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين ، مما تستخدمونه فى حياتكم ، ويساعدكم فى معيشتكم ، وتتخذون منه زينتكم ، ويهيئ الأنس والسعادة لكم ، من خدم وأولاد ودواب وحيوانات ، تلك التى هيأناها لراحتكم وسعادتكم ، لم تكونوا أنتم المتكفلين برزقها ، ولكن الله هو الذى يرزقها .

د — وليست أسباب قدرتنا تنتهى عند المشاهد المحسوس لكم ، لكنها مبسوطة على كل ظاهر لكم ، أو خفىّ عنكم ، فما من شىء فى الوجود إلا ونحن نتصرف فيه كما نشاء ، وهو واقع تحت سلطاننا وسيطرتنا ، ولا نعطى منه إلا بقدر معلوم ، على حسب ما تعلقت به إرادتنا ، واقتضته مشيئتنا .

هـ — وأرسلنا الرياح وسخرناها لواقح ، أى حاملة للسحاب ناقلة اللقاح للشجر من جهة إلى أخرى ، فتنزل المطر الذى منه تشربون ، وتروون أرضكم ومواشيكم ، وتلقح الأزهار والأشجار ، بنقل أعضاء التذكير إلى أعضاء التأنيث ، فتخرج لكم نباتاً حسناً ، وثمراً يانعاً ، وفاكهة لذيذة ، ولستم بقادرين على تسخير الرياح أو إنزال المطر ، أو خازنين لمائه ، أو متحكمين فيه ، ولكننا نحن القادرون عليه والخازنون له .

و - وأننا نحن القادرون على أن نبعث الحياة فى الأجسام القابلة للحياة ، من حيوان أو نبات ، وقادرون على أن نسلبها هذه الحياة ونـُميتها ، ونحن الدائمون الباقون بعد هلاك الخلق وفناء الدنيا ، المالكون للكون بعد انقضاء العالم ، وأن المتقدم والمتأخر فى هذه الدنيا نهايته إلى عدم ، ونحن الوارثون الباقون بعد فناء الخلق أجمعين .

ز - ولقد أحاط علمنا بمن تقدم وجوده فى هذه الدنيا وولد فيها ، سواء أبقى بها أم ذهب منها ، وبمن تأخر وجوده ومن لم يوجد فيها بعد ، لقد أحصيناهم وعددناهم عدًّا ؛ واعلم يا محمد وليعلم معك من آمن أو كفر ، أن ربك هو الذى سيبعثهم للحساب ، ويجمعهم فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، وأنه هو القادر على أن يحيى العظام وهى رميم ، وأنه حكيم بالغ الحكمة ، يعلم الأشياء على حقيقتها ، وتصدر أفعاله وفق الحكمة والمصلحة ، عليم وسع علمه السموات والأرض .

ح - ولقد خلقنا أصل الإنسان ، وأنشأنا أول فرد من أفراده - وهو آدم عليه السلام - خلقاً بديعاً فى أحسن تقويم ، منطوياً على جراثيم يتكون منها أفراد نوعه انطواء إجماليًّا ، فأودعناه سر الحياة الذى تشعب وتناسل منه جنسه ، وكان أصل هذا الخلق ، وذلك التكوين البديع ، الذى لا يقدر عليه إلا صانع حكيم ، طيناً يابساً ، تسمع له صلصلة إذا نقرت عليه ، وهذا الطين الصلصال مأخوذ من حمأ ، أى طين أسود متغير ، لطول مجاورته للماء ، لا قيمة له ولا رُواء فيه ، وبقدرتنا سوَّيْنا هذا الحمأ على صورة إنسان ، ثم جف حتى صار صلصالا كالفخار ، ثم غيرنا جوهر هذا الصلصال من تكوينه الكيميائى ، وأودعناه القدرة على النطق ، وقوة التفكير والفهم ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، فالإنسان الأول تتابعت

عليه أربعة أشياء : تراب ، فطين ، فحمأ مسنون ، فصلصال كالفخار .

ط — وخلقنا أصل الجن قبل أن نخلق أصل الإنسان ، من نار الريح الحارة التى تنفذ فى مسام الجلد ، فإذا كانت قدرتنا قد امتدت إلى خلق الثقلين من إنس وجن من عناصر أولية : هذا من نار وذلك من طين ، وبعثنا فيها الحياة ، وأمددناهما بالتدبر والتفكير ، فإننا قادرون على أن نجمع الرفات المتفرقة ، ونعيد إليها الحياة ، ونبعث الخلق يوم القيامة للحساب ؛ جل شأن الله القادر على كل شىء .

(٣)

من الآية ٢٨ إلى الآية ٤٨ من سورة الحجر

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ –١– . قَالَ : يَا إِبْلِيسُ ، مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ؟ . قَالَ : لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . قَالَ : فَاخْرُجْ مِنْهَا ، فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ –٢– . قَالَ : رَبِّ ، فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ –٣– . قَالَ : رَبِّ ، بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ –٤– . قَالَ : هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَإِنَّ

جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ، لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ —٥— . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ . وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ، وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بَشَراً	إنساناً .
سوّيتُه	صورتُه بالصورة الإنسانية ، والخلقة البشرية .
ونفختُ فيه من رُوحى	وأودعت فيه الروح وهى من أمري ، فصار حيًّا .
فقَعُوا له ساجدين	فاسقطوا ساجدين له سجود تحية وتعظيم ، لا سجود خضوع وعبادة .
مالك ألا تكون	أى سبب لك فى ألا تكون ؟
مع الساجدين	مُحَيِّيًا لآدم مع من يُحَيُّونه من الملائكة ، وهم أهل شرف وطُهر .
فاخرج منها	فاخرج من زُمْرَة الملائكة الأطهار .
رجيم	ملعون مطرود محروم من كل خير وبركة .
عليك اللعنة	حق عليك أن تبعد عن الرحمة .
إلى يوم الدين	إلى يوم القيامة .

الألفاظ	شرحها
فأنظرني	فأمهلني وأخِّرني ، ولا تُمِتْني إذ جعلتني رجيماً مطروداً من رحمتك .
إلى يوم يبعثون	إلى يوم القيامة ، الذى يبعث فيه آدم وذريته .
من المنظرين	من جملة الذين أخَّرتُ آجالهم ، حسبما اقتضت حكمتى ومشيئتى .
بما أغويتنى	أقسم بسبب ما قدَّرت علىَّ من الضَّلال والإضلال .
لأزيِّنَنَّ لهم فى الأرض	لأزينَنّ لهم المعاصى ، وأحسننَّ لهم ارتكابها ، وأحببنَّهم فى الدنيا .
صراطٌ علىَّ مستقيم	حق علىَّ ، لا عِوَج فيه ولا ميل عنه .
جزء مقسوم	حزب معين مفروز معروف .
غلٍّ	حقد كان فى الدنيا .
نَصَبٌ	تعب .

قصة امتناع إبليس من السجود مع الملائكة لآدم

بسطنا قصة سجود الملائكة لآدم طاعة لأمر الله ، وامتناع إبليس استكباراً أن يسجد له معهم ، فى تفسير سورة البقرة ، الصفحة ٣٨ ، ٣٩ من تفسير الجزء الأول ، وسورة الأعراف ، الصفحة ٦٢ — ٦٩ من تفسير الجزء الثامن ، وقد أعاد الله ذكر هذه القصة ، تنبيهاً على مبدإ أصل الخلق ، بعدما نبه على نهايته فى الآيات

السابقة ، وهو يوم القيامة ، وتحذيراً للناس من كيد إبليس ، الذى طرده الله من رحمته ، فأقسم أن ينتقم لنفسه ، فيفسدَ ذرية آدم ويضلَّهم .

مجمل المعنى

١ — واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة : « إنى سأخلق فى الأرض إنساناً من طين أسود رطْب متغير ، لتروا آثار قدرتى ظاهرة متجلية فى إنشاء إنسان على أحسن خَلْق ، من أصل تافه ، وحمأ متغير ، مصبوب مُفرَغ وهو رطب فى صورة بشر ، فإذا يبس الطين وجف ، وصار صلصالا لا يُسْمَعُ له صوت إذا نُقِر عليه بالظُّفر ، ليثبت تماماً أنه جماد لا حياة فيه ولا حركة ، وأنه تمثال صامت لا يحس ولا يتحرك ، وانتهيت من تسويته وتصويره كهيئة الصورة الإنسانية ، والخلقة البشرية ، أحلت مادته الطينية إلى مادته البشرية ، وأودعت فيه الروح ، فسرت فيه الحياة والحركة والإحساس ؛ فإذا رأيتمونى فعلت ذلك ، فخرُّوا له سُجَّدا ، تحية وتعظيماً ؛ فلما خلقه الله كما قال ، وسواه كما أراد ، ونفخَ فيه الروح ، وبعث فيه الحياة ، سجد الملائكة كلهم أجمعون ، ولم يشذ منهم إلا إبليس الذى كان معهم ، فشمله أمر الله بالسجود لآدم ، وإن لم يكن من الملائكة الأطهار ، وامتنع واستكبر أن يكون مع الملائكة من الساجدين لآدم .

٢ — فقال له الله : أىُّ سبب لك ، وأى داع دعاك ، إلى إبائك السجود؟ فقال إبليس : إنه لا يناسب حالى أن أسجد لبشر أنا أشرف منه أصلا ، وأكرم جوهراً ، فأنا مخلوق من نار ، وهو مخلوق من أخسّ أنواع الطين ، من صلصال من حمأ مسنون ، فلا يليق بشأنى أن أعظم من هو أقل منى ؛ وفات إبليس أن الفضل والكمال ليس فى جوهر الأشياء ، لأن الله قادر على أن يغيِّر فيها ، فيجعل النفيس منها خسيساً ، والخسيس نفيساً ، وإنما الفضل والكمال فى خلع رداء الكبرياء ، والتحلى بالطاعة ، والتخلى عن العصيان

لأمر الله ، ولذلك طرده الله من رحمته ، وقال له : اخرج من زمرة الملائكة الأطهار ، المكرمين الأبرار ، فلست أهلا أن تكون معهم ، أو يجرى عليك ما يجرى عليهم ، وإنك رجيم مطرود محروم من كل خير وبركة ، وإن لعنتى قد حلّت عليك ، وأبعدتك عن رحمتى ، وصرت مذموماً ملعوناً فى السموات والأرض إلى يوم القيامة : يوم الدِّين الذى يبعث فيه الخلق أجمعون ، فتعذب بما عصيت ، وبما أفسدت وبما أغويت .

٣ — قال إبليس : يا رب ، أنظرنى وأخرنى فى الدنيا ، ولا تمتنى إذ جعلتنى رجيماً مطروداً من رحمتك ، وأمهلنى إلى يوم القيامة ، الذى يبعث فيه آدم وذريته للحساب والجزاء بعد فنائهم ، حتى أجد فُسْحَةً فى الدنيا لإفسادهم وإغوائهم ؛ فقال له الله : قد اقتضت إرادتنا من الأزل أن تكون من جملة المؤخرين المنظرين إلى يوم القيامة : يوم الوقت المعلوم الذى اختصصت أنا وحدى بعلمه ، وأبرمته بأمرى دون غيرى .

٤ — قال إبليس : أقسم بإغوائك إياى — وما أغواه الله ، ولكن إبليس هو الذى أبى واستكبر ، فضلّ وهلك — لأضلّنّ أبناء آدم فى الدنيا ، ولأزيِّنن لهم المعاصى فى الأرض ، ولأجعلنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا قليلا منهم ، وهم عبادك الذين أخلصتهم لطاعتك ، فليس لى سبيل إلى إغوائهم ، وتزيين المعاصى إليهم .

٥ — قال الله : هذا صراط علىَّ مستقيم ، وحقٌّ علىَّ أن أراعيه ، وهو ألا يكون لك تصرف أو تسلط على عبادى ، إلا من اتبعوك بسوء اختيارهم ، فضلُّوا وغوَوْا ، وإنا لَمُلْقُون أتْبَاعك هؤلاء فى جهنم أجمعين ، وقد أعددنا مكانهم فيها ، وجعلناها سبع طبقات ، لكل فريق طبقة معينة ، على حسب مراتبهم فى الغواية والمتابعة لك .

٦ — أما عبادى المخلصون المتقون ، الذين لم يتبعوك ، فقد أنعمنا عليهم بكامل الثواب ، وأعددنا لهم ما يستمتعون به يوم القيامة ، فى جنات وعيون ، يأكلون منها ما يشاءون ، وينعمون فيها بما يشاهدون ، متاعاً مقروناً بالكرامة والتعظيم ؛ فيقال لهم فيها : ادخلوها بتحية الله لكم ، سالمين من كل آفة وداء ، آمنين من الموت والعذاب والزوال ، لتحيوْا فى دار النعيم حياة خالصة من الحقد والعداوة والغِل ، وتبقوْا فيها إخواناً تتمتعون بالدعة والراحة على سرر متقابلين ، فتكون وجوههم بعضها إلى بعض ، ليتم لهم فيها الأنس والسرور والمودّة ، لا يشعرون فيها بتعب ، وينعمون فيها نعيماً دائماً ، يبقون فيها ولا يخرجون ، أكلها دائم ، ورزقهم فيها ليس له من نفاد .

(٤)

من الآية ٤٩ إلى الآية ٨٤ من سورة الحجر

نَبِّئْ عِبَادِى : أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ . وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَقَالُوا : سَلَامًا ، قَالَ : إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ . قَالُوا : لَا تَوْجَلْ ، إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . قَالَ : أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَنْ مَسَّنِىَ الْكِبَرُ ؟ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ؟ قَالُوا : بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ : وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ؟ قَالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ؟ —١— . قَالُوا : إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . إِلَّا آلَ لُوطٍ ، إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ . فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . قَالُوا : بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ . وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ، وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ . وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ : أَنَّ دَابِرَ

هؤُلَاء مَقْطوعٌ مُصْبِحِينَ . وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ . قَالَ : إِنَّ هؤُلَاء ضَيْفِي ، فَلَا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ . قَالُوا : أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ . قَالَ : هؤُلَاء بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ . إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ، وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ . إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ —٢— . وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ، وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ . وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ —٣— . وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ، فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ . وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ . فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نَبِّئْ	أعلم وأخبر .
ضيف إبراهيم	الملائكة الذين جاءوا بالبشرى لإبراهيم ، وأرسلوا لعذاب قوم لوط .

الألفاظ	شرحها
سلاماً	قولا سلاماً فيه لين ومودة .
وجِلُون	خائفون مضطربون ، نتوقع منكم مكروهاً .
بغلام	هو إسحاق عليه السلام .
عليم	فطِن ذكى ، يكون نبيًّا .
مسّنِىَ الكبر	ظهرت علىّ الشيخوخة .
فبِمَ تبشّرون ؟	فبأى أمر عجيب لا يُؤلف حصوله تبشروننى ، ما أعظم قدرة الله ونعمته علىّ !
بشرناك بالحق	بشرناك بأمر يقينىّ لا لبس فيه ، ولا محَالة من وقوعه .
القانطين	الآيسين من أن يولد لهم ولد على كبر ، وقد خلق الله آدم من طين .
فما خطبكم ؟	فما أمركم ، وما شأنكم الخطير الذى أرسلتم إليه غير البشارة ؟
إلى قوم مجرمين	إلى قوم أجرموا جميعاً ، وهم قوم لوط .
قدّرنا إنها لمن الغابرين	قضينا أن تكون من الباقين ، الكفرة المجرمين ، لتهلك معهم .
منكرون	مجهولون لا أعرفكم ، وأخاف أن ينالنى شر منكم أو بسببكم .
جئناك بما كانوا فيه يمترون	جئناك بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به ، فيشكُّون فى وقوعه ويكذبونك .
فأسر بأهلك	فاذهب بأهلك ، وسر بهم ليلا .

شرحها	الألفاظ
بطائفة وجزء من آخر الليل .	بقطع من الليل
وامض على أثرهم ، تدفعهم وتسرع بهم ، حتى لا تدركهم الصيحة .	واتبع أدبارهم
واذهبوا حيث أمركم الله إلى الشام أو مصر .	وامضوا حيث تؤمرون
وأوحينا إليه .	وقضينا إليه
ذلك العذاب مقضىٌّ به ، وهو قطع دابرهم ، واستئصالهم عن آخرهم .	ذلك الأمر : أن دابر هؤلاء مقطوع
داخلين فى الصباح .	مصبحين
سَدُوم فى دائرة الأردن .	المدينة
لا ترتكبوا الفاحشة فى ضيوفى فتفضحونى ، لأن من أساء إلى ضيفى فقد أساء إلىّ ، وضيف : تطلق على المفرد والجمع .	فلا تَفْضَحون
ولا تُذلونى بإذلال ضيوفى .	ولا تخزون
أو لم نحذّرك أن تجير أحداً ، أو تضيفه فى بيتك .	أو لم ننهك عن العالمين ؟
هؤلاء بناتى ، تزوّجوهن واتركوا ضيوفى .	هؤلاء بناتى
قسماً بحياتك .	لعمرك
غوايتهم التى أذهبت عقولهم .	سكْرَتهم
يتحيرون بين الصواب الذى أشرت به ، والضلال الذى نهيتهم عنه .	يَعْمهُون
فوقعت عليهم الصاعقة المهلكة .	فأخذتهم الصيحة

الألفاظ	شرحها
مشرقين	وهم داخلون فى شروق الشمس .
عاليها	الضمير لقرى قوم لوط .
للمتوسِّمين	للمتأملين المتفكرين المتفرِّسين ، الذين يعرفون باطن الشىء من سِمَة ظاهرة .
وإنها لبسبيل مقيم	وإن آثار هذه القرى لا تزال باقية ، تمرُّون عليها فى طريقكم يا كفار قريش .
وإن كان أصحاب الأيكة	وإن قوم شعيب ، (والأيكة : الغيضة) .
فانتقمنا منهم	فأهلكناهم .
وإنهما	الضمير لآثار قوم لوط والأيكة .
لبإمام مبين	لبطريق واضح ظاهر .
أصحاب الحجر	هم ثمود قوم صالح — والحجر : واد بين المدينة والشام ، كانوا يسكنونه .
المرسلين	هم صالح ومن اتبعه من المؤمنين .
آمنين	آمنين من غضب الله ، يحسبون أن استحكام بيوتهم ستقيهم عذابه .

مجمل المعنى

لما ذكر الله أن جهنم موعد أتبْاع إبليس أجمعين ، وأنه أعدّ للمتقين فى الدار الآخرة جنات وعيوناً ، يقيمون فيها فى راحة لا يخرجون منها ، أمر نبيَّه أن ينبئ عباده المؤمنين أنه واسع المغفرة ، كثير الصفح عن ذنوبهم ، عظيم الرحمة بهم ،

فلا يقنطوا من رحمته ولا يخشوا عذابه ، وأنه شديد العذاب ، قوىٌّ البطش بالكافرين ، ثم أمره أن ينبئهم بما جرى لنبيه إبراهيم من تبشير الملائكة له بإسحاق بعد أن مسه الكبر ، وصارت زوجه عقيما ، لبلوغها سن اليأس ، وذهب أمله فى أن يكون له ولد يشد أزره ، ويقوى ظهره ، ليعلموا أن الله قادر على كل شىء ، وأن رحمته وسعت كل شىء ، وليعتبر كفار قريش المكذبون لمحمد ، بما حاق بقوم لوط ، وقوم شعيب ، وثمود قوم صالح من العذاب ، لما عصوا ربهم ، وكذبوا رسلهم ، وآذوا أنبياءهم ؛ وكان هؤلاء الأقوام يقطنون فى جزيرة العرب أو قريباً منها ، ولا تزال آثارهم باقية يشاهدونها فى غدوهم ورواحهم ؛ وقد عرضنا قصة إبراهيم (فى تفسير الجزء الأول ، الصفحة ٩٥—٩٨ ، وفى تفسير الجزء الثالث ، الصفحة ١٧—١٩ من سورة البقرة ، وفى تفسير الجزء السابع ، الصفحة ١٠٤ — ١٠٧ من سورة الأنعام ، وفى تفسير الجزء الثانى عشر ، الصفحة ٥٤ — ٥٨ من سورة هود . كما عرضنا قصة ثمود قوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، فى الجزء الثامن ، الصفحة ١١٤ — ١٢٧ من سورة الأعراف بتطويل ، وفى الجزء الثانى عشر ، الصفحة ٤٨—٥٣ ، والصفحة ٥٩ — ٦٤ ، والصفحة ٦٥ — ٧٣ على التوالى من سورة هود) ، وسنعرض هنا هذه القصص إجمالا .

١ — الملائكة يزفون لإبراهيم البشرى بغلام عليم

ونبئ عبادى يا محمد ، وأعلمهم بأمر الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم فى بيته فى صورة الرجال ، فلم يعرف أنهم ملائكة ، وسلموا عليه سلاماً ، فرد عليهم السلام ، وأحسن استقبالهم ، وهش للقائهم ، وكان إبراهيم كريماً مضيافاً ، فعمد إلى عجل سمين فذبحه ، وأعد لهم طعاماً شهيًّا ، وقربه إليهم ، فلم يأكلوا منه ، فأوجس منهم خيفة لما امتنعوا عن أكل طعامه ، وقال : إنا منكم خائفون وجلون ، نتوقع منكم شرًّا ، قالوا له : لا تخف يا إبراهيم ولا تفزع ، فقد جئنا

نحمل إليك البشرى بأن الله سيهب لك من (سارةَ) زوجك غلاماً جميلا ، سيكون فى مستقبل حياته نبيًّا عليماً ؛ قال إبراهيم : يا عجبًا لأمركم ! أبشَّرْتمونى بأن يولد لى ولد ، وقد مسنىِ الكبر ، وامرأتى عاقر بلغت سن اليأس؟ فبأىِّ أمر عجيب غير مألوف حصوله ، ولا متوقّع حدوثه ، تبشروننى ؟ وقد عرف إبراهيم من حديثهم أنهم ملائكة ، فاطمأن بالُه ، وذهب خوفه ، فقال له الملائكة : بشرناك بأمر هو الحق واليقين ، لا لبس فيه ولا شك ، لأنه من عند الله ، فلا تكن من الآيسين القانطين من أن يولد له ولد وهو شيخ كبير ، لأن قدرة الله فوق كل شىء ؛ قال إبراهيم : إنه لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون المخطئون طريق المعرفة بقدرته وواسع رحمته ، فلست أقنط ولا أيئس مما بشرتمونى به ، ولكنى استبعدت إنجاب الأولاد فى هذه السن الكبيرة ؛ قالوا : يا إبراهيم : ما جئنا لمجرد البشرى ، ولكننا جئنا لأمر آخر ، قال فما خطبكم وما شأنكم ؟ وما هو هذا الأمر الخطير الذى أرسلتم به ، إن لم يكن شأنكم مجرد البشرى ؟

٢ — قوم لوط المجرمون

قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (كانوا يسكنون فى قريتَىْ سدُوم وعامورة ، وكانتا فى مكان البحر الميت الآن) ، لأنهم أشرار يقطعون الطريق ، وينهبون التجار ، ويرتكبون المنكر ، هؤلاء هم قوم ابن أخيك لوط ، سنهلكهم بذنوبهم أجمعين ؛ فخاف إبراهيم من أن يمس ابن أخيه وأهله عذاب معهم ، فقال لهم : إن فيها لوطاً وأهله ، وإنه من أنبياء الله المرسلين ، قالوا له : لا تخف على لوط وعلى أهله ، فسننجيهم أجمعين ، إلا امرأته فقد قضينا عليها أن يصيبها العذاب ، لأنها من الكفرة الباقين ، فحق عليها أن تهلك معهم ، ويحل بها

السخط والعذاب الذى يحل بهم ، ثم ذهبوا إلى لوط بهيئة غلمان مُرْدٍ حسان ، فقال لهم : إنكم قوم لا أعرفهم ، وأمركم يدعو إلى إنكاركم ، والعجب من أمركم ، فلستم غرباء لأن زىَّ السفر لا يبدو عليكم ، ولستم من القوم المجرمين ، لأن حالكم غير حالهم ، ومظهركم غير مظهرهم ، إنى لأخشى أن يصيبنى من أجلكم شرّ ، أو يصيبكم من القوم شرّ ، قالوا : يا لوط ما جئناك بشىء تنكرنا لأجله ، أو تخافنا منه ؛ بل جئناك بشىء يسرك ، ويشْفى صدرك من أعدائك ، جئناك بعذابهم الذى كنت تتوعدهم به ، وتنذرهم أنه سيحل بهم ، لما يرتكبون من المعاصى ، فكانوا يشكّون فى وقوع العذاب بهم ، ويقولون لك : إنك من الكاذبين ؛ نعم جئناك بعذابهم ، وهو حقٌّ واقع لا مِرْية فيه ، نازل بهم لا محالة ، وإنا ملائكة ربك المرسلون إليك من عنده ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به ؛ فأسْرِعْ بالرحيل أنت وأهلك ، واذهبوا جميعاً فى آخر الليل ، وسِرْ وراء الراحلين ، لتستحثهم على الإسراع ، ولتطمئن على خروجهم جميعاً ، وتطّلع على أحوالهم ، وحذار أن يتوقف منكم أحد ، أو يلتفت وراءه ، ليُبْصر ما حلّ بالقوم من العذاب ، فيرق لهم ، أو يصيبه فزع من هول ما يرى ، وسيروا حيث أمركم الله إلى بلاد الشام ؛ وقد أوحينا إلى لوط بقضاء الله فى أمر هؤلاء القوم ، وهو أننا سنقطعُ دابرهم ، ونأتى على آخرهم ، ونستأصلهم جميعاً ، فلا يبقى أحد منهم حينما يطلع الصبح عليهم ؛ وصل نبأ الغِلمان المرْدِ ضيوف لوط عليه السلام إلى قومه فى المدينة ، فاستبشروا وفرحوا ، طمعاً فى أن ينالوا منهم شنيع فعلهم ، وجاءوا إلى لوط يطلبونهم منه ، فحاول أن يردهم عنهم ؛ وقال لهم : اتقوا الله ولا تفعلوا الفاحشة فى ضيوفى ، فتفضحونى بالإساءة إليهم — اتقوا الله ولا تخزونى وتذلونى بإذلال ضيوفى وإهانتهم ؛ قالوا له : كيف تدفعنا عنهم ، وتمنعنا منهم ؟ ألم نحذرك أن تجير أحداً فى بيتك ، أو تحول بيننا وبين من يدخل مدينتنا ؟ قال : إذا كنتم لا بد فاعلين فعلتكم الشنيعة ، فخذوا بناتى تزوجوهن ، واتركوا

ضيوفى ؛ ثم نظر لوط إلى الملائكة ، وقال : لو أن لى بكم قوة ، فأستطيع أن أردهم على أعقابهم ! فقال له الملائكة : لعمرك إنهم لن يقلعوا عن غوايتهم التى أعمت قلوبهم ، رأذهبت عقولهم ، فكن مطمئناً ، إنهم لن يصلوا إليك ولن يصلوا إلينا ، إنا رسل ربك ، فاذهب بأهلك ، ودعنا نُذِقهم جزاء ما كانوا يعملون ، فنجا لوط وأهله ، وأرسل الله على كفار قومه صاعقة من عذاب ، وأمطرهم حجارة من سجِّيل وقت شروق الشمس ، فدمرت قراهم تدميراً ، وقلبتها ظهراً لبطن ، وجعلت عاليها سافلها ، وصارت آثار هذه القرى عظة وعبرة للمتوسِّمين المتأملين فيها ، المتفرسين المعتبرين الناظرين إليها ، وإنها لباقية ثابتة فى الطريق الذى يسلكه الناس فى طريقهم إلى الشام ، بقيت على الدهر لتكون عظة وعبرة للمؤمنين .

٣ — أصحاب الأيكة

والأيكة : الغيضة ، وهى جماعة الشجر ، وأصحاب الأيكة : هم من قوم شعيب ، كانوا أصحاب رياض وغياض ، وشجر مثمر بقرب أرض مدين ، وأرض مدين ببلاد الحجاز مما يلى الشام ، وكان أصحاب الأيكة كأهل مدْين ، يعملون فى التجارة ، ويعبدون غير الله ، ويطفّفون الكيل والميزان ، ويفعلون الشرور ؛ فوصفهم الله بأنهم ظالمون ، وانتقم منهم بعذاب يوم الظُّلَّة ، بأن سلط عليهم الحر سبعة أيام ، وساق إليهم غمامة ، فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس ، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا ، ولا تزال آثار قوم لوط وأصحاب الأيكة باقية فى طريق بيِّن ظاهر ، لتنبه الناس إلى شدة بطش الله بالعصاة المكذِّبين ، فيتعظوا ويعتبروا .

٤ — أصحاب الحِجر

هم ثمودُ قوم صالح ، كانت مساكنهم بالحجر ، وموقعها بين الحجاز والشام إلى وادى القُرى ، ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم — وكانت ثمود تدين بعبادة الأصنام ، فأرسل الله إليهم صالحاً ، فدعاهم إلى عبادة الله ، فكذّبوه ومن اتبعه من المؤمنين ، وآتاهم الله الناقة فيها عدّةُ آيات على صدق صالح ، وأخبرهم أنهم سيعيشون سالمين ، ما داموا لا يتعرض أحد منهم للناقة بسوء ، فى نفسها وأكلِها وشربها ، وأن العذاب يحل بهم متى اعتدوا عليها فى أحد هذه الأشياء ؛ ولكنهم أعرضوا عن آيات الله ، وكذبوا بها ، وعقروا الناقة ، وغرّهم ما كانوا يعملون ، فقد كانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال ، معتقدين أنهم سيعيشون فيها آمنين من عذاب الله ، لوثاقتها وقوة استحكامها ، فدهمهم العذاب ، وأخذتهم الصيحة وقت طلوع الصبح وهم لا يشعرون ، فدمّرتهم وقومهم أجمعين ، والصيحة والصاعقة والرجفة والطاغية تؤدى معنى واحداً ، لنوع من أنواع السخط الذى أنزله الله على الأمم السابقين ، وهى استفراغ كهربى يحصل بين كهربتين مختلفتين إيجاباً وسلباً ، فإذا كان بين سحابتين حصل رعد وبرق ، واضطراب فى الهواء ، وإن كان بين الأرض وبين سحابة قريبة منها ، حصل احتراق وزلزلة وتدمير ، وإذا صادف الاستفراغ أو اتحاد الكهربتين جسماً على الأرض ، صُهِرَ إذا كان معدناً غير مسنّن ، واحترق إذا كان شجراً ، وتفتت ودُمّر إن كان صخراً أو بناء ؛ (تراجع الفقرة السادسة من الصفحة ١١٦ من تفسير الجزء الثامن) ؛ هذه الصيحة هى التى أخذت ثمود ، فدمّرت بيوتهم تدميراً ، ولم يُغْنِ عنهم ما كانوا يكسبونه من نحت البيوت فى الجبال ، واقتناء الأموال

(٥)

من الآية ٨٥ إلى الآية ٩٩ من سورة الحجر

وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ -١- . وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ -٢-. لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ -٣- . وَقُلْ : إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ . كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ -٤- . فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ -٥- . فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ -٦- . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ -٧- . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ -٨- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الساعة	القيامة ، لتوقُّعِها كلَّ ساعة .
المثانى	الفاتحة ، أو الآيات أو السُّوَر.
لا تمدَّنّ عينيك	لا تطمح ببصرك طموح راغب متمنٍّ .
أزواجاً منهم	أصنافاً من الكفار .
ولا تحزن عليهم	ولا تحزن على أن أغنياء الكفار لم يؤمنوا فيتقوى بهم الإسلام والمسلمون .
واخفض جناحك للمؤمنين	وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين ، وطِبْ نفساً بهم عن إيمان الأغنياء .
المقتسمين	هم أهل الكتاب الذى اقتسموا القرآن ، فجعلوا بعضه حقًّا موافقاً للتوراة والإنجيل ، وبعضه باطلاً مخالفاً لهما .
عِضين	أجزاء ، والمفرد عِضة ، وأصلها عِضوة أى جزء .
فاصدع بما تؤمر	فاجهر بما أمرناك به من الشرائع والأحكام والعقائد .
صدْرُك	قلبك .
بما يقولون	بما تسمعه من تكذيبك ورد قولك ، وبما ينالك وينال أصحابَك من أعدائك .
اليقين	الموت .

مُجمل المعنى

١ — وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا خلْقاً ملابساً للحق ، فلم نخلق شيئاً منها عبثاً ولا فساداً ، ولكن للحق والحكمة ، ليؤمن من آمن عن بيِّنة وتفكير ، ولتكون النشأة الأولى وهى خلق السموات والأرض ، مذكّرَة بالنشأة الآخرة يوم القيامة ، ولهذا لم يقبل الله الفساد والعبث فى مُلكه ، فاقتضت حكمته إهلاك المفسدين ، وتطهير الأرض من شرورهم ؛ وإن الساعة حق لا ريب فيها ، وإن يوم القيامة آت لا محالة ، فلا تبخع نفسك بتكذيب الكفار لك ، واستهزائهم بك ، وقابِلْهم بالصفح الجميل ، فلا يظهر عليك أثر الضيق والحزن منهم ، ودع لله حسابهم ، والانتقام منهم ؛ وإن ربك لكثير الخلْق ، فقد خلق المصلح والمفسد ، والمؤمن والكافر ، وهو العليم بحالك وحالهم ، وسيجازى كلاًّ بما يستحق ، وقد علم الله أن الصفح اليوم خير لك من السيف ؛ واللين أجدى من العنف .

٢ — ولقد أنزلنا عليك فاتحة القرآن وأم الكتاب ، وهى سبع آيات تتلى مثنى ، أى تكرّر وتعاد تلاوتها فى كل ركعة ، كما أنزلنا عليك سائر القرآن العظيم ، الذى هو للقلوب تبصرةً وهدًى ونور ، وقد أفردت فاتحةُ الكتاب بذكر خاص ، كما انطوى ذكرها أيضاً فى عموم القرآن ، لا شتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام ؛ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثانى ؛ وقال ابن عباس : السبعُ المثانى هى السبع الطِّوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال والتوبة معاً ، لتكرار الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والقصص وأنباء القرون فيها .

٣ — وإذا كان الله قد منَّ عليك وعلى أمتك بالقرآن ، وهو جماع كلِّ خير

وبركة ، وفيه كل فضل ونعمة ، فلا ينبغى أن تمتد عيناك ، ويطمح بصرك طموح راغب متمنٍّ ، إلى متاع الدنيا الذى هيأناه لأصناف من أغنياء اليهود والنصارى والمشركين ، فما عند الله خير وأبقى ، وقد أغنيناك بالقرآن ، وشرعنا لك به شريعة سمحة خالصة من الحرج ، فلم نُطْلِقْ فيها العنان للشهوات ، ولم نجعلها رهبانية خالصة تقطع الإنسان عن الدنيا وزينتها ؛ قال عليه الصلاة والسلام : «حبِّب إلىَّ من دنياكم : النساء والطِّيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة» ، فقد أحل الله لنبيه ولسائر المؤمنين التمتع الحلال ، كما جعل عليه أن يكون مؤمناً خالص القلب ، تقرُّ عينه بالصلاة والعبادة ؛ ولا ينبغى لك يا محمد أو لأحد من أمتك أن يحزن على أن أغنياء الكفار لم يسلموا ، لكى يتقوى بهم الإسلام والمسلمون ، فإن الله والإسلام والمسلمين فى غنى عنهم ، وهو يقويك وينصرك ، ويعز دينك بهؤلاء الفقراء الذين آمنوا بك ، واتبعوك عن صدق وإيمان ، فتواضعْ لمن اتبعك من فقراء المؤمنين ، وألن لهم جانبك ، واخفض لهم جناحك .

٤ — وقل لمن عصوك وكذبوك من المشركين : إنى نذير لكم بعذاب مبين ، كاشف عن عاقبة كفركم وعنادكم ، وقد أنذرنا المشركين بعذاب مبين ، مثل العذاب الذى أنزلناه على أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، الذين اقتسموا القرآن وجعلوه أجزاء ، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، وقالوا عن جزء منه : إنه حق ، وعن جزء آخر : إنه باطل ، وقالوا : إن بعضه سحر ، وبعضه شعر ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين .

٥ — قسماً بربك يا محمد ، لنقفنَّهم يوم القيامة لنسألهم جميعاً عما كانوا يعملونه فى الدنيا ، من تكذيبك والاستهزاء بك ، ومن الكفر والافتراء على القرآن ، وارتكاب الإثم والعصيان ؛ وسؤالُهم عما يعملون ، إشارة إلى أن الإيمان الحق ،

هو المصحوب بالعمل الطيِّب ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة ، قيل : يا رسول الله ، وما إخلاصُها ؟ قال : « أن تحجُزَه عن محارم الله » ، وقال الحسن البصرى : ليس الإيمان بالتحلى ولا الدين بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلوب ، وصدَّقتْه الأعمال .

٦ — فاجهر بما أمرك الله أن تبلغه لجميع الخلق من الشرائع والعقائد ، لتقوم الحجة على العصاة والمخالفين يوم القيامة ، وأعلِنْ رسالتك التى أوحينا بها إليك ، حتى لا يكون للناس على الله حجة ، وأعرضْ عن المشركين ، ولا تُبال باستهزائهم ، ولا تُلْقِ بالك إلى قولهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام سرًّا ، حتى نزل قوله : « فاصدع بما تُؤْمر » ، فخرج هو وأصحابه ، وجهر بالرسالة ، وأعلن الدعوة .

٧ — ولا تخش أمر المستهزئين بك ، والمؤذين لك ، فإن الله دافع عنك كيدهم ، وعاصمك منهم ، وكافيك شر هؤلاء المشركين بالله ، الذين يتخذون معه إلهاً آخر ، فسوف يعلمون ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب .

٨ — وإنا لنعلم أنه ليحزْنُك الذى يقولون ، ويضيق صدرك بما يستهزئون ، ويسيئك ما تسمعه منهم من تكذيب ومعارضة ، وما ينال أصحابك منهم من أذى ، فاصبر على ما يقولون وما يفعلون ، وافزع إلى الله فيما نابك منهم ، واستعن بالعبادة والتسبيح والصلاة يهُنْ عليك أمرهم ، وتنكشف عنك الغُمّة ، ويذهب الضيق . وداوم على عبادة الله ما دمت حيًّا إلى أن يأتيك الموت ، وتفارق الدنيا ، وتلقى وجه ربك ذى الجلال والإكرام ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزَبه أمر ، فزع إلى الصلاة التى من أركانها السجود ، وأقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد .

سورة النحل

نزلت بمكة، ما عدا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنية، وآياتها ١٢٨ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

من الآية الأولى إلى الآية ١٧

أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ -١-. يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، أَنْ أَنْذِرُوا: أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ -٢-. خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ، فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ، فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ، وَمِنْهَا جَائِرٌ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ، وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَعَلَامَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ —٣— . أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أتى أمر الله فلا تستعجلوه	سيقع أمر الله الذى أنذركم به، من قيام الساعة ونزول العذاب قريباً ، فلا تتعجلوا وقوعه، لأنه أصبح بمنزلة الواقع فعلا .
سبحانه وتعالى عما يشركون	تنزه الله وتبرأ ، وعلا قدره عن أن يكون له شريك فى ملكه ، أو يكون معه إله آخر يُعْبد فى الأرض أو فى السماء .

الألفاظ	شرحها
بالروح	بالوحى والقرآن والهداية ، لأن كلا منها يقوم فى الدين مقام الروح من الجسد ، أو يحيى القلوب الميتة بالجهل .
من أمره	بأمره وإرادته .
على من يشاء من عباده	على من اختارهم الله من عباده للنبوة .
بالحق	بالإبداع والإتقان .
من نطفة	من قطرة ماء فيها أصل الإنسان .
خصيم مبين	يخاصم الله عز وجل فى قدرته خصومة ظاهرة ، مع أنه مخلوق من نطفة ضعيفة .
تريحون	ترجعون آخر النهار وقت الرواح .
تسرحون	تغدون وتذهبون بها إلى المرعى .
إلا بشِق الأنفس	إلا بمشقة النفوس .
وعلى الله قصد السبيل	وعلى الله أن يبين لعباده السبيل القصد ، والطريق المستقيم ، بالرسل والحجج والبراهين .
ومنها جائر	ومن السبل ما هو جائر ، مائل عن طريق الهدى والحق .
تسيمون	ترعوْن إبلكم ومواشيكم .
والنجوم مسخرات بأمره	والنجوم مذللات فى الظهور والخفاء والتحرك والثبوت بقدرته .
ذرأ	خلق .
يذكرون	يتعظون .

الألفاظ	شرحها
حلية	هى ما يستخرج من البحار من اللؤلؤ والمرجان .
مواخر فيه	جوارى ، تجرى فيه جرياً ، وتشقه شقاً .
وسبلا	وطرقاً .

مجمل المعنى

١ — إن أمر الله — وهو ما أنذركم به من العذاب ، وما وعد به نبيه من النصر — متحقق الوقوع ، آت قريباً لا محالة ؛ فلا تستعجلوا وقوعه ؛ وقد تنزه الله وتبرأ ، وجل قدره وعلا ، عما جعلوا له من شركاء فى ملكه ، وعما اتخذوا معه من آلهة ؛ وكان كفار قريش يستعجلون ما أنذرهم به الله من العذاب ، استهزاء وتكذيباً للنبي صلى الله عليه وسلم ، والاستهزاء والتكذيب بوعيد الله نوع من الشرك ، حتى حكى القرآن ما قاله النضر بن الحارث : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ، فنزل قوله تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » .

٢ — وهو الذى ينزل الملائكة بالوحى على من اختارهم من خلقه للنبوة ، واصطفاهم للرسالة بأمره ، لينذروا الناس بوحدانيته ، ويعلموهم بأنه لا إله غيره ، وأن لا معبود سواه ، فاحذروا أيها الناس عبادة الأوثان ، واتقوا عقابى ، ولا تتخذوا إلهاً غيرى .

٣ — وقد ذكر الله لأولئك المشركين الدلائل الناطقة بوحدانيته ، وبأن لا إله إلا هو ، تلك الدلائل التى لا يقدر عليها غيره ، ولا يستطيع إنشاءها وإبداع خلقها وإتقان صنعها إلا إله واحد لا شريك له ، فمنها :

ا — أنه خلق السموات والأرض ، وأبدع الأفلاك والكواكب على وضع محكم لائق متقن ، يدل على أن من أبدعها وأنشأها يحق له أن يتفرد بالألوهية ، وألا ينازع فى المعبودية ، وأن من كانت له القدرة على إيجاد العالم العُلْوى والسفلى ، يجب أن ينزه ويتعالى عن أن يكون معه شريك فى ملكه ، أو معبود سواه .

ب — وأنه خلق الإنسان العاقل المفكر من أصل ضعيف مستقذر ، من نطفة صغيرة ، وقطرة ماء حقيرة ، تحتوى على أصله الذى منه خُلِق وتكوَّن ، فأقرّها فى الأرحام إلى أجل مسمى ، حتى صارت علقة ، ثم مضغة ، ثم أخرجها طفلا ، ثم بلغ أشده ، وصار إنساناً منطيقاً مجادلا عن نفسه ، مكافحاً لخصومه ، فهل بعد ذلك دليل على قدرته ووحدانيته ؟ وهل بعد ذلك ينبغى أن يكون الإنسان ، — وهذا أصله ، وتلك قدرة الله فيه — خصيماً لربِّه ، مظهراً لإنكاره وجحوده ، متوقحاً على خالقه ، قائلا ما قال أبىّ بن خلف الجُمحىّ حين جاء بالعظم الرميم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد ، أترى الله يحيي هذا وهو عظم رميم ؟ نعم أيها المنكرون ، يحيي العظام وهى رميم ، « ولقد علمتم النشأة الأولى ، فلولا تذكرون » !

جـ — ومن نعمه الدالة على قدرته ووحدانيته ، أنه إلى جانب أنه خلقكم من أصل ضعيف فى أحسن تقويم ، قد تفضل عليكم ، فخلق لكم الأنعام من إبل وبقر وغنم ، وجعلها مسخّرة لخدمة مصالحكم ، فتتخذون من جلودها وأوبارها وأشعارها وأصوافها لباساً يدفئكم ،

وتجلب لكم منافع كثيرة من نسلها ولبنها ، وعظمها وروثها ، وتسخرونها فى حرث الأرض التى تخرجون منها الحب والثمار ، ثم تتلذذون فى معيشتكم بأكل لحومها ، هذا إلى أنها مظهر من مظاهر الزينة والجمال ، لأنها مال ، والمال والبنون زينة الحياة الدنيا ؛ ولكم منها جمال حينما تعودون بها من المرعى وقت الغروب إلى مراحها وحظائرها بِطاناً ، قد بدا عليها الشبع ، ودَرَّتْ أخلافها باللبن ، واجترّتْ غذاءها ، وحينما تسوقونها فى الغداة خماصاً ، ذاهبين بها إلى المرعى والنهر لتأكل وتشرب ؛ إن فى هذا جمالا لكم ، لأنكم تَقرُّون بها عيناً فى حياتكم ، وتطمئنون على معيشتكم ، والحياة هى الجمال ؛ هذا إلى أنها تحملكم وتحمل أثقالكم وأمتعتكم وسلعكم من بلد إلى بلد ، لا تستطيعون أن تبلغوه مشياً إلا بمشقة نفوسكم ، فما بالكم إذا كنتم تحملون هذه الأثقال على ظهوركم ؟ إنكم ستنقطعون بها ، وتعيونْ دون الوصول ، بل تصبحون كالمنْبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ؛ إن الله لعظيم الرأفة والرحمة بكم ، وهب لكم هذه النعم الجليلة ، وخلق لكم دوابَّ للحمل والركوب والزينة ، وهى الخيل والبغال والحمير ، تسخرونها لقتال العدو فى الحرب ، وتنقلون عليها ، وتحملونها ما تشاءون من مكان إلى آخر فى السّلم ، وهى مظهر من مظاهر الزينة حينما تخرجونها فى حلْبة السباق ، أو تصفُّونها فى مرابطها ، فتدل على ما أسبغ الله عليكم من نعمة ، وما هيأ لكم من وسائل الحياة الطيبة ؛ وليس هذا الذى وقع فى مِلككم ، وسخرتموه فى حياتكم ، هو كل ما خلقه الله ، وانتهت عنده قدرته جل شأنه ، ولكنه خلق ويخلق وراء ذلك ما لا ترون وما لا تعلمون ، مما تقصر مداركم عن معرفة كنهه وتفصيله — كالبواخر والسيارات والطيارات — ، لقد بين الله لكم

دلائل وحدانيته وقدرته، وعليه — فضلا منه وكرماً — أن يبين للناس السبيل القصْد ، ويهديهم الصراط المستقيم ، والطريق إلى الحق ، بالرسل والحجج والبراهين ، فمن أراد له الهدى آمن وصدّق . ومنكم جائر ومائل عن طريق الهدى والخير ، فلا يؤمن ولا يصدق ، والهدى والضلال أمران متعلقان بحكمة الله ومشيئته فى خلقه ، ولو اقتضت حكمته ومشيئته أن يهديهم جميعاً ، لهداهم أجمعين .

د — وأنه كون السحاب فى السماء ، وأنزله ماء ، فجرى أنهاراً ، أو غاص فى الأرض فتفجر عيوناً ، فمنه تشربون وتغتسلون وتبنون ، وعليه فى الفلك تحملون ، وبه تُرْوون الأرض ، فتنبت شجراً ونباتاً ، ومراعى ترْعون فيها مواشيكم وأنعامكم ، وزرعاً تأكلونه خَضِرا ، وتخرجون منه حبًّا وزيتوناً ، ونخيلا وأعناباً ، وثمرات مختلفة ، متشابهة وغير متشابهة ؛ إن فى النعم التى آتاها الله إياكم من الماء والأرض ، لآية بينة ودلالة واضحة ، للذين يتفكرون فى قدرة الصانع وحكمته ووحدانيته ، فإن من تأمل بذوراً تقع فى الثرى ، فتنشق أسافلها عن جذور تغذيها ، وتنشق أعاليها عن سيقان تخرج منها أوراق ، ثم أزهار وثمار مختلفة الألوان والأشكال والمذاق ، مع اتحاد المواد فى الأرض التى أنبتتها ، والماء الذى أرواها ، والجو الذى أحاط بها ، علم أن ذلك لا يكون ولا يتم إلا بفعل خالق كريم ، وبصنعة إله قادر عليم .

هـ — وأنه خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، وجعلها مسخرات بأمره وتقديره لمنافعكم ، مذلّلات لنظام حياتكم ، وترتيب أحوال معيشتكم : خلق الليل لتسكنوا فى ظلامه ، وتستقروا فى هدوئه من عناء السعى فى طلب الرزق ، وخلق النهار لتعملوا

فيه ، وتبتغوا من فضله ، وخلق الشمس لتبعث إليكم ضوءها وحرارتها ، فتعين على السعى فى مناكب الأرض ، وعلى النمو والنضج فى الحيوان والزرع والثمر ، وخلق القمر والنجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ؛ إن فى تلك الآثار العلوية لأوضح الآيات ، وأبين الدلائل ، على قدرة الصانع ووحدانيته ، لذوى العقول .

و — ومن آيات قدرته ، ودلائل وحدانيته ، ما خلق لكم فى الأرض من حيوان ونبات ومعادن مختلف ألوانها ، برغم نشوئها ووجودها فى أرض واحدة ، وهواء واحد ، ومؤثرات واحدة ؛ إن فى تعدد الألوان مع اتحاد المؤثر ، لآية وعبرة للذين يتعظون ويعتبرون بما حولهم من مخلوقات ، ناطقة بقدرة الحكيم الخبير .

ز — ومن آياته أنه سخر لكم البحر ، وذلله لمنفعتكم ، والبحر آية كبرى ، ودلالة عظمى ، على نعمة الخالق وعظمته ، فهو وطن السمك الذى يأكل منه الإنسان طعاماً شهيًّا ، ولحماً طريًّا ، وإن ملح ماؤه ، ولم يُستسغ شرابه ، ومنه يستخرج اللؤلؤ والمرجان ، فتنضَّد منهما حلية الإنسان ، وتجرى فى عبابه الفلك ، وتمخر فيه البوارج والسفن ، وتحملكم فى السِّلم والحرب ، فتتعارفون فى أطراف المعمورة ، وتتعاملون بالتجارة ، وتبتغون بها من فضل الله ونعمته عليكم ؛ ولعل الذى أمدكم بهذه النعم : من قرار البحر وجوفه ، وبين أمواجه وعلى سطحه ، وهو مخلوق هائل مضطرب مخيف ، يفتح قلوبكم لمعرفة ما أفضل به الله عليكم ، فتسجدوا له وتعبدوه ، وتطيعوه وتشكروه .

ح — ومن دلائل قدرته أنه ألقى فى الأرض جبالا ثوابت رواسخ ، تمسك الأرض وهى تتحرك مسرعة حول نفسها ، وتمر أسرع من

الضوء حول أمها الشمس ، فلا تميد ولا تميل ، وأنه جعل لكم أنهاراً ترويكم ، وتروى زروعكم وضروعكم ومطاياكم ، وتنشئون مساكنكم على شواطئها ، وتقيمون حضارتكم على جوانبها ، وأنشأ لكم طرقاً تسلكونها فى معايشكم ، لتهتدوا إلى ما تقصدونه من البلاد ، فلا تضلوا ولا تتحيروا ، وجعل للطرق علامات ومعالم تساعدكم على أن تترسموها وتسلكوها ، ومن أخص ما منّ الله به عليكم وعلى قريش خاصة ، وسائل الاهتداء بالنجوم ، فقد كانوا يهتدون بها فى مسالك الصحراء ومغاورها ، لأنهم كانوا كثيرى الأسفار للتجارة ، مشهورين بالاهتداء فى مسايرهم بالنجوم ، فكان أولى أن تسترعى أنظارهم ، وتستدعى تفكيرهم ، إلى فضل الله عليهم ، فيشكروه ويوحدوه .

٤ — بعد هذه الدلائل الكثيرة ، والآيات المتعددة ، الناطقة بكمال قدرة الله تعالى وتناهى حكمته ، والتفرد بخلق هذه المبدعات ، أنكر الله على من يزعم أن معه من يساويه ، أو يستحق مشاركته فى الألوهية ، فقال : أفمن يقدر على أن يخلق هذه الكائنات ، ويبدع فى خلقها كل الإبداع ، تسوُّون بينه و بين من لا يخلق ، بل تسوُّون بينه و بين من لا يحس ولا يتحرك ، ولا يعى ولا يعرف ؟ أفلا تتذكرون أيما تذكر ، فتعرفوا ما أنتم عليه من سوء الفهم ، وفساد العقل ؟ .

(٢)

من الآية ١٨ إلى الآية ٢٩ من سورة النحل

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهاَ ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .
وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ
لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ . أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ، وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ –١– . إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ؛ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ ، وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . لَا جَرَمَ أَنَّ
اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ –٢– .
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .
لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ
يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ! –٣– . قَدْ مَكَرَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ، فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ –٤– .
ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ، وَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ
وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ . الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي

أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ، مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ، بَلَى ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ -٥- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يدعون من دون الله	يعبدون آلهة غيرَ الله .
أيان	متى .
قلوبهم منكرة	قلوبهم منكرة للإيمان والهداية ، لا تقبل الوعظ ، ولا ينجع فيها الذكر .
لا جرم	حقًّا .
أساطير الأولين	أباطيل وتُرَّهات وخرافات الأقدمين .
ساء ما يزرون	بئس الوزر الذى يحملونه .
فأتى الله بنيانهم من القواعد	فقوض الله بنيانهم من أسسه ، وهو تمثيل .
شركائى	الآلهة التى عبدتموها دونى .
تشاقّون فيهم	تعادون الله ورسوله بسببهم .
تتوفاهم الملائكة	تقبض أرواحهم الملائكة .
ظالمى أنفسهم	وهم ظالمون أنفسهم ، لأنهم أوردوها موارد الهلاك .
فألقوا السَّلم	خضعوا واستسلموا ، وأقروا لله بالربوبية .
ما كنا نعمل من سوء	قائلين : ما كنا نشرك بالله .
فبئس مثوى المتكبرين	فبئس المقام مُقام الذين استكبروا عن الإيمان : جهنم .

مجمل المعنى

١ — وليست النعم التى عددها الله فى الآيات السابقة ، وتفضل بها عليكم ، هى كل ما لله عليكم من نعم ، وما له من منن ، فإن نعمه كثيرة لا تعد ، ولا يمكن أن تبلغ طاقتكم حصرها ، أو يحُدّ علمكم إحصاءها ، وليس فى مقدوركم أن تقوموا بأداء الشكر عليها ؛ والله يعلم عنكم ذلك ، وإنه لغفور يتجاوز عن تقصيركم فى شكرها ، وعن قصوركم فى حصرها ، رحيم بكم ،فلا يعاجلكم بالعقوبة فى كفرانها ، وهو مع تعدد نعمه التى لا تحصى ، يحيط علمه بجميع الأقوال والأفعال ، والاعتقادات والنيات التى تخفيها قلوبكم ، وتُسِرها صدوركم ، أو التى تظهرونها للناس وتبدونها لهم ، وستلقون حسابكم عليها ؛ وإن الآلهة التى تعبدونها من دون الله ، وتدعون أنهم شركاء له ، لا يخلقون شيئاً مما خلقه الله ، بل هم يُخْلقون ويُوجدون من العدم ، وهم بذاتهم أموات غير أحياء ، لا يحسون ولا يتكلمون ، ولا يعلمون وقت مبعثهم ، والإله يجب أن يكون خالقاً حيّاً لا يفنى ، يعلم اليوم الذى يبعث فيه عباده ، ليحاسبهم على ما عملوا فى فى دنياهم .

٢ — لقد قامت الحجة ووضح الدليل ، على أن إلهكم إله واحد ، لاشك فى ذلك ولا لبْس . ولكن هذه الأدلة إنما تقع موقع اليقين عند من شرح الله صدورهم للإسلام ، وجعل قلوبهم مطمئنة للإيمان ، ولكن الكافرين المعاندين لا يؤمنون بأن هناك آخرة يوفَّون فيها الحساب ، وينالون فيها العقاب ، فقلوبهم جاحدة منكرة للإيمان ، وعليها حجاب يحول بينها وبين الاقتناع بالبرهان ، وهم مستكبرون عن وحدانية الله ، والتصديق بمحمد ،

متعاظمون عن قبول الحق ؛ لقد ثبت حقـّـاً أن الله يعلم ما يُسِـرون وما يعلنون من القول والعمل فيجازيهم ؛ إنه لا يحب المستكبرين عن عبادته وتوحيده، والإقرار بربوبيته .

٣ ـ وقد كانت وفود العرب تجيء إلى مكة فى موسم الحج ، فيجدون المشركين قد وقفوا لهم على مسالكها وأبوابها ، فيسألهم وفود العرب ظانين أنهم مؤمنون : ماذا أنزل ربكم على محمد ؟ فيجيبونهم مستهزئين مضلين : أنزل ربكم عليه أساطير الأولين ، وأباطيل السابقين ، وخرافات المتقدمين ؛ لقد قالوا ذلك ليحملوا خطيئاتهم وأوزار ضلالهم كاملة يوم القيامة ، ويحملوا بعض أوزار الذين استغلوا غفلتهم ، وفساد فطرتهم ممن أضلوهم ، فاتبعوهم على غير علم منهم أنهم مُضِلون لهم ، وهؤلاء المُضَلـّلون عليهم وزر ضلالهم ؛ وإثم انحرافهم عن طريق الهدى ، لأنهم وإن كانوا وقعوا فيه على غفلة وعمى ، كان عليهم أن ينظروا ويفكروا ويتدبروا ، ليميزوا الحق من الباطل ، والخبيث من الطيب ، لبئس الوزر الذى يحتملونه إثماً وبهتاناً من جرّاء عملهم المنكر ، وفعلهم القبيح ؛ قال عليه الصلاة والسلام : «أيـُّما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتـُّبع ، فإن عليه مثل أوزار من اتبعه ، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء ، وأيـُّما داع دعا إلى هدًى فاتـُّبع فله مثل أجورهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء » .

٤ ـ إن هؤلاء المشركين سيوقع الله بهم العذاب على خبث كيدهم ، وسوء تدبيرهم ، كما فعل بالأمم الذين من قبلهم ، لقد دبـَّرُوا الكيد لأنبيائهم ، ومكروا المكر السيئ برسلهم ، فأبطل الله مكرهم وتدبيرهم ، وأتاهم العذاب من جرّاء سوء كيدهم ، فهلكوا كما هلك من كان فى بنيان تحت سقف آمناً مطمئنـّاً ، فجاء أمر الله باستئصال البنيان ومن فيه ، فزُلزلت قواعده ،

واندكّ أساسه ، وانقضّ البنيان وسقط سقفه على رءوسهم ، وجاءهم الهلاك بغتة من حيث لا يتوقعون ولا يشعرون ، بل يظنون أنهم آمنون مطمئنون .

٥ — فإذا حل وعد الآخرة ، وجاء يوم القيامة ، أذلهم الله وأخزاهم ، وفضحهم بعذاب غير العذاب الذى حاق بهم فى الدنيا ، فإذا وقع بهم العذاب فعلا ، أتبعه بالعذاب قولا ، فقال لهم موبخاً مستهزئاً : أين الآلهة الذين كنتم تعبدونهم من دونى ، وتزعمون أنهم شركائى ، فتخاصمون الأنبياء ، وتعادون الله بسببهم ؟ . ثم يجىء دور الذين آتاهم الله العلم من الأنبياء والعلماء ، الذين كانوا يعظونهم فلا يتعظون ، وينهوْنهم فلا ينتهون ، فيقولون لهم تشفّياً منهم ، وسخرية بهم : إن الخزى والفضيحة والسوء والعذاب فى هذا اليوم ، حق على أولئك المشركين الكافرين ، الذين قبضت الملائكة أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم ، لأنهم أوردوها مورد الهلاك ، فانكشف لهم الغطاء ، ورأوا ما كانوا فيه من ضلال ، فينقادون ويستسلمون ، ويعلمون أن الله حق ، وأن الموت حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، وينكرون ما حدث منهم فى الدنيا من الكفر والضلال ، ويقولون : ما كنا نعمل من سوء ، فيرد عليهم أولو العلم الذين كانوا يكذبونهم ، ويستهزئون بهم فى الدنيا ، شامتين بهم : حتى بين يدى الله تكذبون ؟ إنه لا يجدى الإنكار ، ولا ينفع الكذب ، إن الله عليم بما كنتم تعملون ، فيجازيكم اليوم عليه ، فادخلوا أبواب جهنم ، وامكثوا فيها لا تخرجون منها أبداً ، فلبئس دار المتكبرين الذين تكبروا عن الإيمان ، وعن عبادة الله تعالى : جهنم .

(٣)

من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٧ من سورة النحل

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا : مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا خَيْرًا، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ : جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ، كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ، يَقُولُونَ : سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ —١— . هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ، وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ —٢— . وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ؟ —٣— . وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا : أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ،

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ —٤— . إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قالوا : خيراً	قالوا : أنزل خيراً .
حسنة	حياة طيبة .
طيبين	طاهرين من الشرك ، طيبة نفوسهم ، صالحة أعمالهم .
سلام عليكم	بشرى لكم بالجنة .
بما كنتم تعملون	جزاء ما كنتم تعملون فى الدنيا من الصالحات .
هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة	ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة تقبض أرواحهم ، وهم باقون على الكفر .
أو يأتى أمر ربك	أو يأتيهم عذاب الله .
كذلك فعل الذين من قبلهم	مثل حالهم كان حال الكفار من الأمم السابقة ، الذين أصروا على الكفر ، فأتاهم أمر الله فهلكوا .
وحاق بهم	أحاط بهم ، ودار حولهم .
ما عبدنا من دونه	ما عبدنا إلهاً غيره .
ولا حرّمنا من دونه	ولا حرمنا شيئاً لا يحرمه ، كما حرّمنا البحيرة والسائبة.
فهل على الرسل إلا البلاغ	ليس على الرسول إلا أن يبلغ الناس ما أرسل به ، وأما الهداية فهى إلى الله .

الألفاظ	شرحها
واجتنبوا الطاغوت	اتركوا كل معبود غير الله ، كالصنم والكاهن والشيطان .
حقت عليه الضلالة	ثبت على الضلال والكفر حتى مات .
إن تحرص على هداهم	إن تبذل غاية طاقتك وجهدك ليؤمنوا ويهتدوا .

مُجمل المعنى

١ — كانت وفود العرب القادمة إلى مكة تقابل المشركين فى مداخل مكة ، فيسألونهم : ما الذى أنزل الله على محمد ؟ فيقولون لهم تهكماً واستهزاء : أنزل عليه أساطير الأولين ، وتقابل المؤمنين فيسألونهم : ما الذى أنزل الله على محمد ؟ فيقولون لهم عن يقين وإيمان : أنزل الله عليه خيراً وهدى للناس ورحمة ، وأنزل عليه أنه كتب للمؤمنين الذين أحسنوا فى الدنيا وعملوا الصالحات حسنة فى الدنيا ، وحياة طيبة فيها ، كما أعدّ لهم فى الدار الآخرة أجراً كبيراً ، وثواباً عظيماً ، خيراً مما أعطاهم فى الدنيا ، ولنعم دار المتقين : الآخرة ، لهم فيها جنات إقامة ينزلون بها ، ويقيمون فيها دائماً ، وقد جرت الأنهار تحت أشجارها ، فزادتها نضرة وحسناً ، ولهم فيها كل ما يشاءون من المشتهيات والطيبات من الرزق ، وقد أعد الله مثل هذا الجزاء الحسن لكل من يتقى الشرك والمعاصى ، من عباده الذين تتوفاهم الملائكة طاهرين من الشرك ، وتستعرض صحائفهم نقية ، وهم على ثقة مما يلقون من ثواب الله تعالى ، فرحة طيبة نفوسهم بما لاقت من حسن ثواب الآخرة ، فيأخذهم الملائكة مرحبين بهم إلى الجنة ، قائلين لهم : سلام عليكم ،

ادخلوا الجنة التى أعدها الله لكم ، جزاء لما كنتم تعملون فى الدنيا من أعمال صالحة .

٢ – ماذا ينتظر كفار مكة بعد الشرك والضلال ، والاستهزاء بما أنزل الله على نبيه ، لكى يتحقق لهم ما أنذرهم الله إياه ؟ هل ينتظرون إلا أن يقبض الملائكة أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم ، وينزل عليهم عذاب ربك يا محمد ؟ ومثل ما أصاب هؤلاء المشركين من العذاب ، فعل الله بالعصاة الذين أصروا على الكفر ، من الأمم الذين كانوا قبلهم ، وما ظلمهم الله بما أوقع عليهم من العذاب الذى سنتلوه عليك ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، بإصرارهم على الشرك ، فأصابهم العذاب جزاء وفاقاً لأعمالهم السيئة ، وانتهى استهزاؤهم بك ، وسخريتهم بدعوتك ، إلى أن أحاط بهم العذاب ، كما يحيط الطوق بالعنق .

٣ – وقد بيَّن الله فناً آخر من لجاج المشركين وكفرهم ، ومن تكذيبهم للرسول ، والطعن فى رسالته ، بقولهم : لو شاء الله ألا نعبد إلهاً غيره كما تريد منا لعبدناه وحده ، وما عبدنا إلهاً غيره نحن ولا آباؤنا الذين نتبع دينهم ، ونقتدى بآثارهم ، ولا حرَّمنا شيئاً غير الذي حرمه ، وما دمنا نشرك بالله ، ونحرم ما أحله ، ونحل ما حرّمه ، فهذا يدل على أن الله لم يشأ لنا غير ذلك ، وما دعوة الرسل إلى توحيد الله ، واتباع ما أحله ، واجتناب ما حرمه ، إلا زعم يقوله الرسل من عند أنفسهم ، مثل هذا اللجاج فى الكفر ، والإصرار على تكذيب الرسل ، فعله الذين من قبلهم : أشركوا بالله ، وكذبوا برسله ، وحرَّموا ما أحله ، فهل على الرسل إلا أن يبلغوا رسالات ربهم إلى الناس تبليغاً واضحاً ، يبين طريق الحق

ويظهر أحكام الوحى ؛ وإن ما يترتب عليه الثواب والعقاب من أفعال العباد ، قد جعلته مشيئة الله متعلقا باختيارهم .

٤ — وقد جرت سنة الله فى خلقه ، أن تكون بعثه الرسل هى سببَ الهدىِ لمن أراد الله هداه ، وضلال من أراد ضلاله لفساد فطرته ، كالغذاء الصالح ينتفع به الجسم السليم ، ويُضرُّبه ذو العلة السقيم ، لذلك بيَّن أنه قد اقتضت مشيئتنا أن نبعث فى كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله ، واجتناب عبادة الشيطان والأصنام ، فبلغوا ما بعثناهم به إلى الأمم ، فمنهم من هداهم الله إلى الحق ، فآمنوا بعد اقتناع وتفكير واختيار ، ومنهم من استحبوا العمى على الهدىِ ، وثبتوا على الكفر والضلالة بسوء اختيارهم ، ومحض إرادتهم ، وذلك على حسب توجه المؤمن إلى الحق ، وانصراف الكافر إلى الباطل ، تلك سنة الله فى خلقه ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، وهذا كان شأن الأمم الذين من قبلكم يا كفار قريش ، فاعتبروا بهم ، وسيروا فى الأرض حولكم ، وانظروا فى أكنافها ونواحيها ، تروا آثار عاد وثمود وأصحاب الأيكة ، ومن سار سيرتهم من الأمم الذين كذبوا أنبياءهم ، وأصروا على الكفر ، لعلكم تعتبرون حين تشاهدون فى منازلهم وديارهم آثار الهلاك والخسف ، وتعرفون كيف ينتهى أمر المشركين ، وتكون عاقبة المكذبين .

٥ — فإذا كنت يا محمد تطلب بجهدك هداية المصرين على الكفر والضلال من قريش قومك ، فاعلم أن هذا لن يكون ، لأن الله تعالى لن يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره ، ومهما بذلت معهم وهم ، فلست بقادر على هداهم ، لأن الله لا يهدِى من حقت عليه الضلالة ، وليس لهم من يجيِرُهم من الله ، وليس لهم من ناصرين يدفعون عنهم العذاب .

(٤)

من الآية ٣٨ إلى الآية ٥٠ من سورة النحل

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَى ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ —١— . إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ : أَنْ نَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ —٢— . وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ —٣— . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ —٤— . أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ؟ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ، فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ؟ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ

لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ —٥— . أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ ، وَهُمْ دَاخِرُونَ —٦— وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ، وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
جهد أيمانهم	جاهدين مبالغين فى تغليظ الأيمان .
ليبين لهم الذى يختلفون فيه	ليظهر لهم الذى يختلفون فيه مما جاء به الشرع ، ومنه البعث .
لنبوئنهم فى الدنيا حسنة	لننزلنهم فى الدنيامنزلة حسنة ، ونؤتيهم رزقاً كريماً ، ونصراً عظيماً .
أهل الذكر	أهل الكتاب ، وعلماء الأحبار .
بالبيّنات	بالحجج والبراهين .
والزبر	والكتب السماوية .
وأنزلنا إليك الذكر	وأنزلنا إليك القرآن .
مكروا السيئات	مكروا المكر السيئ برسول الله ، ودبروا له الكيد ، وأرادوا به الشر .

الألفاظ	شرحها
أن يخسف الله بهم الأرض	أن يقلب حال الأرض ويغيبهم فيها ، ويطويهم فى بطنها .
أو يأخذهم فى تقلبهم	أو ينزل بهم العذاب وهم متقلبون فى أعمال الحياة .
فما هم بمعجزين	فليسوا بممتنعين على الله ، أو فائتين منه بالهرب أو الفرار .
على تخوّف	متخوفين متوقعين للهلاك ، أو يتنقصهم فى نفوسهم وأموالهم شيئاً فشيئاً حتى يهلكوا .
يتفيأ ظلاله	يميل ظلاله من جانب إلى جانب .
الشمائل	جمع شِمال .
وهم داخرون	وهم صاغرون منقادون لأفعال الله
من فوقهم	وهو فوقهم بالقهر والسلطان .

مجمل المعنى

١ — وقد بيّن الله فنّاً آخر من أباطيل المشركين ، وهو إنكارهم للبعث ، كما أنكروا التوحيد — بأنهم أقسموا بالله أيماناً ، وبالغوا فى تغليظها وتوكيدها ، بأن الله لا يبعث الناس إلى الحساب ، ولا يحييهم بعد الموت ، ولقد رد الله عليهم أبلغ رد ، بقوله الحق : بلى يبعثهم ، لأنه وعد بالبعث وعداً مؤكداً ، ووعده الحق الثابت الذي لا يتغير ، لأن حكمته التى اقتضت خلق الناس وتكليفهم ، قد اقتضت بعثهم وحسابهم ، ولكن أكثر الناس لجهلهم بقدرة الله وعلمه وحكمته ، لا يعلمون أنه سيعيدهم إلى الحياة بعد الموت ، كما خلقهم أول مرة ، ليحاسبهم على أعمالهم ، فيقطعون القول بأنه لا بعث

ولا حساب ، ويكذبون وعد الله بذلك ، فيقولون : « لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل، إن هذا إلا أساطير الأولين »، ولكن الناس جميعاً سيبعثون ، ليظهر لهم اليقين الذى اختلفوا فيه ، مما جاء به الشرع ، وليعلم الذين كفروا بالله ، وأشركوا غيره فى عبادته ، وأنكروا البعث ، وكذبوا الأنبياء ، أنهم كانوا هم الكاذبين فى كل ما قالوا ، المبطلين فى كل ما زعموا .

٢ — وفى بيان قدرة الله على إعادة الحياة إلى مادة الأجسام بعد انحلالها ، كما ثبتت قدرته على خلقها ، وخلق الحياة فيها ابتداء بلا سبق مادة ، يقول جل شأنه : « إنما قولنا لشىء إذا أردناه ،أن نقول له : كن فيكون »، ففى ذلك تمثيل لسهولة تكوين الأشياء على حسب تعلق إرادته تعالى ، ومشيئته بها ، وتصوير لسرعة حدوثها ، كما اقتضت حكمته وعلمه ، وليس هناك قول ولا مقول له ، ولا آمر ولا مأمور ، والمعنى : إن مشيئتنا إذا اقتضت وجود شىء أوجدناه فى أسرع ما يكون ، على حسب ما نريد .

٣ — وبعد أن بيّن الله فنوناً من أباطيل الكفار ، من إشراكهم بالله ، وتكذيبهم الرسل ، وإنكارهم البعث ، ثم بيّن أن الخلق والإيجاد متعلق بإرادته وقدرته ، ذكر حال المهاجرين الذين احتملوا فى سبيل الإيمان كل أنواع المشقة : من هجرة الأوطان ، إلى التعذيب والصبر على ترك القرابة والأهل فى سبيل دين الله ، فذكر أن الذين احتملوا المشقة فى سبيل الإيمان ، وهاجروا عن أوطانهم من أجل دين الله ، بعد ما عذّبوا وظلموا ، واتخذت معهم كل وسائل الإكراه لردهم عن دينهم ، لينزلنهم الله فى الدنيا منزلة حسنة ، فيؤويهم فى وطن آخر يأمنون فيه الاضطهاد والخوف ، ويطمئنون فيه على عقيدتهم وحريتهم ، ويرزقهم رزقاً حسناً ، وينصرهم نصراً مبيناً ،

وإن ما ادخر لهم فى الآخرة أجراً على أعمالهم ، لأكبر وأعظم مما عجل لهم من أجر الدنيا ، ولو أن الكفار يعلمون ما أعد الله للمهاجرين من خيرى الدنيا والآخرة ، لما أشركوا بالله ، ولما أنكروا البعث والحساب ، هؤلاء المهاجرون هم الذين اتصفوا بأكرم الفضائل وهو الصبر ، الذى يحتمل فيه الإنسان ما يحيق به من الأذي برضا وإيمان ، ويجاهد نفسه ، فلا تجزع ولا تتبرم مما ينزل بها من قضاء الله ، هؤلاء المهاجرون كانوا من الصابرين ، وكانوا يتوكلون على الله ، ويفوّضون إليه أمرهم ، منقطعين إليه ، معرضين عما سواه ، وقد نزلت هذه الآية فى صهيبٍ وبلال ، وعمّار وخبّاب ، وجماعة من المؤمنين ، أخذهم المشركون فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام ، فأما صهيب فقال لهم : أنا رجل كبير ، إن كنت معكم فلن أنفعكم ، وإن كنت عليكم فلن أضُرّكم ، فافتدى نفسه منهم بماله وهاجر ، فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه ،قال : ربح البيع يا صهيب ، وفى هذه الآية إشارة إلى أن خير ما يستأهل به الإنسان الكرامة ، وأعظم ما ينال به العزة والسعادة فى الدنيا والآخرة ، هى إباء الظلم ، والاستمساك بالعقيدة والحرية ، وترك كل عزيز فى سبيلهما ، وهل فى الحياة أعز وأحب من الوطن والأهل ؟ نعم : العقيدة والإيمان أعز منهما وأحب ، فليرحل الإنسان احتفاظاً بعقيدته وإيمانه عن الأهل والوطن ، وليهاجر فى سبيل دين الله ورفع كلمته ، وليتحمل فى ذلك الظلم والعذاب ، وليصبر على كل أنواع الاضطهاد ، فإن من لا إيمان له لا إنسانية له ، ولا كرامة ولا سعادة له ، وهكذا كان المؤمنون المهاجرون .

٤ — ولما أنكر مشركو مكة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بَشَرًا ، فهلا بعث إلينا ملكاً ، رد الله عليهم بأن سنة

الكون تقضى أن يكون الرسول إلى كل طائفة أو فئة من جنسهم ، فإن هذا يكون أدعى إلى فهم الأمور ، ومجاراة الطبائع ، وقال : إننا لم نرسل إلى أمة من الأمم التى مضت من قبلك يا محمد رسلا من الملائكة أو النساء أو الصبيان ، ولكن قضت سنة الله أن يرسل إليهم رجالا ينزل عليهم الوحى عن طريق الملائكة ، وإن كنتم فى شك من ذلك ، فاسألوا المؤمنين من أهل الكتاب ، وعلماء الأحبار ، لتعلموا الحقيقة ، إن كنتم لا تعلمون أن جميع الأنبياء كانوا بَشَراً ولم يكونوا ملائكة ، وقد أرسلناهم وأوحينا إليهم بالحجج والبراهين والكتب السماوية ، ليبلغوها إلى الناس ، وقد اصطفيناك نبيًّا من البشر كما اصطفيناهم ، وأوحينا إليك كما أوحينا إليهم ، وأنزلنا إليك القرآن لتبين للناس ما نُزِّل إليهم فيه ، وتوضح لهم ما اشتمل عليه من الأحكام والوعد والوعيد ، ليتأملوا ما فيه من الحقائق والشرائع والأحكام ، وأخبار الأمم السابقين ، ويتفكروا فيها ، فيتنبهوا إليها ، ويؤمنوا بها ويتبعوها .

٥ — الذين مكروا السيئات هم أهل مكة ؛ الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فراموا صد أصحابه عن الإيمان ، فالله سبحانه وتعالى حذرهم عاقبة ما يفعلون ، فقال لنبيه : « وأنزلنا إليك الذكر لتُبين للناس ما نزل إليهم » ، ومن ذلك أن تقص عليهم أنباء الأمم الذين كذبوا أنبياءهم ، وصدوا الناس عن اتباعهم ، فهل أمن هؤلاء الذين مكروا المكرات السيئات برسلهم ، ونجوا من عذاب الله ، أن يهلكهم بأى نوع من أنواع الهلاك ، كما فعل بمن قبلهم ؟ هل أمنوا أن يخسف الله الأرض بهم ، ويقلبها ظهراً لبطن عليهم ، حتى تطويهم فى جوفها ، ويغيِّبهم فى بطنها ، كما فعل بقارون ، وقد قال الله فيه : « فخسفنا به وبداره الأرض » ، أو هل

أمنوا العذاب الذى يأتيهم بغتة ، وهم فى حالة غفلة ، من حيث لا يتوقعون ولا يشعرون ، كما فعل بقوم لوط ؟ أو هل أمنوا أن يأخذهم أخذاً ، ويوقع بهم العذاب الأليم ، وهم فى حال التنقل والتقلب والسعى فى مناكب الأرض ؟ إنهم لا يعجزون الله ، ولا يفوته طلبهم ، ولا يفلتون من بطشه ؛ أو هل أمنوا أن يأخذهم وهم فى حال تخوف وتوقع للهلاك ، فتنتقص أنفسهم وأموالهم شيئاً فشيئاً ، حتى نأتى عليهم جميعاً ، فلهذا يجب أن تعلموا أيها الكفار المعاندون أن ربكم لرءوف رحيم بكم ، فقد وسعكم حلمه ، مع استحقاقكم للعقوبة كهذه الأمم ، فلم يعاجلكم بالعذاب .

٦ — وإذا كانوا لم يعتبروا بما أنزل الله على المكذبين من الأمم السابقة من أنواع الهلاك ، أفلا يعتبرون بما يرون من خلق الله لكل شىء ، فى السموات والأرض من جماد ونبات وحيوان ، ومن ثابت ومتحرك ، على وضع محكم متقن منظم ، يسير ويتحرك ، ويتغير ويتبدل ، على حسب قانون إلهى ، فلا تميل ظلاله من جانب إلى جانب ، ولا تمتد أو تتقلص إلا بمقتضى حكمته ، ودقيق صنعه ، وقد جعل هذه الأشياء جميعها ، وكل ما احتواه الكون سجَّداً له ، أى خاضعة لأحكامه ، تتصرف على حسب مشيئته ، داخرة له ، صاغرة ، منقادة لحكمه تعالى .

٧ — وليس الخضوع لقدرته تعالى مقصوراً على الأجرام الثابتة ، ولكنه يشمل أيضاً المخلوقات المتحركة بالإرادة والقوة الذاتية أو بغيرها ، سواء أكان لها ظلال أم لم يكن ، فذكر أنه يسجد ويخضع لله ما فى السموات قاطبة ، من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب ، وما فى الأرض من دابة تدب ، ويسجد له الملائكة ، لا يستكبرون عن عبادته والخضوع له ، يخافون قدرة الله التى هى من فوق قدرتهم ، وهو القاهر فوق عباده ، ويفعلون ما يأمرهم به الله من الطاعات ، والخضوع والانقياد والتدبيرات .

(٥)

من الآية ٥١ إلى الآية ٦٣ من سورة النحل

وَقَالَ اللهُ : لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ،
فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ، وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَهُ الدِّينُ
وَاصِباً ، أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ؟ –١– . وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ
اللهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ . ثُمَّ إِذَا كَشَفَ
الضُّرَّ عَنْكُمْ ، إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا
بِمَا آتَيْنَاهُمْ ، فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ –٢– . وَيَجْعَلُونَ لِمَا
لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ، تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ .
وَيَجْعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنَاتِ — سُبْحَانَهُ — وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ –٣– .
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ .
يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ ؟
أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ! لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلّٰهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ –٤– . وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا
مِنْ دَابَّةٍ ، وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ

لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ —٥— . وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ، وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ، وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ —٦— . تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ، فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فإياى فارهبون	فخافونى واتقونى واعبدونى ، ولا تعبدوا سواى .
واصباً	لازماً دائماً لا ينقطع .
أفغير الله تتقون	لا ينبغى أن تتقوا غير الله .
مسكم الضر	أصابكم السقم والبلاء ، والقحط والخوف .
فإليه تجأرون	ترفعون أصواتكم تضرعاً إليه وحده بالدعاءوالاستغاثة.
كشف الضر عنكم	أزال عنكم ما حل بكم من مكروه .
وهو كظيم	وهو مملوء غيظاً وغماً .
يتوارى من القوم	يستخفى من الناس .
من سوء ما بشر به	من سوء الخزى والعار، والهوان الذى لحقه بسبب البنت .
أيمسكه على هون	محدثاً نفسه ، متردداً فى أن يترك ما بشر به على قيد الحياة ، محتملا الذل من أجله .

الألفاظ	شرحها
ألا ساء ما يحكمون	إنهم ليحكمون حكماً سيئاً ، فى إضافة البنين لأنفسهم ، والبنات لله .
مثل السوء	صفة السوء من الجهل والكفر .
بظلمهم	بكفرهم ومعاصيهم .
ويجعلون لله ما يكرهون	ويختارون لله ما يكرهونه لأنفسهم ، وينسبونه إليه من البنات ، وأراذل الأموال .
وتصف ألسنتهم الكذب	وتقول ألسنتهم الكذب .
لا جرم	حقًّا .
مفرطون	مقدمون إلى النار .

مجمل المعنى

١ — ولما بيَّن الله سبحانه وتعالى انقياد كل المخلوقات إليه ، وخضوعها فى السموات والأرض من ملائكة وأناس وحيوان ، وجماد ونبات ، لإرادته وحده ، بيَّن أنه هو المتفرد بالوحدانية ، ونهى أن يشرك به غيره ، فى قوله : «لا تتخذوا إلهين اثنين» ، لإثبات الوحدانية التى هى من لوازم الإلهية ، والإلهية محصورة فيه وحده ، فإن كنتم تخافون شيئاً ، أو ترهبون أحداً ، فارهبونى أنا وحدى ، فإنى أنا الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى يسجد له ما فى السموات وما فى الأرض ، وهو خالقهما ومالكهما ، وله الدين والطاعة والانقياد واجباً دائماً ، ولازماً ثابتاً ، لأن كل نعمة منه ، فكل طاعة واجبة له على المنعم عليه ، ولا ينبغى أن تتقوا غير الله ، أو تعبدوا أحداً سواه .

٢ — وكل ما تتمتعون من نعمة العافية والغنى ، والخِصب والولد ، فهو من الله المتفضل به عليكم ، ثم إذا أصابكم أى ضرر ولو يسيراً ، من مرض أو فقر ، أو بلاء أو قحط ، أو خوف أو حزن ، فإليه وحده دون سواه تتضرعون ، وترفعون أصواتكم بالدعاء ، متوسلين إليه أن يكشف الضر ، ويزيل الكرب عنكم ؛ فإذا أدركتكم رحمته ، وكشف عنكم البلاء ، وذهب الضر ، واستحق أن تشكروه ، حدث ما لم يكن يتوقع من فريق المشركين منكم ، فإنهم يجحدون نعمة الله ، وينكرون فضله ، فيكفرون به ؛ فليكفروا بما آتيناهم من نعم ، ولينكروا فضلنا ، وليشركوا بنا غيرنا ، فسوف تعلمون أيها المشركون عاقبة أمركم ، وما ينزل بكم من العذاب .

٣ — وليس أبلغ فى جحود المشركين ، من أننا أسبغنا عليهم النعم ، ورزقناهم الأموال والأنعام والثمرات والخيرات ، ثم يجعلون للآلهة التى يعبدونها — وهى جماد لا تعلم ولا تحس ، ولا تشعر ولا تعقل ، ولا تضر ولا تنفع — بعضاً من النعم التى رزقناهم إياها ، فقالوا بزعمهم الباطل : هذا جزء من مالنا لله ، وهذا جزء منه لشركاء الله ، (تراجع الصفحة ٢٥ من تفسير الجزء الثامن) ؛ لقد أقسم الله على أنه تعالى يسألهم عن افترائهم ، واختلاقهم شركاء لله يعبدونهم من دونه ، ويجعلون لها نصيباً مما يملكون من الأنعام والحرث ، ولقد بلغ من فساد اعتقادهم ، وضلال عقولهم ، أن بعض المشركين من قبائل العرب كخزاعة وكنانة ، كانوا يقولون : الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات بالبنات ، ثم ينسبون من يولد لهم من البنات لله ، ثم ينسبون لأنفسهم ما يحبون من البنين وما يشتهون ؛ تنزه جل شأنه عن أن يكون له بنت أو ولد ! ونظير هذا قوله تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزَى » .

٤ — ومن أسوأ العادات التى توارثها بعض هؤلاء المشركين ، حبهم للذكور ، وكراهيتهم للإناث ، فجعلوا لله ما يكرهون ، وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون ، ولم تقف كراهيتهم للبنات عند هذا الحد ، ولكن الواحد منهم كان إذا حملت امرأته ، وجاءها المخاض ، اختفى عن أعين الناس حتى تلد ، فإن علم أنها ولدت ولداً فرح وابتهج ، وظهر بين الناس مزهواً فخوراً ، وإذا أخبر أنها ولدت أنثى اربدّ وجهه واسودّ ، وظهر عليه الحزن والغم ، وملأه الكمد والغيظ ، وبقى متوارياً عن القوم ، مستخفياً عن الناس خزياً وعاراً ، وأخذ يفكر فى أمره ، متحيراً متردداً ، ماذا يفعل فى الخطب الذى نزل ، والكارثة التى حلت به من ولادة البنت ؟ أيبقيها تحيا وتعيش ، ويحتمل ما يناله فى حياته من ذل وهوان ، أم يواريها التراب ، ويئدها حية حتى تموت ؟ لبئس ما يحكمون بذلك على بناتهم ، وما يفعلونه بفلذات أكبادهم ؛ لقد جمع المشركون الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وينكرون البعث والحساب ، صفة السَّوْء ، ومَثَل القبح ، من إيثار الذكور للاستظهار بهم فى القتال والنهب والسلب ، ووأد البنات لدفع العار وخشية الإملاق ، وكل ذلك يدل على الشح والعجز والغلظة ، ولله — جل شأنه — المثل الأعلى ، وصفة الكمال المطلق ، والجود الواسع ، والرأفة بعباده ، والتنزه عن صفات المخلوقين ، والتعالى عما يقول المشركون علواً كبيراً ، وهو العزيز المتفرد بالقدرة ، الحكيم الذى يفعل ما يفعل بمقتضى الحكمة .

٥ — ولو آخذ الله الناس بما ارتكبوا من المعاصى ، وعاقبهم على ما عملوا من السيئات ، التى من جملتها القبائح السابقة ، لعجل لهم العذاب ، واستأصل كل ما فى الأرض من دابة ، ولأصاب السخط جميع الخلق ، بشؤم العصاة وفظاعة ما ارتكبوا ، ولكن الله يشمل عباده بالفضل ، ويعفو عن كثير ،

ويؤخر عقابهم فى الدنيا ، حتى يستوفوا أجلهم ، ومدة حياتهم المقدرة لهم فيها ، فإذا حل أجل موتهم ، وانتهت أعمارهم ، نَفَذَ أمر الله فيهم ، فلا يتأخرون ولا يتقدمون أية مدة عن الوقت الذى كتبه الله لحياتهم فى الدنيا .

٦ — والعجيب فى أمر هؤلاء المشركين ، أنهم يجعلون لله ما يكرهون من البنات ، فيأبَوْن أن ينسبوها لأنفسهم ، وينسبونها لله ، بل لا يبرئونه حتى مما تبرءوا هم منه ، ويجعلون له ما يكرهون من أراذل الأموال ، ويجعلون خياره لأنفسهم ، ومع ذلك لا يستحون ، ويتشدّقون وتنطق ألسنتهم بأقوال كاذبة ، هى أن لهم عند الله العاقبة الحسنى ، فيقول كل منهم : لئن رجعت إلى ربى إن لى عنده لَلْحسنى ، وليس زعمهم هذا إلا باطلا وبهتاناً ، والحق كل الحق أنهم إذا رجعوا إلى الله لا يجدون لهم إلا النار ، وأنهم معجَّلون مقدمون إليها ، وأنهم متروكون منسيون فيها .

٧ — لا تبتئس بما يقول ويفعل هؤلاء المشركون ، فهذه طريقتهم التى اتبعها أمثالهم من قبلهم ، أقسم لقد أنزلنا الوحى على رسل قبلك إلى الأمم السابقة ، يدعونهم إلى الإيمان والهدى ، فغلب عليهم الشقاء ، وزين لهم الشيطان أعمالهم من الكفر والضلال ، فعكفوا على الباطل ، وأصروا على الشرك ، فهو فى الدنيا ولىُّ الكفار من قريش وناصرهم ، وقرينهم وبئس القرين ، كما كان ولىّ الكفار فى الأمم السابقة وناصرهم وقرينهم ، ولهم فى الآخرة جزاء ضلالتهم وغوايتهم عذاب أليم ، فى نار السعير .

(٦)

من الآية ٦٤ إلى الآية ٧٤ من سورة النحل

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ -١- . وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ، وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ . وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ : أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ، وَمِنَ الشَّجَرِ ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ -٢- . وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ -٣- . وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى

مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ، فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ؟ —٤— .
وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ، وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ؟ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ . فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الْأَمْثَالَ ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أحيا به الأرض	أنبت فيها بسبب الماء أنواع الزرع .
بعد موتها	بعد يبسها وجدبها .
الأنعام	تطلق على الإبل والبقر والغنم جميعها ، أو على كل منها .
فرث	كَرِش .
خالصاً	أبيض خالصاً نقياً من شوائب الدم والفرث .
سائغاً للشاربين	سهلا فى الحلق ، لا يَغَص به شاربه ، لذيذاً .
ومن ثمرات النخيل	ومن عصير ثمرات النخيل .
سكراً	ما يسكر من عصير الزبيب والتمر إذا طبخ على على النار .

الألفاظ	شرحها
ورزقاً حسناً	خَلاً وتمراً وزبيباً ورُبًّا وعسلا .
وأوحى ربك إلى النحل	وألهمها .
ومما يعرشون	ومما يتخذ الناس من عروش وسقُف لبيوتهم ، أو يبتنون للنحل من خلايا ومساكن .
فاسلكى سبل ربك	فاسلكى راجعة إلى بيتك الطرق التى هيأها ربك ، مذللة لا تتوعر ولا تلتبس عليك .
ذللا	منقادة مطيعة ، سهلة للسلوك عليها .
شراب	عسل .
مختلف ألوانه	يختلف لونه من أبيض وأصفر وأحمر ، على حسب ألوان غذاء النحل .
يتوفاكم	يقبض أرواحكم ويميتكم .
أرذل العمر	أخسّه وأحقره ، حيث تضعف الحواس والذاكرة ، ويصير الشيخ كالطفل ، محتاجاً إلى من يؤدى له شئونه الضرورية .
أفبنعمة الله يجحدون	هل يكفرون بالنعم التى أنعم الله بها عليهم ؟ .
من أنفسكم	من جنسكم .
حفدة	حَفَدَة الرجل : أولاد ولده .
أفبالباطل يؤمنون	هو ما يعتقدونه من منفعة الأصنام وشفاعتها .
مالا يملك لهم رزقاً	هو الصنم الذي يعبدونه ، ولا يستطيع أن يرزقهم رزقاً .
فلا تضربوا لله الأمثال	فلا تجعلوا الله مثلا وشريكاً ، فإنه لا مثل ولا شريك له .

مجمل المعنى

١ — ولقد نعلم أنهم سيقولون : هلا أنزل الله إلينا رسولا ، ليبين لنا حقيقة ما يحاسبنا عليه ، فأنزلنا عليك القرآن لتبين للناس به حقيقة ما اختلفوا فيه من التوحيد والبعث وأمور الدين ، وأحكام الأفعال التى تصدر منهم ؛ فأما الكفار فسيبقون على كفرهم ومعارضتهم لما أنزلناه عليك ، وأما المؤمنون فسيتبعونه ويغتنمون آثاره ، فيكون لهم هدى ورشَداً ، يسلكون به طريق الخير فى الدنيا ، ويؤدى بهم إلى رحمة الله ورضوانه فى الآخرة .

٢ — ولما نعى الله على الكفار الشِّرك ، وأنهم يعبدون الأصنام التى لا تسمع ولا تعقل ، ولا تضر ولا تنفع ، وذكر بعض أفعالهم السيئة ، من وأد البنات ، واستبقاء الذكور ، وأنه — وهو القادر — يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة ، إظهاراً لفضله ورحمته ، بيَّن — سبحانه — دلائل قدرته ووحدانيته ، البادية فى السماء والإنسان والحيوان والنبات ، وهى :

ا — أنه هو الذى سخر السحاب فى السماء ، ثم أنزله ماء جرى أنهاراً ، وتفجرت به الأرض عيوناً ، والماء ملاك حياة الناس ، أحيا الله به الأرض ، وبعث فيها الخصب بعد الموت والجدب ، فأنبتت الزروع والثمار ، وازدهرت فيها الحضارة والعمران ؛ إن فى إنزال الماء من السماء ، وفى إحياء الأرض الميتة به ، لآية دالة على وحدانيته وقدرته وحكمته ، لقوم يسمعون هذا التذكير البيِّن الواضح ، فيتبعونه دون احتياج إلى نظر أو تدبر أو تفكير ، لأنه يحمل فى مظهره قدرة خالقه ، من غير تأمل أو إعمال فكر .

ب — وأنه تعالى جعل لكم فى الأنعام وهى الماشية من ذوات الظلف

والخف ، كالبقر والغنم والمعز والإبل ، التى تقوم حياتها على ما تخرجه الأرض من المرعى ، جعل لكم فى هذه الأنعام عظة وعبرة ، تذكركم بقدرة الله تعالى فى خلقه ، و بواسع فضله ومنته على عباده ، فقد اقتضت قدرته أن تتحول أجزاء من مأكول هذه الأنعام المستقرة فى كرشها إلى دم ، وأن يتحول بعض أجزاء هذا الدم بإفراز الغدد لبناً ؛ ما أعجب قدرة الله ! وما أوسع فضله على عباده ! إنه يخرج لهم من بين الكرش الذى تستقذره النفس ، وتستكره رائحته ، ومن بين أجزاء الدم الذى ينفرون منه ويعافونه ، لبناً أبيض خالصاً من شوائب الفرث والدم ، لذيذ الطعم ، سائغاً سهلا فى الحلق ، شهيًّا للنفس ، جمع كل عناصر الغذاء التى يحتاج إليها الجسم ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ج — وأنه تعالى جعل لكم ثمرات من النخيل والأعناب ، ومن عصير هذه الثمرات تتخذون خمراً ، وعصيراً حلواً ، وتتخذون منها مآكل ورزقاً حسناً ، فتجففونها حتى تصير تمراً أو زبيباً ، وتطبخونها وتصنعون منها العسل والخل والمربَّى ؛ إن فى قدرته تعالى على أن تنبت الأرض هذه الأشجار المثمرة ، وفى تفضله تعالى على عباده بأخذ الطيّبات من الرزق من هذه الثمرات . لآيات واضحة ، ودلائل بيِّنة على قدرة الله لمن يستعملون عقولهم فى النظر والتأمل فيها ؛ نقول : وكانت الخمر حلالا عند نزول هذه الآية .

د — وأنه تعالى ألهم النحل — وهى حشرات صغيرة — وركب فى طبيعتها وغريزتها أن تعيش جماعات متعاونة ، وتتخذ مساكنها فى بعض الجبال والكهوف والشجر ، وفى بعض العروش التى يقيمها لها

الناس من أغصان الشجر ، أو الخلايا وغيرها من المساكن التى تلائم طبيعتها ، ثم ألهمها أن تخرج باحثة عن الزروع والأشجار والأزهار والثمار ، فتمتص رحيقها من كل الثمرات على اختلاف مذاقها وألوانها ، فإذا أكلت وشبعت ، ألهمها أن تسلك سُبل الله ، راجعة إلى بيوتها من غير أن تضل ، أو تتوعر عليها المسالك ، فإذا عادت إلى مساكنها ، استحال ما أكلته عسلا ، وأخرجته من بطونها شراباً حلواً مفيداً ، مختلفاً لونه باختلاف لون غذائها من الزهر أو الثمر ، فيكون أصفر أو أبيض أو أحمر ، فيه شفاء للناس من بعض أمراضهم ، وفيه غذاء شهىّ نافع مدفئ لهم ؛ إن من تدبر غرائز النحل ، ورأى تعاون أفرادها ، وانقيادها ليعسوبها ، وقيامها بتلك الأعمال الدقيقة ، والأفعال العجيبة ، علم قطعاً أنه لابدّ لها من خالق قادر حكيم ، يلهمها ذلك ، ويسخرها له .

٣ — وبعد أن عدد الله مظاهر قدرته فى نزول المطر من السماء ، وفى الأنعام ، وفى الثمرات ، وفى الحشرات ، أحال الناس على أنفسهم ليدرسوها ويتبصروها ، ويتبينوا مظاهر قدرته ودقائق صنعته فيها ، فذكر أنه خلقكم وكونكم فى بطون أمهاتكم ، ثم أخرجكم فى هذه الحياة أطفالا ، وتعهدكم حتى صرتم كباراً ، ثم قدر لكم فى هذه الحياة آجالا مختلفة ، فمنكم من يتوفاه صغيراً ، ومنكم من يتوفاه كبيراً ، ومنكم من يستبقيه إلى أرذل العمر وأخسه ، فيطول به الهرم والشيخوخة ، فيضعف بدنه ، ويقوّس ظهره ، ويقيد الدهر خطوه ، ويذهب بصره ، وينقص عقله ، ويصير إلى النسيان وعدم الفهم ، وقلة العلم وسوء التصرف كالأطفال ، فلا يكاد يعلم مما جمعه من ذخائر الحياة وتجاربها شيئاً ؛ أليس فى تفاوت

آجال الناس دليل على قدرة قادر حكيم ، ركب أبنيتهم ، وعدّل أمزجتهم على قدر، معلوم يستوفون عنده آجالهم ، ويذهبون إلى ربهم ليحاسبهم على أعمالهم ؟ ولو كانت الطبيعة تتصرف فى آجال الناس كما يزعم الملحدون ، لم يبلغ التفاوت بينهم فى الأعمار هذا المبلغ الملحوظ ، لأنهم واقعون جميعاً تحت مؤثرات طبيعية واحدة .

٤ — وكما أن الله سبحانه وتعالى لم يسو بين الناس فى آجالهم ، فإنه أيضاً لم يسوّ بينهم فى أرزاقهم ، ففضل بعضهم على بعض فى الرزق ، وجعل بعضهم غنيًّا ، وبعضهم فقيراً ، وليس لأحد منكم فضل فيما أوتى من الرزق ، لأن الله هو الرازق ، وإن الذين أوسع الله عليهم فى الرزق ، وآثرهم بالغنى ، يعتقدون أن هذا الغنى قد صار إليهم بجهدهم ، وأنهم إنما يُطعمون عبيدهم مما كسبوه بجهدهم بأنفسهم ، وغفلوا عن أنهم وعبيدهم فى هذا الرزق سواء ، الله سبحانه وتعالى مانحه ومعطيه ، ولكل من العبيد والفقراء فى مال السادة والأغنياء نصيب ، يتيح له المطعم والملبس والمسكن الذى يتمتع به كل منهم ، حتى يكون الناس فى مستوًى متكافئ فى الحياة ، فليس للغنى أن يؤثر نفسه بملبس أو مطعم دون الفقير ، وليس للسيد أن يمتع نفسه ويحرم عبده ؛ يحكى عن أبى ذرٍّ أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما هم إخوانكم ، فاكسوهم مما تلبسون ، وأطعموهم مما تَطْعَمُون » ، فما رئى عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه ، وإزاره إزاره ، من غير تفاوت ؛ فكيف تنكرون نعمة الله على عباده ، وتجحدون فضله عليكم ، فتحرموا عبيدكم حقوقهم ، وتَنْقصوا نصيبهم من الرزق الذى أجراه الله على أيديكم ؟

٥ — وإن نعمة الله عليكم ، لتتجلى فى أنه رتب الحياة لكم على أساس الأنس والبقاء ، والتعاون والعمران ، فخلق لكم الأزواج من جنسكم ، ليسود

بينكم السكون والاطمئنان، والرحمة والمودة ، وبيّن لكم سبيل الاتصال والتآلف ، وتكوين الأسرة والجماعة ، فأنشأ لكم بنين من أزواجكم ، وخلق لكم من هؤلاء البنين حفدة ليبقى ذكركم موصولا ، ونظام الحياة قائماً ، ورزقكم من طيبات الحياة : من مسكن وملبس ومأكل ومشرب ؛ أفبعد كل هذا يحق لهؤلاء المشركين أن يؤمنوا بالباطل فيعبدوا الأصنام ، ويعتقدوا أنها تملك لهم نفعاً أو ضرًّا ، ويجحدوا نعمة الله التى بينها لهم ، ويكفرون بها ، حيث ينسبونها إلى هذه الأصنام ؟ وهل يليق بهم أن يعبدوا آلهة غير الله ، لا يقدرون أن يرزقوهم شيئاً من السماء ، سواء أكان مطراً ينزل من السحاب ، أم ضوءاً يتلألأ من الكواكب ، أم حرارة تنبعث من الشمس ، أم شيئاً من الأرض ، سواء أكان من جماد أم نبات أم حيوان ؟ بل لا تستطيع هذه الأصنام أن تملك رزقاً ، وإذا كانت لا تملكه ، فإنها عاجزة عن أن تمنحه ، لأنها لا حياة بها ، ولا تصرف لها ؛ فلا ينبغى لكم أيها المشركون أن تشركوا بالله شيئاً ، ولا أن تشبهوا به تعالى هذه الجمادات ، ولا أن تجعلوا له مثلا ونظيراً ، فإنه لا مثيل له ولا نظير ، والله يعلم كيف يضرب الأمثال ، ويشبه حالا بحال ، وقصة بقصة ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، فلا تتعرضوا له .

(٧)

من الآيه ٧٥ إلى الآية ٨٣ من سورة النحل

ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا : عَبْدًا مَمْلوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ —١— . وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ، أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، وهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ، أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ —٢— ، وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ —٣— . وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ —٤— . وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ، وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ . وَاللهُ جَعَلَ

لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ —٥— . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ . يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ، وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مثلا عبداً	المثل : هو عبدٌ مملوك ، وآخر حرٌّ غني .
ينفق منه سرًّا وجهراً	يتصرف فيه كيف شاء دون حسيب أو رقيب .
هل يستوون	لا يستوون .
لا يعلمون	لا يعلمون أنه هو المستحق للحمد والعبادة وحده ، دون ما يعبدون من الأصنام .
أبكم	وُلِدَ أخرس ، لا يفهم ولا يُفْهِم .
لا يقدر على شيء	لا يقدر على التصرف في شيء لنقصان عقله .
وهو كَلٌّ على مولاه	وهو ثِقْل وعيال على من يلي أمره .
ومن يأمر بالعدل	ومن هو ذو فهم وكفاية ورشد ، ينفع الناس ويحثهم على العدل الشامل لجميع الفضائل .
وهو على صراط مستقيم	وهو يسلك في حياته الطريق المستقيم ، الذي يحقق المطالب على خير وجه ، وأقرب سعي .

الألفاظ	شرحها
وما أمر الساعة	وما أمر قيام الساعة ، وهى يوم القيامة .
إلا كلمح البصر	إلا قريب عند الله قرب طرفة العين ، ورجع الطَّرْف من أعلى الحدقة إلى أسفلها .
لا تعلمون شيئاً	لا تعرفون شيئاً من أمور الحياة .
مسخَّرات	مذللات للطيران ، بما خلق لها من الأجنحة ، وجعل عظامها جوفاء .
فى جو السماء	فى الهواء المتباعد من الأرض .
سكنا	أمكنة تسكنون فيها ، وتطمئنون وقت الاستقرار والإقامة .
تستخفونها	تجدونها خفيفة الحمل حينما تنتقلون بها من مكان إلى آخر .
يوم ظعنكم	وقت رحيلكم .
أثاثاً	فرشاً وملابس وغطاء ، وغيرها من متاع البيت .
ومتاعاً	وأشياء يُنْتَفَع بها فى شئون الحياة .
مما خلق	مما خلقه من الخشب ومواد البناء .
ظلالا	تتقون بها حر الشمس .
أكناناً	مواضع تسكنون فيها ، كالكهف والغار والسَّرَب . والمفرد كِنّ .
سرابيل تقيكم الحر	ملابس تحفظكم من الحر .
وسرابيل تقيكم بأسكم	ودروعاً تحفظكم من البأس ، والضرر ، الذى يصل من بعضكم إلى بعض من الطعن فى الحرب .
لعلكم تسلمون	لكى تنظروا فى نعمه عليكم فتؤمنوا به ، وتنقادوا إلى حكمه .

مجمل المعنى

١ — لما بيّن سبحانه وتعالى ضلال المشركين ، فى إشراكهم بالله فى عبادة الأصنام التى لا تملك لهم ولا لأنفسها ضرًّا ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ، ضرب لهم مثلا : قصة عبد مملوك لغيره ، عاجز عن التصرف فى شىء من المال ، وليس زمام نفسه فى يده ، وإنما هو فى يد سيده ، وهو مسخر بإرادته ، — ورجل آخر حُرّ غنىّ ، يتصرف فيما آتاه الله من مال ، وما رزقه الله من رزق حسن تصرفاً مطلقاً كيف شاء ، سرًّا وجهراً ، لا يخشى حسيباً أو رقيباً ؛ فإذا كان هذان لا يستويان عندكم ، مع أنهما من جنس واحد ، وكلاهما إنسان ، فكيف تسوّون بالله من لا يماثله ، ومن هو مخلوق له ، ومقهور بإرادته ، من إنسان وحيوان وجماد ؛ إنه لا يمكن عاقلا أن يشبه أحداً من هؤلاء بالله جل شأنه ، لأن موجد الوجود ، لا يمكن أن يشبهه موجود ؛ وإذا كان الله ليس له مماثل أو نظير ، وأنه موجد الوجود ، والمتفضل على خلقه بالنعم ، فهو المستحق للحمد والعبادة ، دون ما يعبدون من دونه من الأصنام التى لا تملك نعماً ، ولا تهبها حتى تحمد عليها ؛ ولكن أكثر الخلق لا يعلمون استحقاق الله للحمد والعبادة ، وأكثرهم مشركون .

٢ — وضرب الله مثلا ثانياً لنفسه جل شأنه ، وللأصنام التى يعبدونها من دونه ، فهو قد أفاض على عباده من آثار رحمته وألطافه ، وأنعم عليهم فى دينهم ودنياهم ، أما الأصنام فأحجار صماء لا تضر ولا تنفع ، فقال : إذا كان لدى أحدكم رجلان : أحدهما ولد أبكم أخرس ، لم يتعلم شيئاً من أمور الحياة ، ولم يتكون عقله وفهمه ، فلا يفهم ، ولا يقدر على أن يتصرف فى شىء

مما يقع أمامه ، ولا يستطيع أن يستعمل عقله فى فهم أمر من أمور الحياة ، أو حلّ مشكلة من مشكلاتها ، بل يعيش عبئاً ثقيلا على من يكفله ويعوله ، ويتولى أمره من أهله وذوى قرابته ، لعجزه عن القيام بشئون نفسه ، ولا يتأتى لمن يعوله أن ينتفع به فى شىء مهما كان يسيراً ، وحيثما وجهه فى أى أمر لا يصلح ولا ينجح فيه ، لعدم كفايته ودرايته ؛ والثانى رجل سليم الحواس ، حسن التصرف ، سديد الرأى ، ذو فهم وكفاية ورشد ، يسير على خُطة من العدل الشامل لجميع الفضائل ، فينفع الناس ، ويوجههم إلى خير دينهم ودنياهم ، ويسلك فى الحياة طريقها المستقيم الذى تتحقق به مطالبها على خير وجه ، وبأقرب سعى ، متمتعاً بالسيرة الصالحة ، والدين القويم ، هل تسوّون بين هذين الرجلين ؟ وهل يكونان فى كِفتّين متعادلتين فى ميزان الحياة ؟ وإذا كنتم مقتنعين بهذا ، فكيف يستوى فى نظركم إله خالق منعم ، وصنم أصم أبكم ؟ وهل من العدل أن الجماد يكون مساوياً فى المعبودية لرب العالمين ؟

٣ — وقد اختص الله بعلم ما غاب فى السموات والأرض عن العباد ، وما خفى عليهم معرفته من أسرارها ، وإن علم الساعة ومعرفة يوم القيامة ، مما تفرد الله به وحده ، وإنها آتية لا ريب فيها فى وقت قريب عنده ، قُرْب رجع الطَّرْف وارتداد البصر ، بل أقرب من ذلك ، لأن حساب الزمن عنده أقل من حسابه عندكم ، وإنكم ترون يوم القيامة بعيداً ، والله يراه قريباً : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تَعُدون » ، وإن قدرة الله مبسوطة على كل شىء ، فهو قادر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق ، وفى لمح البصر يرى الإنسان كائنات كثيرة متعددة ، وفى أقلّ من رؤيته هذه الكائنات ، تأتى الساعة ، وتقام الموازين للحساب .

٤ — ومما هو منتظم فى سلك أدلة الوحدانية والقدرة مع الدلائل السابقة :

ا — أنه خلق الناس وسوّاهم وعدلهم فى بطون أمهاتهم ، ثم ولدتهم وأخرجتهم إلى الحياة الدنيا أطفالا لا يعلمون عنها شيئاً أصلا ، ولا يقدرون على حماية أنفسهم ،والقيام بشئونهم ، ولكنه لكمال قدرته ، وتمام منته ونعمه ، خلق لهم الحواس والوسائل التى يحصِّلون بها المعرفة والإدراك ، والتمييز بين الأشياء ، كالسمع ، والبصر ، والعقول ، فجعل الحواس والمشاعر مستعدة لكسب التجارب والمعارف الجزئية من مشاهَدها ومحسوساتها ، وجعل العقول مستعدة لاستقبال ما تقدمه لها الحواس من المعلومات ، فتتنبه إلى ما بينها من المشاركات والمباينات ،وتظهر لديها المقاييس ،وتتكون الكليات ؛ وتصدر الأحكام على الأشياء ، فيصير الناس قادرين على التصرف والعمل ،والحكم فى كل الأحوال ، ويعرفون الخير والشر ، فيسخرون الجماد والحيوان والنبات لخدمتهم ومنفعتهم ؛ وقد أفضل الله عليكم بالسمع والبصر والعقل ، كى تعرفوا بها ما أنعم الله به عليكم ، فتعبدوه وتشكروه .

ب — وأنه خلق الطير الضعيف الذى ترونه يطير بجناحيه فى جو بعيد من الأرض ، مسخراً مذللا بقدرة الله ، مزوداً بوسائل الطيران ، قادراً على أن يقبض جناحيه ويبسطها ، بغريزة أودعها الله فيه ،على حسب حال الجو الذى يطير فيه ، والمسلك الذى يسلكه ، لا يمسكه عن الوقوع ، ولا يحفظ له توازنه فى تحركه ، إلا قدرة الله التى أعدته بأجنحة وذُنابَى ، وجسم خفيف ،وعظم أجوف ، وجعلته يغدو ويروح ، ويذهب ويعود فى يسر وسرعة ،وقدرة

عجيبة ؛ أليس فى إبداع خلق الطير ، وقدرته على أن يركب فى سيره متن الهواء ، لآيات بينات ، ودلالات واضحات ، لقوم يؤمنون بالله ، وبما جاءت به الرسل من عنده ؟

٥ – ولما ذكر سبحانه وتعالى منته عليهم : فى أنه خلقهم وخلق لهم مدارك العلم والمعرفة ، ذكر ما منّ به عليهم من أنواع المنافع فى حياتهم ، فحيث يريدون الإقامة والاستقرار ، علمهم كيف يتخذون البيوت من الحجر والمدر والخشب ، لتصير لهم سكناً ومستقراً وقت راحتهم وإقامتهم ، فيسعون فى مناكب الأرض ثم يعودون إليها ، ليستريحوا فيها من عناء العمل ؛ وحيث يريدون السفر والارتحال ، علمهم كيف يتخذون من جلود الأنعام بيوتاً متنقلة ، كالقباب والخيام والفساطيط ، يخف عليهم نقضها وحملها ونقلها وقت الارتحال ، والانتقال من مكان إلى مكان ، ويخف عليهم ضربها وتهيئتها وقت النزول والإقامة ، وجعلهم يتخذون من أصواف الغنم ، وأوبار الإبل وأشعار المعز ، أثاثاً من فرش ، وغطاء وملابس وأشياء أخرى ، ينتفعون بها فى حياتهم إلى أن تَبْلَى . فإذا لم يكن لديكم المقدرة على ابتناء البيوت ، واتخاذ القباب من الجلود ، لم يحرمكم فضله ، ولم يبعدكم من رحمته ، فخلق لكم الأشجار لتستظلوا بها من الحر ، وخلق لكم الجبال لتسكنوا فى كهوفها ومغاورها ، وجعلكم قادرين على حماية أجسامكم فى السلم ، حيث تتخذون سرابيل وقمصاناً وملابس تحفظكم من الحر والبرد ، وفى الحرب حيث تصنعون من الحديد لَبُوساً لكم ، ودروعاً تحفظ بعضكم من بأس بعض من الطعن والضرب ؛ بمثل ذلك الإنعام البالغ ، يتم الله نعمه ، لتنظروا فيما أسبغ عليكم منها ظاهرة وباطنة ، فتعرفوا حق منعمها عليكم ، فتؤمنوا وتذروا ما كنتم به مشركين .

٦ — فإن أعرضوا عنك يا محمد ، ولم يتبعوك بعد ما بيـَّنا لهم من دلائل قدرتنا وفيض نعمتنا ، فليس عليك من بأس أو تقصير ، فقد بلغت رسالتك التى أمرناك بها ، وليس عليك إلا البلاغ الواضح ، وقد قمت به على أتم وجه ، وليس إعراضهم عن الإسلام لعدم معرفتهم نعم الله التى عددناها عليهم ، فإنهم يعرفونها ويعترفون بها ، ولكنهم ينكرونها بأفعالهم ،حيث يعبدون غير المنعم بها عليهم ، وأكثر هؤلاء الجاحدين نعم الله هم الكافرون ، الذين أنكروها عناداً ، وقليل منهم جحدوها لنقص العقل ، أو ضعف النظر ، أو لعدم قيام الحجة عليهم ، لأنهم لم يبلغوا حد التكليف .

(٨)

من الآية ٨٤ إلى الآية ٨٩ من سورة النحل

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ، ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ . وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ، وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ —١— . وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ، قَالُوا : رَبَّنَا ، هٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ : إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ . وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ —٢— . الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ، بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ —٢— . وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً ، وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ويوم نبعث	وحذِّرهم يوم نحشر للحساب .
شهيداً	نبيًّا يشهد للمؤمنين بالإيمان والطاعة ، ويشهد على الكفار بالكفر والمعصية .
ثم لا يؤذن للذين كفروا	لا يسمح لأحد منهم بكلام أو مجادلة ، أو إلقاء حجة ، أو تقديم معذرة .
ولا هم يستعتبون	ولا يكلفون أن يرضوا ربهم بالتوبة والطاعة .
ولا هم ينظرون	ولا يؤخرون عنه ويمهلون ، بل يؤخذون إليه بغتة .
ندعو من دونك	نعبدهم ونطيعهم من دونك .
فألقوا إليهم القول	فرد عليهم شركاؤهم بتكذيبهم .
السَّلَم	الاستسلام والخضوع لحكم العزيز القهار .
وضل عنهم	وضاع وبطل وذهب عنهم .
من أنفسهم	من جنسهم .
على هؤلاء	على أمتك .

مجمل المعنى

١ — ولما ذكر سبحانه وتعالى إنكار المشركين لنعمة الله عليهم ، ذكر حال يوم القيامة وعيداً لهم وتهديداً ، حيث لا ينفع فيه إنكار ولا افتراء ، فقال : وذكِّر يا محمد هؤلاء المشركين ، وحذِّرهم يوم القيامة ، إذ

نحشر الناس ليُوفوا حسابهم على أعمالهم فى الدنيا ، ونحشر مع كل أمة نبيَّها ونبعثه معها ، ليكون شهيداً لمن آمن وأطاع ، وشهيداً على من كفر وعصى ، فإذا ما قدَّم شهادته عن كل منهم ، أُدخل المؤمنون المطيعون الجنة ، وسِيق المشركون العصاة إلى النار ، دون أن يسمح لأحد منهم بكلام أو مجادلة ، أو يؤذن لهم فى إلقاء معذرة ، أو الإدلاء بحجة ، ولا يطلب منهم إرضاء ربهم بالإيمان والتوبة ، لأن الآخرة دار حساب وجزاء ، وليست داراً للتوبة والعمل ، ولا يحسبن هؤلاء المشركون أن عذاب الآخرة كعذاب الدنيا ، فإن من رأى عذاب الدنيا رجا أن يؤخر عنه ، وإن وقع فيه توقَّع أن يخفف عنه ؛ أما فى الآخرة فإنهم إذا رأوا عذاب جهنم سيقوا إليه ، وكُبْكبوا فيه دون تخفيف أو إمهال .

٢ — وذكِّر هؤلاء المشركين بحالهم يوم القيامة ، وأنهم إذا رأوا الأوثان والأصنام ، والملائكة والشياطين التى اتخذوها شركاء لله ، وعبدوها من دونه ، قالوا : هؤلاء شركاؤنا وأصنامنا وأوثاننا التى كنا نعبدها من دونك ، ظانين أن إحالة الذنب عليها ينجيهم من العذاب ، أو يخفف عنهم العقاب ، إذا شاركوهم فيه ، فعند ذلك ترد عليهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله بتكذيبهم ، والإنكار عليهم أنهم زعموا لهم أنهم آلهة ، أو أنهم شركاء لله ، أو أنهم أرادوا منهم أن يعبدوهم ، وحينئذ يُبْهَتُ المشركون ، ويستسلمون لقضاء الله ، وينقادون لحكمه ، وتتجلى لهم الحقيقة واضحة ، وقد زال عنهم وبطل ما كانوا يفترون على الله ، من أن له شركاء تنصرهم وتشفع لهم ، حين كذبوهم وتبرءوا منهم .

٣ — الذين كفروا بالله ، ومنعوا الناس عن الإيمان ، وحملوهم على الكفر ، أو أضلوهم على غير علم منهم ، سيضاعف الله عذابهم ، فيعذبهم على

كفرهم ، ويعذبهم على صَدهم الناسَ عن سبيل الله ، ومنعهم إياهم من الإسلام ، فيزيدون عذاباً فوق العذاب بكفرهم ، وبكونهم مفسدين ، لصدهم الناس عن سبيل الله ، وحملهم على الكفر .

٤ — وذكِّرهم بيوم القيامة ، إذ نبعث الناس للحساب ، ونبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من جنسهم ، وهو نبيهم الذى أرسله الله إليهم ، ليقطع عليهم المعذرة بأن الله لم يرسل إليهم رسولا ، فيدلى بشهادته عليهم بمحضر منهم ، وأحضرناك يا محمد شهيداً على أمتك فى هذا اليوم ، الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يجدى فيه اعتذار أو ندم ، فماذا يقول هؤلاء الذين أشركوا بالله ، وكذبوا نبيه ، وضلوا عن سبيله ؟ وقد أنزلنا إليك الكتاب بياناً بليغاً ، موضِّحاً لكل شىء من أمور الدين والدنيا ، سواء أكان بنص القرآن ، أم بنص السنة ، أم بالإجماع ، أم بقول الصحابة ، أم بالقياس ، لأن مرجع ذلك كله إلى الكتاب ، حيث أمرنا فيه باتباع الرسول وطاعته ، إذ قلنا : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، وحثثنا على الإجماع إذ قلنا : « ويتبع غير سبيل المؤمنين » ، (تراجع الفقرة الثانية من الصفحة ٨٣ من تفسير الجزء الخامس) ، وعلى اتباع الصحابة بقوله صلى الله عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، كما حثثنا على النظر والاجتهاد ، إذ قلنا : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » ، فكانت السنة والإجماع ، وقول الصحابة والقياس ، مستندة إلى تبيان الكتاب ، الذى هو تبيان لكل شىء ، باعتبار أن فيه نصًّا على البعض ، وإحالة للبعض الآخر على السنة والإجماع ، والرأى والقياس والاجتهاد ، وأنه هدى ورحمة ، ودلالة إلى الحق والخير ، وبشارة للمسلمين الذين اتبعوه بالجنة .

(٩)

الآية ٩٠ من سورة النحل

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إن الله يأمر بالعدل والإحسان	العدل : إيتاء كل ذى حق حقه ، مع ترك الظلم ، وإيصال الخير إلى الناس ، وبلوغ الكمال فى أعمال الدين والدنيا .
وإيتاء ذى القربى	وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه .
الفحشاء	النقائص المفرطة فى الفحش ، وكل قبيح من قول أو عمل .
والمنكر	هو اسم شامل لجميع النقائص والرذائل ، والدناءات على اختلاف أنواعها .
والبغى	الطغيان والعدوان والظلم .

حلاوة القرآن

قال عثمان بن مظعون : ما أسلمت ابتداء إلا حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكثرة ما كان يعرض علىّ الإسلام ، دون أن يستقر الإيمان فى قلبى ، حتى نزلت آية : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . . » ، وكنت عنده ، فاستقر الإيمان فى قلبى ، فقرأتها على الوليد بن المغيرة إلى آخرها ، فقال : يا بن أخى ، أعد ، فأعدت عليه قراءتها ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن له لطُلاوة ، وإن أصله لمورق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر .

مجمل المعنى

لما بيَّن الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن القرآن تبيان لكل شىء ، وأنه هدى ورحمة لمن يتبع سبيله من المؤمنين — ذكر هنا الصفات التى يستوجب اتباعُها ، والصفات التى يستلزم تركُها ، سعادةَ الناس فى الدنيا والآخرة ، أفراداً وجماعات ؛ فأمرنا بالعدل فيما بيننا وبين الله ، وفيما بيننا وبين أنفسنا ، وفيما بيننا وبين الناس ، وأن نعطى كل ذى حق حقه ، لا نُظْلَم ولا نَظْلِم ؛ أما العدل مع الله ، فهو أن نؤدى ما أمر ، ونجتنب ما نهى ؛ وأما العدل فيما بيننا وبين أنفسنا ، فهو كبحها عن المطامع ، وإلزامها الرضا والقناعة ، ومنعها مما يجلب عليها الضرر والهلاك بمجاوزة الحد ؛ وأما العدل فيما بيننا وبين الناس ، فهو يقتضى كل إنسان أن يبذل النصيحة لهم ، ويترك الخيانة فيما قل أو كثر ، وأن يلتزم إنصافهم من نفسه ومن غيره ، وأن يترك أذاهم ، وأن تكون أفعاله مستوية فى السر والعلن ؛ وأمرنا بالإحسان ، وهو أن يصل إلى حد الإتقان

والكمال كلُّ ما يصدر عنا من عبادة أو عمل ، وألا ننتهى فيما نعمل عند حد الواجب المأمور به ، وإنما نجاوزه إلى التفضل ، وأن يحسن كل منا إلى الآخر ، وأن يأتى النفع والخير من كل فرد لغيره ؛ وأمرنا أن نعطى الأقارب مما أعطانا الله ؛ وإيتاء ذى القربى وإن كان ضرباً من الإحسان الذى بيَّنَّاه وأوضحناه ، فإن الله قد خصه وأفرده بالذكر ، لأنه السبيل إلى ارتباط الأسرة برباط التراحم والمودة والتعاون ، ومتى قامت العلاقة بين كل جماعة متقاربة ومتعارفة على هذه الصفات ، اتجهت حياتها فى طريق الخير ، وانصرفت إلى البر ، وانقطعت فيما بينها أصول الشر والحقد ؛ ومن تدبَّر هذه الصفات الثلاث ، وهى : العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، فَطَنَ إلى أنها مفاتيح الحياة الفاضلة ، والدعائم التى تقوم عليها السعادة بين الناس أفراداً أو جماعات ، وأنها هى التى تنزع الغل من الصدور ، وتبعث الصفاء إلى النفوس ؛ وقد نهانا الله عن الفحشاء ، وهى كل قبيح من قول أو عمل ، يحدث إرضاء لشهوات الجسم ، وكل نقيصة مفرطة فى الفحش ، مشايعة لِلَذَّات الجسم ؛ ولا شك أن الأمة التى تغرق فى الفجور ، ويظهر فيها الفحش والاستهتار ، ينتهى أمرها إلى الانحلال والدمار ؛ ونهانا عن المنكر : وهو عام شامل لجميع النقائص والمعاصى ، والرذائل والدناءات ، وعلى الأخص ما يصدر منها عن غضب ، أو استجابة لنزوات النفس ، ومسايرة جموحها وانحرافها ؛ ونهانا عن البغى ومجاوزة الحد ، والظلم والتعدى ، فإنه مبعث الفتن ، ومثار الجرائم والشر ؛ وقد أمركم الله بما أمركم ، ونهاكم عما نهى ، موعظة وتبصرة لكم ، لعلكم تتنبهون لما أُمرتم به ، ونُهيتم عنه .

(١٠)

من الآية ٩١ إلى الآية ٩٧ من سورة النحل

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ —١— . وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ، أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ —٢— . وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ —٣— . وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ، فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ، وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ —٤— وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، إِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ، وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —٥— . مَنْ عَمِلَ صَالِحًا

مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى — وَهُوَ مُؤْمِنٌ — فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم	حافظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه .
ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها .	ولا تحنثوا فى الأيمان التى تحلفون بها عند المعاهدة ، بعد توثيقها باسم الله .
كفيلا	شاهداً ورقيباً ، ومراعياً لحقوقكم .
من بعد قوة	من بعد إبرام وتقوية ، وإحكام فتل .
أنكاثاً	مفرده نِكث ، وهو الغزل إذا انحلت قواه ، وتفككت طاقاته وعُراه .
دخلا بينكم	فساداً وغِلا وخيانة بينكم .
أن تكون أمة	بسبب أن تكون جماعة .
هى أربى من أمة	هى أزيد وأفضل من جماعة .
إنما يبلوكم الله به	إنما يختبركم الله بكون أمة أربى عدداً ، وأكثر قوة من أمة .
أمة واحدة	لجمعكم جميعاً على دين واحد ، وجعلكم كلكم أمة واحدة .
يضل من يشاء	يضل من سبق فى علمه منهم أنه يختار الضلالة .
ويهدى من يشاء	ويهدى من سبق فى علمه منهم أنه يختار الهداية .

الألفاظ	شرحها
فتزل قدم بعد ثبوتها	فتنحرفون عن جادّة الإسلام ، بعد أن ثبت الله الإيمان فى قلوبكم .
ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلا	ولا تستبدلوا بما عاهدتم الله، وعقدتم الأيمان عليه، عرضاً يسيراً من أعراض الدنيا .
ما عندكم ينفَدُ	ما عندكم من أعراض الدنيا يضيع ويذهب .
وما عند الله باق	وما قدمتم من أعمال صالحة مدخر لكم عند الله فى الآخرة .
وهو مؤمن	لا يقبل عند الله العمل الصالح ، إلا إذا صدر من مؤمن .

مجمل المعنى

١ — هذه الآية — وإن كانت نزلت فى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام — فهى عامة فى كل عهد يبرمه فرد أو جماعة ، سواء أكان هذا العهد لمسلم أم لغير مسلم ، لأنه عهد الله ، وقد ارتضى الناسُ ما عاهدوا الله عليه ، واطمأنوا إلى حقوقهم وأموالهم ودمائهم ، فى ظلال العهد الذى وثّقوه بالأيمان . ونهاهم عن أن ينقضوا الأيمان بعد توثيقها باسم الله ، لأن نقضها يضعف الثقة بين الناس ، ويهدر الحقوق ، ويقضى على التعاون ؛ وكل من المتعاهدين قد وثِق أن العهد المؤكد باليمين قد جعله فى كفالة الله ورقابته، ومراعاة حقوقه ، فتَرْكُ الأمر المتعاهَد عليه فى ذمة الله من غير توق أو حذر ، يمكّن الحالف الغادر أن يمكر بالمحلوف

له ، وينزل به الضرر حسبما يريد، اعتماداً على أنه لم يأخذ حِذْره منه ؛ فاحذروا الغدر والخيانة، فإن الله مطلع على أحوالكم ، يعلم ما تفعلون من البر بعهودكم ، أو الحِنث بها ، فيجازيكم عليها .

٢ — ولا يجوز أن تلجئوا إلى نقض العهود ، والحِنث بالأيمان، بعد أن وثّقتموها بيمين الله ، وقويتم بها أسباب الثقة والاطمئنان فى المعاملات ، فإن ذلك يضعف قوتكم ، ويحل الروابط ، ويقطع الصلات بينكم ، ويكون مثلكم كمثل امرأة أحكمت غزلها وأبرمته ، حتى صار قوياً ، ثم انحنت عليه فنقضته ، ونكثَت فتله ، ونفشته حتى صار أنكاثاً وطاقات منحلة القوى، لا ينتفع بها ، وكذلك العهود الموثقة بالأيمان ، فلا تضعفوها ولا تضيّعوها بالغدر والنّكث ، ولا تنقضوا العهود متخذين اسم الله فى الأيمان التى توثّقون بها هذه العهود ، ذريعة إلى الخداع والغدر ، والدّخَل والفساد والخيانة ، بسبب كون أمة أكثر عدداً ، وأعظم قوة من أمة أخرى ، بينكم وبينها عهد ، فتنقضون وتنحازون إلى الأمة القوية التى لم تعاهدوها ؛ إنما يختبركم الله بتغير أحوال الأمم ، وبكون أمة أزيد من أمة عدداً ، أو أوفر مالا ، ليعرف مقدار حرصكم على الوفاء بعهد الله ، وليبيّن لكم يوم القيامة ما كنتم تختلفون فيه من الوفاء بالعهد، والتمسك بالأيمان ، فيجازيكم على نقضها ، ويحاسبكم على النّكث بها .

٣ — ولو شاء الله لجمعكم على الإسلام والهدى جميعاً ، بطريق الإكراه والاضطرار ، وهو قادر على ذلك ، ولكنه لم يفعل ، فترك هذا على هدى ، وترك هذا على ضلال ، لأن حكمته اقتضت أن يضل من يشاء ، أى يخذُل من علم أنه يختار الكفر ويصر عليه ، ويهدى من يشاء ، أى يتلطف بمن علم أنه يختار الإيمان ، وجعل ثواب الناس وعقابهم على

أعمالهم ، بسبب ما خلق فيهم من اختيار ، وجعل الناس لذلك مسئولين عن أعمالهم ، محاسبين على ما يقع منهم .

٤ — ولا يجوز أن تتخذوا الحلف بالله وسيلة للغش والفساد والخيانة فى أمور حياتكم ، سواء أكانت هذه الأيمان لتوثيق العهود ، أم كانت لما يجرى بينكم من الأعمال فى شئون الحياة ، فإن ذلك ينحرف بكم إلى الضلال والكفر ، بعد أن ثبت الإيمان فى قلوبكم ، واطمأنت إليه نفوسكم ، فتذوقوا السوء ، ويحل بكم الشر فى الدنيا ، بصدكم عن سبيل الله الذى ينتظم فيه الوفاء بالعهود والأيمان ، لأن من نقض العهد ، ونَكَثَ فى اليمين ، جعل ذلك سنة لغيره ، فأغراه بالخيانة والغدر ، فيصيبكم من ذلك عذاب عظيم .

٥ — ولا تنقضوا العهود وتحنَثوا فى الأيمان ، لتحصلوا بسبب ذلك على مغانم يسيرة فى الدنيا ، وعرض تافه من أعراض الحياة الفانية ، فإن ما يهيئه الله لكم من أسباب النصر والغُنم والتوفيق فى الدنيا ، ومن الثواب وحسن الجزاء فى الآخرة ، خير لكم مما تنالونه بسبب الغدر والخيانة ونقض العهد ، إن كنتم من أهل العلم والتمييز بين الخير والشر ؛ وفى هذه الآية نهىٌ عن الرشوة ، وهى أخذ مال ، أو الحصول على منفعة ، أو الاستفادة من جاه ، لتمكين فرد أو جماعة من الحصول على منفعة ، كانوا لا يحصلون عليها بغير ذلك ؛ والمعنى : لا تنقضوا عهودكم لعرض تنالونه فى الدنيا — وهو قليل وإن كثر — لأنه مما يزول ويفنى ، وما عندكم مهما كثر وعظم من متاع الدنيا ، سبيله إلى النفاد ، ومآله إلى الفناء ، وما عند الله من مواهب فضله ، ونعيم جنته ، ثابت لا يزول ، وباق لا يفنى ، لمن أوْفَى بالعهد ، وثبت على العقد ، ولنجزين الذين صبروا على الطاعات ، واحتملوا الأذى فى الثبات على

الإسلام ، وكبحوا جماح نفوسهم عن المعاصى ، جزاء أحسن من أعمالهم ، وثواباً أعظم من طاعاتهم .

٦ — وقد حث الله المؤمنين على الأعمال الصالحة ، ورغّبهم فيها ترغيباً شاملا ، فجعل لأى مؤمن ذكراً كان أو أنثى يعمل العمل الصالح فى الدنيا ، حياة طيبة ، تحف بها الهناءة والسعادة والرضا ، سواء أكان موسراً أم كان معسراً ؛ فالموسر ينفق مما آتاه الله عن سعة مقرونة بحمد الله وشكره ، والمعسر يطيِّب الله عيشه بالقناعة والرضا ، أما الفاجر فإن كان معسراً استشعر السخط على عيشه ، والنقمة من حياته ، وإن كان موسراً فلا يدعه الحرص على الدنيا ، وخوف فوات نعيمها ، أن يهنأ بعيشه ؛ هذا شأن المؤمنين فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلهم جزاء أفضل وأحسن مما عملوا فى الدنيا من عمل صالح ، على أن العمل الصالح لا يقبله الله إلا من مؤمن ، أما العمل الصالح الذى لا يقترن بالإيمان ، فلا ثواب عليه فى الآخرة ، قال تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباء منثوراً » .

(١١)

من الآية ٩٨ إلى الآية ١١١ من سورة النحل

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ -١- . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ -٢- . وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ، قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ -٣- . قُلْ : نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ -٤- . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ . وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ -٥- . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ -٦- . مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ -٧- . ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ

طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ، ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ، وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سلطان	تسلط وولاية .
يتولونه	يتخذونه ولياً ، ويتبعونه ويطيعونه .
مفتر	كاذب مختلق ، متقول على الله .
روح القدس	جبريل ، والتمدس : الطهر ، والمقدس : المطهر .
من ربك بالحق	من عند ربك بالهدى والحكمة .
ليثبّت الذين آمنوا	ليثبت إيمانهم ، ويطمئن قلوبهم بالحجج والآيات.
إنما يعلمه بشر	إنما يتعلم محمد ما يزعم أنه وحى ، نزل عليه من إنسان مثله .
لسان الذين يلحدون إليه أعجمى	لغة الذى يميلون إليه قولهم ، ويشيرون إليه ، غير بيِّن .
من أكره	من عذب ، وحمل على النطق بكلمة الكفر .

الألفاظ	شرحها
شرح بالكفر صدراً	اعتقده وطابت به نفسه .
طبع الله على قلوبهم	صرف قلوبهم عن الإيمان ، وحال بينها وبين الإسلام .
للذين هاجروا	يكون الله عوناً للذين هاجروا إلى المدينة والحبشة .
من بعد ما فتنوا	من بعد أن ابتُلوا بالتعذيب والإكراه ، لحملهم على الكفر ، فيحميهم الله ويتولاهم وينصرهم .
كل نفس تجادل عن نفسها	كل إنسان يعتذر عن نفسه ، ويدافع عنها ، لا يهمه شأن غيره .
وتوفى كل نفس ما عملت	يعطى كل إنسان جزاء عمله وافياً ، إن خيراً وإن شرًّا .

مجمل المعنى

١ — ولما بيَّن الله أن مدار الجزاء هو العمل الصالح ، أرشدنا إلى ما به يكون العمل صالحاً خالصاً من شوائب الفساد ، فذكر أن من يريد قراءة القرآن ، عليه قبل أن يبدأ فى قراءته ، أن يطلب من الله أن يعيذه ويحفظه من وساوس الشيطان ، الملعون المطرود من رحمة الله ، ويسأله ألا يعرض له فيصدَّه عن تدبره ، وعن العمل بما فيه ؛ وطلبُ الاستعاذة من الشيطان الرجيم ، وإن كان الخطاب فيه موجهاً إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وذُكِر فى الآية عند إرادة قراءة القرآن ، فإنه خطاب عام لجميع المؤمنين ، ومطلوب عند إرادة البدء فى كل عمل من الأعمال الصالحة ، لأن الخطاب للنبىّ عام لجميع الأمة ؛ وحيث كان الأمر بالاستعاذة مستحبًّا عند

إرادة تلاوة القرآن ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فإنه فيما عدا القرآن من الأعمال الصالحة أهم وأكثر استحباباً .

٢ — وليس للشيطان أى تسلط على المؤمن الصادق الإيمان ، المتوكل على الله فى جميع أموره ، فإن الله يحكى عن الشيطان قوله : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » ، (تراجع الفقرة الرابعة من الصفحة ٩٨ من تفسير الجزء الثالث عشر) ، إنما سلطان الشيطان وتأثيره ، وتسلطه تسلُّطَ خداع ، وغَواية ، لا تسلط غلبة وقهر ، واقع على الذين يتولونه ، ويتخذونه وليًّا لهم ، فيستجيبون لدعوته ، وينصاعون لغوايته ويطيعونه ، وعلى الذين هم بسبب غوايته وتضليله كانوا بالله مشركين .

٣ — وإذا رفعنا حكم آية من القرآن ، وجعلنا مكانها آية أخرى ؛ لما تقتضيه مصالح الناس على حسب الأحوال والزمان ، إذ أن التشريع الذى يكون صالحاً فى حال ووقت ، ربما كان غير صالح فى حال ووقت آخر ، — والله وحده هو الذى يقدِّر ما يكون لخير الناس وسعادتهم ، ويعلم ما تقتضى أحوال الناس أن يبقى أو أن يرفع ، وما يمحى وما يُثْبَت — تراجع الصفحة ٨٣ وما بعدها من تفسير الجزء الأول — إذا فعلنا ذلك متوخين الخير والسعادة للناس ، اتخذ الكفار منه مطعناً عليك ، ونفوا أن هذا القرآن وحى من عند الله ، وقالوا : إنه كذب وافتراء منك ، وإنك تسخَر من أصحابك ، فتأمرهم اليوم بشىء ثم تنهاهم عنه فى غد ؛ والله يعلم الحكمة والمصلحة فى تبديل آية مكان آية ، وأكثرهم لا يعلمون الحكمة والمصلحة فى ذلك .

٤ — قل لهم يا محمد : ليس القرآن مفترى كما تزعمون ، « ولو كان من عند غير

الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » — وإنما هو وحى من عند الله ، نزل به عليك جبريل الأمين ، سفير الوحى وروح القُدُس ، المطهر من دنس البشر ، بالحق والحكمة المقتضية لهدى الناس وسعادتهم ، ليثبت المؤمن بما فيه من حجج وآيات بينات على الإيمان ، ويُطَمْئن قلوبهم إلى اليقين ، وليكون للمسلمين بما فيه من وعد ووعيد ، وأحكام وفروض وآداب ، تبصرة وهداية فى الدنيا ، وبشارة بالنعيم المقيم فى الدار الآخرة .

٥ — وإنا لنعلم يا محمد أن فريقاً منهم غير الفريق الذين قالوا : إنما أنت مفتر ، وأن القرآن مختلق من عندك — يقولون : إن محمداً يعلّمه هذا القرآن بشر مثله ، وآدمى من جنسه ، وإن قرآنه هذا لم ينزل به الوحى عليه ؛ إنهم فى ذلك هم المفترون الكاذبون ، لأن لغة الرجل الذى يشيرون إليه ويقصدونه ، ويميلون إليه القولَ البعيد عن جادّة الاستقامة والحق ، إنما هى لغة أعجمية ، ولا يكاد لسانه يفصح عما يقول ، ولغة هذا القرآن لغة بيّنة فصيحة ؛ قال حصين بن عبد الله بن مسلم : كان لنا غلامان نصرانيان من أهل « عين التمر » ، هما يسار وجبر ، وكانا حدادين يصنعان السيوف ، وكانا يقرأان كتباً لهما بلسانهما ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بهما ، فيسمع قراءتهما ، فقال المشركون : إنه يتعلم منهما ، فقيل لأحدهما ذلك ، فقال : بل هو يعلمنى مما علمه الله ، فنزل : « ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر . . . » ، الآية .

٦ — ولما ذكر تعالى أن فريقاً منهم ينسبون الافتراء إلى محمد ، وفريقاً ينسبون إليه أن ماجاءهم به من قرآن ، إنما يعلمه إياه بشر — كان ذلك تقريراً لانتفاء الإيمان عنهم ، وتسجيلا بأن الله لا يخلق الإيمان فى قلوبهم ، ولا يهديهم إلى طريق الجنة ، ولهم عذاب أليم ، ولا يليق بهؤلاء المشركين أن ينسبوا

إلى محمد الافتراء ، لأن افتراء الكذب إنما يليق بأمثالهم ، ممن لا يؤمنون بالله وآياته ، ولا يتوقعون العقاب على كذبهم ، وهؤلاء المشركون لم يؤمنوا بالله ، ولم يصدقوا بما أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وافتروا عليه كل الأكاذيب ، فأولئك هم الكاذبون الحقيقيون ، الذين لا يحجبهم عن الكذب إيمان ، ولا يردعهم عنه دين وخوف من الله .

٧ — وإنما يعاقب الله على الكفر ، إذا كان صادراً من أصحابه عن اعتقاد واختيار ، ويكون أشنع ممن يرتدون عن الإسلام ، ويرجعون إلى الكفر بعد الإيمان ، فإن الله يضاعف لهم العذاب ، ويشدد عليهم العقاب ؛ لكن من أكرِه وعُذِّب ، وأجبر على أن يلفظ كلمة الكفر بلسانه ، وكان إيمانه صادقاً ، وكان مطمئناً به قلبه ، فإن الله لا يؤاخذه على ما جرى على لسانه من التلفظ بالكفر مع الإكراه ، أما الذين عادوا إلى الكفر عن اعتقاد وانشراح صدور ، وطابت به نفوسهم ، فأولئك عليهم غضب الله ولعنته ، ولهم عذاب عظيم .

أول شهيدين فى الإسلام

نزلت هذه الآية : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان . . . » ، فى المستضعفين من المسلمين ، الذين كان كفار قريش يعذبونهم ليكرهوهم على الرجوع إلى الكفر ، ومنهم صُهَيْب ، وخَبَّاب ، وعمّار ، وأبوه ياسر ، وأمه سُميَّة ، وبلال ، أخذهم المشركون فألبسوهم أدراعاً من حديد ، ثم أوقفوهم فى الشمس حتى بلغ منهم الجهد ، من حر الحديد والشمس ، فلما كان العشِيّ أتاهم أبو جهل ومعه حربة ، فجعل يسبهم ويوبخهم ، أما ياسر فقتل ، وأما سمية فجيء بها أمام أبى جهل ، فجعل يسبها ويرميها بأفحش

الكلام ، ويقول لها : إنك أسلمت من أجل الرجال ، ثم أمر بها فربطت بين بعيرين ، وضرب البعيران فنفرا حتى قسماها ، ثم طعنها بحربة نفذت من جوفها ، وقتلت هذه القتلة الشنيعة وهى مسلمة مؤمنة ، وكان ياسر وسميّة أول شهيدين فى الإسلام ، ثم أُمر الآخرون أن يقولوا كلمة الكفر ، فقالوها بألسنتهم ، إلا بلالا ، فقد هانت عليه نفسه فى الله ، ورضى أن يموت دون أن يجرى الكفر على لسانه ، فاستمروا يعذبونه ، ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول : أحد أحد ، فلما نفدت قوتهم فى ضربه وتعذيبه ، وهو ينطق بكلمة الإيمان لا بكلمة الكفر ، كتّفوه وجعلوا فى عنقه حبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به فى أودية مكة ، حتى جاء أبو بكر واشتراه وأعتقه ، فلما جاءوا إلى رسول الله ، وعلم بأمر تعذيبهم ، وبما أكرهوا على قوله ، قيل له : إن عمّاراً كفر ، فقال صلى الله عليه وسلم : « كلاًّ ، إن عماراً ملىء بالإيمان من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه » ، ثم جاء عمار إلى النبى وهو يبكى ، فجعل صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ، ويقول له : مالك ؟ فقص عليه الأمر ، فقال له النبى : « كيف تجد قلبك » ؟ قال : مطمئن بالإيمان ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن عادوا إليك بما فعلوا فعد إليهم بما قلت » ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما خُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما » .

٨ – وقد بيّن الله سبب غضبه على من رجعوا إلى الكفر ، وانشرحت به صدورهم ، وما أعد لهم من عذاب عظيم ، وبيّن سبب رضاه على من أكرهوا على قول كلمة الكفر ، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان ، وما ادخر لهم من الثواب وحسن العاقبة ، فذكر أن العائدين إلى الكفر قد استحبوا متاع الحياة الدنيا الفانية ، على نعيم الآخرة الباقية ، وأنهم اختاروا لأنفسهم الكفر ، فلم يهدهم الله إلى الإيمان ؛ هؤلاء هم الذين ختم الله على قلوبهم ،

وجعل عليها غُلْفاً وأكنّة، فلا ينفذ إليها الإيمان، ولا يصل إليها الهدى، ولا يتدبرون القول، ولا يفقهون الحديث، وسدّ مسامعهم، فلا يصغون إلى المواعظ، وغشى أبصارهم، فلا يرون طرق الرشاد، ولا ينظرون إلى ما خلق الله من الأشياء، فيدركون بها قدرته ووحدانيته؛ أولئك هم الغافلون البالغون أقصى حدود الغفلة، وحقاً أنهم سيكونون فى الآخرة الخاسرين أعمالا، الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا — وذكر أنه سيكون للمؤمنين وليّاً، فيحميهم وينصرهم على أعدائهم، لأنهم احتملوا فى سبيل الإيمان كل ألوان المكاره والبلاء، هاجروا من ديارهم، وتركوا الوطن والأهل والمال، وامتحنوا بالتعذيب والإكراه على الكفر، ثم قابلوا هذه المكاره بصبر ورضا، إن ربك من بعد هذه المكاره كلها، لغفور لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، رحيم بهم، جزاء ما لاقوه وما صبروا، فيتم عليهم نعمته، يوم يأتى كل إنسان فى القيامة ليؤدى حسابه، ويدافع عن نفسه، لا يُعنَى بشىء غيرها لهول الموقف، ولا يهمه أحد سواها، فيجادل عنها وحدها فى حال يقول فيه كل إنسان: نفسى نفسى، وينال كلٌّ جزاءه على قدر عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لا ينقصون شيئاً، ولا يُظلمون فتيلا.

(١٢)

من الآية ١١٢ إلى الآية ١١٩ من سورة النحل

وَضَرَبَ اللهُ مثلًا : قرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتيها رِزْقُها
رَغدًا مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، فَكفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ، فَأَذاقَهَا اللهُ
لِباسَ الْجُوعِ وَالْخوْفِ ، بِمَا كانُوا يَصْنَعُونَ -١- . وَلَقَدْ
جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ
ظَالِمُونَ -٢- . فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً ، واشْكُرُوا
نِعْمَةَ اللهِ ، إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ -٣- . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ
الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، فَمَنِ
اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ ، فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ -٤- . وَلاَ تَقُولُوا
لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ : هٰذا حَلَالٌ وَهٰذَا حَرَامٌ ،
لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ
لاَ يُفْلِحُونَ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ -٥- . وَعَلَى الَّذِينَ
هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ، وَلٰكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ -٦- . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ

بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وضرب الله مثلا قرية	جعل الله القرية التي هذه حالها مثلا .
آمنة مطمئنة	يعيش أهلها فى أمن على أنفسهم وما لهم ، لا يزعجهم خوف ولا قلق .
رغداً	واسعاً هنيئاً .
من كل مكان	من البر والبحر .
فكفرت	فكفر أهلها .
حرم عليكم الميتة	حرم عليكم أكل الميتة ، وهى ما فاضت روحها من غير ذبح شرعى .
وما أهل لغير الله به	وما نودى وذكر عليه وقت ذبحه اسم غير اسم الله .
فمن اضطر غير باغ	فمن دفعته ضرورة الجوع إلى الأكل منها ، غير متجاوز الحد الذى يدفع به الجوع .
ولا عاد	ولا متعد على الناس ، بأن يقطع عليهم الطريق مثلا .
لما تصف ألسنتكم الكذب	لأجل قول تنطق به ألسنتكم كذباً .
متاع قليل	منفعتهم فيما هم متمسكون به من أعمال الجاهلية منفعة قليلة .

الألفاظ	شرحها
ما قصصنا عليك من قبل	ما سبق قصصناه عليك فى سورة الأنعام: (الجزء الثامن، الآية ١٤٦، الصفحة ٣٤ وما بعدها) .
عملوا السوء بجهالة	ارتكبوا السيئات جاهلين ، غير متدبرين للعاقبة ، منقادين للذة الشهوات ، ولم يقصدوا بها معصية المولى .

مجمل المعنى

١ — قد قص الله قصة أهل مكة ، وضرب مثلا بحالهم ، فقد كانوا يعيشون فى أمن من الاضطراب والفزع ، مطمئنين فى حياتهم ، مستقرين ، لا يزعجهم خوف يقلق راحتهم ، أو يبلبل نفوسهم ، وكان يأتيهم رزقهم واسعاً عن طريق البر والبحر ، ومن كل مكان حولهم ، من اليمن والشام ومصر والفرس ، تهوى إليهم جماعات الناس ممن يَعْرِفون وممن لا يَعْرِفون ، فيرتزقون من كل الجهات ، ومن كل الثمرات ، فأنكروا فضل الله ، وجحدوا نعمه عليهم ، من الأمن وسعة الرزق ، فعبدوا الأوثان ، وعملوا السيئات ، فعاقبهم الله فى الدنيا على ما كانوا يعملون ، فحرمهم فضله ، وسلبهم نعمه ، ، وأنزل عليهم القحط ، وسلط عليهم الخوف ، فأثر الجوع فيهم تأثيراً ظهر فى هُزال أجسامهم ، وضعف قوّتهم ، وشَمِل حياتهم الخوفُ والفزع والاضطراب ، وغشيهم من الجوع والخوف ما غشيهم ، وأحاط بهم كما يحيط الثوب بالجسد ، بسبب كفرانهم بنعم الله عليهم ، وما كانوا يصنعون من صد الناس عن سبيل الله .

٢ — ومن تمام قصة أهل مكة ، أن كفرانهم لم ينته عند مخالفتهم للمنطق المستقيم ، والعقل السليم ، بمقابلتهم الإنعام بالكفران ، والإحسان بالإساءة ، ولكنهم عارضوا حجة الله على خلقه ، بما أنزل إليهم من الآيات والبيِّنات والهدى ، فأرسل إليهم رسولا من جنسهم ، يعرفون أصله ونسبه ، وسيرته وخلقه ، وأبلغهم وجوب الإيمان بالله ، وشكره على نعمه ، وأنذرهم سوء عاقبة ما يعملون ، فكذبوه فى رسالته ، فانتقم الله منهم ، وأخذهم بذنوبهم ، وفاجأهم بالعذاب يوم بدر ، فأوقع بهم المسلمون القتل بالسيف ، وهم متلبِّسون بالظلم والكفر ، ومعصية الرسول .

٣ — وإذ قد رأيتم بأعينكم عاقبة الكفر بأنعم الله وتكذيب رسوله ، فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعم ، وتكذيب الرسول ، واعرفوا حق نعم الله ، وأطيعوا رسوله ، وكلوا من رزق الله حلالا طيباً ، وذروا ما تأكلون من الحرام الخبيث ، والمال المغصوب من الغارات ، والكسب الخسيس ، وأدوا حق نعم الله بالشكر عليها ، إن صح زعمكم فيما تدّعون أنكم تعبدون الله ، وأنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته ، وأنهم إنما يقربونكم إلى الله زلفى .

لباس الجوع والخوف

ابتلى الله كفار مكة بالجوع سبع سنين ، وقطع العرب عنهم الميرة ، حتى أكلوا الجيفة والكلاب الميتة والجلود ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنيناً كسنين يوسف » ، فلما بلغ بهم الجهد ، قالوا لرسول الله : هذا عذاب الرجال ! فما ذنب النساء والصبيان ؟ وقال له أبو سفيان : يا محمد : إنك جئت تأمر

بصلة الرحم والعفو ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم ، فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأذن للناس بحمل الطعام لهم وهم مشركون ، ونزل قوله تعالى : « فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً » ، الآية .

٤ — وليس ما حرمتم أنتم أكله على أنفسكم من البَحِيرَة والسائبة ، قد حرمه الله عليكم ، ولكن الذى حرم الله عليكم أكله ، هو المَيْتَة والدم ولحم الخنزير ، وما ذكر عليه وقت ذبحه اسم غير اسم الله ، كما كان العرب يفعلون عند ذبح الأنعام ، فيذكرون اسم الأصنام عليها ، وكما يفعل بعض الجهال فى هذا الزمان ، فيذكرون اسم السيد البدوى أو إبراهيم الدسوقى أو غيرهما ، (وقد تقدم شرح ما يماثل هذه الآية فى الجزء الثامن ، الصفحة ٢٤ وما بعدها) .

٥ — ولا تحللوا ولا تحرموا لأجل قول تنطق به ألسنتكم كذباً ، فتقولوا : هذا حلال وهذا حرام ، من غير أن تكون لديكم حجة أو بيِّنة ، أو وحى من الله بتحريمه أو تحليله ، فتكذبوا على الله فى إخباركم بأن أكل البحيرة والسائبة حرام ، مع أن الله لم يحرم ذبحها عليكم ، وبأن أكل ميتة بطون الأنعام حلال ، مع أن الله حرمها عليكم ؛ إن الذين يكذبون على الله لينالوا مطلباً من وراء الكذب لن يفوزوا به ، ولن ينالوا شيئاً مما ارتكبوا الكذب من أجله ، وما هو إلا متاع قليل ، ومنفعة تافهة من منافع الدنيا ، سينالون عليها عذاباً أليما فى الآخرة .

٦ — وقد حرم الله على اليهود ما قصه على نبيه من قبل فى سورة الأنعام ، فى قوله تعالى : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا أو ما اختلط بعظم » ؛ وقد شرحناها شرحاً وافياً فى الجزء الثامن ، الصفحة ٣٤

وما بعدها)، فإنه لما لجّ بنو إسرائيل فى الظلم والمعاصى ، عاقبهم الله على ظلمهم ، فحرّم عليهم أشياء من الأنعام والحرث ، وأحلّها لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى لم يظلمهم بهذا التحريم ، ولكنهم كانوا يظلمون أنفسهم ، بمخالفتهم أمر الله ، فحق عليهم العقاب ، قال تعالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم »، (تراجع الصفحة ١٣ من الجزء السادس) .

٧ — وإن ربك لشديد العقاب لمن يرتكبون السيئات ، ويكفرون بالله، ثم يصرون على الكفر وفعل المنكر عن اعتقاد وسوء قصد ، وإنه لواسع الرحمة ، وغافر الذنب ، وقابل التَّوْب ، لمن عملوا السوء عن جهل ، فافتروا على الله الكذب ، وأحلوا وحرموا غير ما أحل الله وما حرمه ، وأشركوا بعبادته ما لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعاً من الأصنام والأوثان ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك عن قصد معصية الله ومعاداته ، وإنما فعلوه عن جهالة وسوء فهم ، غير متدبرين للعاقبة ، أو منقادين لشهوات أنفسهم ، ولذات أجسامهم ، ثم رجعوا إلى الحق بعد الضلال ، وندموا على ما عملوا من عمل سيئ ، وتابوا فتاب الله عليهم ، وأصلحوا أعمالهم ، وصَدَقوا الله فى إيمانهم ، إن ربك من بعد ذلك يقبل توبتهم ، ويغفر لهم ما فرط من ذنوبهم ، فيثيبهم على الطاعة بالصفح عن السيئات ، وادخار الحسنات ، ويشملهم بواسع مغفرته ، وفيض رحمته .

(١٣)

من الآية ١٢٠ إلى الآية ١٢٨ من سورة النحل

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّـةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً ، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ، اجْتَبَاهُ وهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ -١- . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ : أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ -٢- . إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ -٣- . ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ -٤- . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ -٥- . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ -٦- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كان أمة	كان قدوة جامعاً لكل صفات الخير .
قانتا لله	مطيعاً لله .
حنيفاً	مستقيماً فى دينه ، مائلا عن الباطل إلى الحق .
اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم	اختاره واختصه ، واصطفاه للنبوة ، وأرشده إلى الدين القويم .
ملّة إبراهيم	دينه وشريعته .
جعل السبت	فرض تعظيمه ، والتفرغ للعبادة ، وترك الصيد فيه .
اختلفوا فيه	جعله بعضهم يوم السبت ، وبعضهم يوم الجمعة .
سبيل ربك	دين الإسلام .
بالحكمة	بالقول الصحيح المحكم ، والدليل الموضح للحق .
والموعظة الحسنة	الموعظة التى توقظ القلوب ، وتعظ النفوس ، وتجلو العقول .
وجادلهم بالتى هى أحسن	وناظرهم وناقشهم بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة ، لما فيها من الرفق واللين ، والتأنى وحسن الكلام .
ولاتك فى ضَيْق مما يمكرون	ولا تجعل نفسك فى حزن وحرج وضيق صدر من مكرهم .

مجمل المعنى

١ - لما أبطل الله فيما سبق من الآيات مذاهب المشركين ، من إثبات الشركاء لله ، والطعن فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتحليل ما حرم ، وتحريم ما حلل ، وكانوا مفتخرين بجَدهم إبراهيم ، مقرّين بحسن طريقته ، ووجوب الاقتداء به ، وأنهم متبعون ملّته ، ذكره الله فى هذه الآيات ، وأوضح منهاجه ، وما كان عليه من توحيد الله ، ورفض الأصنام ، وأنهم لم يتبعوه ولم يقتدوا بدينه ، لأن إبراهيم عليه السلام كان إماماً للناس ، قدوة لهم ، جامعاً لكل صفات الخير ، مائلا عن الباطل إلى الحق ، موحداً بالله ، موجهاً وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، ولم يك ممن أشركوا بالله فى عبادة الأصنام ، فكيف يزعم كفار قريش أنهم على ملة أبيهم إبراهيم ؟ إنه منهم برىء ؛ وكان عليه السلام مضيافاً كريماً ، دائم الشكر لله بما أسبغ عليه من النعم ، وكان من مظاهر هذا الشكر أنه لا يأكل إلا مع ضيف ، وقد روى أنه لم يجد ذات يوم ضيفاً يأكل معه ، فأخّر طعامه ، فإذا هو بفوج من الملائكة فى صورة البشر ، فدعاهم إلى الطعام ، فقالوا : إن بهم جذاماً ، فقال : الآن وجبت مؤاكلتكم ، شكراً لله على أنه عافانى وابتلاكم ؛ وقد اختاره الله تعالى لبناء البيت الحرام ، واصطفاه للنبوة والخُلة والإمامة ، وأرشده إلى الطريق القويم الذى يسير فيه الناس على هدى ، فينالون سعادة الدارين ، ومنّ عليه بحسنات الدنيا وزينتها ، من مال وولد ، وذكرٍ حسن ، وإنه يوم القيامة من الأنبياء الذين يستوجبون عند الله حسن الجزاء ، الموسومين

بالصلاح الذى عرفوا به فى الدنيا ، فاستحقوا أن يوردهم الله موارد قدسه ، وأن يُحِلّهم مواطن أنسه .

٢ – ومن الحسنات التى آتاها الله إبراهيم عليه السلام ، أنه أوحى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يتبع أصول ملته ، وفى هذا الوحى أيضاً ما فيه من تعظيم منزلة رسول الله وإجلاله ، والإشارة إلى أن أشرف ما أوتى إبراهيم عليه السلام من الكرامة ، وأجل ما وهب من النعمة ، أن الله أوحى إلى محمد سيد الأنبياء والمرسلين ، أن يتّبع أصول ملة جده إبراهيم ، وأن ينبذ الشرك الذى نبذه جده عليه السلام .

قصة السبت

أمر موسى عليه السلام اليهود ، أن يجعلوا فى الأسبوع يوماً واحداً يعظمونه ، ويتفرغون فيه للعبادة ، وحرم عليهم الصيد فيه ، وعيّن لهم يوم الجمعة ، فأبى معظمهم أن يكون عيدهم الأسبوعى يوم الجمعة ، وقالوا : نريد اليوم الذى فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض – على زعمهم – وهو يوم السبت ، فأذن الله لهم فيه ، فجعلت طائفة منهم عيدها يوم الجمعة وهى القلة ، وأطاعوا أمر الله ، فحرموا على أنفسهم الصيد فيه ، وجعلت طائفة أخرى عيدها السبت وهى الكثرة ، وعصوا أمر الله فلم يصبروا على ترك الصيد ، فعاقبهم وسلب منهم عقولهم ، حتى صاروا قردة خاسئين ، (تراجع الفقرة الرابعة من الصفحة ٥٦ من تفسير الجزء الأول) .

٣ – إنما فرض تعظيم السبت ، والتفرغ فيه للعبادة ، وترك الصيد على بنى إسرائيل الذين اختلفوا فيه ، ولم يكن من شريعة إبراهيم ، ولا من شعائر

ملته . ففريق منهم رضى أن يكون يوم الجمعة الذى عيَّنه لهم موسى ، وحَرَّموا فيه الصيد على أنفسهم طاعة لأمر الله ، وفريق طلب أن يكون يوم السبت ، ولم يتركوا فيه الصيد ، وعصوا أمر الله ، وإن ربك ليحكم يوم القيامة ، ويفصل فيما وقع بينهم من الخصومة والاختلاف ، فيجازى كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب .

٤ — وإذا علمت يا محمد أن المشركين كانوا كاذبين فيما زعموا أنهم على ملة إبراهيم ، وأن اليهود كانوا مختلفين فيما بينهم ، فلا تحزن إذا كذبك قومك ، وادع الناس قاطبة يا محمد إلى الإسلام بالقول المحكم ، والدليل الواضح ، والحجة البيِّنة ، والشريعة المنزلة ، والموعظة الحسنة التى توقظ قلوبهم ، وتؤثر فى نفوسهم ، وتنير عقولهم ، فيعرفون أنك تناصحهم ، وتقصد منافعهم ، وناظر معانديهم ، وجادلهم بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة ، من الرفق والتلطف واللين ، من غير فظاظة ولا تعنيف ، تسكيناً لشغبهم ، وتلطيفاً لجفائهم ، فإن ربك أعلم بمن ضل عن سبيله الذى أمرك أن تدعو الخلق إليه ، وأعْرَض عن قبول الحق عناداً ، بعد ما سمع من الحكم والحجج والمواعظ والعبر ، وأعلم بالمهتدين ، الذين آمنوا بك ، واتبعوا رسالتك بقليل من الوعظ ، ويسير من الدعوة ، وليس عليك إلا مجرد البلاغ والدعوة ، وأما الهداية والضلال فأمرهما إلى الله ، يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

٥ — الإسلام يحرم التمثيل بالقتيل

لما قتل حمزة رضى الله عنه، عَمّ النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحُد ، مَثّل المشركون به ، وبقروا بطنه ، فلما رأى النبى ما فعل المشركون حزن ، وقال : « لئن أظفرنى الله بهم ، لأمثّلن بسبعين مكانك » ، فنزل : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به . . . » ،الآية ، فكفّر عن يمينه ، وكفّ عما أراده ، ولاخلاف فى تحريم المُثلة حتى بالكلب العقور ، والمعنى : وإن اعتدى عليكم أحداً بأذى ، أو جنى عليكم جناية ، وأردتم عقابه والاقتصاص منه ، فلا تجاوزوا الحد فى عقوبته ، بل افعلوا به مثل ما فعل بكم ، وعليكم أن تُراعوا العدل مع من يناصبكم العِداء ؛ والتعبير بقوله تعالى : « وإن عاقبتم » ، أى أردتم العقاب ، فيه حثٌّ على العفو من جهة التعريض ، وقد أكد سبحانه وتعالى فضيلة العفو فى قوله : « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » ، أى ولئن تركتم العقاب ، وتمسكتم بالصبر ، وكظمتم الغيظ ، واحتملتم مشقة ضبط النفس ، وأنتم قادرون على الانتقام ، كان ذلك خيراً لكم ، وأجمل بكم من الانتصار بالعقاب ، والظفر بالانتقام .

٦ — واصبر يا محمد على ما أصابك من أذى قومك ، وإعراضهم عن الحق ، وسخريتهم بك ؛ وإن احتمالك مشقة الصبر لمن أجل نعم الله عليك ، ولن تستطيعها إلا بمعونة الله لك وتوفيقه ، فإن قوة النفس أعظم من قوة البدن ، وليس القوىّ بالصُّرَعة ، وإنما القوىّ من يملك نفسه عند الغضب ، ولا تحزن على الكافرين لعدم إيمانهم بك ، واتباعهم لك ، ولا تجعل فى

صدرك حرجاً ، ولا يستول عليك الضيق والحزن ، بما يبيتون لك من كيد ، وما يدبرون لك من مكر ، إن الله دائماً مع الذين اتقوه ، وتجنبوا الشرك والآثام ، وهم أولياؤه ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ومع المحسنين الذين يأتون بالأعمال على الوجه اللائق ، ويعبدون الله كأنهم يرونه ، فإن لم يروه فإنه يراهم .

فهـــرس الجزء الرابع عشر
من تفسير القرآن

تفسير القرآن الكريم

الجزء الخامس عشر

تأليف

محمود محمد حمزة

المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان

المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق

المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى
فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر
مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ،
وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ،
تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

سورة الإسراء

نزلت بمكة ، ما عدا الآيات ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٧ ومن ٧٣ — ٨٠
فإنها نزلت بالمدينة ، وآياتها ١١١ آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الثامنة

سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ –١– . وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ،وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ: أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلًا –٢– . ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُوراً –٣– . وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ : لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً –٤– . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولًا –٥– . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ،وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ،وَجَعَلْنَاكُمْ

أَكْثَرَ نَفِيرًا –٦– إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ، وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا –٧– . عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سبحان	تنزيهاً لله عن كل نقص .
أسرى	الإسراء : السير والانتقال ليلا ، يقال : سرى وأسرى .
ليلا	فى وقت قصير .
من المسجد الحرام	من حرم مكة المحيط بالمسجد الحرام .
إلى المسجد الأقصى	إلى بيت المقدس ، وهو أبعد مسجد من مكة .
باركنا حوله	أحللنا البركة حوله بالثمار والأنهار .
لنريه من آياتنا	لنريه بعض عجائب قدرتنا تكريماً له .
السميع	السميع لأقوال رسوله محمد .
البصير	المطلع على أفعاله ، فيكرمه ويقربه .
الكتاب	التوراة .

الألفاظ	شرحها
ألا تتخذوا من دونى وكيلا	على ألا تتخذوا من غيرى ربًّا تكلون إليه أموركم .
ذرية من حملنا مع نوح	يا ذرية من حملناهم مع نوح فى السفينة .
لتفسدن فى الأرض مرتين	لتفسدن فى الأرض بالمعاصى إفسادتين .
ولتعلن علوًّا كبيراً	ولتستكبرن عن طاعة الله استكباراً كبيراً .
وعد أولاهما	موعد أولى مرّتى الإفساد .
أولى بأس شديد	أصحاب قوة فى الحرب والبطش .
فجاسوا خلال الديار	فتنقلوا خلال دياركم ، ليقتلوكم ويَسْبُوكم .
وكان وعداً مفعولا	وكان وعد العقاب لابد أن يقع .
رددنا لكم الكرة عليهم	رددنا لكم الغلبة على من غلبوكم وقهروكم .
أكثر نفيراً	أكثر نفراً وعشيرة لمقاتلة العدو .
وعد الآخرة	موعد المرة الأخرى .
ليسوءوا وجوهكم	بعثناهم ليذلوكم ، ويجعلوا الحزن بادياً على وجوهكم .
وليتبروا ما علوا تتبيرا	وليدمروا ما استولوا عليه مدة غلبتهم عليكم تدميراً فظيعاً .
حصيراً	بساطاً وسجناً ومحبساً .

قصة الإسراء

بينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بين النائم واليقظان ، فى بيت ابنة عمه أبى طالب : هند ، التى تكنى بأم هانئ ، فى الليلة السابعة والعشرين من رجب ، قبل الهجرة النبوية بنحو سنة ونصف ، إذ جاءه جبريل فأيقظه ، ثم أركبه البُراق مسرجاً ملجماً — وهو دابة بيضاء فوق جسم الحمار ، ودون جسم

البغل — فسار البراق حتى وصل إلى بيت المقدس ، ثم ترجل ودخل بيت المقدس ، فصلى فيه ركعتين ، ثم عرَج به جبريل إلى السموات العُلا ، حتى انتهى إلى سِدْرة المنتهى ، فأوحى الله إليه ما أوحى ، وفرض عليه وعلى أمته فى كل يوم وليلة خمسين صلاة ، فما زال يطلب التخفيف حتى صارت خمس صلوات ، لها ثواب الخمسين صلاة ، ثم عاد إلى مضجعه ؛ وفى الصباح قال لأم هانئ : يا أم هانئ ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيتِ بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليتُ فيه ، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين ، فقالت له : يا نبى الله ، لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك ، فقال : والله لأحدِّثُهموه .

فلما أخبر قريشاً بما حدث له كذبوه ، وعدوا ما ذكروه مستحيلا ، بل لقد ارتد ناس ممن آمنوا به ، وجاء رجال إلى أبى بكر رضى الله عنه ، وأخبروه بما سمعوا ، فقال لهم : لئن كان قال ما ذكرتم لقد صدق ، فقالوا له : أتصدقه على ما قال ؟ فقال : إنى لأصدقه على أبعد من ذلك ، أصدقه على خبر السماء ، فسمى من ذلك الوقت بالصدِّيق .

وطلبت جماعة من قريش ممن سافروا إلى بيت المقدس أن ينعته الرسول لهم ، فطفق ينعته لهم نعتاً دقيقاً ، فقالوا : أما النعت فقد أصبتَ فيه ، ولكن أخبرنا عن عِيرنا التى فى الطريق ، فهى أهم إلينا ، فأخبرهم بعدد إبلها وعن أحوالها ، وقال : إنها تقدَم يوم كذا مع طلوع الشمس ، يتقدمها جمل أورق : (رمادى) ، عليه غِرارتان مَخيطتان ؛ فلما خرجوا ينشدون العير فى اليوم الذى عيَّنه رسول الله ، وجدوها كما أخبر ، ومع هذا لم يؤمنوا ، وقالوا : ما هذا إلا سحر مبين .

واختُلف فيما إذا كان الإسراء فى المنام أو فى اليقظة ، وهل هو بالروح

أو بالجسد ، والأكثرون على أنه كان بالجسد فى اليقظة ، على النحو الذى ذكرناه، بدليل قوله تعالى : «أسرى بعبده» ، فلم يقل : أسرى بروح عبده، والعبد : اسم لمجموع الروح والجسد ، قال تعالى : « أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى » وبدليل قوله : « أسرى » ؛ فإنه لا يقال لما يحدث فى النوم أسرى ؛ وقوله : « ما زاغ البصر وما طغى » ، وحدّثت أم هانئ قالت : لقد افتقدت رسول الله وكان نائماً عندى فلم أجده ، فامتنع علىّ النوم ، مخافة أن يكون قد عرض له سوء من قريش .

وأما احتجاج بعضهم بقوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » ، وأن الرؤيا لا تكون إلا فى المنام ، فمردود بأن الرؤيا كما تكون فى المنام تكون فى اليقظة .

ولو كان الإسراء فى المنام لما كان فتنة للناس ، لأن الإنسان يرى فى منامه أشياء لم يكن رآها من قبل ، ويرى عجائب يستبعد حدوثها فى اليقظة ، فالتحدث عما يُرَى فى المنام مهما كان عجيباً لا يثير فتنة .

مجمل المعنى

١ — تنزيهاً للمولى جل وعلا عن أن يعجز عن أى شىء فى الوجود ، فهو الذى أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ، الذى أحل فيما حوله البركة بالثمار والأنهار ، لأنه متعبد الأنبياء ، وبينهما مسيرة أربعين ليلة ، أو نحو ١٢٣٠ كيلو متر ، كما حققه بعض الثقات ،

قطعها فى مدة قصيرة من الليل ، ليريه عجائب قدرته فى قطع هذه المسافة الطويلة فى وقت قصير من الليل ، وليسبغ عليه فيض إكرامه ، فما أبعد من له هذه القدرة عن جميع النقائص ! إنه هو السميع لأقوال رسوله ، البصير بأفعاله ، فيكرمه ويقربه ، ويرفع منزلته .

٢ — وكما كرمنا محمداً بالإسراء ، أكرمنا موسى بالكتاب — وهو التوراة — وجعلنا هذا الكتاب هدى لبنى إسرائيل ، وعهدنا إليهم فى هذا الكتاب ألا يتخذوا ربـاً يكلون إليه أمورهم غيرى .

٣ — فيا ذرية من حملناهم فى السفينة مع نوح ، ونجيناهم من الطوفان ، حين لم يكن لهم وكيل يتكلون عليه سواى ، لا تشركوا بى شيئاً ، وإن نوحاً الذى أنجى آباءكم من الغرق ، كان عبداً يحمد الله على السراء والضراء ، ويشكره على ما يتفضل به عليه من نعمه ؛ وفى هذه الآية إشارة إلى أن نجاة نوح ومن معه من الطوفان كان ببركة شكره ، وفيها حث للذرية التى نشأت منه وممن حملهم معه فى السفينة على الاقتداء به ، وزجر لهذه الذرية عن الشرك الذى هو أحط مراتب الكفر .

٤ — وأعلمنا بنى إسرائيل فى التوراة : لتفسدن فى أرض فلسطين بالمعاصى مرتين : إحداهما مخالفة أحكام التوراة ، وحبس النبىّ إرمياء فى بئر وجَرحه ، لأنه بشرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخرى قتل زكريا ويحيى ، ومحاولة قتل عيسى ، وبين المرتين نحو مائتى سنة ، ولتستكبرُن عن طاعة الله ، ولتبغُن بغياً عظيماً ، ولتُفرطُن فى ذلك إفراطاً مجاوزاً للحد .

٥ — فإذا جاء موعد عقاب أولى مرَّتى الإفساد ، بعثنا عليكم عباداً لنا من الجنود ، يقودهم بُخْتَنَصَّرُ ملك بابل ، وهم ذوو قوة عظيمة ، وبأس

شديد ، فحاربوكم وطافوا خلال دياركم ، وقتلوا رجالكم ، وسبوا نساءكم وصغاركم ، وخرّبوا بيت المقدس — وكان ذلك حوالى سنة ٧٠٨ قبل الميلاد — لعصيانكم ، ومخالفة أحكام التوراة ، وكان ذلك أمراً محتم الفعل .

٦ — ثم رددنا لكم الغلبة على الذين بعثناهم عليكم ، وفعلوا بكم ما فعلوا ، بعد أن تبتم عن ارتكاب المعاصى ، ورجعتم عما كنتم عليه ، وأمددناكم بأموال كثيرة ، بعد أن نُهبت أموالكم ، وببنين يشدون أزركم ، بعد أن سُبيت أولادكم ، وجعلناكم أكثر عشيرة ، وأعز نَفَرا من الذين قاتلوكم ، وألقينا الرعب فى قلوبهم ، بمعونة الفرس أيام أزدشير ، فاستوليتم على من بقى من أتباع بختنصرَ ، وعدتم إلى فلسطين ، واستردتم سالف مجدكم .

٧ — إن أحسنتم يا بنى إسرائيل أعمالكم ، أحسنتم لأنفسكم ، لأن ثواب الإحسان عائد إليكم ، وإن أسأتم أعمالكم بالإفساد ، فإساءتها راجعة إليكم ، فلما جاء وعد المرة الآخرة من مرّتى إفسادكم ، بعثنا أعداءكم عليكم ، ليذلوكم بالقتل والسبى ، ويجعلوا آثار الكآبة بادية على وجوهكم ، مما يلحقكم من الهم والغم ، والحسرة والحزن ، وليدخلوا بيت المقدس ليخربوه ، كما دخلوه وخربوه أول مرة بالسيف والقهر ، والغلبة والإذلال ، وليدمّروا ما استولوا عليه فى أثناء استعلائهم عليكم تدميراً فظيعاً ؛ وقد تم ذلك فى عهد حكم الروم أيام طيطوس ، فقد قصد بيت المقدس ، وأوقع باليهود ، وقتلهم وأسرهم عن آخرهم ، إلا من اختفى ، ونهب بيت المقدس وخربه ، وأحرق الهيكل ، وأحرق كتبهم ، وخلا القدس من بنى إسرائيل ، ولم يعد لهم بعد ذلك رياسة ولا حكم ، حوالى سنة ٧٠ من ميلاد سيدنا عيسى .

٨ — عسى ربكم أن يرحمكم بعد المرة الأخيرة ، إن تبتم وانزجرتم عن المعاصى ، وإن عدتم إلى الإفساد مرة أخرى ، عدنا إلى عقوبتكم فى الدنيا بمثل ما

عاقبناكم به من قبل ، وجعلنا لكم يوم القيامة جهنم بساطاً يُبسط لكم كما يبسط الحصير ، أو حاصرة لكم ، كأنها سجن لا تستطيعون الخروج منه ؛ ومع هذا التهديد والوعيد لم يؤثر فيهم هذا الوعظ ، فعادوا وكذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا قتله ، فعاد الله عليهم بالعقوبة بقتل بني قُرَيظة ، وإجلاء بني النضير ، وضرب الجزية على الباقين .

(٢)

من الآية التاسعة إلى الآية ١٤ من سورة الإسراء

إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا –١– . وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا –٢– . وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ، لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا –٣– . وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، اقْرَأْ كِتَابَكَ ، كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يهدى للتى هى أقوم أعتدنا	يهدى للحالة أو الطريقة التى هى أعدل وأصوب . أعددنا وهيأنا .

الألفاظ	شرحها
ويدع الإنسان بالشر	يدعو الإنسان الله تعالى — عند ما يغضب — بالشر على نفسه وولده وأهله .
عجولا	يسارع إلى ما يخطر بباله ، ولا ينظر إلى عاقبته .
آيتين	علامتين دالتين على كمال قدرتنا ، ووجودنا ووحدانيتنا .
فمحونا آية الليل	فأزلنا العلامة الدالة على الليل ، وهى الظلمة .
وجعلنا آية النهار مبصرة	وجعلنا علامة النهار الإضاءة للإبصار .
لتبتغوا فضلا من ربكم	لتطلبوا فى بياض النهار أسباب معاشكم من الرزق من فضل الله .
ألزمناه طائره فى عنقه	ألزمناه عمله ، يحمله فى عنقه لزوم الطوق فى العنق .
كتاباً يلقاه منشوراً	صحيفة عمله ، تكشف الغطاء عما فعله فى الدنيا .
حسيباً	محاسباً وشهيداً على نفسك

القرآن سبيل الهداية

لما شرح الله ما خص به محمداً صلى الله عليه وسلم من الإسراء ، وما خص به موسى من التوراة ، وما فعله بالعصاة المتمردين من بنى إسرائيل ، وكان ذلك تنبيهاً على أن طاعة الله تؤدى إلى كل خير ، وأن معصيته تؤدى إلى كل شر ، بيّن هنا أن سبيل الهداية هو اتباع القرآن .

مجمل المعنى

١ — إن هذا القرآن يا محمد الذى أنزلناه عليك ، يهدى الناس كافة — ومنهم بنو إسرائيل — للطريقة التى هى أقوم الطرق وأعدلها ، وأسدها وأصوبها ، وهى ملة الإسلام والتوحيد ، كما أنه يبشر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات ، متبعين ما ورد فيه ، أن لهم فى مقابلة أعمالهم أجراً كبيراً فى الجنة ، فالحسنة بعشر أمثالها ؛ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما فيها من البعث والحساب ، والثواب والعقاب ، أعددنا لهم عذاباً مؤلماً ، وهو عذاب جهنم .

٢ — ويدعو الإنسان بالشر عند ما يغضب على نفسه وولده وماله ، مثل دعائه بالخير ، وكان الإنسان عجولا ، يسارع إلى كل ما يخطر بباله عند الغضب ، غير ناظر إلى ما يترتب على دعائه من سوء العاقبة ، كقول النضر بن الحارث ، عندما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام : اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ؛ وفى الآية دليل على أنه لا يجوز للإنسان أن يدعو على نفسه وعلى أهله وأولاده ، مهما اشتد به الغضب ؛ وارتباط هذه الآية بما قبلها : أن الله لما بيّن أن القرآن مصدر الهداية والنعمة ، ذكر أن بعض من أفرط فى كفران هذه النعمة ، كالنضر ابن الحارث ، يخرج عن جادة الصواب ، فيستمطر العذاب على نفسه ، إن كان القرآن هو سبيل الحق ؛ ويروى فى سبب نزول هذه الآية ، أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على عائشة ومعه أسير ، وقال لها : احتفظى به ، قالت : فلهوتُ مع امرأة ، فخرج الأسير ولم أشعر به ، فلما جاء

النبى صلى الله عليه وسلم ، سأل عن الأسير ، فقلت له : والله لا أدرى ، لقد غفلت عنه فخرج ، فقال عليه الصلاة والسلام : قطع الله يدك ، ثم خرج ، فجدّ أصحابه فى طلب الأسير حتى وجدوه ، ثم دخل رسول الله علىّ وأنا أقلّب يدى ، فقال : مالك ؟ قلت : أنتظر دعوتك ، فرفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم أنا بشر ، آسف وأغضب كما يغضب البشر ، فأيما مؤمنٍ أو مؤمنة دعوتك عليه بدعوة ، فاجعلها عليه زكاة وطهراً » ، فإذا كان صلى الله عليه وسلم قد دعا على عائشة ، فإنما كان دعاؤه عند الغضب للزجر ، على أنه عاد فطلب من ربه أن يكون دعاؤه رحمة ؛ ورُويت هذه القصة عن سَوده بنت زَمَعَة زوجتِه .

٣ — ولما بيَّن الله فيما سبق فضْلَه على الخلائق ، فيما أوصله إليهم من نعم الدين بالقرآن ، أراد أن يذكر ما أوصله إليهم من نعم الدنيا ، فقال « وجعلنا الليل والنهار آيتين . . . » ، والمعنى : أننا جعلنا وجود الليل والنهار وتعاقبهما ، علامتين دالتين على كمال قدرتنا ، ووجودنا ووحدانيتنا ، فجعلنا الليل ممحوّ الضوء مظلماً ، للاستراحة والسكون فيه ، وجعلنا النهار مضيئاً لتبصروا فيه ، ولتطلبوا الرزق فيه من فضل الله ، ولتعلموا بتعاقب الليل والنهار عدد السنين ، لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ، ولتعلموا الحساب الخاص بالأوقات والمعاملات ، كالإجارات والبيوع وغيرها ، وكل شىء من أحكام التكاليف مما تحتاجون إليه فى أمور دينكم ودنياكم ، فصلناه تفصيلا كافياً ، وأبنّاه تبييناً وافياً .

٤ — وألزمنا كل إنسان عمله الصادر منه ، خيراً كان أو شراً ، لا يفارقه أبداً ، بل يحمله فى عنقه ، وهو تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط ، كأنه طوق فى عنقه ، وكأنه يطير إليه من عشّ الغيب ووكر القَدَر ؛

وتخصيص العنق بالذكر لانكشافه ، وظهور ما عليه مما يزينه كالقلائد ، أو يشينه كالأغلال ، فتبدو أعمال الإنسان يوم القيامة واضحة للعيان ، ونخرج له يوم القيامة حين البعث والحساب كتاباً هو صحيفة عمله ، يلقاه مفتوحاً أمامه غير مطوىّ، ليتيسر له قراءته ، سواء أكان قارئاً أم أميًّا ، ويقال له : اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم محاسباً عليها ، شهيداً على ما قدمت من خير أو شر ، وعندما يتم من رجحت سيئاته حسناته قراءة كتابه ، يقول : ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه .

(٣)

من الآية ١٥ إلى الآية ٢٢ من سورة الإسراء

مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ،
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ
رَسُولًا –١– . وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً ، أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا
فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا –٢– . وَكَمْ أَهْلَكْنَا
مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا
بَصِيرًا –٣– . مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ
نُرِيدُ ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا –٤– . وَمَنْ
أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا – وَهُوَ مُؤْمِنٌ – فَأُولَئِكَ كَانَ
سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا –٥– . كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ،
وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا –٦– . أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ
عَلَى بَعْضٍ ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا –٧– .
لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ ، فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا –٨– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولا تزر وازرة وزر أخرى	لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى .
وإذا أردنا أن نهلك قرية	وإذا تعلقت إرادتنا بإهلاك أهل قرية
أمرنا مترفيها	أكثرنا متنعميها ، أو جعلناهم أمراء فيها .
ففسقوا فيها	فخرجوا عن طاعتنا ، وعصَوْا رسلنا .
فحق عليها القول	فحقت عليهم كلمة العذاب .
فدمّرناها تدميراً	فاستأصلناها بالهلاك استئصالا ، وخرّبنا الديار على أهلها .
وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح	وأهلكنا كثيراً من الأمم من بعد زمن نوح .
وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً	وكفى بربك عليما بذنوب عباده ، مطلعاً على أعمالهم .
العاجلة	الدنيا .
مذموماً مدحوراً	ملوماً مطروداً من رحمة الله .
وسعى لها سعيها	عمل لها عملها اللائق بها من الطاعات .
كُلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء	كلا من الفريقين : المؤمنين والكافرين نعطيه مرة بعد أخرى .
محظوراً	ممنوعاً من أحد .
فتقعد مذموما مخذولا	فتصير ممن يجمعون على أنفسهم الذم والخذلان .

مجمل المعنى

١ — هنا توضيح لما تقدم ، من أن القرآن يهدى للتى هى أقوم ، فمن اهتدى بهدى القرآن ، فإنما يهتدى لنفسه ، لأن ثواب هدايته لها ، ولا ينجى اهتداؤه غيره ، ومن ضل عما يهدى إليه القرآن ، فإنما يضل على نفسه ، لأن إثم ضلاله عائد عليها ، ولا يُردى ضلاله سواها ، ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، حتى يمكن أن تتخلص النفس الأخرى من إثمها ، وإنما تحمل كل نفس إثم ما اقترفت ، فكل إنسان يحاسب عن نفسه لا عن غيره ؛ وفى هذا قطع لأطماع كفار قريش ، الذين كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق ، فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم ، وردٌّ على الوليد بن المغيرة ، الذى كان يقول : اكفروا بمحمد وعلىّ أوزاركم ؛ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا بلسان قومه ، يهديهم إلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم ، ويبين لهم الحلال والحرام ، فمن لم تبلغه الدعوة فى أى وقت ، فهو غير مستحق للعذاب .

٢ — وإذا تعلقت إرادتنا بوقوع العذاب بأمة ، بأن أرسلنا إليهم رسلنا فكذبوهم ، وكفروا بما جاءهم من الحق ، أكثرنا المتنعمين منهم فى بلادهم ، أو جعلناهم أمراء فيها ، بدليل قراءة بعضهم : أمّرنا مترفيها ، فيكون المعنى جعلنا أمراءهم ورؤساءهم ، وجبابرتهم وشرارهم ، لهم السلطان والنفوذ فيها ، وهم أئمة الكفر ، ورؤساء الضلال ، والقدوة لأتباعهم ، فجاهروا بالعصيان ، والخروج عن طاعة الرحمن ، وتمردوا على من أرسلهم الله إليهم لهدايتهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب ، فصبه عليهم صبّا ، لأنهما كهم

فى الفسق والضلال ، وعاقبهم عقاب استئصال ، فخرَّب ديارهم ، ولم يَذَرَ منهم على الأرض ديَّاراً .

٣ – وكثيراً ما أهلكنا أمماً عاصية من بعد زمن نوح ، لأنها عصت أمر ربها ورسلَه ، كعاد وثمود ، وهذه سبيلنا مع من يفسُقون ويتمردون ، وكفى ربك محيطاً ببواطن عباده وظواهرهم ، فيعاقبهم بذنوبهم .

٤ – من كان يريد بعمله الدنيا العاجلة ومنافعها فقط ، والرياسة فيها ، ويأنف من الانقياد للأنبياء ، والدخول فى طاعتهم ، والإجابة لدعوتهم ، كالمنافق ، والمجاهد لأجل الغنيمة والشهرة ، عجَّلنا فيها ما نشاء تعجيله من نعيمها ومظاهرها ، لمن نريد من هؤلاء ، حسب مشيئتنا ، فليس كل متمن يجد ما يتمناه ، ولا كل إنسان يبلغ منا ما يهواه ، ولا كل طالب يصل إلى مرامه ، أو يستوفى ما يطلبه بتمامه ، وإنما الأمر متعلق بإرادتنا ومشيئتنا ، فنعطيه قدراً لا كما يشاء ، بل كما نشاء ، غير أن مصيره فى الآخرة جهنم ، يدخلها ويقاسى عذابها ، مذموماً مطروداً من رحمة الله .

٥ – ومن أراد الآخرة الآجلة وما فيها من النعيم المقيم ، وعمل لها عملها اللائق بها ، وهو أن يعمل ما أمر الله به ، وينتهى عما نهى الله عنه ، على أن يكون مؤمناً إيماناً صحيحاً ، لا يشوبه شرك ولا عصيان ، فأولئك الجامعون لهذه الشروط الثلاثة ، كان سعيهم مقبولا عند الله ، مشكوراً عنده .

٦ – إن الله تعالى يعطى كل واحد من الفريقين : هؤلاء وهؤلاء ، مَنْ أراد الدنيا ومن أراد الآخرة ، من عطائه الواسع الذى لا يتناهى ، مرة بعد أخرى ، فيمدهم بالأموال والأولاد ، وغيرهما من أسباب العز والمظاهر فى الدنيا ، لأن عطاءه لا يضيق عن أحد ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً ، فالكل مخلوقون فى دار العمل ، فوجب إيصال متاع الدنيا إلى الجميع بالقدر الذى تقتضيه مشيئته .

٧ — انظر يا محمد إلى عطائنا الذى أوصلناه إلى الفريقين ، وكيف فضلنا بعضهم على بعض ، فأعطينا مؤمناً ، وحرمنا مؤمناً آخر ، وأعطينا كافراً ، وحرمنا كافراً آخر ، فنحن قسَمْنا بين الناس معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، فتفاوتوا فى الرزق والمنزلة ، فمن رفيع إلى وضيع ، ومن مالك إلى مملوك ، ومن موسر إلى صعلوك ، لا فرق بين مؤمن وكافر فى الدنيا ؛ وإن التفاوت فى الآخرة لأعظم فى الدرجات ، وأكبر فى التفضيل ، لأن التفاوت فيها بين الجنة ودرجاتها ، وبين النار ودركاتها ، فينبغى أن يبتغى الإنسان فى أعماله الدار الآخرة ، على ألا ينسى نصيبه من الدنيا .

ولهذه المناسبة نذكر القصة الآتية :

حضر جماعة من الصحابة عند باب عمر رضى الله عنه ، وفيهم سُهيل ابن عمرو القرشى — وكان أحد الأشراف فى الجاهلية — وأبو سفيان بن حرب ، وبعض مشايخ قريش ، فأذِن عمرُ لصهيب وبلال وأهل بدر ، فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليأذن لهؤلاء العبيد ، ونحن جلوس لا يلتفت إلينا ؟ فقال سهيل — وكان رجلا عاقلا رزيناً — : أيها القوم ، إنى والله قد أرى الذى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دُعى القوم ودُعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، أما والله إنهم لِمَا سبقوكم به من الفضل ، أشد عليكم فَوتاً من بابكم هذا الذى تتنافسون عليه ، ولئن حسدتموهم على باب عمر ، إن ما أعد الله لهم فى الجنة أكبر .

٨ — لا تجعل أيها المكلف مع الله إلهاً آخر ، فتصير ممن جمعوا على أنفسهم الذم من المؤمنين ، والخذلان من المولى جلا وعلا ، وكن موحداً ، تكن ممدوحاً منصوراً .

(٤)

من الآية ٢٣ إلى الآية ٣٠ من سورة الإسراء

وَقضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعبُدُوا إلَّا إيَّاهُ ، وَ بالْوَالِدَيْنِ إحْسانًا ، إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ، فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ، وَلَا تَنْهَرْهُمَا —١— . وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ : رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا —٢— . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ، إنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا —٣— . وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ، إنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا —٤— . وَإمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا —٥— . وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ، فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا —٦— . إنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قضى	أمر وأوجب .
وبالوالدين إحساناً	وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً .
إما يبلغن	إن يبلغ ، أدغمت نون إن الشرطية فى ما : الزائدة.
عندك	فى كنفك وكفالتك .
أفّ	كلمة تدل على الملل والتضجر .
قولا كريماً	قولا جميلا ليناً ، صادراً عن كرم وعطف .
واخفض لهما جناح الذل	تواضع لهما ، وكن لين الجانب معهما ، والذل : الرفق .
من الرحمة	من فرط رحمتك لهما ، لافتقارهما إليك .
كما ربيانى صغيراً	ارحمهما رحمة مثل رحمتهما علىّ ، وتربيتهما لى ، حين كنت صغيراً .
أعلم بما فى نفوسكم	أعلم بما تكنه صدوركم من رحمة ، تكون عن إخلاص أو عن رياء .
صالحين	صادقين فى نية البِرّ بهما .
للأوّابين	للراجعين إلى طاعة الله عما فرط منهم ، مما لا يخلو منه البشر .
غفوراً	يغفر ما وقع من تقصير أو أذى بعد التوبة .
وآت ذا القربى حقه	وأعط القريب حقه : الأقرب فالأقرب ، من البر وصلة الرَّحِم ، وحسن المعاشرة .

الألفاظ	شرحها
ابن السبيل	المسافر الذى لا مال معه ، وطالب العلم الذى انقطعت صلته بأهله .
ولا تبذر	ولا تنفق المال بغير حساب فيما لا يفيد .
إخوان الشياطين	أمثالهم فى الشر ، وفى حكمهم ، وعلى طريقتهم .
إما تعرضن	إن نعرض عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل .
ابتغاء رحمة	انتظارا لرزق .
قولا ميسوراً	قولا ليناً تطيب به نفوسهم ، ووعداً تطمئن به قلوبهم .
ولا تجعل يدك مغلولة	لا تمسك يدك عن الإنفاق .
ولا تبسطها كل البسط	ولا تتجاوز الحد فى الإنفاق .
محسوراً	نادماً مغموماً .
يبسط الرزق	يعطى عطاء جزيلا .
يقدر	يضيق .
خبيراً بصيراً	عارفاً بمصلحة كل إنسان .

مجمل المعنى

١ — يأمرنا الله سبحانه وتعالى ألا نعبد غيره ، لأنه المنعم المتفضل علينا بجميع النعم : صغيرها وكبيرها ، وقد قرن الله أمره بعبادته ، بالإحسان إلى الوالدين ، فأمرنا بطاعتهما ، والعطف عليهما ، والرفق بهما ، والإنفاق عليهما — وإن كانا كافرين — متى كانا فى كنفنا ، وتحت كفالتنا ؛ فقد روى عن أسماء بنت أبى بكر ، أنها قالت : قَدِمت أمى علىّ وهى مشركة ،

فسألت النبىّ : أأصلهما ؟ قال : نعم ؛ وإنما كان هذا واجباً علينا ، لأنهما سبب وجودنا فى هذه الدنيا ، وقد قاسيا كثيراً من المتاعب فى تربيتنا ، وإعدادنا للحياة ؛ فالأم حملتنا فى بطنها تسعة أشهر ونحن أجنّة ، وعانت الشدائد فى تربيتنا ، وحفظنا وصيانتنا ، والأبُ كدّ فى طلب الرزق ، وأنفق علينا فى تربيتنا وتثقيفنا ؛ فإن يبلغ الوالدان أو أحدهما الكبر ، واحتاجا إلى معونتنا وكفالتنا ، فعلينا ألا نقول لهما أية كلمة تدل على أدنى تضجر أو تبرم منهما ، أو نظهر أى تألم من خدمتهما ، أو نسأم من إطعامهما ، أو نستثقل حياتهما ، أو نعاملهما بغلظة وشدة ، أو ننهرهما بجفوة وعنف ، ولو حدث منهما مالا يُعجبنا ، وألا نعرّضهما للشتم والسب ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أكبر الكبائر أن يشتم الرجل والديه ، قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : يسبّ الرجل أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه ، فيسب أمه » .

٢ — وينبغى أن نقول لهما قولا جميلا ليناً ، فى أدب وخضوع ، وأن نتواضع لهما ، ونُلين جانبنا لهما ، رحمة بهما ، لاحتياجهما إلينا ، وقد ضرب الله خفض الجناح مثلا للعطف ولين الجانب ، فالدجاجة تبسط جناحيها على فراريجها ، رغبة فى حمايتها ، وإظهاراً لعطفها وحنوّها عليها ؛ وعلينا أن ندعو الله أن يرحمهما بعد موتهما ، كما كانا يبسطان رحمتهما علينا حينما ربيانا ونحن صغار ، وفاء لهما ببعض حقوقهما ؛ روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبوىّ بلغا من الكبر أنى أتولى منهما ما توليا منى فى الصغر ، فهل قضيتهما حقهما ؟ قال : « لا ، لأنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك ، وأنت تفعل ذلك وتريد موتهما » .

٣ — والله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه ما نُضمره من الميل إلى بر الوالدين عن

خلوص نية أو رياء ، وعن رضا أو كراهية ، فإن قصدنا البر بهما ، وفرط منا تقصير فى حقهما ، أو شدة فى مخاطبتهما من غير قصد ، فإن الله برحمته يتوب علينا ، ويغفر لنا خطايانا .

٤ — وكما راعينا حقوق الوالدين ، ينبغى أن نبَرَّ القريب المحتاج ، فنعطيه بعض المال على حسب مقدرتنا ، ونحسن معاشرته ، وكذلك المسكين والمسافر الذى فقد ماله ، وطالب العلم الذى انقطعت صلته بأهله ، لنشوب حرب مثلا ، وألا ننفق أموالنا فى غير الوجوه النافعة ، لأن الذين ينفقون أموالهم فى الشر والمعاصى ، أو يسرفون فى إنفاقها ، معرضين أنفسهم وأهليهم للفقر والخراب ، مثلهم كمثل الشياطين فى خروجهم عن طاعة الله ، وفى صفات السوء ، واقتراف المعاصى ، فإن الشيطان من شأنه كفران نعم الله تعالى ، والإفساد ، وحمل ضعفاء الإرادة من الناس على صرف نعم الله فى غير ما أمر به ؛ والآية التى أولها : « وآت ذا القربى حقه » ، من الآيات التى نزلت بالمدينة .

٥ — وإن أعرضنا عن إعطاء ذوى القربى والمساكين وأبناء السبيل ، انتظاراً لرزق يأتينا فنعطيهم منه ، فينبغى أن نعتذر إليهم بلطف ، وأن نقول لهم قولا لينا لطيفاً طيباً ، وأن نبسط لهم عذرنا ، وأن نعدهم بالإعطاء عند الميسَرة .

٦ — وينبغى ألا نبذل المال من غير حساب ، وأن نتوسط فى الإنفاق ، فلا نكون بخلاء نمسك أيدينا عن البر مع قدرتنا عليه ، أو نمتنع عن معاونة ذوى القربى والمساكين ، ولا نكون مسرفين ننفق أكثر من دخلنا ، أو نصرف أموالنا فى معصية الله ، لئلا نتعرض لذم الناس ولومهم ، وتكون عاقبتنا على ضياع أموالنا الحسرة والندامة ؛ والخطاب فى قوله : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك . . . » ، لجميع المكلفين ، وقد شبه الله

البخيلَ الذى يمسك يده عن الإنفاق ، بمن ضُمَّت يده إلى عنقه فى غُل ، فأصبح لا يستطيع بَسْطها .

٧ — والله سبحانه وتعالى يوسع الرزق لمن يشاء ، ويضيقه على من يشاء ، لحكمة يراها ، لأنه خبير بنا ، عالم بأحوالنا ، فلا يُسأل عما يفعل ، لأننا عبيده ، يتصرف فينا على حسب مشيئته ، فهو أدرى بمن تصلحه السَّعة أو تفسده ، وبمن يصلحه التضييق أو يهلكه .

(٥)

من الآية ٣١ إلى الآية ٣٩ من سورة الإسراء

وَلَا تَقْتُلوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطئًا كَبِيرًا –١– وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا –٢– وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللّٰهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ، فَلَا يُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا –٣– وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا –٤– وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا –٥– وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا –٦– وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ، وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا –٧– كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا –٨– ذٰلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهًا آخَرَ ، فَتُلْقَى فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا –٩– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
خشية إملاق	مخافة فقر .
خِطئاً	إثماً وذنباً .
فاحشة	فعلا قبيحاً .
وساء سبيلا	وبئس الطريق طريقه .
مظلوماً	من غير ذنب يوجب القتل .
لوليِّه	لمن يلى أمره بعد وفاته ، وهو الوارث أو الحاكم .
فلا يسرف فى القتل	فلا يتجاوز الولىّ الحد المشروع فى القتل .
إنه كان منصوراً	إن ولىّ القاتل منصور بالقصاص الذى أوجبه الله .
بالتى هى أحسن	بالطريقة التى هى أحسن لليتيم .
أشده	قوته ، وحسن قيامه بمصالح ماله .
إن العهد كان مسئولا	إن العهد يُسْأل عنه الناكثُ له .
أوفوا الكيل	أتموا الكيل للمشترين ، ولا تبخسوهم حقهم .
بالقسطاس المستقيم	بالميزان العادل .
أحسن تأويلا	أحسن مآلا وعاقبة .
ولا تقف ما ليس لك به علم	لا تتبع ما لا تعلم ، ولا يعنيك أمره .
كل أولئك كان عنه مسئولا	كل واحد من هذه الأعضاء يُسأل صاحبه عما فَعَل به .
مرحاً	فى كبر وخُيَلاء .

الألفاظ	شرحها
لن تخرق الأرض	لن تستطيع أن تثقب الأرض بشدة وطأتك عليها .
ولن تبلغ الجبال طولا	ولن تساوى الجبال بطولك .
كل ذلك	كل ما تقدم من الأوامر والنواهى .
سيئه	عمله السيئ .

مجمل المعنى

١ — ولا تقتلوا أولادكم بالوأد أو غيره ، سواء أكانوا ذكوراً أم أناثاً ، مخافة الفقر ، فقد ضمنا لكم أرزاقهم ، كما ضمنَّا أرزاقكم ، إن قتلهم كان ذنباً كبيراً ، لما فيه من قطع التناسل ، وفناء النوع الإنسانى ، إن استمر القتل فى الأبناء .

٢ — ولا تدنوا من الزنى ، إما بالعزم عليه ، وإما بالإتيان بالمقدمات ، فضلا عن أن تباشروه ، لأن قربه داع إلى مباشرته ، إنه كان من أكبر الكبائر ، وفعلا متجاوزاً الحد فى قبحه ، مثيراً للفتن والإحَن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ، وبئس السبيل سبيله ، لأنه يؤدى إلى اختلاط الأنسَاب واشتباهها ، فلا يعرف الزوج إن كان الولد الذى أتت به الزوجة منه أو من غيره ، فيتهاون فى تربيته وتعهده ، وفيه انتهاك الأعراض ، وتوريث من لا يستحق الميراث ، وضعف العاطفة من الآباء ؛ وهذه الآية من الآيات التى نزلت بالمدينة .

٣ — ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، ككفر بعد إيمان ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل مؤمن معصوم عمداً ، ومن قُتل بغير سبب

يوجب القتل ، فقد جعلنا لمستحق دمه — وهو من يلى أمره بعد وفاته ، أو الحاكم عند عدم وجود وارث— تسلطاً على القاتل فى مؤاخذته ، إن شاء قتله ، وإن شاء عفا عنه ، (وقد ذكرنا ذلك مفصلا فى الصفحة ٥٩ من تفسير الجزء الخامس ، عند قوله تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ . . . » ؛ فلا يسرف الولىّ فى القتل ، ولا يتجاوز الحد المشروع ، بأن يمثل بالقاتل ، أو يقتل غيره ويترك القاتل ، أو يقتله بغير ما قتل من الأداة ، أو يقتل اثنين والمقتول واحد ، إن الولىّ كان منصوراً من المولى سبحانه وتعالى ، حيث أوجب القصاص أو الدّيَة ، وأمَرَ الحكام بمعاونته ونصرته فى استيفاء حقه ، فعليه ألا يطلب ما وراء حقه ؛ وهذه الآية مدنية .

٤ — ولا تدنوا من مال اليتيم وتتعرضوا له — فضلا عن التصرف فيه — إلا بالطريقة التى هى أحسن لماله ، كتثميره لإنمائه ، والإنفاق منه على اليتيم فى تربيته وتعليمه ، حتى يبلغ قوته ، ويمكنه بعقله ورشده القيام بمصالح ماله ، وأوفوا بما عهد الله إليكم فيه ، وكلفكم القيام به ، من حيث الحرص عليه ، وتثميره لإنمائه ، إن الوفاء بالعهد كان مطلوباً من المعاهِد أن يوفيه ولا يضيعه .

٥ — وأتموا الكيل وقت كيلكم للمشترين ، ولا تبخسوهم فيه ، وزنوا بالميزان العادل السوىّ ، فإن إيفاء الكيل وإقامة الوزن خير لكم فى الدنيا ، لأنه يرغب الناس فى معاملتكم ، ويجلب الثناء الجميل لكم ، وأحسن مآلا وعاقبة لكم فى الآخرة ، لما فيه من الثواب الجزيل من المولى جل وعلا .

٦ — ولا تتبع ما لا تعلم ، ولا يعنيك أمره ، بالحَدْس والظن رجماً بالغيب ، ما لم يتعلق به اعتقادك الراجح ، المؤيد بالسند والدليل ، إن السمع

والبصر والفؤاد ، أولئك الأعضاء كل واحد منها مسئول عما فعل صاحبه ، فالفؤاد يسأل عما فكر فيه واعتقده ، والسمع عما سمع ، والبصر عما رأى ، فالإنسان راع على جوارحه ، فلا يقل : سمعت وهو لم يسمع ، ولا رأيت وهو لم يره ، ولا علمت وهو لم يعلم ، قال تعالى : « حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » ، أما ما علمه الإنسان ، وغلب على ظنه وقوعه ، فيجوز له أن يحكم به .

٧ — وكن متواضعاً ، ولا تمش فى الأرض فى خُيَلاء وكبر ، وصلف وفخر ، إنك لن تستطيع أن تجعل فى الأرض خرقاً من شدة وطأتك عليها بكبرك ، ولن تساوى الجبال بطولك بتعاظمك ومد قامتك .

٨ — كل هذه الخصال الذميمة — مما أمر الله بتركه ونهى عنه — كان عمله السيئ مكروهاً مبغضاً عند ربك .

٩ — ذلك الذى تقدم بعض ما أوحى به إليك ربك يا محمد من الموعظة ، والأفعال التى تقتضيها حكمة الله عز وجل فى عباده ، ولا تجعل مع الله أيها المكلف إلهاً آخر ، فتلقى فى جهنم ملوماً تلوم نفسك على تقصيرك ، مطروداً من رحمة الله ، مقصًى مهاناً .

(٦)

من الآية ٤٠ إلى الآية ٤٤ من سورة الإسراء

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ ، وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً —١— . وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ، وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً —٢— . قُلْ : لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ، إِذَنْ لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا —٣— . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا —٤— . تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أفأصفاكم ربكم بالبنين	أفخصكم أيها المشركون بأفضل الأولاد ، وهم البنون ؟
صرّفنا	كررنا هذا المعنى فى صور وعد ووعيد .

الألفاظ	شرحها
ليذكروا	ليتعظوا .
نفوراً	بعداً عن الحق .
لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا	لطلبوا إلى مالك الملك سبيلا ، كأنهم شركاء له .
تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن	تدل على كمال قدرته ، وأنه وحده هو خالقهما (هذا المعنى منقول عن « لسان العرب » .)

مجمل المعنى

١ — أفخصكم الله بالبنين أيها المشركون ، الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله ، وفضلكم على نفسه بأفضل الأولاد ، وأخلصهم لكم ، وآثر لذاته العلية أدناهم ، وقد أشار الله تعالى إلى مثل هذا فى مواضع أخرى ، كقوله : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » ، وقوله تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى » ؟ إنكم لتقولون أيها المشركون بهذا الاجتراء على مقام الألوهية منكراً من القول وزوراً .

٢ — ولقد كررنا وبيّنا المواعظ والعبر والأمثال فى هذا القرآن على صور مختلفة ، وعبّرنا لكم عنها فيه بأساليب متنوعة ، ولكنْ ما يزيدهم التصرف والتذكير إلا تباعداً وإعراضاً عن الحق ، وتغافلا عن النظر والاعتبار ، فهم كالدواب النافرة ، يدعوها صاحبها إلى المرعى فتشرد .

٣ — قل يا محمد لعبّاد الأصنام : لو كان مع الله فى الكون آلهة أخرى كما يقولون ، إذن لطلب هؤلاء الآلهة طريقاً إلى ذى العرش للوصول إليه

ونازعوه ملكه ، كأنهم شركاء له فيه ، كما هو الشأن بين الملوك فى الأرض .

٤ — تنزيهاً لله مالك الملك عن أن يكون له شريك فى ملكه ، بعد أن قام الدليل القاطع على وحدانيته ، وعلا علواً كبيراً متباعداً غاية البعد عن الشريك والنظير .

٥ — إن الكواكب السبع السيارة التى تَسْبَحُ فى أفلاكها ، وما بينها من شدة التماسك والتجاذب ، ومن فيها من العوالم ، والأرض ومن تشتمل عليه ، لتَدل بلسان الحال على وجود الخالق جل وعلا ، ووحدانيته وكمال قدرته ، وما من شىء فى الكون إلا ينطق بأن الله خالق قادر ، فهذه المخلوقات العظيمة تدل على وحدانية الإله القادر ، وأنه خالقها ، ولكن المشركين لعنادهم وعدم تدبرهم ، لا يفهمون هذا الدليل الواضح ، ولا يفكرون فيه ، لإعراضهم عن النظر فى آثار قدرة الله ، قال تعالى : «وكأيِّنْ من آية فى السموات والأرض يمرون عليها ، وهم عنها معرضون » ؛ هذا هو المعنى الذى فهمناه من هذه الآية ، يدل عليه أن الله تعالى ختمها بقوله : « إنه كان حليماً غفوراً » ، والمراد : أنه لحلمه لا يعاجل المشركين المعاندين بالعقوبة على إعراضهم وشركهم ، وتغافلهم عن النظر الصحيح الموصل إلى التوحيد ، وأنه يغفر لمن تاب منهم وآمن .

(٧)

من الآية ٤٥ إلى الآية ٥٢ من سورة الإسراء

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ، وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا —١— . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً —٢— . انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ، فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . وَقَالُوا : أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ، أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ؟ —٣— . قُلْ : كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ : مَنْ يُعِيدُنَا ؟ قُلِ : الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ، وَيَقُولُونَ : مَتَى هُوَ ؟ قُلْ : عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ، يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ، وَتَظُنُّونَ : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حجاباً مستوراً	حجاباً معنويـًّا غير مرئى ، يمنعهم من فهم ماتقرؤه عليهم .
أكنّـة أن يفقهوه	أغطية تمنعهم من أن يتدبروه ، جمع كِـنان .
وفى آذانهم وقراً	وفى آذانهم ثقلا يمنعهم أن يسمعوه .
ولّـوا على أدبارهم نُفوراً	هربوا نافرين من استماع كلمة التوحيد .
بما يستمعون به	بالذى يستمعون من أجله .
وإذ هم نجوى	وإذ هم يتشاورون فى شأنك بدار الندوة ، ونجوى : جمع نجِىّ .
مسحوراً	سُـحر فزال عقله فهذى .
ضربوا لك الأمثال	مثلوك بالشاعر والساحر ، والكاهن والمجنون .
فلا يستطيعون سبيلا	فلا يستطيعون طريقاً إلى طعن يمكن أن يقبله عاقل غير متحيز .
رُفاتاً	حطاماً ، وهو ما تكسر وبَلِـىَ .
أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم	أو خلقاً مما تستبعدون قبوله للحياة .
فطركم	خلقكم .
فسينغضون إليك رءوسهم	فسيحرّكون إليك رءوسهم تعجباً واستهزاء .
متى هو	متى البعث ؟
فتستجيبون بحمده	فتجيبون دعوته من القبور بأمره .
إن لبثتم إلا قليلا	ما لبثتم فى قبوركم إلا وقتاً قصيراً .

عدوان الكفار

كان جماعة من قريش يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن ، فيقوم عن يمينه رجلان ، وعن يساره آخران ، يصفقون ويصفرون ، وكان أبو سفيان والنضر بن الحارث وأبو جهل يجلسون أحياناً فى مجلس النبىّ ، فقال النضر يوماً : ما أدرى ما يقول محمد ، غير أنى أرى شفتيه تتحركان ، وقال أبو جهل : هو مجنون ، وقال أبو لهب : هو كاهن ، وقال حُوَيطب ابن عبد العُزَّى : هو شاعر .

مجمل المعنى

١ — وإذا قرأت القرآن يا محمد ، جعلنا بقدرتنا ومشيئتنا بينك وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة ، حجاباً يحجب قلوبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم ، حتى لا تنتفع به عقولهم ، عقوبة مِنّا لهم على كفرهم وعنادهم ، لأنهم مطبوعون على الانهماك فى الضلال ، وجعلنا على قلوبهم أغطية تمنعهم أن يدركوا ما فيه من بالغ الحكم ، وروائع المعانى ، وذلك لما يتغشاها من منع الله إياها من فهم ما يتلى ، وجعلنا فى آذانهم ثقلا حتى لا يسمعوه ، ولذلك كانوا يقولون كما أخبر الله عنهم : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، وهو تمثيل يراد به : أنهم لشدة عنادهم ، وكثرة مكابرتهم ، يعترى مشاعرهم ما يُبْطلها ، وإذا ذكرت ربك فى القرآن ، ووصفته بالوحدانية ، هربوا نافرين من استماع كلمة التوحيد استنكاراً ، واستفظاعاً من أن تنفذ إلى مسامعهم .

٢ — نحن أعلم بالغرض الذى يستمعون إليك من أجله ، حين يستمعون إلى قراءتك ، وبما يتشاورون فيه سرًّا من المؤامرات فى دار الندوة ، حين يتناجون فى الإثم والعدوان ومعصيتك ، فإنهم لا يقصدون من الاستماع

إليك إلا الهزء بك ، والسخرية منك ، فالظالمون الجاحدون لدينك ، كأبى جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهما ، يقول : إنكم ما تتبعون إلا رجلا خبله السحر فزال عقله، فاختلط عليه أمره ، فجُنَّ وهذى، ليُنفِّروا الناس منك .

٣ — انظر يا محمد كيف مثلوك تارة بالشاعر ، وآناً بالساحر ، وطوراً بالكاهن ، وآخر بالمجنون، مع اعتقادهم بخلاف ما يدّعون ،فضلُّوا عن الحق ، ومنهاج المحاجّة ، فلا يستطيعون طريقاً إلى طعن يمكن أن يقبله عاقل غير متحيز ، فهم يخبطون خبط عشواء ، فى الليلة الظلماء ، وقالوا لمّا سمعوا أمر بعث الخلق للحساب يوم القيامة: أئذا كنا عظاماً نَخِرة وحُطاماً بالياً ، أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ، فنحيا بعد الموت ؟

٤ — قل لهم يا محمد جواباً عما استبعدوه : كونوا حجارة أو حديداً فى الشدة والقوة ، أو خلقاً مما يعظم فى اعتقادكم ، وتستبعدون قبوله للحياة لكونه أبعد شىء عنها ، فإن الله تعالى لا يعجزه إحياؤكم ، وإيجاد الروح فيكم ، فسيقولون لك : من يعيدنا إلى الحياة بعد موتنا ؟ فقل لهم : يعيدكم الذى خلقكم ابتداء أول مرة ، والقادر على البدء قادر على الإعادة ، بل هى أهون عليه ، فسيحركون إليك رءوسهم تعجباً ، ويقولون استهزاء : ومتى البعث الذى زعمته ؟ فقل لهم : يرجى أن يكون قريباً ، فإن كل ما هو آت قريب ، فالبعث يكون يوم تنادَون من القبور إلى الحشر ، فتستجيبون أيها الكفار للنداء مذعنين للأمر ، وتقولون : يا ويلنا ؛ من بعثنا من مرقدنا هذا ؟ وتنفضون الترّاب عن رءوسكم ، وتظنون أن مدة لبثكم فى القبور كانت قصيرة .

(٨)

من الآية ٥٣ إلى الآية ٦٠ من سورة الإسراء

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا —١— . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ، إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا —٢— . وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا —٣— . قُلِ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا —٤— . أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ، يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ، وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا —٥— . وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا —٦— . وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا —٧— . وَإِذْ قُلْنَا لَكَ : إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ، وَمَا جَعَلْنَا

الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ ، فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا -٨- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لعبادى	للمؤمنين من عبادي .
التى هى أحسن	الكلمة التى هى أحسن للمشركين ، ولا يخاشنوهم.
ينزغ بينهم	يفسد بينهم ، ويهيج الشر والجدل .
وكيلا	موكولا إليك أمر المشركين ، فتجبرهم على الإيمان .
زبوراً	الزبور : كتاب أنزل على داود ، ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد ، وبعض الأوامر والنواهى.
زعمتم من دونه	زعمتم أنهم آلهة من دون الله .
ولا تحويلا	ولا تحويل الضر عنكم إلى غيركم .
أولئك الذين يدعون	أولئك الذين يعبدونهم من دون الله .
يبتغون إلى ربهم الوسيلة	يطلبون القربة والطاعة لله .
أيهم أقرب	يبتغون ما هو أقرب إلى الله ، من الزلفى والطاعة له.
كان محذوراً	كان جديراً أن يحذره كل أحد .
وإن من قرية	ما من قرية .
مسطورا	مكتوباً .
ومامنعنا أن نرسل بالآيات	ما منعنا أن ننفذ المعجزات التى اقترحتها قريش .

الألفاظ	شرحها
وآتينا ثمود الناقة مبصرة	وآتينا قبيلة ثمود معجزة الناقة بينة واضحة .
فظلموا بها	فكفروا بها .
أحاط بالناس	أحاط علماً وقدرة بالناس ، لأنهم فى قبضته .
الرؤيا التى أريناك	الرؤية التى أريناكها ليلة الإسراء .
إلا فتنة للناس	إلا اختباراً للناس ، ليتميز الثابت الإيمان من المتردد .
الشجرة الملعونة	شجرة الزقوم التى جعلناها فتنة للناس أيضاً .

مجمل المعنى

١ — قل يا محمد لعبادى المؤمنين : يقولوا العبارات والألفاظ التى هى أحسن ، فإن حدث بينهم وبين المشركين جدال فلا يخاشنوهم ، وقد قال الله فى موضع آخر : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » ، إن الشيطان يفسد بين الفريقين ، ويهيج الشر بالمخاشنة بين المؤمنين والكفار ، إن الشيطان ديدنه بذر بذور الفساد بين الناس ، لأنه عدو لهم ، ظاهر العداوة منذ أبيهم آدم ؛ روى أن رجلا من المشركين شتم عمر بعد إسلامه ، فهمّ به ، وكادت تحدث فتنة ، لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بالعفو .

٢ — قولوا أيها المؤمنون للمشركين فى غير عنف ولا مخاشنة : ربكم أعلم بكم ، إن شاء رحمتكم ، رحمكم بالتوبة والتوفيق إلى الإيمان ، وإن شاء عذابكم ، عذبكم بإماتتكم على الكفر ، وعلّقوا أمرهم على مشيئة الله ، ولا تصرحوا لهم بأنهم من أهل النار ، فإن هذا يهيج الشر بينكم ، وأنتم ما زلتم قلة ،

وما أرسلناك يا محمد ، ووكلنا إليك إجبار الكفار على الإيمان ، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً ، فدار الكفار ، ومُرْ أصحابك بمداراتهم ، وتحمَّل أذاهم ، حتى نأذن لك فى قتالهم .

٣ — ولما أنكرت قريش على محمد أن يكون رسولا إليهم ، واستبعدوا أن يكون يتيم أبى طالب نبيًّا ، وأن يكون العراة الجوَّعُ كصهيب وبلال وخبَّاب صحابته ، دون أن يكون صحابته من أشراف قريش وصناديدهم ، وقالوا : « لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، نزل قوله تعالى : « وربك أعلم بمن فى السموات والأرض . . . » والمعنى : أن ربك سبحانه وتعالى أعلم بمن فى السموات والأرض ، فيصطفى للنبوة من يشاء من عباده ، ويفضله على من أرسل إليهم ، بل الأنبياء أنفسهم فضّلنا بَعضهم على بعض ، فإبراهيم آثرناه بالخُلَّة ، وموسى ميزناه بالكلام ، ومحمد فضلناه بالإسراء ، فليست العبرة بكثرة الأولاد والأتباع ، وحتى داود ، فإن شرفه بنبوته ، وبما أوحى إليه من الزبور ، لا بما أوتيه من الملك ، وفى ذكر الزبور إيماء إلى ما كتب فيه ، وذكره الله فى قوله : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ، أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ، فإن فيه إشارة إلى أن النصر مكفول لرسول الله وصحابته .

٤ — قل يا محمد لمن عارضوا دعوتك ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً : ادعوا الذين زعمتموهم آلهة من دون الله ، مهما علت أقدارهم فى نظركم ، كالملائكة والجن ، والمسيح وعُزَير ، فإنهم لا يستطيعون كشف الضر عنكم ، كالفقر والمرض والقحط ، ولا تحويله ونقله عنكم إلى غيركم ، ممن لم يعبدوهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلا يصح أن يكونوا آلهة ، ولا يليق بكم أن تعبدوا من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا .

٥ — أولئك المشركون الذين يدعون غير الله ، ويسمونهم آلهة ، إنما يطلبون

أن تكون هذه الآلهة زلفى وطاعة إلى الله جل شأنه ، مع أن هذه الآلهة نفسها تبتغى ما هو أقرب إلى الله ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، كغيرهم من سائر العباد ، فكيف تزعمون أنهم آلهة ، إن عذاب ربك كان جديراً أن يحذره كل أحد، حتى الرسل والملائكة ؛ وهذه الآية مدنية .

٦ — وما من قرية ظالمة ، إلا ونحن مخربوها ، ومهلكو أهلها بالموت والاستئصال قبل يوم القيامة ، « وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » ، أو معذبوها عذاباً شديداً بأنواع البلاء ؛ كان ذلك الإهلاك والتعذيب مكتوباً فى اللوح المحفوظ .

٧ — وما صرفنَا عن تحقيق ما اقترحته قريش من المعجزات ، كجعل جبل الصفا ذهباً ، وتنحية الجبال عن مكة حتى يزرعوا مكانها ، إلا تكذيب الأولين من الأمم لأمثالها ، كعاد وثمود ، وأننا لو أتينا بالمعجزات ، فكذبها كفار قريش تكذيب الأولين لها ، لاستوجبوا عذاب الاستئصال على ما جرت به سنتنا ، وقد قضينا بإمهالهم لإتمام أمر رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى سبيل المثال قد أيدنا صالحاً بالناقة ، وأخرجناها لقومه من الصخرة كما اقترحوا ، وكانت معجزة بيّنة واضحة ، دالة على صدق صالح ، ولكن قومه ثمود كفروا به ، وجحدوا أنها معجزة من الله لتصديق رسوله ، وظلموا أنفسهم بعقر الناقة ، فنكلنا بهم ، فنحن لا نأتى بالمعجزات إلا للتخويف وإنذار من أرسلنا إليهم رسلنا ، فإن لج الكفار فى غَوايتهم وضلالهم ، بطشنا بهم ، وأخذناهم أخذ عزيز مقتدر .

٨ — واذكر يا محمد يوم أوحينا إليك أن ربك أحاط بالناس علماً وقدرة ، وأنهم فى قبضة يده ، فبلّغهم ، وامض لما أمرناك به ، ولا تخش بأساً ، فإنا عاصموك وحافظوك من شرهم ، وما جعلنا الرؤية التى أريناكها عِياناً ليلة الإسراء ، وعاينت ما عاينت من العجائب ، إلا لنميز الثابت على

إيمانه ، المصدق لما جئت به ، من المتردد الواهن العقيدة — وقد ارتد بعض هؤلاء — والرؤيا تكون بمعنى الرؤية ، قال الراعى :

فكبّر للرؤيا وهَشّ فؤادُه وبشر نفساً كان قبلُ يلومها

وما أخبرناك بالشجرة الملعونة فى القرآن ، التى يلعَن طاعمها من الكفار ، وهى شجرة الزقوم التى تنبت من أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين — إلا للاختبار والابتلاء أيضاً ، فقد قال أبو جهل ، حين سمع بشجرة الزقوم : إن هذا الشجر ما ينبت فى بلادنا ، فمن منكم يعرف الزقوم ؟ فقال رجل قدم عليهم من إفريقية : الزّقوم بلغة إفريقية : الزُّبد والتّمر ، فقال أبو جهل : هات لنا تمراً وزبداً نزدقمه ، فجعلوا يأكلون ويقولون : أفبهذا يخوفنا محمد من الآخرة ؟ فبيّن الله وصفها الذى سبق ذكره ، وقال أحد الكفار حين سمع خبرها : إن محمداً يزعم أن الجحيم تُحرق الحجارة ، ثم يقول : إن شجرة الزقوم تنبت فى أصل الجحيم ، مع أن النار تحرق الشجر ، فكيف تُنبته ؟ وغاب عن هذا الكافر وأمثاله ، أن من قدر على حماية وبر السمندل من أن تأكله النار ، وأحشاء النعامة من أذى الحجر وقطع الحديد المُحْماة التى تبتلعها ، قادر على أن يخلق فى النار شجرة لا تحرقها ؛ (والسمندل — كما فى لسان العرب — : طائر إذا انقطع نسله وهرم ، ألقى نفسه فى الجمر ، فيعود إليه شبابه ، أو هو دابة تدخل النار فلا تُحرقها ، وزاد صاحب القاموس المحيط : أنه طائر بالهند ، وقال النسفى : إنه دويبة ببلاد الترك) ، وو بر السمندل تصنع منه مناديل ، فإذا اتسخت ألقيت فى النار فيذهب الوسخ منها ، وتبقى المناديل سالمة ؛ ونُخوّف الكفار بأنواع التخويف — ومنها شجرة الزقوم — فما يزيدهم التخويف إلا عتوًّا كبيراً ، وقد اقتضت مشيئتنا أيها الرسول ألا نعذبهم وأنت فيهم .

(٩)

من الآية ٦١ إلى الآية ٦٥ من سورة الإسراء

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ، إِلَّا إِبْلِيسَ ، قَالَ : أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ؟ قَالَ : أَرَأَيْتَكَ هٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ، لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا –١– . قَالَ : اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا –٢– . وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ، وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، وَعِدْهُمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا –٣– . إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا –٤–

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اسجدوا لآدم	حيوه بالانحناء تكريماً له .
لمن خلقت طيناً	لمن خلقت من الطين .
أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ	أخبرنى عن هذا الذى فضلت علىّ ، فأمرتنى بالسجود له .

الألفاظ	شرحها
لأحتنكن ذريته	لأستولين على ذريته بالإغواء .
جزاؤكم جزاء موفوراً	جزاؤك أنت وهم جزاء وافراً كاملا .
استفزز	استخفّ واستزل .
وأجلب عليهم بخيلك ورجلك	وصِحْ عليهم بأتباعك وجنودك ، من راكب وراجل.
وشاركهم فى الأموال	واحملهم على كسب الأموال من الحرام ، بالربا والنصب والسرقة .
والأولاد	واحملهم على الإتيان بالأولاد من الزنى ، وقتلهم خشية الفقر أو العار .
وعدهم	وعدهم المواعيد الباطلة ، كشفاعة الآلهة والأولياء ، وأن لا بعث ولا جزاء .
إن عبادى	إن المؤمنين المخلصين من عبادى .
سلطان	تسلط ونفوذ .

ذكرنا طرفاً من قصة إبليس مع آدم فى الصفحة ٣٧ من تفسير الجزء الأول ، والصفحة ٦٥ من تفسير الجزء الثامن ، والصفحة ١٧ من تفسير الجزء الرابع عشر ، ونذكر هنا أن المولى جل وعلا لما أمر إبليس أن يحنى رأسه تكريماً لآدم ، أبى واستكبر ، وقال : أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين ، فكيف أسجد له ؟ فأبقنى حيًّا إلى يوم القيامة ، فلئن أمهلتنى لأضلّن ذريته عن الطريق المستقيم ، فطرده الله من الجنة ، وتوعّد كل من يستمع إلى وسوسته بالعذاب الأليم .

مجمل المعنى

١ — واذكر يا محمد يوم قلنا للملائكة : حيُّوا آدم وكرموه بالانحناء له ، فامتثلوا أمرى ، إلا إبليس فإنه أبى واستكبر ، وقال : أنا أفضل من آدم ، فإنى مخلوق من نار ، وهو مخلوق من طين ، وجوهر النار خير من جوهر الطين ، فكيف أسجد له وأنا خير منه ؟ أخبرنى مَن هذا الذى فضلته علىَّ ، بأن أمرتنى بالسجود له ، لم فضلته علىَّ وأنا خير منه ؟ ولئن أخرتنى فأبقيتنى حيًّا إلى يوم القيامة ، لأستولين على ذريته بالإغواء ، ولأقودنهم إلى حيث أردت ، ولأضلَّنهم ولأمنِّينَّهم ، ولأزينن لهم فى الأرض ، إلا قليلا منهم ممن عصمته ، فلا أقدر على إغوائه ، « ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه ، إلا فريقاً من المؤمنين » .

٢ — فقال الله تعالى له : اذهب ، واجهد جهدك ، وسوف يحل بك وبهم العذاب الأليم ، اذهب فإنك من المنظرين إلى يوم البعث ، فمن تبعك من الخلائق ، وأطاعك وضل عن الطريق السوىّ ، فإن جهنم جزاؤكم أنت وهم ، جزاء وافراً كاملا .

٣ — واستخفَّ من استطعت إغواءه من خلقى بوسوستك ، ودعائك إياهم إلى الفساد والمعاصى ، واستماع الغناء والمزامير ، والانغماس فى اللهو والباطل ، واستزلهم بإضلالك ، وصِح عليهم بأتباعك وأعوانك ، وجنودك من خيَّالة ورجَّالة ، ومن شاركك فى الدعاء إلى معصية الله ، وسُقْهم إليها بما تستطيع من الجلبة ، وشاركهم فى أموالهم المحرَّمة ، بكسبها وجمعها من الحرام ، بربا أو غصب أو سرقة ، أو معاملات فاسدة أو نحوها ، والتصرف فيها بإنفاقها فى المحرمات والمعاصى ، وشاركهم فى الأولاد ،

بحثهم على الطريق الموصل إليهم بالزنى ، وحملهم على اعتناق الأديان الزائفة ، والأفعال القبيحة ، وقتلهم خشية الفقر أو العار ، وتسميتهم أسماء لا يقرها الدين ، كعبد العزّى وعبد المسيح ، وعِدْهم المواعيد الكاذبة ، ومنّهم الأمانىّ الباطلة ، كشفاعة الآلهة والأولياء عند الله ، وأن لا قيامة ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب ، وما يعدهم الشيطان إلا مواعيد باطلة ، بتزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب

٤ — إن المخلصين من عبادى المؤمنين قد حفظتهم من إغوائك ، فليس لك نفوذ ولا قدرة على إغوائهم ، وكفى بربك حافظاً وعاصماً لهم من كيدك ومكرك ، وحامياً لهم من إغوائك ، فهم يتوكلون على ربهم فى الاستعاذة منك ، والنجاة من وسوستك ، فإن كنت قادراً على الوسوسة ، فالله أقدر منك على رد كيدك فى نحرك .

(١٠)

من الآية ٦٦ إلى الآية ٧٠ من سورة الإسراء

رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً —١— . وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا —٢— . أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ؟ —٣— . أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ ، فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ؟ —٤— . وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يزجى لكم الفلك فى البحر	يجرى لكم السفن فى البحر بالرياح التى يسوقها .
لتبتغوا من فضله	لتطلبوا الرزق من فضله بالتجارة والسلع المتبادلة .
وإذا مسكم الضر فى البحر	وإذا مسكم ضر فى البحر بتعرضكم للغرق .
ضل من تدعون إلا إياه	غاب عنكم وذهب عن خواطركم من تعبدون ، وتذكرتم الله .
أن يخسف بكم جانب البر	أن يقلب بكم جانباً من البر وأنتم فوقه .
أو يرسل عليكم حاصباً	أو يرسل عليكم ريحاً تقذفكم بالحصباء .
وكيلا	حافظاً ونصيراً .
يعيدكم فيه تارة أخرى	يعيدكم إلى البحر مرة أخرى .
قاصفاً من الريح	ريحاً عاصفاً لا تمر بشىء إلا قصفته .
تبيعاً	تابعاً يطالبنا بثأركم .

مجمل المعنى

١ — ربكم الذى يجرى لكم السفن فى البحر بالرياح التى يرسلها ، أو بإلهام عباده أن يخترعوا البخار ونحوه مما يحركها ويسوقها ، لتطلبوا الرزق من فضله بالتجارة ، فتنقل هذه السفن الناس والسلع التى لا تكون عندكم إليكم ، وتنقل سلعكم إلى غيركم ، إنه كان بكم رحيماً ، إذ هيأ لكم ما تحتاجون إليه ، وسهل لكم ما تعسر من أسبابه .

٢ — وإذا مسكم ضرر فى البحر ، من عصف الرياح واصطخاب الأمواج ، فتعرضتم للغرق ، تذكرتم أنه لن ينجيكم من شدتكم إلا الله القادر ، فذهب عن خواطركم كل من تعبدونه من الآلهة ، لعجزه عن إغاثتكم ، وتذكرتم الله وحده ، فلا يخطر ببالكم سواه ، ولا تلجئون إلا إليه ، لينقذكم من ورطتكم ، ويكشف الضر عنكم ، فلما نجاكم من الغرق ، وأوصلكم إلى البر سالمين ، أعرضتم عن ذكره ، وجحدتم فضله ، وعدتم إلى شِنشِنتكم من الشرك، وأوغلتم فى كفران نعمته ، وكان الإنسان جحوداً لنعمة الله ، لا يعرفه إلا عند ما ينوبه المكروه ، « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » .

٣ — أنجوتم فأمنتم ، فحملكم هذا على الإعراض عمن أنجاكم إلى البر سالمين ؟ وغاب عنكم أن من كان قادراً على إهلاككم فى البحر بالغرق ، قادر على إهلاككم فى البر بالخسْف ، بأن ينهار بكم جانب من الأرض كما فعل بقارون ، أو يرسل عليكم ريحاً شديداً تصب عليكم مطراً من الحصباء — وهى صغار الحجارة — فتجتاحكم كما فعل بقوم لوط ، ثم لا تجدوا لكم أيضاً فى البر حافظاً أو نصيراً ، يمنعكم من بأس الله ، فإنه لا رادّ لما قضاه .

٤ — بل أأمنتم أن يعيدكم الله فى البحر مرة أخرى ، بخلق الدواعى التى تلجئكم إليه ، فيرسل عليكم وأنتم فى البحر ريحاً عاصفاً ، لا تمر بشىء إلا قصفته ، فتكسر سفنكم ، وتشتت شملكم ، وتغرقكم بسبب كفركم ، ثم لا تجدوا لكم ناصراً علينا ، وتابعاً يطالبنا بالثأر لكم ، بسبب ما فعلنا بكم .

٥ — ولقد كرمنا بنى آدم ، وآثرناهم على غيرهم من الأحياء بحسن الصورة ،

واعتدال القامة ، ولبس الثياب ، والتمييز بالعقل ، والإفهام بالنطق والإشارة والخط ، والاهتداء إلى أسباب المعاش والمعاد ، والتسلط على ما فى الأرض من حيوان ونبات وجماد ، والتمكن من الصناعات ، وغير ذلك ، وحملناهم فى البر على الدواب والسيارات ، وفى البحر على السفن الشراعية والبخارية ، وفى الجو على الطائرات ، ورزقناهم من فنون النعم ، ولذائذ المطاعم والمشارب ، وفضلناهم تفضيلا على كثير ممن خلقنا ، كالبهائم والوحوش والطيور ، بالتسلط والتسخير والاستيلاء .

(١١)

من الآية ٧١ إلى الآية ٧٧ من سورة الإسراء

يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ، وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا —١— . وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ، وَأَضَلُّ سَبِيلًا —٢— . وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذَنْ لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذَنْ لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا —٣— . وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذَنْ لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا —٤— . سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ندعو كل أناس بإمامهم	ندعو كل أناس ، ومعهم الصحف التى فيها أعمالهم .
أوتى كتابه بيمينه	أعطى صحيفة أعماله بيده اليمنى .
فى هذه أعمى	فى هذه الدنيا أعمى عن الحق .
فهو فى الآخرة أعمى	فهو فى الآخرة أعمى عن طريق النجاة .
وإن كادوا ليفتنونك	إن أهل ثقيف قاربوا أن يخدعوك .
تركن إليهم	تميل إليهم .
ضعف الحياة وضعف الممات	مثلَىْ عذاب ما يعذب به غيرك فى الدنيا والآخرة .
وإن كادوا ليستفزونك من الأرض	وإن اليهود بالمدينة قاربوا أن يزعجوك ، لحملك على خفة الهرب ، ويخرجوك من المدينة .
خلافك	بعدك .
سنة من قد أرسلنا	سنتنا معك سنة من أرسلناهم قبلك .
تحويلا	تغييراً .

هذا شروع فى تفاوت أحوال بنى آدم فى الآخرة ، بعد بيان أحوالهم فى الدنيا .

مجمل المعنى

١ — اذكر يا محمد للناس أحوال يوم القيامة ، يوم ندعو كل أناس ، ومعهم الكتاب الذى فيه أعمالهم ، ويسمى الكتاب إماماً ، كما فى قوله : « وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » ، فمن أعطى صحيفة أعماله من هؤلاء المدعوين بيمينه تشريفاً لصاحبها ، وتبشيراً له ، فأولئك بعد أن يقرءوا صحفهم ، ويقفوا على رجحان حسناتهم على سيئاتهم ، يأتون أهل المحشر مغتبطين مبتهجين ، يقولون لهم : هاؤم اقرءوا كتابيه ، ثم يقرءون عليهم صحفهم ، فيعلمون أنهم لا ينقصون شيئاً من أجور أعمالهم فى الدنيا ، مهما كان تافهاً حقيراً ، ولو كان قدر الفَتيل — وهو الخيط فى شق النواة — ويتضح من هذا أن من أوتى كتابه بشماله ، إذا اطلع عليه غشيه من الخجل والحيرة والغم ، ما يحبس لسانه عن القراءة .

٢ — ومن كان فى هذه الدنيا من هؤلاء المدعوين أعمى عن الحق ، والنظر إلى ترادف نعم الله عليه ، وآثار قدرة الله فى السموات والأرض ، والبحار والجبال ، والناس والدواب ، فهو فى الآخرة أعمى عن طريق النجاة ، وقراءة كتابه ، وأضل طريقاً منه فى الدنيا ، لعدم إمكانه تدارك ما فاته ، ومثل هذا قوله تعالى : « ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رب ، لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » .

٣ — روى أن وفداً من ثقيف سكان الطائف ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا له : متِّعنا باللات سنة — وهو صنمهم — وأعفنا من الصلاة ، وحرِّم وادينا : شجره وطيره ووحشه ، كما حرمت مكة ، فأبى رسول الله

أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فكرروا ذلك عليه وألحوا ، وقالوا : إنا نحب أن يعرف العرب فضلنا عليهم — وكانوا ذوى بساتين وثروة عظيمة — فإن خشيتَ أن تقول العرب : أعطيتهم ما لم تعطنا ، فقل لهم : أمرنى الله بذلك ، فأمسك رسول الله عنهم ، وداخلَهم الطمع ، فصاح عمر رضى الله عنه فيهم : أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عن الكلام لما تذكرونه ؟ فأنزل الله قوله : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره » ، إلى قوله : « ثم لا تجد لك علينا نصيراً » ؛ وهذه الآيات الثلاث نزلت بالمدينة .

والمعنى : أن الثقفيين كادوا يخدعونك ، ويصرفونك عن أحكام القرآن الذى أنزلناه عليك ، بطلبهم ما يخالف الدين ، وقولهم : قل : الله أمرنى بذلك ، فتفترى علينا غير ما أوحيناه إليك ، ولو فعلت ما أرادوا ، إذن لاتخذوك خليلا لهم ، ووالوك وصافوك وصادقوك ، وأظهروا للناس أنك موافق على شركهم ، وأنك حابيتهم ، ولولا أن ثبتناك على الحق ، وعصمناك من الزلل ، لقد قاربت أن تميل إليهم شيئاً قليلا ، لشدة احتيالهم ، وكثرة إلحاحهم ، لكن حمتك عصمتنا إياك ، فسكتّ عن جوابهم ، فلو مكنتَ خواطر الشيطان من قلبك ، وعقدت همتك على تحقيق غرضهم ، إذن لا ستحققت بذلك تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ، فصار عذابك مثلَىْ عذاب غيرك فى الدنيا ، ومثلى عذابه فى الآخرة ، ثم لا تجد لك نصيراً ينصرك علينا ؛ ولما نزلت هذه الآيات ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » ، وتدل « كاد » على أنه لم يمل إلى موقفهم ، فإذا قلنا : كاد الأب يضرب ابنه ، لا يفهم منه أنه ضربه .

٤ — ولما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وانتشرت دعوته فيها وفى غيرها ، حسده اليهود ، وكرهوا قربه منهم ، فقالوا له ، فى مكر ودهاء : يا أبا القاسم ، إن الأنبياء إنما بعثوا فى الشام ، وهى بلاد مقدسة ، وأقام بها جدك إبراهيم ردحاً من الزمن ، فلو خرجت إلى الشام آمنا بك واتبعناك ، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلى الشام إلا الروم ، فإن كنت رسول الله فالله عاصمك ، كما عصم الأنبياء من قبلك ، فكاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل إلى رأيهم ، لشدة حرصه على دخول الناس فى دين الله ، فنزل قوله : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها . . . » ، وهذه الآية مدنية أيضاً ؛ والمعنى : أن اليهود لخبثهم ودهائهم ، كادوا يزعجونك ويستخفونك بعداوتهم ومكرهم ، ليحملوك على الخروج من المدينة ، ليخلو الجو لهم ، ولكن رددنا كيدهم فى نحرهم ، فهم لن يبقَوْا فى المدينة إلا زمناً قصيراً عقاباً لهم ، بعد أن بيَّنَّا لك سوء نيتهم ، وقد أنجز الله وعده بقتل قُرَيظة ، وإجلاء النضير .

٥ — لقد سَنَنَّا معك سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، وهى ألا ندع أمة تستفز رسولها لتخرجه من بين ظهرانَيْها ، إلا نكلنا بها ، ولن تجد لسنتنا تغييراً .

(١٢)

من الآية ٧٨ إلى الآية ٨٧ من سورة الإسراء

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا —١— . وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ، عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا —٢— . وَقُلْ : رَبِّ ، أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ، وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا —٣— . وَقُلْ : جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا —٤— . وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا —٥— . وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا —٦— . قُلْ : كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ، فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا —٧— . وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ : الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا —٨— . وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا . إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا —٩— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لدلوك الشمس	من وقت زوال الشمس ، وهو انتقالها من كبد السماء إلى ناحية الغرب .
غسق الليل	إلى وقت الظلمة فى أول الليل .
وقرآن الفجر	وصلاة الفجر ، وسميت قرآناً لأنه ركن فيها .
كان مشهوداً	كان مشهوداً فيه آثار قدرة الله .
ومن الليل فتهجد به	استيقظ بعض الليل للصلاة ، وقراءة القرآن .
نافلة لك	عبادة زائدة خاصة بك ، على الصلوات المفروضة.
عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً	لتكون على رجاء من ربك أن يبلغك الكمال اللائق بك .
سلطاناً نصيراً	قوة تنصرنى على الحق .
جاء الحق وزهق الباطل	جاء الإسلام وبطل الشرك .
زهوقاً	مضمحلا باطلا .
ما هو شفاء	ما هو وسيلة لإقامة الدين ، واستصلاح النفوس .
نأى بجانبه	لوى جانبه ، وتباعد واستكبر .
على شاكلته	على طريقته التى تشاكل أحواله ومذهبه .
ويسألونك عن الروح	وتسألك قريش عن الروح .
الروح من أمر ربى	الروح علمها عند ربى .
لنذهبن بالذى أوحينا إليك	لنمحوَن ما أنزلنا عليك من القرآن من الصدور والمصاحف .

الألفاظ	شرحها
لاتجد لك به علينا وكيلا إلا رحمة من ربك	لا تجد لك بعد ذهاب القرآن من تستعين به علينا فى استرداده ، وتكل إليه الأمر فى إعادته . لكنا أبقيناه على سبيل الرحمة .

بعد أن ذكر الله مكايد المعارضين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمره أن يُقبل على عبادة الله ، والآيات التى أولها : « أقم الصلاة لدلوك الشمس » ، إلى قوله : « سلطاناً نصيراً » ، نزلت بالمدينة .

مجمل المعنى

١ — أقم يا محمد الصلاة المفروضة ، من وقت زوال الشمس من كبد السماء وسط النهار ، إلى وقت ظلمة الليل ، وليس المراد إقامة الصلاة إقامة تستغرق ما بين هذين الوقتين ، بل إقامة كل صلاة فى وقتها المعين لها ، وهذه المدة تشمل صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وأقم قرآن الفجر — وهو صلاته — ؛ وذكر القرآن هنا للدلالة على أن قراءة القرآن ركن من أركان الصلاة ، ثم نوّه الله بفضل صلاة الفجر ، بأن فى وقتها مظهراً بارزاً من آثار قدرة الله وعظمته ، يشهده الإنسان إذا شرع يستعد لأداء صلاة الفجر ، وامتدت به قراءة القرآن فى أثنائها ، فإنه يشاهد أن العالم قد انقلب بقدرة الله وتدبيره ، من الظلمة إلى النور ، ودبت فى الناس الحركة ، فانتقلوا من الموت إلى الحياة ، ومن السكون إلى الحركة ، فيشهد أنه لا يقدر على هذا التغيير والتبديل إلا الخالق المدبر بالحكمة البالغة ، والقدرة العظيمة الباهرة .

٢ — واجعل يا محمد وقتاً من الليل تسهر وتستيقظ فيه ، تنفقه فى الصلاة وقراءة القرآن طاعة لله ، وعبادة زائدة على الصلوات المفروضة ، خاصة بك دون الأمة ، رجاء أن يبلغك ربك الكمال اللائق بك ، وأن تقوم فى الآخرة المقام المحمود الذى يحمدك فيه الأولون والآخرون ، وهو مقام الشفاعة العظمى فى فصل القضاء ، فإن قيام الليل مع مناجاة المولى ، هو الذى يتفاضل فيه الخلق ، وتتفاوت فيه درجاتهم ، فأجلُّهم على الإطلاق هو رسول الله ، ولذا خصصناه بهذه العبادة .

٣ — وقل : رب أدخلنى فيما أحمله من أعباء الرسالة مُدخل صدق ، وأخرجنى بعد أن تحين وفاتى مؤدياً حقك فيها من غير تفريط مُخرَج صدق ، واجعل لى من عندك قوة أنتصر بها على أعدائى ، وقد استجاب الله دعاءه بقوله : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » .

٤ — وقل عند فتح مكة وتكسير الأصنام التى على الكعبة — وهى ثلثمائة وستون صنما — : جاء الحق وزهق الباطل ، فجعل صلى الله عليه وسلم يطعنها بعود فى يده ، فكان إذا طعن صنما منها فى وجهه خرَّ لقفاه ، أو فى قفاه خرَّ لوجهه ، وهكذا جاء الإسلام وذهب الشرك ، إن الشرك كان ضعيفاً مضمحلا ، زائلا أمام الحق .

٥ — وننزل من القرآن ما هو شفاء من الضلالة ، وإقامةٌ للدين ، وإصلاح للنفوس ، كالدواء الشافى للمرضى ، وما هو رحمة للمؤمنين ، ففى قراءته تفريج للكروب ، وتطهير للعيوب ، وتكفير للذنوب ، ولا يزيد القرآن الكافرين — لتكذيبهم إياه ، وكفرهم به — إلا خسراناً مبيناً ، لأن سماعه يزيدهم غيظاً وغمًّا ، وحقداً وحسداً .

٦ — وإذا أنعمنا على الإنسان بالصحة وسعة الرزق ، أعرض عن ذكرنا ، ونسِيَنا كأنه مستغن عنا ، واستكبر وتباعد عن القيام بحقوقنا ، ولوى

جانبه عن طاعتنا ، وإذا مسَّه الشر : كمرض أو فقر أو كارثة ، كان يئوساً من رحمتنا ، لأنه لم يحسن القيام بواجبنا فى الرخاء ، حتى يرجو فضلنا فى الشدة .

٧ — قل يا محمد : كل أحد يعمل عمله على طريقته ومذهبه ، فربكم أعلم بمن هو أرشد طريقاً ومذهباً ،

٨ — وبعثت قريش النضر بن الحارث ، وعُقبة بن مُعَيط ، إلى أحبار المدينة ، وقالوا لهما : سلوهم عن محمد ، فإنهم أهل كتاب ، وعندهم فيه ما ليس عندنا ، فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألاهم عن محمد ، فقال أحبار اليهود : إن أمر الروح فى التوراة مبهم ، فسلوه عنها ، فعادا ، وأخبرا قريشاً بما قالوا ، فسألت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح ، فأوحى الله إليه أن يقول لهم : الروح مما استأثر به علم الله ، أبهمه ليدرك الإنسان عجزه عن علم حقيقة نفسه ، ولستم فى مقام من يستطيع إدراكها ، فما أوتيتم من العلم إلا قدراً ضئيلا ، لا يمكن أن يكون أساساً لمعرفة حقيقة الروح ، فلما هاجر رسول الله إلى المدينة ، أتاه أحبار اليهود ، فقالوا : يا محمد ، بلغنا عنك أنك تقول : وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، أفعنيتنا أم قومك ؟ فقال : كُلاًّ قد عنيت ، والرد مفحِم ، فقد عجزت الأوائل والأواخر عن إدراك الروح ، بعد ما أنفقوا الأعمار الطويلة فى البحث .

٩ — ولئن شئنا لنمحون القرآن الذى أوحيناه إليك من الصدور والمصاحف ، وحرمناكم ما فى القرآن من شفاء ورحمة ، ثم لا تجد لك بعد ذهاب القرآن من تستعين به علينا فى استرداده ، وتكل إليه الأمر فى إعادته محفوظاً مسطوراً ، ولكنا أبقيناه رحمة منا ومنة ، إن فضل ربك كان عليك كبيراً ، فقد اختارك للرسالة ، وأنزل عليك القرآن ، وأبقاه محفوظاً فى الصدور ، ومكتوباً فى المصاحف ، وخصك بالمقام المحمود ، وغير ذلك من الفضائل .

(١٣)

من الآية ٨٨ إلى الآية ٩٦ من سورة الإسراء

قلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا –١–. وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً –٢–. وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ ، فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ ، قُلْ : سُبْحَانَ رَبِّي ! هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا ؟ –٣–. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولًا . قُلْ : لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولًا –٤–. قُلْ : كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً –٥–.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ظهيراً	معيناً ومساعداً على الإتيان بمثله .
صرّفنا	بيّنا وكرّرنا فى صور وأساليب مختلفة .
ينبوعاً	عيناً ينبع منها الماء .
كِسفاً	قطعاً من العذاب .
قبيلا	ضامناً وكفيلا بصحة ما تدعيه ، أو شهيداً ، أو تراهم عِياناً .
زخرف	ذهب .
مطمئنين	ساكنين مقيمين فى الأرض .

مجمل المعنى

١ — لقد قال لك الكفار حين جابهتهم بالقرآن : [لو نشاء لقلنا مثل هذا — وهى من الآيات المكية فى سورة الأنفال — فقل لهم متحدياً : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى بلاغته وحسن نظمه ، وفى العرب أرباب البيان ، وأئمة الفصاحة ، وفحول البلاغة ، لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ، فيما أتى به من الشرائع والآداب والقصص والمواعظ ، بألفاظ عذبة ، وأسلوب رائع ، ولو كان بعضهم لبعض مساعداً ومعيناً ، لقد تحديناهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا ، وتحديناهم أن يأتوا بسورة واحدة ، بل بآية مثله ، ففشلوا .

٢ — ولقد بيّنا وكرّرنا فى هذا القرآن من كل مثل ، على صور مختلفة ، ووجوه وأساليب متنوعة ، زيادة فى التقرير والبيان ، من ترغيب وترهيب ، ووعد ووعيد ، وأوامر ونواه ، ليتعظ بها أهل مكة ، فأبى أكثرهم إلا جحوداً للحق ، وتمادياً فى الباطل .

٣ — واجتمع سادة قريش بعد عجزهم عن معارضة القرآن ، برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : إنا ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : شتمت الآباء ، وعبت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فإن كنت قد جئت بما جئت به تطلب مالا ، جمعنا لك حتى تكون أيسرنا ، وإن كنت تطلب الشرف سوّدناك علينا ، وإن كان الذى يأتيك مسّاً من الجن ، بذلنا أموالنا فى طلب الطب حتى تبرأ منه ، فقال لهم رسول الله : ما جئت أطلب شيئاً مما عرضتم ، ولكن بعثنى الله إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، قالوا : فإن كنت غير قابل شيئاً مما عرضناه عليك ، فإنك تعلم أنه ليس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماء منا ، فسل ربك فليسيِّر عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا ، وليُجْر لنا فى أرضنا أنهاراً كأنهار الشام ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا نسألهم عما تقول ، فقال : ما بهذا بعثت ، قالوا : فسل ربك أن يبعث معك ملَكاً يصدقك فيما تقول ، وأن يجعل لك جنات وقصوراً من ذهب وفضة ، يغنيك بها عما نراك تبتغيه ، فإنا نراك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك عند ربك ، فقال : ما بهذا بعثت إليكم ، فإن تردّوه أصبر عليكم ، حتى يحكم الله بينى وبينكم ، قالوا : فأسقط علينا كِسَفاً من السماء كما زعمت ، فقال : ذلك إلى الله ،

إن شاء أن يفعله فعل ، ثم قام عنهم ، وانصرف حزيناً لما فاته مما كان يطمع فيه من إيمانهم ، فنزل قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك . . . » إلى : « هل كنت إلا بشراً رسولا » ؛ والمعنى : وقال الكفار تعنتاً وإمعاناً فى العناد ، بعد أن ألزمتهم الحجة بإعجاز القرآن ، وانضمام غيره من المعجزات إليه :

ا — لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من أرض مكة عيناً ينبع منها الماء .

ب — أو يكون لك بستان يشتمل على نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلاله تفجيراً .

ج — أو تسقط علينا السماء — كما زعمت — قطعاً من العذاب ، وكان الله قد توعدهم بالعذاب حين سخروا من رسوله ، وقالوا لقومهم : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزّق ، إنكم لفى خلق جديد ، فأنزل الله عليه : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، إن نشأ نخسف بهم الأرض ، أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ؟ »

د — أو تأتى بالله والملائكة كفلاء وشهداء ، بصحة ما تدعيه ، بحيث نراهم عياناً .

ه — أو يكون لك بيت من ذهب .

و — أو تصعد فى السماء ، ولن نصدق بصعودك إن صعدت ، حتى تنزل علينا كتاباً بلغتنا ، وعلى أسلوب كلامنا ، نقرأ فيه تصديقك .

فقل لهم يا محمد : إننى أنزه الله جل شأنه أن يتحكم فى شئونه أحد ، وما أنا إلا بشر كسائر الناس ، رسول كسائر الرسل ، أتبع ما يوحى إلىّ من ربى ، ولم يأت أحد منهم بآية إلا بإذن الله .

٤ — وقد حكى الله عن هؤلاء الكفار أمراً آخر ، وهو أنهم استبعدوا أن يبعث إلى الخلق رسولا من البشر ، فذكر أنه ما منعهم عن الإيمان ، بعد نزول الوحى وظهور الحق ، إلا قولهم فى عناد ومكابرة : أبعث الله بشراً رسولا ؟ فقل لهم يا محمد : إن الملك إنما يرسل إلى الملائكة ، فلو كان فى الأرض ملائكة بدل البشر ، يمشون كما يمشى بنو آدم ، يقيمون فيها ، لنزلنا عليهم من السماء ملكاً يكون رسولا إليهم ، إذ لا نرسل رسولا إلى قوم إلا من جنسهم ، ليمكنه مخاطبتهم ، والتفاهم معهم ، وقد سبق شرح مثل هذا فى الصفحة الثالثة من تفسير الجزء الثامن ، عند قوله : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة . . . » .

٥ — قل يا محمد لهؤلاء الكفار : كفى الله شاهداً بينى وبينكم على صدق قولى ، وعلى أنى رسول إليكم ، وعلى أنى بلغت ما أرسلت به إليكم ، وأنكم عارضتم وعاندتم ، وأبيتم قبول دعوتى ، إنه كان خبيراً بصيراً بعباده ، يعلم ظواهرهم وبواطنهم ، ويعلم سرهم ونجواهم .

(١٤)

من الآية ٩٧ إلى الآية ١٠٠ من سورة الإسراء

وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا ، مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً —١— . ذٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ، وَقَالُوا : أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ؟ —٢— . أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً —٣— . قُلْ : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ، إِذَنْ لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أولياء	أنصاراً .
على وجوههم	مسحوبين على وجوههم .

الألفاظ	شرحها
خبت	سكن لهيبها .
رفاتاً	عظاماً بالية .
أجلا	وقتاً للبعث .
قتوراً	شديد البخل .

مجمل المعنى

١ — من تتعلق مشيئة الله بهدايته فهو المهتدى ، ومن تتعلق إرادة الله بإضلالهم لفساد فطرتهم ، استحال أن ينقلبوا من هذا الضلال ، واستحال أن يجدوا لهم أنصاراً يهدونهم إلى طريق الحق فى الدنيا ، وإلى طريق النجاة من العذاب فى الآخرة ، ونحشرهم يوم القيامة عندما يقومون من قبورهم مسحوبين على وجوههم ، « يوم يسحبون فى النار على وجوههم ، ذوقوا مس سقر » ، عمياً لا يبصرون ما يقرُّ أعينهم ، صما لا يسمعون ما يلذُّ مسامعهم ، بكما لا ينطقون بما يقبل منهم ، لأنهم كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ، وتصامُّوا عن استماع الحق ، وأبوا أن ينطقوا بالصدق ، مستقرهم جهنم ، كلما سكن لهيبها بمد أن أكلت النار جلودهم ولحومهم ، ولم يبق ما تتعلق به ، زدناهم توقداً ، بأن نبدل بجلودهم ولحومهم التى احترقت غيرها ، فتعود النار ملتهبة مستعرة .

٢ — ذلك العذاب جزاؤهم ، بسبب أنهم كفروا بآياتنا فى القرآن وفى الآفاق ، الدالة على صحة دعوة رسولنا إليهم ، وقالوا منكرين للبعث ، ومستبعدين حدوثه : أئذا كنا عظاماً نخرة ، وحطاماً بالياً ، أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟

٣ – أو لم يعلموا أن الله الذى خلق السموات والأرض مع عظمها على غير مثال سابق ، قادر على أن يـُعدِم ذواتهم حتى لا يبقى منها شىء ، ثم يعيدها ، فإن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وقد جعل لهم ميقاتاً لا شك فيه ، يبعثون فيه يوم القيامة ، فأبى الظالمون الذين كفروا بآياتنا مع وضوح الحق لهم ، إلا جحوداً وعناداً .

٤ – قل لهم يا محمد بعد ما طلبوه من الينبوع والأنهار لتكثر أقواتهم ، ويتسع رزقهم : لو أنكم تملكون خزائن رزق ربى ، وسائر نعمه التى أفاضها على كافة الموجودات ، لبخلتم خوف نفادها ، وصيرورتكم إلى الفقر ، إذ لا أحد إلا وهو يختار النفع لنفسه ، وإن آثر غيره بشىء ، فإنما يؤثره لعوض يفوقه ، فهو إذن بخيل بطبعه ، مقتر مضيق بجبلّته .

(١٥)

من الآية ١٠١ إلى الآية ١٠٤ من سورة الإسراء

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، فَاسْأَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً —١—. قَالَ : لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ، وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً —٢— . فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً —٣— . وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ : اسْكُنُوا الْأَرْضَ ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بينات	واضحات .
مسحوراً	ساحراً ، أو مخدوعاً سَحَرك الناس ، فسلبوا منك عقلك .
ما أنزل هؤلاء	ما أنزل هؤلاء الآيات .
بصائر	عبرا تبصرك بصدقى .
مثبوراً	مصروفاً عن الخير ، مطبوعاً على الشر .

الألفاظ	شرحها
فأراد أن يستفزهم من الأرض	فأراد فرعون أن يزعج موسى وبنى إسرائيل باستئصالهم .
اسكنوا الأرض	اسكنوا أرض الشام : (فلسطين) .
جئنا بكم لفيفاً	جئنا بكم أنتم وهم جميعاً ، ثم نحكم بينكم .

لما بيَّن الله ما حدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه ، أراد أن يسليه بما وقع لموسى مع فرعون وقومه .

مجمل المعنى

١ — ولقد أيدنا موسى بتسع معجزات واضحات ، حين أرسلناه إلى فرعون وقومه ، لتدل على صحة ما جاء به من عندنا ، وهذه المعجزات هى :

ا — العصا التى انقلبت ثعباناً .

ب— واليد التى صارت بيضاء من غير سوء .

ج — والسنون وهى القحط ، بانقطاع الأمطار ، وانخفاض ماء النيل .

د — ونقص الثمرات بكثرة الآفات .

ه — والطوفان بمطر غزير ، غشَّى منازلهم ومزارعهم .

و — والجراد الذى أكل الزرع والثمار .

ز — والقُمَّل ، وهو نوع من القراد ، أكل ما تركه الجراد ، ودخل فى طعامهم ، وسرى بين ملابسهم وأجسامهم .

ح — والضفادع ، فملأت بيوتهم وطعامهم .

ط — والدم ، فصارت مياههم دماً ، أو أصيبوا بالرُّعاف.

وقلنا لموسى حين جاء فرعونَ وقومه : سلهم أن يرسلوا معك بنى إسرائيل ، ويطلقوا سراحهم ، لتخليصهم مما هم فيه من الذل والاستعباد ، فقال فرعون فى سخرية واستهزاء : إنى لأظنك يا موسى مسحوراً ، قد سحرك الناس وخَبَّلوك ، ولعلك قد فقدت عقلك .

٢ — فقال له موسى : لقد علمت يا فرعون ، أنه ما أصدر هذه الآيات إلا ربُّ السموات والأرض ، لتكون عبراً تبصرك بصدقى ، وأنت تعلم أن هذه المعجزات لا تتهيأ لساحر ، ولا يقدر عليها إلا مالك الملك ، وقد حدثتك حديث رجل عاقل متزن ، وإنى لأظنك يا فرعون مصروفاً عن الخير ، مطبوعاً على الشر .

٣ — فأراد فرعون أن يستعمل العنف مع موسى وبنى إسرائيل ، بإفنائهم واستئصالهم من أرض مصر ، فرددنا كيده فى نحره ، إذ لا يَحِيق المكر السيئ إلا بأهله ، فأغرقناه فى بحر القلزُم هو ومن معه جميعاً ، حين تبع موسى ومن معه من بنى إسرائيل .

٤ — وقلنا من بعد هلاك فرعون لبنى إسرائيل : اسكنوا الأرض — وهى أرض الشام — فإذا جاء موعد يوم القيامة ، جئنا بكم وبفرعون وقومه جميعاً ، فيحكم الله بينكم وبينهم ، ويتميز السعيد من الشقى .

(١٦)

من الآية ١٠٥ من سورة الإسراء إلى آخر السورة

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ ، وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً —١— . وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ، وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً —٢— . قُلْ : آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ، إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً ، وَيَقُولُونَ : سُبْحَانَ رَبِّنَا ! إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً —٣— . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ، وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً —٤— . قُلِ : ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى —٥— . وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً —٦— . وَقُلِ : الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وبالحق أنزلناه	ما أردنا بتنزيل القرآن إلا تقرير الحق .
فرقناه	أنزلناه مُنجَّماً .
على مكث	على مهل وتؤدة ليفهموه .
ونزلناه تنزيلا	ونزلنا نجماً بعد آخر ، على حسب الحوادث والمصالح .
إن الذين أوتوا العلم من قبله	إن العلماء الذين قرءوا الكتب السابقة على القرآن .
يخرون للأذقان سجداً	يسقطون مسرعين على وجوههم ساجدين ، تعظيماً له .
إن كان وعد ربنا لمفعولا	إن وعد ربنا كائن لا محالة .
أيًّا ما تدعوا	أيا تدعوا من الأسماء فهو حسن ، وأيا : اسم شرط جازم ، وما : زائدة .
ولا تجهر بصلاتك	ولا ترفع صوتك فى قراءة القرآن فى أثناء صلاتك .
ولا تخافت بها	ولا تخفض صوتك فى قراءتك ، حتى لا يسمعك مَن خلفك فى الصلاة .
وابتغ بين ذلك سبيلا	واقصد طريقاً وسطاً بين الجهر وخفض الصوت .
ولىٌّ من الذل	ناصر ينصره من أجل مذلة يحتاج فيها إلى ناصر .
كبره تكبيرا	عظمه تعظيماً تاماً .

مُجمل المعنى

١ — إننا ما أردنا بإنزال القرآن عليك إلا تقرير الحق ، وذلك ما حصل ، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وما أرسلناك إلا مبشراً بالجنة وثوابها من آمن بك ، ونذيراً بالنار وعذابها من كفر بك ، فالذين يقترحون الآيات ، ويتمردون عليك ، لا تبال بكفرهم .

٢ — وقصدنا بإنزال القرآن منجماً أن تقرأه على الناس على مَهَل ، وليكون تنجيمه أيسر للحفظ ، وأعون على الفهم ، ونزلناه نجماً بعد نجم ، فارقاً بين الحق والباطل ، على حسب الحوادث والمصالح — وقد نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاث وعشرين سنة ، هى مدة رسالته من بدء بعثته إلى انقضاء أجله ، منها ثلاث عشرة بمكة ، وعشر بالمدينة .

٣ — قل لمن كفروا بالقرآن يا محمد : صدِّقوا به أو لا تصدقوا ، فتصديقكم به لا يزيده كمالا ، وعدم تصديقكم لا يورثه نقصاً ، وإن لم تؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منكم ، وهم العلماء الذين قرءوا الكتب التى نزلت قبل القرآن ، وعرفوا حقيقة الوحى ، وأمارات النبوّة ، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل ، ورأوا نعتك فى تلك الكتب ، هؤلاء إذا يتلى عليهم القرآن تأثروا به ، فيبادرون إلى السقوط على وجوههم ساجدين تعظيماً لأمر الله ، وشكراً له على إنجاز وعده فى تلك الكتب ، ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، وبإنزال القرآن عليه ، ويقولون : إنا ننزه الله سبحانه وتعالى أن يخلف وعده ، فإن وعد الله محتَّم الإنجاز ؛ وخصت الأذقان بالذكر ، لأن المراد أنهم لا يكتفون بوضع جباههم وأنوفهم على الأرض ، بل يلصقون بها أذقانهم .

٤ — ومن شدة تأثرهم بمواعظ القرآن وحكمه وآدابه ، يخرون للأذقان باكين من خشية الله ،ويزيدهم القرآن تواضعاً لله ، وعلما ويقيناً به ، وقد كرر الله قوله : « يخرون للأذقان » ، لاختلاف السبب ، فإن الأول للشكر على إنجاز الوعد ، والثانى للتأثر بمواعظ القرآن .

٥ — وكان المشركون حين سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا ألله ، يا رحمن ، قالوا : إن محمداً ينهانا أن نعبد إلهين ، وها هو ذا يدعو إلهاً آخر ، فنزل قوله تعالى : « قل : ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » ، والمعنى : إن دعوتم الله أو دعوتم الرحمن ، فإن اللفظين يطلقان على ذات واحدة ، ويدلان على مسمى واحد ، فسواء أدعوتم الله أم دعوتم الرحمن ، فأنتم مصيبون ، وأيا تسمُّوا الله فهو حسن ، لأن له الأسماء الحسنى التى منها الرحمن ، وقد أمر الله أن ندعوه بها ، فقال : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » ، والأسماء الحسنى تسعة وتسعون اسماً .

٦ — ولا ترفع صوتك يا محمد بالقراءة فى صلاتك حتى تسمع المشركين ، فإن ذلك يحملهم على أن يسبوك ، ويسبوا القرآن ومن أنزله ، ولا تخفض صوتك أثناء القراءة فى صلاتك ، إلى درجة لا يسمعك فيها مَن خلفك ، واقصد طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافتة ، فخير الأمور الوسط .

٧ — وقل : الحمد للمولى جل وعلا ، الذى لم يتخذ له ولداً — وهو رد على اليهود والنصارى ومشركى العرب فى قولهم : عُزَير ابن الله ، والمسيح ابن الله ، والملائكة بنات الله — ولم يكن له شريك فى ملكه وعبادته ، ولم يكن له ناصر يحتاج إليه ويعتز به ، من أجل مذلة يدفعها عنه ، وعظِّمه تعظيماً تاماً . ونزِّهه عن كل ما لا يليق به .

سورة الكهف

نزلت بمكة ، إلا الآية ٢٨ ، ومن ٨٣ — ١٠١
فإنها نزلت بالمدينة ، وآياتها ١١٠

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الثامنة

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ، قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ، مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ، وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا : اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ! إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً —١— . فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ ، إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا —٢— . إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ، لِنَبْلُوَهُمْ : أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولم نجعل له عوجاً	ولم نجعل فيه عيباً ، كاختلاف أو تناقض .
قيِّما	مستقيماً لا خطأ فيه ، أو قيماً على الكتب السابقة يصدقها .
لينذر بأساً شديداً من لدنه	لينذر الذين كفروا عذاباً شديداً ، صادراً من عند الله
ماكثين فيه أبداً	ماكثين فيما أداهم إليه أجر ثوابهم ، وهو الجنة .
كبرت كلمة تخرج من أفواههم	كبرت الكلمة : كلمة تجرى على لسانهم .
باخع نفسك على آثارهم	مجهد نفسك ومتلفها من تولى الكفار عنك ، حسرة وأسفاً .
لنبلوهم	لنختبرهم .
صعيداً جرزا	أرضاً يابسة لا تنبت .

مُجمل المعنى

١ — الشكر والثناء ثابتان للمولى جل وعلا ، الذى أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ، وجعله قائماً على أحكام الدين ومصالح العباد ، لا خطأ فيه ولا فساد ، ولم يجعل فيه اختلافاً أو تناقضاً يؤدى إلى اختلاف فى مدلول ألفاظه ، أو تناف فى معانيه ، لينذر الكافرين عذاباً شديداً يصدر

من عند مَن بعثك رسولا ، قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى الآخرة ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات أن لهم ثواباً عظيماً دائماً فى الجنة ، لا انقطاع فيه ، كما ينذر بأشد أنواع العذاب ، وأفظع وسائل العقاب ، الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ، كاليهود والنصارى والمشركين ، الذين يزعمون أن عزيراً ابن الله ، وأن المسيح ابن الله ، وأن الملائكة بنات الله ، مع أنهم ليس لديهم ولا لآبائهم علم بهذا القول ، ولا دليل على صحته ، وإنما هم يقولون عن جهل مطبِق ، وتوهم كاذب ، تقليداً لما سمعوه عن أسلافهم ؛ عظمت الكلمة كلمة تجرى على لسانهم على سبيل التقليد من غير روية ، فإنهم ما يقولون إلا كذباً ، لا أساس له ، وكرر الله تعالى قوله : « ينذر » ، للدلالة على أن نسبة الولد إليه من أقبح أنواع الكفر .

٢ — لا يضقْ صدرك أيها الرسول بما يقولون ، ولا يعظم حزنك وأسفك على كفرهم ، فإنى أشفق عليك أن تعرض نفسك للتلف غيظاً وحسرة ، إذا تولوا وأعرضوا عنك ، ولم يؤمنوا بهذا القرآن ، لشدة حرصك على إيمانهم ؛ وكان صلى الله عليه وسلم قد كبر عليه ما يرى من مخالفة قومه له ، وإنكارهم رسالته ، وتكذيبهم ما أنزل عليه من القرآن .

٣ — إنا جعلنا كل ما على الأرض من الحيوان والنبات ، والأنهار والمعادن ، وغير ذلك ، زينة لها ولأهلها ، ثم إنهم يكفرون ، ومع هذا لا أقطع عنهم هذه النعم ، فأنت يا محمد ينبغى ألا يشتد حزنك على كفرهم ، فنحن نعاملهم بهذه النعم ، معاملة المختبر ، ليظهر أيهم اتبع أمرى ، وعمل بطاعتى ، ومن طغى وبغى ، وكفر وعصى ؛ وإنا لجاعلون ما على الأرض عند انتهاء عمر الدنيا فانيا زائلا ، يصير تراباً لا غَناء فيه ، والمرجع إلىّ ، فأجزى كلا بعمله ، فلا تأس ، ولا يحزنك ما ترى وتسمع .

(٢)

من الآية التاسعة ، إلى الآية ١٨ من سورة الكهف

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً –١– . إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ، فَقَالُوا : رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً . فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ : أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً –٢– . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ، وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ، فَقَالُوا : رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً ، لَقَدْ قُلْنَا إِذَنْ شَطَطاً –٣– . هٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ؟ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ ، فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً –٤– . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ

الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً —٥— . وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً ، وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أم حسبت	أحسبت .
الكهف	الغار الواسع فى الجبل .
الرقيم	لوح كتبه بعض القوم الذين منهم أصحاب الكهف ، فيه خبرهم ، ووضعوه على بابه .
آتنا من لدنك رحمة	امنحنا رحمة من عندك ، توجب المغفرة والأمن والرزق .
ضربنا على آذانهم	أنمناهم ، وجعلنا على آذانهم حجاباً يمنع من السماع مدة لبثهم فى الكهف .
سنين عدداً	سنين كثيرة ذوات عدد .
بعثناهم	أيقظناهم .
لنعلم : أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا	ليتعلق علمنا بأى الفريقين أصدق فى إحصاء مدة لبثهم فى الكهف .

الألفاظ	شرحها
ربطنا على قلوبهم	قوينا قلوبهم عند مخاطبتهم ملكهم ، والصبر على مفارقة الأوطان والأهل .
إذ قاموا	حين قاموا بين يدى الملك .
لن ندعو من دونه إلهاً	لن ندعو من غير الله إلهاً .
شططاً	قولا ذا شطط ، وهو البعيد عن الحق .
لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن	هلا يأتون على صحة عبادتهم الأصنام ببرهان واضح !
وإذ اعتزلتموهم ومايعبدون	قال الفتية بعضهم لبعض : ما دمتم قد اعتزلتم القوم ومعبوداتهم .
ينشر لكم ربكم من رحمته	يبسط لكم ربكم رحمته .
ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً	ويهيئ لكم ما تنتفعون به مما تحتاجون إليه ، من طعام وغيره .
تزاور عن كهفهم ذات اليمين	تميل عن كهفهم جهة يمين الكهف .
وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال	وإذا اتجهت ناحية الغرب تنحرف عنهم جهة شمال الكهف .
فجوة منه	متسع من الكهف وهو وسطه ، فيصل إليهم الهواء الطيب ، والنسيم العليل .
من آيات الله	من دلائل قدرة الله .
ومن يضلل	ومن تتعلق مشيئة الله بإضلاله .
تحسبهم أيقاظاً	تظنهم مستيقظين ، لأن أعينهم مفتوحة .

الألفاظ	شرحها
نقلبهم ذات اليمين وذات الشمال	نحركهم يَمنة ويَسرة ، لكيلا تُبلى الأرض أجسامهم التى فى ناحيتها .
وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد	وكلبهم ماد ذراعيه على أرض فناء الكهف

سفراء قريش

قدمنا فى الصفحة ٦٠ من تفسير هذا الجزء ، أن قريشاً أرسلوا النضر بن الحارث ، وعقبة بن معيط إلى أحبار اليهود ، ليسألوهم عن محمد ، وأن أحبار اليهود قالوا لهم : سلوه عن الروح ، ونذكر هنا أن مما ذكره أحبار اليهود لرسولى قريش ، أن يسألوا الرسول عن فتية آمنوا بربهم ، وخرجوا من ديارهم ، وما كان من أمرهم ، فإن لهم حديثاً عجباً ، وأن يسألوه عن رجل طوّاف ، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، فإن أخبركم بذلك فهو نبىّ فاتبعوه ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول ، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم ، فلما سألت قريش رسول الله ، قال لهم : أخبركم بما سألتمونيه غداً ، ولم يعلق الإجابة على مشيئة الله ، فأبطأ الوحى عليه بضعة عشر يوماً ، حتى أرجف أهل مكة ، وحتى اشتد حزن رسول الله ، ثم جاءه جبريل بسورة الكهف كلها ، وفيها خبر الفتية ، وخبر الطواف ، وهو ذو القرنين الذى سنذكره إن شاء الله فى صدر تفسير الجزء السادس عشر ، وفى السورة معاتبة من الله لرسوله ، لأنه لم يقل عندما وعد قريشاً بالإجابة : إن شاء الله .

قصة أصحاب الكهف

كان أهل مدينة أفسوس — وهى بلدة بثغور طرَسوس فى آسيا الصغرى — يتبعون دين عيسى عليه السلام ، ثم إن ملكاً جباراً يقال له دقيانوس ، ظهر على مدائن الروم ، ومنها أفسوس ، فأمر أهلها بعبادة الأصنام ، واشتد فى تنفيذ أمره ، حتى كان يقتل من يخالفه ، ويعلق جثته على سور المدينة ، ولكن سبعة فتية من الشبان ، عز عليهم أن يتركوا دين عيسى ، فأخذوا يعبدون الله سرًّا ، فرُفع أمرهم إلى الملك ، وقيل له : إن هؤلاء الفتية فارقوا دينك ، واستخفوا بآلهتك ، وكفروا بها ، فاستحضرهم الملك إلى مجلسه ، وأمرهم باتباع دينه ، فرفضوا ، وقالوا له : ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلهاً ، فقال لهم الملك : أنتم شبان أغرار ، لم تنضج عقولكم ، وأنا لا أعجل بعقوبتكم ، بل أمهلكم وقتاً تفكرون فيه ، فاذهبوا إلى منازلكم ، ودبروا أمركم ، وعودوا إلىّ ، وضرب لهم أجلا .

تشاور الفتية فى أمرهم ، فاتفقوا على أن يهربُوا من المدينة بدينهم ، وقال لهم أحدهم : إنى أعرف كهفاً فى جبل كذا ، كان أبى يدخل غنمه فيه ، فهيّا بنا نذهب إليه ، ونختف فيه ، فخرجوا وهم يلعبون بالكرة والصولجان فى طريقهم إلى الكهف ، تضليلا لمن يراهم ، ومروا فى طريقهم براع له كلب ، فتبعهم الكلب حتى وصلوا إلى الكهف ، فألقى الله النوم عليهم تسع سنين وثلثمائة ، ثم استيقظوا ، فسأل بعضهم بعضاً : كم لبثتم نائمين ؟ . قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ثم قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم ببعض الدراهم ليشترى لنا طعاماً نأكله ، وليتلطف مع الناس ، فإنهم إن علموا بأمرنا قتلونا رجماً بالحجارة ، أو أعادونا إلى دينهم ، فلما دخل السوق ليشترى الطعام ،

أنكر ما رآه من مظاهر المدينة التى كان يألفها ، ثم وقف على بائع فاشترى الطعام منه ، فلما نقده الثمن ، وجد البائع أن الدراهم التى أخذها عليها اسم دقيانوس ، فظن أن هذا الفتى وجد كنزاً ، واجتمع الناس ، فقص البائع عليهم قصة الفتى ، فقال بعضهم : لعل هذا الفتى أحد الفتية الذين علمنا من آبائنا أنهم فروا بدينهم من ظلم دقيانوس ، وبلغ الخبر الملك ، وكان ملكاً عادلا صالحاً ، فأحضر الفتى وسأله عن أمر هذه الدراهم ، فقال : خرجت أنا وأصحاب لى أمس إلى الكهف ، فغلب علينا النوم فنمنا ، فلما استيقظنا طلبوا منى أن أشترى لهم طعاماً ، ففعلت ، فقال له الملك : وأين أصحابك ؟ وآنس منه الفتى رفقاً وعدلا ، فقال له : هم فى الكهف ، فانطلق الملك هو وأهل المدينة ، حتى وصلوا إلى الكهف ، وأبصروا من فيه ، فسأل الفتية ربهم أن يميتهم ، فأجاب سؤلهم ، فماتوا فى الكهف ، ودفنوا فيه ، وأقام أهل المدينة عليهم مُصَلّى ، وذكر صاحب معجم البلدان أن هذا الكهف بين عمّورية ونيقية .

مجمل المعنى

١ — أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف ، وأصحاب اللوح الذى كتب فيه أسماؤهم ، كانوا فى بقائهم أحياء مدة طويلة ، آية ذات عجب ، بالنسبة لآياتنا الدالة على كمال قدرتنا ، لا تحسبن ذلك ، فإن آياتنا كلها عجب ، فإن من كان قادراً على خلق السموات والأرض وما فيهما ، لا يُستبعد على قدرته أن يحفظ طائفة من الناس أكثر من ثلثمائة سنة ، وهى مستغرقة فى النوم .

٢ — اذكر أيها الرسول للسائلين الذين قصدوا بسؤالهم أن يحرجوك ، يوم أوى

بضعة فتية من الشبان إلى الكهف ، فارِّين بإيمانهم من ظلم ملك جبار ، فقالوا : ربنا ، امنحنا من عندك رحمة توجب لنامغفرتك وأمنك ورزقك ، ويسر لنا فيما نلتمس من رضاك السداد ، ووفقنا إلى سبيل الرشاد ، ومكِّنا من الأمن من الطغاة عبَّاد الأوثان ، فغشَّاهم النعاس أمَنَة صادرة من الله سنين مديدة — وعبر الله عن النوم بالضرب على آذانهم ، وهو منعهم من السماع ، لأن النائم إذا سمع انتبه — ثم أيقظناهم من رقادهم ، لنختبر أى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم فى الكهف أضبط غاية ونهاية ، ليظهر عجزهم ، ويفوضوا الأمر فى هذا إلى العليم الخبير ؛ والفريقان هما من أصحاب الكهف ، فقد قال بعضهم : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم ، وكان الآخرون ظنوا أن لبثهم قد تطاول .

٣ — نحن نقص عليك نبأ أهل الكهف بالصدق : إنهم بضعة فتية أحداث ، آمنوا بربهم ، ونبذوا عبادة الأصنام ، وزدناهم هدى بتثبيتهم على إيمانهم ، وقوينا قلوبهم بالجرأة ورباطة الجأش على إظهار الحق ، والرد على دقيانوس الجبار ، حين قاموا بين يديه ، فقالوا : ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من غيره إلهاً ، لقد قلنا إذن قولا بعيداً عن الحق ، إن دعونا إلهاً غيره على سبيل الفرض ، فأجّل عقابهم ، لعلهم يجنحون إلى ما يعبده قومهم .

٤ — فلما خرجوا ، قال بعضهم لبعض : هؤلاء قومنا عبدوا الأصنام ، واتخذوها من دون الله آلهة فعبدوها ، هلا يأتون بحجة ظاهرة ، أو برهان معقول على صحة عبادتهم ! إنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ، بنسبة الشريك إليه ، وما دمتم قد اعتزلتم القوم ومعبوداتهم ، ولم تعبئوا بتهديد

دقيانوس الجبار ، فاذهبوا إلى الكهف ، واجعلوه مأواكم ، يبسط لكم ربكم رحمته ، ويوسع عليكم رزقه ، ويهيئ لكم ما تحتاجون إليه من مرافق المعيشة .

٥ — ولو رأيتهم يا محمد ، بل لو رآهم أى إنسان ، لرآهم فى حرز منيع من رعايتنا ، وحماية كبيرة من عنايتنا ، فقد ناموا فى متسع من وسط الكهف ، بحيث ينالهم قسط وافر من الهواء النقى ، والنسيم العليل ، فإذا طلعت الشمس من الشرق ، مالت عن كهفهم إلى يمينه ، وإذا اتجهت جهة الغرب ، تركتهم وتجاوزتهم ، وانحرفت عن كفهم إلى شِماله ، لأن باب الكهف فى الجهة الشّمالية ، فيقع شعاع الشمس على جانبى الكهف ، ولا يقع عليهم ، فيؤذى أجسامهم ، ويغير ألوانهم ، ويبلى ثيابهم ؛ ذلك الحفظ من دلائل قدرة الله ، فهو يحفظهم من تطرق البِلى إليهم ، ولقد كانت رغبتهم فى بقائهم على الإيمان من لطف الله بهم ، وإحسانه إليهم ؛ فمن تعلقت مشيئته بتوفيقه إلى الإيمان اهتدى كأصحاب الكهف ، ومن تعلقت إرادته بإضلاله لفساد فطرته ، فلن تجد له ناصراً يرشده إلى طريق الخير والهدى ، كدقيانوس .

٦ — وتحسب هؤلاء الفتية أيقاظاً لانفتاح عيونهم ، وكثرة تقلبهم ، مع أنهم نيام ، ونقلبهم فى رقادهم يمنة ويسرة ، حتى لا تؤثر الأرض فيما يليها من أجسامهم مع طول الزمن ، وكلبهم الذى تبعهم باسط يديه ، ملقيهما على أرض فناء الكهف ، يتقلب كما يتقلبون ، وعيناه مفتوحتان ، لو نظرت إليهم لفررت من رؤيتهم ، ولملئت من منظرهم رعباً يملأ صدرك ، لما أفاض الله عليهم من الهيبة ، حتى لا يدخل أحد عليهم ، وقد حماهم الله ، فلم يجسر أحد على الدنو منهم .

(٣)

من الآية ١٩ إلى الآية ٢٦ من سورة الكهف

وَكَذٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : كَمْ لَبِثْتُمْ ؟ قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ، فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَلْيَنْظُرْ : أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ، فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ، وَلْيَتَلَطَّفْ ، وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا —١— . إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ، وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَنْ أَبَدًا —٢— . وَكَذٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ، إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُوا : ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا ، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ : لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا —٣— سَيَقُولُونَ : ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ : خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ : سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُلْ : رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ، مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ —٤— . فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا —٥— . وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ : إِنِّي فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ

يَشَاءَ اللّٰهُ ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ : عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذَا رَشَدًا —٦— . وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلٰثَمِائَةٍ سِنِينَ ، وَازْدَادُوا تِسْعًا —٧— . قُلِ : اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ! مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ ، وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بعثناهم	أيقظناهم .
بورِقكم	بدراهمكم .
أزكى طعاماً	أطيب طعاماً .
وليتلطف	ويستعمل اللطف فى المعاملة .
إن يظهروا عليكم	إن يطلعوا عليكم ، ويظفروا بكم .
وكذلك أعثرنا عليهم	وكما أنمناهم وأيقظناهم ، أطلعنا قومهم عليهم .
أن وعد الله حق	أن وعد الله بالبعث حق .
إذ يتنازعون بينهم أمرهم	إذ يختلف أهل المدينة فى أمر الفتية بعد موتهم .
فقالوا : ابنوا عليهم بنياناً	فقال بعضهم : ابنوا عليهم بنياناً يسترهم .
قال الذين غلبوا على أمرهم	قالت طائفة أخرى غلبوا على رأى الطائفة الأولى .
سيقولون : ثلاثة	سيقول الخائضون فى قصتهم زمن الرسول : هم ثلاثة .
رجماً بالغيب	بمجرد الظن الذى لا دليل عليه ولا برهان .

الألفاظ	شرحها
فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً	لا تجادل فى أمر الفتية إلا جدالا لا تصدِّق المجادلين فيه ولا تكذبهم .
ولا تستفت فيهم منهم أحداً	ولا تستفت فى أمر الفتية أحداً من الخائضين فى عددهم .
إلا أن يشاء الله	إلا مقترناً بقولك : إن شاء الله .
لأقرب من هذا رشداً	لأظهرَ دلالةً على نبوتى ، من دلالة قصة أصحاب الكهف .
غيب السموات والأرض	ما خفى فى السموات والأرض .
أبصر به وأسمع	ما أبصر الله وما أسمعه ، لأنه لا يغيب عن نظره وسمعه أى شىء !
مالهم من دونه من ولىّ	ما لأهل السموات والأرض ناصر غير الله .

مجمل المعنى

١ — وكما أنمنا أصحاب الكهف حقبة طويلة ، لا يأكلون فيها ولا يشربون ، أيقظناهم من نومهم ، ليسأل بعضهم بعضاً عن حالهم ، ومدة لبثهم فى الكهف ، فقال قائل منهم : كم لبثتم نائمين فى هذا الكهف ؟ فقال بعضهم : يغلب على ظننا أننا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، لأنهم — كما قيل — دخلوا الكهف أول نهار ، واستيقظوا فى آخر نهار ، فظنوا أنهم فى نفس يومهم الذى دخلوا فيه الكهف ، أو فى اليوم الذى يليه ، فقال بعض آخر منهم : ربكم أعلم بما لبثتم ، وقد مسنا الجوع ، فابعثوا أحدكم

بدراهمكم هذه — وكان أحدهم قد مد يده بها — إلى أفسوس ، فلينظر : أى الأطعمة أطيب ، فليأتكم بما نَطعَمه ، وليتلطف عند دخول المدينة وشراء الطعام ، وفى المعاملة ، حتى لا يتنبه إليه أحد ، ولا يفعلنّ ما يؤدى إلى شعور أحد بكم .

٢ — إن الكفار إن يطلعوا على مكانكم ، ويظفروا بكم ، يقتلوكم رجماً بالحجارة ، أو يُكرهوكم على أن تدخلوا فى دينهم ، ولن تفلحوا إذن أبداً إن دخلتم فى ملتهم ؛ ثم حدث ما سبق بيانه فى القصة من انكشاف أمر رسولهم .

٣ — وكما أيقظناهم ، أطلعنا عليهم قومهم ، ليعلم هؤلاء القوم أن وعد الله بالبعث حق ، وأن القيامة لاشك فى إمكانها ، فإن من قدر على إنامة أصحاب الكهف أكثر من ثلثمائة سنة ، وحفظ أبدانهم من التحلل والتفتت ، وأبقاهم على حالهم من غير غذاء ، قادر على إحياء الموتى عند البعث ، فنومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث ، وكان أهل المدينة قد اختلفوا فى أمر البعث ، فشك بعضهم فيه واستبعده ، وقال غيرهم : تحشر الأرواح فقط ، أما الأجساد فتأكلها الأرض ، وقال آخرون : تبعث الأرواح والأجساد ، فكبر ذلك على الملك — وكان رجلا صالحاً — وتضرع إلى الله تعالى أن يحسم هذه الفتنة فى حجة وبيان ، فأعثرهم على أهل الكهف ، ولما دنا الملك وأهل المدينة من الكهف ، استمهلهم الفتى الذى كان معهم حتى يخبر رفقاءه ، كيلا يفاجَئُوا بدخول الملك وقومهم عليهم ، فلما دخل عليهم ، أخبرهم أن زمن دقيانوس قد انقضى ، وأن قومهم وعلى رأسهم الملك قد عادوا إلى إيمانهم ، فسروا بذلك ، وخرجوا إلى الملك فحياهم وحيَّوه ، ودعاهم إلى الإقامة عنده ، فقالوا له : وماذا نبغى بالحياة ، وقد هلك أهلونا ؟ ثم توجهوا إلى الله أن

يختارهم لجواره ، فعادوا إلى الكهف ، وسقطوا أجساداً لا حياة فيها ، فقالت طائفة من القوم : ابنوا على باب الكهف بنياناً ، حتى لا يدخل أحد عليهم ، فإنا لا ندرى : أعادوا إلى نومهم أم ماتوا ؟ وقالت طائفة أخرى منهم الملك ورؤساء المدينة : لنتخذن عليهم مسجداً يُعبد الله فيه .

٤ — سيقول الخائضون من الناس فى عدد أصحاب الكهف ، زمن رسولنا عليه الصلاة والسلام — كاليعقوبيين من النصارى — : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقول غيرهم — كالنسطوريين منهم — : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وهذا القول يزعمونه بمجرد الظن ، من غير دليل ولا برهان ، ويقول المؤمنون بأخبار الرسول : هم سبعة وثامنهم كلبهم ؛ قل يا محمد إن جادلوك : ربى أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم إلا قليل ؛ وأسلوب الآية يدل على أن عددهم سبعة ، إذ لا معقب لهذا العدد ، وقد عقب الله على القولين الأولين بأنه مجرد ظن ، لا دليل عليه ولا برهان .

٥ — فلا تجادل أحداً فى شأن عدد الفتية إلا جدالا ظاهراً ، لا تكذبهم فى تعيين العدد فيه ولا تصدقهم ، وقص عليهم ما فى القرآن من غير تجهيل لهم ، ولا رد عليهم ، ولا تسأل أحداً منهم عن قصة أهل الكهف سؤال مسترشد ، فإن فيما أوحى إليك من القرآن ما يغنيك عن غيره .

٦ — ولا تقولن من أجل شىء تعزم عليه : إنى فاعل ذلك الشىء غداً ، إلا أن تقرنه بقولك : إن شاء الله ، وهو عتاب للنبى صلى الله عليه وسلم على أنه وعد قريشاً حين سألوه عن الروح ، وعن الفتية وعن الطواف ، كما تقدم فى الصفحة ٨٤ من تفسير هذا الجزء — أن يجيبهم غداً ، ولم يقل : إن شاء الله ، وإذا نسيت أن تقول : إن شاء الله ، ثم تذكرت ، فاذكرها ، وقل : عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشداً ، وأظهرَ

دلالةً على نبوتى ، من دلالة أصحاب الكهف ، وقد هداه الله إلى أعظمَ من ذلك ، كقصص الأنبياء التى قبل قصة أصحاب الكهف ، والإخبار بالغيوب ، والتنبؤ بالحوادث المستقبلة .

٧ — ولبث الفتية فى كهفهم أحياء نائمين ، منذ أنامهم الله إلى أن أيقظهم ، ثلثمائة سنة وتسعاً ، وذكر بعض المفسرين أن المدة ثلثمائة سنة شمسية ، وثلثمائة وتسع قمرية ، وقد حسب صاحب تفسير روح المعانى الفرق بينهما ، فوجده ثلاثة وسبعين يوماً ، وتسع ساعات ، وثمانيا وأربعين دقيقة ؛ والقياس أن يقال : ثلثمائة سنة ، ولكن لما نونت مائة جمعت سنة ، وأبدل منها هذا الجمع .

٨ — قل : الله أعلم ممن اختلفوا بالمدة التى لبثوها فى الكهف ، وقد بيَّنه فيما سبق ، لأنه مختص وحده بعلم ما غاب وخفى من أحوال أهل السموات والأرض ، لا يغيب عن بصره وسمعه أى شىء ، ما لأهل السموات والأرض ولىٌّ غيره يتولى أمرهم ، كما أنه لا يشرك فى قضائه أحداً منهم .

(٤)

من الآية ٢٧ إلى الآية ٣١ من سورة الكهف

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ، رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً —١— . وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا —٢— . وَقُلِ: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ، بِئْسَ الشَّرَابُ، وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً! —٤— . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ، نِعْمَ الثَّوَابُ، وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً! —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ملتحداً	ملجأ .
اصبر نفسك	صبِّر نفسك وثبِّتها .
بالغداة والعشى	لا يفترون عن ذكر الله فى جميع الأوقات .
ولا تعد عيناك عنهم	ولا تتجاوزهم عيناك ازدراء لهم ، وإرضاء للأغنياء .
تريد زينة الحياة الدنيا	تريد أن تزين مجلسك بمجالسة الأغنياء ، مع أن الغنَى عرض زائل .
وكان أمره فرطاً	وكان أمره الإفراط فى مجاوزة الحد .
أحاط بهم سرادقها	أحاط بهم سورها وجدرانها .
كالمهل	كدُردىّ الزيت ، وما ذاب من نحاسٍ وحديد مصهور .
وساءت مرتفقاً	وبئست النار منزلا ! .
جنات عدن	جنات إقامة دائمة .
أساور	جمع لأسْوِرة ، وهذه جمع لسِوار .
سندس	ديباج رقيق ، والديباج : الحرير المنقوش المزين .
وإستبرق	ديباج غليظ يعمل بالذهب .
الأرائك	سرر من ذهب مزينة بالستائر .
حسنت مرتفقاً	حسنت الجنة منزلا ! .

مبدأ المساواة فى الإسلام

اشتمال القرآن على قصة أهل الكهف — على أنه وحى من عند الله — معجز للبشر ، وقد أمر الله رسوله أن يداوم على مدارسته ، ويلازم صحابته ، وقد قدمنا فى الصفحة ٨٠ من تفسير الجزء السابع ، عند قوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى . . . » ، أن بعض صناديد قريش ترفعوا عن مجالسة فقراء المسلمين ، وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطردهم إذا حضروا ، حتى لا يتساووا معهم فى مجلسهم إن آمنوا ، وقد حدث مثل ذلك فى المدينة مع بعض المؤلفة قلوبهم ، فنزل قوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم . . . » ، وهذه الآية مدنية .

مجمل المعنى

١ — داوم يا محمد على قراءة القرآن الذى أوحيناه إليك ، ولا تستمع إلى كلام المشركين الذين يقولون لك : ائت بقرآن غير هذا أو بدِّله ، فلا مبدل لكلمات الله ، ولا يستطيع أحد أن يغيرها ، فهو وحده الذى يمحو ما يشاء ويثبت ، ولن تجد من غير الله ملتجأ تعتصم به ، عندما ينوبك المكروه ، أو جال بخاطرك — على سبيل الفرض — أن تبدل ما أوحينا إليك .

٢ — واحبس نفسك وثبتها على إيثار مجالسة فقراء المسلمين ، كبلال وصهيب ، وسلمان الفارسى وأبى ذَرّ وابن مسعود ، وغيرهم ممن كانوا فقراء لا يلبسون إلا جلباب الصوف ، لأنهم لا يفترُون عن عبادة الله فى جميع الأوقات ، ولا يريدون إلا وجه الله ورضاه ، ولا يفكرون فى شىء من أعراض الدنيا ،

ولا تستمع إلى بعض المؤلفة قلوبهم من الأغنياء ، مثل عُيَيْنة بن حِصن ، والأقرع بن حابس ، وغيرهم ، الذين قالوا لك : إنك لو جلست فى صدر المجلس ، ونحيّت عنا هؤلاء الفقراء — لأن رائحة جِبابهم تؤذينا — جلسنا إليك وحادثناك ؛ ولا تتجاوز عيناك هؤلاء الفقراء إلى غيرهم من الأغنياء ، رغبة فى تفضيل غيرهم عليهم ، تريد أن تزين مجلسك بمجالسة هؤلاء الرؤساء ، ولا تطع فى تنحية الفقراء عن مجلسك من جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا ، واتبع هوى نفسه الأمارة بالسوء ، التى تدعوه إلى الترفع عن مجالسة الفقراء فى حضرة الرسول ، وخفى عليه أن الشرف بحلية النفس ، لا بزينة الجسد ، وكان أمره الإفراط ومجاوزة الحد فى ازدراء غيره — والنبى صلى الله عليه وسلم لم يفعل ما طلبوه ، ولكن الله نهاه عن فعله ، بل قال الرسول لهؤلاء الفقراء : « الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال أمتى ، معكم الحياة ، ومعكم الممات » .

٣ — وقل يا محمد لمن وجدنا قلوبهم غافلة عن ذكرنا : الحق ما يقضى به مالك الملك ، لا ما يقتضيه هواكم ، فمن شاء منكم الإيمان فليفعل ، ويكن مثله كسائر المؤمنين ، ومن شاء الكفر منكم ، ونبذ الإيمان وراء ظهره ، فليفعل ، ولست أبالى بإيمان من آمن ، ولا بكفر من كفر ، ولست بطارد المؤمنين من مجلسى تبعاً لهواكم ، فإن كفرتم فقد أعد الله للكافرين الجاحدين ناراً أحاط بهم فيها سورها وجدرانها ، وإن يستغيثوا فى طلب الماء لشدة ظمئهم ، أغيثوا بماء كدُردىّ الزيت ، أو كالمعدن المصهور ، يغلى فى البطون كغلى الحميم ، وإذا قرب منهم يشوى وجوههم من فرط حرارته ؛ بئس الشراب الذى يغاثون به ؛ وقبحت النار منزلا ومقرا !

٤ — أما إن آمنوا وعملوا الصالحات ، فإننا لا نضيع أجر من أحسن عملا ، أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات يقيمون فيها أبداً ، تجرى من تحتهم الأنهار ، فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، حليهم فيها أساور من ذهب فى أذرعتهم ، ولبسهم فيها ثياب حريرية خضراء من الديباج ، مارقّ منه وما غلظ — ويتكئون على سرر من ذهب ، مزينة بالستائر ، كما يتكئ المتنعمون ، نعم الثواب الجنة ، وحسنت منزلا ومقراً ؛ وخص الله اللون الأخضر بالذكر ، لأنه أوفق الألوان للبصر .

(٥)

من الآية ٣٢ إلى الآية ٤٤ من سورة الكهف

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ: جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ، وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا، وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا، وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا، وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا، وَأَعَزُّ نَفَرًا، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، قَالَ: مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا —١—. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا. لَٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي، وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا —٢—. وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ! إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا، فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ، وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ، فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا —٣—. وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ، فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى

مَا أَنْفَقَ فِيهَا ، وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا —٤— . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا —٥— . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلّٰهِ الْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ، وَخَيْرٌ عُقْبًا —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حففناهما بنخل	جعلنا النخل محيطاً بالبساتين .
وجعلنا بينهما زرعاً	جعلنا بين الكروم والنخيل زرعاً .
آتت أكلها	أعطت ثمرها كاملا .
ولم تظلم منه شيئاً	ولم تنقص من ثمرها شيئاً .
وكان له ثمر	وكان لصاحب البساتين كثير من أنواع الأموال والحيوان .
يحاوره	يراجعه ويفاخره .
وأعز نفراً	وأعتز بمالى من الولد والخدم والأعوان .
وهو ظالم لنفسه	وقد ظلم نفسه بكبره وكفره .
أن تبيد هذه أبداً	أن تفنى هذه الجنة أبداً .
ولئن رددت إلى ربى	ولئن رجعت إلى ربى بالبعث — كزعمك — فى الآخرة .
منقلباً	مرجعاً ومآلا .
وهو يحاوره	وهو يجاوبه .

الألفاظ	شرحها
ثم سوّاك رجلا	ثم عدلك وكمّلك ، وصيرك إنساناً .
لكنا هو الله ربى	لكن أنا أقول : هو الله ربى .
ولولا إذ دخلت جنتك	هلا قلت حين دخلت جنتك ، وأعجبت بها !
ما شاء الله	ما أراده الله كائن ، إن شاء أبقاه ، وإن شاء أباده .
لا قوة إلا بالله	لا قدرة لى على شىء إلا بمعونة الله .
ويرسل عليها حسباناً من السماء	ويرسل على جنتك آفة من السماء تتلفها ، كالصواعق .
صعيداً زلقاً	أرضاً ملساء ، يزلق السائر عليها ، بعد استئصال نباتها وأشجارها .
غوراً	غائراً فى الأرض .
وأحيط بثمره	وأهلكت أمواله .
وهى خاوية على عروشها	سقطت عروشها على الأرض ، وسقطت الكروم فوقها عليها ، والعروش : ما يصنع من الأعمدة لتوضع عليها الكروم .
فئة	جماعة .
هنالك الولاية لله الحق	فى ذلك المقام النصر لله الحق .

صاحبا الحِوار

اختلف المفسرون فى اسمى الرجلين ، ومكانهما ، ولم نأخذ بأحد هذه الآراء ، لأنه لا يتعلق بذكر اسميهما غرض ولا فائدة .

مجمل المعنى

١ - اضرب يا محمد مثلا للمؤمن والكافر أخوين ، ورث كل منهما عن أبيه مالا ، أما المؤمن فكان شديد التواضع ، بارًّا بالفقراء ، شاكراً لأنعم الله عليه ، فأنفق ماله فى سبيل الله حتى نفد ، وأما الآخر فكان متكبراً ، يجحد نعم الله عليه ، ويباهى بما هو عليه من ثراء ؛ ومسَّت الحاجةُ الأول ، فقصد أخاه ، وكان هذا قد أنشأ لنفسه بستانين من كروم متنوعة الأعناب ، يحيط بها النخيل من كل جانب ، ويتخلل النخيل وكروم الأعناب زرع ، لتكون الجنتان جامعتين بين الأقوات والفواكه ، وقد أثمرت الجنتان ، وأينعت ثمارهما ، ولم يعترهما أى نقص ، على خلاف المعهود فى البساتين الأخرى ، وأجرى الله خلال الجنتين نهراً ، ليدوم إرواؤهما ، ويزداد بهاؤهما ، وكان له أموال كثيرة من الذهب والفضة والأنعام ، فاتسع رزقه ، ونمت ثروته ، فقال يوماً لأخيه الذى قصده حين مسَّته الحاجة مباهياً مفاخراً : أنا أكثر منك مالا ، وأعز ولداً وخدماً وأعواناً ؛ ودخل جنته فى صلف وكبرياء ، ومعه أخوه ، يطوف بها ويريه ثمارها ، وهو ظالم لنفسه بالكفر ، وتعريض نعمته للزوال - ولم يقل الله : جنتيه ، لأن المراد : كل ما هو جنة له ، ولأن الجنتين تتصل إحداهما بالأخرى ، فهما كجنة واحدة - قال وقد غشَّى الطغيان على قلبه : ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبداً ، وما أظن القيامة قائمة ، كما تقول أيها الأخ ، على أنه إن صح ما تزعمه ، ورُددت إلى ربى بالبعث فى الآخرة ، وجدت فيها مآلا خيراً من جنتى هذه ، فما أعطانى الله

ما أعطانى إلا لكرامتى عنده ، ولأنى أستحقه ، فالاستمتاع بالنعيم يلازمنى دنيا وأخرى .

٢ ـ قال له أخوه وهو يحاوبه : أكفرت بالذى خلقك ، وخلق مادتك ومادة قوتك ، ومادة أصلك ، من تراب ، ثم أنشأك من نطفة ، ثم عدلك وكملك ، وسوّاك حتى صرت إنساناً بالغاً مبلغ الرجال ؟ إن من قدر على بدء خلقك من نطفة ، قادر على أن يعيدك حين البعث ، لكن أنا أقول : هو الله وحده ربى ، ولا أشرك بربى أحداً ، فأنت كافر بالله ، لكن أنا مؤمن به ؛ وأصل لكنا : لكن أنا ، حذفت همزة أنا وأدغمت إحدى النونين فى الأخرى .

٣ ـ هلا قلت حين دخول جنتك ، اعترافاً بنعمة الله ، وتحدثا بآلائه عليك : إن ما يشاؤه الله كائن ، فإن شاء أبقى الجنة ، وإن شاء أبادها ، ولا قوة إلا بالله ، فكل ما يتيسر لى من تدبير أمرها ، إنما هو بتدبير الله ومعونته ، إن ترنى أنا فقيراً ، وأقل منك مالا وولداً ، فلعل ربى يعطينى لإيمانى به خيراً من جنتك فى الدنيا أو فى الآخرة ، ويسلبك بكفرك نعمته ، فيرسل على جنتك آفة سماوية تخربها وتبيدها ، وتستأصل نباتها وأشجارها ، فتصبح أرضاً ملساء ، تزل أقدام السائر عليها ، ولا تثبت حين يطؤها ، أو آفة أرضية تُنضب ماءها ، فيصير ماؤها غائراً فى الأرض ، فلن تستطيع له حيلة تدركه بها ، وترده إليها .

٤ ـ وأبيدت جنته ، وأهلكت أمواله ، حسب ما توقعه أخوه المؤمن ، فكان مثلها كمثل الجيش الذى أحاط به العدو من جميع الجهات ، ففتك برجاله فتكاً ذريعاً ، فصار صاحبها يقلب كفيه ظهراً لبطن ، نادماً متحسراً على ما أنفق فيها ، وهى خالية قد سقطت عروشها على الأرض ، وسقطت

الكروم فوقها ، ويقول — وقد تذكر نصائح أخيه ، وعلم أن ما أصابه ناشئ عن كبريائه وإشراكه —: ياليتنى اعترفت بنعم الله علىَّ ، وسمعت نصيحة أخى ، ولم أشرك بربى أحداً.

٥ — ولم يكن له أنصار يقدرون على نصرته، ويدفعون البلاء عن جنته، غير الله ، لأنه القادر وحده على رفع الضر ومنع الشر ، وما كان منتصراً بمن افتخر بهم من الولد والخدم والأعوان .

٦ — فى ذلك المقام ، وتلك الحال التى وقع فيها الانتقام الإلهى ، النصرة لله الحق وحده ، فهو ينصر أولياءه المؤمنين ، ويخذل الكفرة الجاحدين ، وهو خير ثواباً فى الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وخيرٌ عاقبة لمن اتقاه .

(٦)

من الآية ٤٥ إلى الآية ٤٩ من سورة الكهف

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا —١— . الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ، وَخَيْرٌ أَمَلاً —٢— . وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ، وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ، وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا . وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ، لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا —٣— . وَوُضِعَ الْكِتَابُ ، فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ، وَيَقُولُونَ : يَا وَيْلَتَنَا ! مَا لِهٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ؟ ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فاختلط به نبات الأرض	فامتزج النبات بالماء فروِى .
فأصبح هشيماً	فأصبح النبات بعد يبسه مهشّماً مكسراً .
تذروه الرياح	تفرقه الرياح .
زينة الحياة الدنيا	يتزين بهما الإنسان فى دنياه .
والباقيات الصالحات	وأعمال الخير التى تبقى ثمرتها .
خير أملا	خير شىء ينال به الإنسان ما يؤمله .
نسير الجبال	نقلعها من مكانها بالنسف ، فتصير هباء منبثًّا .
وترى الأرض بارزة	وترى الأرض ظاهرة لا يسترها جبل ولا ماء ، ولا شجر ولا نبات .
وحشرناهم	وجمعنا المؤمنين والكافرين .
فلم نغادر منهم أحداً	فلم نترك منهم أحداً إلا جمعناه .
وعُرِضوا على ربك صفًّا	وعرض الناس على ربك مصطفين ، صفًّا بعد صف ، كما يعرض الجند .
جئتمونا كما خلقناكم أول مرة	جئتمونا فرادى حفاة عراة ، كيوم ولدتكم أمهاتكم .
أن لن نجعل لكم موعداً	أن لن نجعل لكم وقتاً للبعث .
ووضع الكتاب	ووضعت صحائف الأعمال فى الأيمان والشمائل .
مشفقين مما فيه	خائفين مما دُوِّن فى كتابهم من السيئات ، لما يترتب عليها من العذاب .

الألفاظ	شرحها
ياويلتنا	ينادون : يا ليتنا نهلك .
أحصاها	عدها وأحاط بها .
حاضراً	مكتوباً فى الصحف .

مجمل المعنى

١ — اذكر يا محمد لهؤلاء الذين يتكبرون عن مخالطة فقراء المسلمين ، ويتقززون منهم ، ويفخرون بأموالهم وأنصارهم ، أن الحياة الدنيا زائلة ، وأنها فى زهرتها وسرعة فنائها تشبه ماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فامتزج كل منهما بالآخر ، فرَوِى النبات ونما ، وبعد أن أخذت الأرض زخرفها وازينت بهذا النبات ، إذا بهذا النبات قد ذوِى بعد نَضرته ، وذبَل بعد بهجته ، حتى صار يابساً مكسراً متفتتاً ، ففرقته الرياح شذَرَ مذَرَ ، وكان الله على كل شىء من الإنشاء والإفناء مقتدراً ، فليس للعبد أن يفتخر بعرَض زائل .

٢ — المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، يتزين بهما الإنسان ويتجمل ، ويقوى ويشتد ساعده ، ففى المال جمال ونفع ، وفى البنين قوة ودفع ، ولكنهما فانيان ، كالهشيم الذى تذروه الرياح ، ولا يبقى للإنسان من الأثر إلا الأعمال الصالحات من قول أو فعل ، فهى التى تبقى أبد الآبدين ، وهى زاد القبر وعُدّة الآخرة ، وهى التى تضمن له حسن الأحدوثة ، وطيّب الذكر ، وهى عند ربك فى الآخرة خير ثواباً ونفعاً ، وأفضل فائدةً

وعائدة ، وخير شيء ينال به الإنسان ما يأمله فى دنياه وأخراه ، أما الفخر بالغنى والحسب والنسب ، فلا يؤبه له .

٣ — ولما بيَّن الله حقارة الدنيا وزخارفها ، وشرف الأعمال الصالحة وبقاء آثارها ، أردف هذا بطرف من أحوال يوم القيامة ، فذكر أن الجبال تنسف ، وتقلع من مكانها ، وتسير فى الجو كالهباء المنبث ، وتمر مر السحاب ، وتنكشف الأرض فلا يسترها جبل ولا ماء ، ولا شجر ولا بناء ، ويجمع الله الخلائق كلهم : المؤمنين منهم والكافرين للحساب ، لا يترك أحداً منهم ، ويعرضون عليه مصطفين ، صفًّا وراء صف ، كما يعرض الجند ، لا يحجب أحد منهم أحداً ، ويقال لهم : لقد جئتمونا فرادى عُراة حفاة ، ليس معكم شيء من المال أو الولد ، أو الأعوان أو الخدم ، ولسنا نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم شركاء لنا ، بل لقد زعمتم فى الدنيا أنكم لن تبعثوا ، وأننا لن نجعل لكم وقتاً ننجز فيه ما وعدنا من البعث ، وهأنتم أولاء قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا .

٤ — وتوضع صحائف الأعمال فى أيديهم ، فالسعيد من توضع صحيفة أعماله فى يمينه ، والشقى من توضع صحيفة أعماله فى شماله ، فيبدو على المجرمين الخوف والرعب ، حين يرون صحائف أعمالهم تنوء بما فيها من كثرة الجرائم والذنوب والآثام ، لتحقق ما يترتب على سيئاتهم من العذاب ، يقولون : الويل لنا ، ليتنا نهلك قبل أن نرى ما أعد لنا من العذاب الأليم ، ثم ينظر كلٌّ إلى كتابه ، ويقول : ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من المعاصى إلا عدها وأحاط بها ؟ ووجدوا كل ما عملوه من خير أو شر مثبتاً مسطوراً ، والله جل شأنه ، وتعالى جده ، لا يظلم أحداً فيكتب عليه ما لم يفعله ، أو يأخذه بجريرة غيره ، أو ينقص طائعاً من ثوابه ، أو يزيد عاصياً فى عقابه .

(٧)

من الآية ٥٠ إلى الآية ٥٣ من سورة الكهف

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ، إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ، فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ! -١- . مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ، وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا -٢- . وَيَوْمَ يَقُولُ : نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا -٣- . وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ففسق عن أمر ربه	فخرج عن طاعة ربه بترك السجود لآدم .
بئس للظالمين بدلا	بئست عبادة الشيطان التى تستبدلونها بعبادة الله .
ما أشهدتهم خلق السموات والأرض	ما أحضرت إبليس وأتباعه ليشهدوا خلق السموات والأرض .
عضداً	أعواناً أتقوى بهم .

الألفاظ	شرحها
نادوا شركائى الذين زعمتم	نادوا آلهتكم الذين زعمتم أنهم شركائى ، وأنهم يشفعون لكم .
وجعلنا بينهم موبقاً	وجعلنا صلة الكفار بالأصنام سبباً فى شقائهم فى الآخرة .
فظنوا أنهم مواقعوها	فأيقنوا أنهم واقعون فيها .
مصرفاً	مكاناً ينصرفون إليه هرباً من النار .

غرور المتكبرين

علاقة هذه الآيات بما قبلها أنه : لما قبح الله أمر المفتخرين المتعجرفين ، الذين لا يريدون أن يجالسوا فقراء المسلمين فى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : كيف نجلس مع هؤلاء ، ونحن أغنياء وهم فقراء ؟ ونحن ذوو أنساب رفيعة ، وهم ذوو أنساب وضيعة ؟ ذكر هنا أن هذا الطلب لا يصدر إلا من المغترين بالدنيا ، وأن هؤلاء الطغاة فى موقفهم الدال على الأنفة والاستكبار ، مثلهم كمثل إبليس الذى أبى أن يسجد لآدم تعالياً وصلَفاً ، وافتخر بأصله ، وادعى أنه أشرف من آدم .

مجمل المعنى

١ – اذكر يا محمد إذ قلنا للملائكة : حيُّوا آدم بالانحناء له تحية تكريم ، ففعلوا ، ما عدا إبليس فإنه لم يسجد أنفة واستكباراً ، لأنه من الجن الذين خلقهم الله من النار ، وقال : أأسجد لمن خلقت من الطين ؟ فخرج عن أمر ربه ، أفتقتدون يا أبناء آدم بإبليس وأتباعه ، وتتخذونهم أولياء

لكم من دونى ، وتستبدلونهم بى ، فتطيعوهم بدل أن تطيعونى ، وهم أعداء لكم منذ خلقنا أباكم آدم ؟ بئست عبادة الشيطان وأتباعه التى آثرتموها بدلا من عبادتى ! وما أسوأ أن تطيعوا إبليس وأتباعه بدل إطاعتى ! والاستفهام هنا للإنكار والتعجب .

٢ - ما أحضرت إبليس وأتباعه ليشهدوا خلق السموات والأرض لأعتضد بهم ، وما شاورتهم فى إيجادهما ، فإنى خلقتهما قبل أن أخلقهم ، ولا أحضرت بعضهم ليشهدوا خلق بعض ، وما استعنت بأحد منهم ، بل خلقتهم كسائر الخلق على ما أردت وحدى ، وما كنت متخذاً إبليس وأعوانه المضلين أعواناً لى فى شأن الخلق والإيجاد ، أو فى أى شىء من شئونى ، حتى يُتَوهم أنهم شركاء لى، فكيف يتخذهم المشركون أولياء لهم من دونى ، ويشركونهم معى فى العبادة ؟ وفى الآية تهكم بالكفار ، وإشعار بسخافة عقولهم .

٣ - ذكرهم أيها الرسول بأحوالهم وأحوال آلهتهم ، توبيخاً لهم ، يوم يقول الله للكافرين : نادوا شركائى من الأصنام الذين زعمتم أنهم لكم شفعاء يوم القيامة ليشفعوا لكم ، ويمنعوكم من عذاب الله ، فينادونهم ليستغيثوا بهم ، فلا يستجيبون لهم، فيكون تواصل الكفار والأصنام فى الدنيا ،سبباً فى شقاء الكفار فى الآخرة ، ويجعل الله بين الكفار وأصنامهم حاجزاً .

٤ - ويرى المجرمون الذين عبدوا الأوثان النار فى الآخرة ، فيوقنون أنهم واقعون فيها ، ولا مهرب لهم منها ، لإحاطتها بهم من كل جانب ، وقد عبر الله بالأفعال الماضية ، للدلالة على تحقق الوقوع .

(٨)

من الآية ٥٤ إلى الآية ٥٩ من سورة الكهف

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ، إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا —٢— . وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا —٣— . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ؟ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى ، فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا —٤— . وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ، لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا —٥— . وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ، وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
صرفنا	كررنا على صور وأساليب مختلفة .
وكان الإنسان أكثر شىء جدلا	وكان جدل الإنسان فى الخصومة أكثر من جدل كل مجادل .
إلا أن تأتيهم سنة الأولين	إلا تكذيبهم إياك فى أن تنزل بهم طريقتُنا فى الكفار الأولين ، وهى عذاب الاستئصال .
أو يأتيهم العذاب قُبُلا	أو يأتيهم العذاب أصنافاً ، وقبُل : جميع قبيل ، وهو النوع .
ليدحضوا به الحق	ليبطلوا بجدالهم الحق .
هزوا	استهزاء وسخرية .
أكِنة	أغطية ، جمع كِنان .
أن يفقهوه	أن يفهموا القرآن .
وفى آذانهم وقراً	وفى آذانهم ثقلا ، كيلا يستمعوه حق استماعه .
بل لهم موعد	بل لهم ميعاد للعذاب ، هو يوم بدر فى الدنيا ، والنار فى الآخرة .
موئلا	منجى وملجأ .
وتلك القرى	وتلك أهل القرى ، كقرى عاد وثمود ومدين وغيرها .

مجمل المعنى

١ — ولقد كررنا العبر ، وأتينا بالأمثال لقريش للعظة ، على صور وأساليب مختلفة ، وكان جدل الإنسان بالباطل فى الخصومة ، أكثر من جدل كل مجادل ؛ نزلت هذه الآية فى أبىّ بن خلف ، وكان جداله فى البعث ، حين أتى رسولَ الله بعظم قد بَلِى ، وقال : أيقدر الله على إعادة هذا ؟ وفتّه بأصابعه .

٢ — وما منع كفار مكة من أن يؤمنوا بالله ، ويتركوا ما هم فيه من الضلال ، لما جاءهم القرآن الهادى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، وأن يستغفروا ربهم عما فرط منهم من أنواع الذنوب ، التى من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل ، وأن يتوبوا مما اقترفوه من المعاصى — ما منعهم من هذا إلا كبرياؤهم وعنادهم ، وتكذيبهم إياك فى حصول سنة من سبقهم من عصاة الأمم الماضية ، بالإبادة والاستئصال ، بقولهم : إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم — أو شكهم فى أن تأتيهم ألوان من العذاب فى الآخرة ، وضروب من التنكيل متواصلة ، يتلو بعضها بعضاً .

٣ — وما نرسل المرسلين إلا مبشرين للمؤمنين بالجنة ، ومنذرين الكافرين النار ، ويجادل الذين كفروا بالباطل ، باقتراح الآيات بعد ظهور الأدلة الواضحة على صحة دعوتك ، كالسؤال عن قصة أصحاب الكهف ، وقولهم : أبعث الله بشراً رسولا ، وقولهم : ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، وغير هذا مما يقولونه ، ليبطلوا بجدالهم الحق الذى جاءت به الرسل ، واتخذوا الآيات التى أيدت الرسل بها استهزاء وسخرية .

٤ - لا أحد أظلم ممن ذُكِّر بآيات القرآن ، وما فيها من المواعظ والعبر ، فأعرض عنها ، وتهاون بها ، ولم يتدبر ما فيها ، ولم يتعظ بها ، وتغافل عما قدمت يداه من الكفر والمعاصى ، وأسرف فى المجادلة بالباطل ، والاستهزاء بما أنذرناه من العذاب الأليم فى الآخرة ، ولم يفكر فى عاقبة أمره ؛ إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الجاحدين المعاندين أغطية حتى لا يفهموا القرآن فهماً نافعاً ، وجعلنا على آذانهم ثقلا ، حتى لا يستمعوه حق استماعه ، فمنعنا الإيمان أن يدخل قلوبهم وآذانهم ، وما دام الأمر كذلك ، فإنك إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً ، «فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » .

٥ - وربك الغفور للذنوب ، ذو الرحمة الواسعة ، لو أراد مؤاخذة كفار قريش المصرّين على الكفر ، المفرطين فى عداوتك ومنابذتك - لو أراد مؤاخذتهم بما فعلوا ، لعجّل لهم العذاب ، ولكنه يمهلهم ، فإن لعذابهم موعداً هو يوم بدر فى الدنيا ، ويوم القيامة فى الآخرة ، لن يجدوا من دونه ملجأ أو منجى .

٦ - وتلك أهل القرى كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ، أهلكناهم لما ظلموا وكفروا ، وكذبوا رسلهم ، وارتكبوا المعاصى ، كما فعل معك كفار قريش ، وجعلنا لوقت هلاك هؤلاء الأقوام أجلا معلوماً ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فليعتبر كفار قريش بهم ، ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم ؛ وتلك اسم إشارة ، يجوز الإشارة به إلى جماعة العقلاء ، كما فى قوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » .

(٩)

من الآية ٦٠ إلى الآية ٦٤ من سورة الكهف

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ، أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا . فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا –١– . فَلَمَّا جَاوَزَا ، قَالَ لِفَتَاهُ : آتِنَا غَدَاءَنَا ، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هٰذَا نَصَبًا . قَالَ : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ، وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا –٢– . قَالَ : ذٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا –٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لفتاه	هو يوشع بن نون ، كان يتبع موسى ويخدمه ، ويأخذ عنه العلم .
لا أبرح	لا أزال أسير .
مجمع البحرين	ملتقى البحر الميت بنهر الأردن .
أو أمضى حقباً	أو أسير فى طريقى دهراً طويلا ، حتى أبلغ مكانه مهما بعد .

الألفاظ	شرحها
مجمع بينهما	مجمع ما بين البحرين عند صخرة هناك .
نسيا حوتهما	نسى موسى ويوشع أمر الحوت .
فاتخذ سبيله فى البحر سرباً	فاتخذ الحوت طريقه إلى البحر مسلكاً ، ينفذ منه إليه .
فلما جاوزا	فلما جاوزا المكان الذى تسرب فيه الحوت إلى البحر .
آتنا غداءنا	آتنا طعامنا ، والغداء : ما يؤكل أول النهار .
نصباً	تعباً ومشقة .
أرأيت	أعلمت ما دهانى ؟ .
إذ أوينا إلى الصخرة	إذ لجأنا إلى الصخرة عند مجمع البحرين للاستراحة .
وما أنسانيه إلا الشيطان	ما أنسانى أن أذكر لك أمر الحوت إلا الشيطان .
عجباً	طريقاً يستحق العجب .
ذلك ما كنا نبغ	أمر الحوت ، وتسربه إلى البحر هو ما كنا نبتغيه .
فارتدا على آثارهما قصصا	فرجعا فى الطريق الذى جاءا منه ، يتبعان آثار سيرهما .

قصة موسى والخَضِر

(١)

روى أن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل ، فلما انتهى من خطبته ، قال له رجل منهم : هل تعلم أحداً أعلم منك ، قال : لا ، فأوحى الله إليه : أن لى عبداً بمجمع

البحرين على الساحل ، عند صخرة هناك ، هو أعلم منك ، قال موسى : يا رب ، فكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مِكْتل — وهو زنبيل يعمل من خوص ، يحمل فيه التمر والعنب — فحيثما فقدت الحوت فهو هناك ، فأخذ موسى حوتاً فى مكتل ، وقال لفتاه يوشع بن نون : إذا فقدت الحوت فأخبرنى ، ثم انطلق ، وانطلق معه فتاه ، حتى وصلا إلى الصخرة ، وغشّاهما النعاس فناما ، ومسّ الحوتَ بعض الماء ، فاضطرب فى المكتل فخرج منه ، فاتخذ سبيله إلى البحر متسرباً ، ورآه يوشع وهو بين النوم واليقظة ، فلما استيقظ موسى ويوشع ، نسى موسى أن يسأل يوشع عن أمر الحوت ، ويتعرف حاله ، ونسى يوشع أن يخبره بما حدث ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان صباحُ الغد ، وكان قد أجهدهما السير ، قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا الأخير تعباً لم نعهده من قبل ، ذلك أن موسى لم يجد من التعب مثل ما لاقاه منذ جاوز الصخرة ، ولما همّ يوشع أن يعد طعام الصباح ، تذكر تسرب الحوت إلى البحر ، فقال لموسى : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانى ذكره إلا الشيطان ، وقد اتخذ سبيله فى البحر بحالة تدعو إلى العجب ، فقال موسى : إن تسرب الحوت إلى البحر ، هو ما كنا نبتغيه وننشده ، فهيّا بنا نعود إلى حيث تسرب الحوت ، فرجعا يقصان آثارهما ، حتى انتهيا إلى الصخرة .

مجمل المعنى

١ — اذكر يا محمد يوم قال موسى بن عمران لفتاه يوشع بن نون ، الذى كان يقوم على خدمته ، ويأخذ العلم منه ، سأستمر على السير حتى أبلغ مجمع البحرين ، الذى وعدنا الله بلقاء رجل عالم صالح فيه على الساحل ،

عند صخرة هناك ، أو أسير فى طريقى دهراً طويلا ، حتى أبلغ مكانه مهما بلغ منى الجهد ، ولعل المراد من البحرين : البحر الميت ونهر الأُردنّ ، على ما حققه بعض الثقات ، والنهر يسمى بحراً ، قال تعالى : « وهو الذى مرج البحرين : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج » ، أما أن يكون البحران : بحر الروم : (البحر الأبيض المتوسط) ، وبحر فارس : (خليج فارس) ، فبعيد ، وإن ذكرهما كل المفسرين ، لأنهما لا يلتقيان ؛ فلما بلغا مجمع ما بين البحرين ، دبت الحياة فى الحوت ، فاتخذ سبيله إلى البحر متسرباً ، ونسى موسى أن يسأل عنه ، ونسى يوشع أن يخبره بما حدث .

٢ — فلما جاوزا ذلك المكان ، وقضيا بقية يومهما وليلتهما فى السفر ، طلب موسى إلى يوشع أن يأتى لهما بغدائهما — وهو طعام الصباح — وقال له : لقد لقينا من سفرنا هذا الأخير جهداً وتعباً ، منذ جاوزنا الصخرة ، لم نلقهما من قبل ، فتذكر يوشع الحوت ، وقال له معتذراً : أرأيت ما دهانى ؟ فإنى حين لجأنا إلى الصخرة ، واسترحنا عندها ، نسيت الحوت ، وما أنسانى أن أذكره إلا الشيطان ، فاتخذ سبيله إلى البحر فى حالة تدعو إلى العجب ، وكانت هذه الحالة العجيبة تستدعى ألا أنسى ، لكن الشيطان بوسوسته أنسانى ؛ واستعمال أرأيت هنا جاء على حسب المتعارف بين الناس ، فإنه إذا حدث لأحدهم أمر عجيب قال لصاحبه : أرأيت ما حدث لى ؟ وهو يعلم أن صاحبه لم ير ما حدث .

٣ — فقال له موسى : إن فقد الحوت هو ما كنا نبتغيه وننشده ، لأنه أمارة على الفوز بما نطلبه ، فرجعا فى الطريق التى جاءا منها ، يتبعان آثارهما ، لئلا يخطئا طريقهما ، حتى أتيا الصخرة .

(١٠)

من الآية ٦٥ إلى الآية ٧٨ من سورة الكهف

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ، آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا . قَالَ لَهُ مُوسَى : هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ؟ -١- . قَالَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ؟ قَالَ : سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا . قَالَ : فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا -٢- . فَانْطَلَقَا ، حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ، قَالَ : أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . -٣- قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟ قَالَ : لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ، وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا -٤- . فَانْطَلَقَا ، حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ، قَالَ : أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا . قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟ قَالَ : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا -٥- . فَانْطَلَقَا ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ،

قَالَ : لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ : هٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
عبداً من عبادنا	هو الخضِرُ عليه السلام .
آتيناه رحمة من عندنا	آتيناه النبوة .
وعلمناه من لدنّا علماً	وعلمناه علماً مختصا بنا ، وهو بعض علم الغيب .
رُشداً	صواباً وعلماً يوفقاني إلى الخير .
خُبراً	معرفة .
حتى أحدث لك منه ذكراً	حتى أذكر لك تعليله .
خرقها	أحدث فى السفينة خرقاً .
شيئاً إمراً	شيئاً عظيماً منكراً .
ولا ترهقنى من أمرى عسراً	ولا تكلفنى من أمرى مشقة فى صحبتى إياك .
غلاماً	صبيا لم يصل إلى حد البلوغ .
زكية	طاهرة لم تبلغ حد التكليف ، ولم ترتكب ذنباً .
بغير نفس	لم تقتل نفساً تستحق من أجل قتلها القصاص .
شيئاً نكراً	شيئاً منكراً .
قد بلغت من لدنى عذراً	قد وجدت عذراً لك من جهتى فى مفارقتك إياى .
أهل قرية	لعلها أنطاكية .
استطعما أهلها	طلباً من أهل القرية طعاماً ضيافة .

الألفاظ	شرحها
يريد أن ينقضّ	يوشك أن يسقط .
لو شئت لاتخذت عليه أجراً	لو شئت لأخذت على إقامة الجدار أجراً نشترى به طعاماً .
هذا فراق بينى وبينك	هذا وقت فراقنا ، فلا تصاحبنى .
بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً	بتعليل ما لم تستطع الصبر عليه .

بقية قصة موسى والخَضِر

(٢)

١ — عاد موسى ويوشع إلى الصخرة بعد سفر شاق ، فإذا رجل مُسجًّى بثوبه ، علم أنه الخضر ، فسلم عليه موسى ، فقال له الخضر : وهل فى أرضك من سلام ؟ ومن أنت ؟ قال : أنا موسى ، فقال له الخضر : موسى بنى إسرائيل ، قال : نعم ، ومن أنبأك هذا ؟ قال : نبأنى من دلَّك علىّ ، فقال له موسى : إن ربى أرسلنى إليك ، لتفيض علىّ من بحار علمك ما أسترشد به فى حياتى ، وسأتبعك وأنفذ أمرك ، فقال له الخضر : إنك لن تستطيع معى صبراً ، لأنك سترى أموراً ظاهرها عجيب ، ولكن لها ما يبررها ، فلا تعترض إذا صدر منى ما خرج عما ألفت ، فقال موسى : ستجدنى إن شاء الله صابراً ، ولا أعصى لك أمراً ، فقال له الخضر : لا تبتدرنى بسؤال عن أمر آتيه ، حتى أبين لك ما يبرره .

٢ — سارا على الساحل ، فمرت بهما سفينة ، فسألا مَن فيها أن يحملوهما . فحملوهما من غير أجر ، لأنهم وجدوا على وجهيهما سمات التقوى والصلاح ، فعمد الخضر إلى لوح خشب من ألواح السفينة ، فخلعه بقدوم وجده ، فهال موسى ما رأى ، وقال للخضر : قوم حملونا بغير أجر ، وأحسنوا إلينا ، فنعمد إلى سفينتهم فنخرقها ، لنغرق من فيها ؟ لقد أتيت أمراً منكراً ، فذكّره الخضر بما تعهد به ، فاعتذر موسى بنسيانه ، ووعد أن يكون عند شرطه ، ثم خرجا من السفينة .

٣ — فبينما هما يسيران على الساحل ، مرّا بقرية ، فأبصر الخضر غلاماً يلعب مع أترابه من الصبيان ، فانتحى بالغلام ناحية ، وضرب رأسه بحجر حتى قتله ، ففزع موسى فزعاً شديداً ، واستنكر ما فعله الخضر بالغلام ، وقال له : كيف تفتك بنفس بريئة لم تأت ما تستحق من أجله القتل ؟ فعاد الخضر إلى تذكيره بتعهده ، قائلا له : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ؟ فقال له موسى : إن سألتك عن شىء بعد هذه المرة فلا تصاحبنى ، قد بلغتَ منى غاية العذر فى مفارقتك إياى .

٤ — فسارا حتى أتيا أهل قرية اشتهر أهلها بالبخل ، وكان الجوع قد استبد بهما ، فطلبا من أهل القرية طعاماً فرفضوا ، وطلبا أن يضيّفوهما فأبوا ، وقبل أن يغادرا القرية رأى الخضر جداراً مائلا يوشك أن يسقط فأقامه ، فقال له موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا ، كيف تصنع معهم هذا الصنيع ؟ لو شئت لاتخذت على عملك هذا أجراً ينفعنا فى شراء ما نحتاج إليه من طعام ، قال الخضر : وقد أيقن أن موسى لا يستطيع الصبر معه على ما يراه : الآن لا بد أن نفترق ، وسأنبئك بسرِّ ما لم تستطع الصبر عليه ، وسيذكر الخضر سبب ما فعله فى أول الجزء السادس عشر .

مجمل المعنى

١ — فوجد موسى ويوشع عبداً من عبادنا ، هو الخضر عليه السلام ، آتيناه النبوة ، وعلمناه علماً مما يختص بنا ، ولا يُعْرَف إلا بتوفيقنا ، وهو علم الغيوب ، وأسرار العلوم الخفية ، فقال له موسى فى حسن أدب ولطف خطاب ، وجمٍّ تواضع : هل أتبعك على أن تعلمنى شيئاً مما علمكه الله ، أسترشد به فى حياتى ؟ ومع أن موسى صاحب شريعة ، فإنه لم يأنف أن يتعلم من غيره ، وقد راعى فى طلبه غاية التواضع والأدب ، فاستجهل نفسه ، وسأل الخضر أن يرشده ، ويتفضل عليه ببعض ما أنعم الله به عليه .

٢ — فقال له الخضر : إنك لن تستطيع الصبر معى على ما تراه ، وربما لا تستسيغ السكوت عليه ، وكيف تصبر وأنت نبىّ على أمور ظواهرها تدعو إلى الاستنكار ، وبواطنها لم تحط بها معرفتك ؟ فقال له موسى : ستجدنى إن شاء الله صابراً ، ولا أنكر عليك شيئاً ، ولا أعصى لك أمراً تأمرنى به ، فقال له الخضر : فإن اتبعتنى فلا تفاتحنى بالسؤال عن أمر أنكرته ، ولم تعلم وجه صوابه ، حتى أبيّنه لك ، وأذكر لك سببه .

٣ — فانطلقا على الساحل — ولم ينضم إليهما يوشع — حتى إذا ركبا فى السفينة التى مرت بهما — وكانت سفينة حديثة الصنع ، ولم يأخذ أهلها منهما أجراً — أخذ الخضر قدوماً فى غفلة من راكبيها ، وانتزع لوحاً منها ، فلم يستطع موسى صبراً ، وقال للخضر : أخرقت السفينة لتغرق أهلها ؟ لقد أتيت أمراً عظيماً منكراً ، ألا تعلم أن خرقها يؤدى إلى دخول الماء فيها ، ويفضى إلى غرق راكبيها ؟

فهرس الجزء الخامس عشر لتفسير القرآن